

قصة الحضارة

ول وايريل ديورانت

عصر لويس الرابع عشر

تاريخ الحضارة الأوروبية
في عصر

بسكال وموليير وكروموك وملاتن
وبطرس الأكبر ونيوتن وسبينوزا

١٦٤٨ - ١٧١٥

مراجعة
عائِب أدھم

ترجمة
محمد علي أبودرة



تونس

الجزء الثاني من المجلد الثامن

٣٢



بيروت

فهرس

الفصل السابع

كرومول ١٦٤٩ - ١٦٦٠

- ١ - الثورة الإشتراكية .
- ٢ - ثورة أيرلندة .
- ٣ - ثورة اسكتلندة .
- ٤ - أوليفر هاكمًا مطلقًا .
- ٥ - ذروة البيوريتانية .
- ٦ - الكوميكرز .
- ٧ - الموت والضرائب .
- ٨ - طريق المودة : ١٦٥٨ - ١٦٦٠ .
- ٩ - ويعود الملك ١٦٦٠ .

الفصل الثامن ملتون ١٦٠٨ - ١٦٧٤

- ١ - جون بنيان ١٦٢٨ - ١٦٨٨ .
- ٢ - الشاعر الغاب ١٦٠٨ - ١٦٤٠ .
- ٣ - المصلح ١٦٤٠ - ١٦٤٢ .
- ٤ - زواج وطلاق ١٦٤٣ - ١٦٤٨ .
- ٥ - حرية الصحافة ١٦٤٣ - ١٦٤٩ .
- ٦ - سكرتير اللغة اللاتينية ١٦٤٩ - ١٦٥٩ .
- ٧ - الشاعر المجوز ١٦٦٠ - ١٦٦٧ .
- ٨ - السنوات الأخيرة ١٦٦٧ - ١٦٧٤ .

الفصل التاسع عودة للملكيه ١٦٦٠ - ١٦٨٥

- ١ - الملك السعيد .

(ب)

- ١١٢ ٢ — مرجل الدين .
١٢٣ ٣ — الإقتصاد الإنجليزى ١٦٦٠ - ١٧٠٢
١٣٣ ٤ — الفن والموسيقى ١٦٦٠ - ١٧٠٢ .
١٤٢ ٥ — الأخلاق .
١٥٠ ٦ — العادات .
١٥٦ ٧ — الدين والسياسة .
١٦١ ٨ — المؤامرة البابوية .
١٦٨ ٩ — خاتمة الملهاة .

الفصل العاشر

الثورة الجليلة ١٦٨٥ - ١٧١٤

- ١٧٥ ١ — الملك الكاثوليكي ١٦٨٥ - ١٦٨٨ .
١٨٦ ٢ — الاطاحه بالعرش ولللك فى للهد .
١٩٣ ٣ — إنجلترا تحت حكم وليم الثالث ١٦٧٩ - ١٧٠٢ .
٢٠٣ ٤ — إنجلترا فى عهد الملكة آن - ١٧٠٢ - ١٧١٤ .

الفصل الحادى عشر

من دريدن إلى سويقت ١٦٦٠ - ١٧١٤ !

- ٢١٢ ١ — صحافه حرة .
٢١٥ ٢ — المسرحيه فى فترة عودة الملكيه .
٢٢٩ ٣ — جون دريدن - ١٦٣١ - ١٧٠٠
٢٣٩ ٤ — فى ثبت واحد .
٢٤٤ ٥ — إيفلين وبييز .
٢٥٠ ٦ — دانيال ديفو ١٦٥٩ - ١٧٣١
٢٥٥ ٧ — ستيل وأديسون .
٢٦٨ ٨ — جونatan سويقت .

الكتاب الثاني

انجلترا

١٦٤٩ — ١٧١٤

الفصل السابع

كرومول

١٦٤٩ — ١٦٦٠

١ — الثورة الاشتراكية

بعد أن أطاح البيوريتانيون (المتطهرون) برأس الملك شارل الأول ، في ٣٠ يناير ١٦٤٩ ، واجهوا مشاكل إقامة حكومة جديدة وإستعادة أمن الناس على حياتهم وممتلكاتهم ، في إنجلترا التي أشاعت فيها الفوضى والاضطرابات الحرب الأهلية التي دامت سبع سنين . ونادى « البرلمان المبتور » Rump. p — وهم الأعضاء الستة والخمسون النشطون الذين بقوا من البرلمان الطويل بعد « حركة تطهير برايد » (١٦٤٨) — بأن لمجلس العموم السيادة والمقام الأول ، وأن فيه الكفاية ، وألغى مجلس اللوردات (٦ فبراير ١٦٤٩) ، كما ألغى الملكية ، وعين بمثابة جهاز تنفيذ له « مجلسا للدولة » يتألف من ثلاثة لواءات وثلاثة نبلاء وثلاثة قضاة وثلاثين من أعضاء مجلس العموم ، كلهم مستقلون — أى بيوريتانيون جمهوريون . وفي ١٩ مايو أقيم مجلس العموم ، بصفة رسمية ، الجمهورية الإنجليزية : « ولسوف يتولى الحكم في إنجلترا منذ الآن ، بوصفها جمهورية أو دولة حرة ، السلطة العليا للأمة ، وهم ممثلو الشعب في البرلمان ، ومن يعينونهم إلى جانبهم من وزراء ، غير الشعب »^(١) . ولم تكن الجمهورية ديموقراطية . لقد طالب البرلمان بإقامة أساس ديموقراطى ، ولكن طرد الأعضاء للملكيين أثناء الحرب ، والشيخيين (البرسبترىان) في حركة التطهير ، كان كما قال كرومول ، « قد شئت البرلمان وغرله واختله إلى مجرد حفنة من الرجال »^(٢) .

إن للملاك وحدهم هم الذين كانوا ينتخبون البرلمان في الأصل ، أما الآن فإن مقاطعات برمتها باتت وليس لها ممثلون في «البرلمان للبنتور» ، ولم تستند سلطة هذا البرلمان للبنتور إلى الشعب بل إلى الجيش . فإن الجيش وحده هو الذي استطاع أن يحميه من الثوار للساكنين في إنجلترا ، والثوار الكاثوليك في إيرلندة ، والثوار للشيخين في اسكتلندة ، والثوار للمتطرفين في الجيش نفسه .

ولمواجهة نفقات الحكومة ومتأخرات رواتب الجند اشتط هذا البرلمان في فرض الضرائب قدر ما فعل للملك الراحل . واقتراح مصادرة أملاك كل من حل السلاح دفاعا عن شارل ، ولكنه في معظم الحالات أرتضى تسوية الأمر بحل وسط ، هو تقاضى غرامة تعادل جزءا يتراوح بين العشر والنصف من القيمة الأساسية للضيعة . من أجل هذا عهد كثير من صغار النبلاء الذين طأوا الفقر والعوز في إنجلترا إلى الهجرة إلى أمريكا حيث كونوا أسرأت أرسقراطية ، مثل آل : وشنجطن ، وآل راندولف ، وآل ماديسون وآل لي^(١) . وأعدم بعض زعماء للسكنين ، وأودع بعضهم السجن . ومع ذلك بقيت حركة للسكنين تقض مضاجع الحكومة ، لأن روح التعاطف مع الملكية سيطرت على الشعب ، فإن إعدام الملك حوله من جانب ضرائب إلى شهيد . وبعد عشرة أيام من موت شارل ظهر كتاب عنوانه « صورة ملكية » لمؤلفه القسيس للشيخى جون جودن ، ولكنه يوهم بأنه أفسكار ومشاعر شارل كما دونها هو بيده قبل موته بزمن وجيز . وربما صيغ بعض هذا الكتاب من مذكرات تركها الملك^(٢) . ومهما يكن من أمره ، فإن الصورة التي عرضها الكتاب هي صورة حاكم طيب القلب كان في واقع الأمر يدافع عن إنجلترا ضد طغيان أقلية حاكمة (أوليجاركية) غليظة القلب

(*) جددت الحرب الأهلية الأمريكية الحرب الأهلية الإنجليزية حيث سرسنت أبناء الارستقراطيين الانجليز في الجنوب على أبناء البيوريتانيين الانجليز في الشمال .

لا ترحم . وطبع الكتاب ستا وثلاثين مرة وترجم إلى خمس لغات في سنة واحدة ، ولم تغلج الضجة التي أثارها كتاب ملتون «تخطيم الضور للمقدسة» (١٦٤٩) في محو أثر كتاب جون جودن هذا ، وأسهم الكتاب في إثارة الرأي العام ضد الحكومة الجديدة . وشجع وكلاء الملاكين الذين شرموا لغورهم في كل مقاطعة في إنجلترا يهيجون الشعور العام لاطاعة أمرة ستيوارت . وقابل مجلس الدولة هذه الحركة ببث العيون والأرصاء على أوسع نطاق ، والاسراع في القبض على الزعماء الذين يحتمل أنهم كانوا يقومون بتنظيم ثورة .

وفي الناحية الأخرى كانت هناك أقلية من الأهالي وقسم كبير من الجيش ، يطالبون بديموقراطية شاملة بشكل ما في السكاه من معنى . كما طاطب بعضهم بديموقراطية اشتراكية . وأمطرت السماء نشرات متطرفة . وأصدر الكولويل جون للبيرن وحده مائة منها . ولم يكن ملتون في تلك الحقبة شاعراً بل مؤلف نشرات وكتيبات . وهاجم للبيرن كرومول على أنه طاغية مرتد مناقق . وشكا أحد الكتاب من « أنك قلما تحدثت إلى كرومول في أي موضوع إلا وضع يده على صدره ورفع عينيه وقال اللهم فاشهد . أنه سوف يبكي ويعمرخ ويبدى الندم ، حتى وهو يسدد إليك ضربة تصيب منك مقتلاً (٤) » . وفي إحدى النشرات تساءل كاتب آخر : « كان يحكمنا من قبل لللك والوردات والنواب ، أما الآن فيتولى الحكم فينا قائد الجيش والمحكمة العسكرية والنواب ، فقل لنا بربك ، ما هو الفرق ؟ » (٥) وأحست الحكومة الجديدة بأنها مضطرة إلى تشديد الرقابة على الصحف والناشر . وفي أبريل ١٦٤٩ قبض على للبيرن وثلاثة آخرين لاصدارهم نشرتين تصفان إنجلترا وهي « مكبله في أغلال جديدة » . وهاج الجيش مطالباً بالافراج عنهم . وتوعد نساؤهم كرومول بالويل والثبور إذا مس للمعتقلون بأذى . وأرسل للبيرن من سجنه إلى طابع نشراته ، متحدياً ، إياها بالخيانة العظمى « موجهاً ضد كرومول وأبرتون » . وفي أكتوبر قدم الكتاب الأربعة إلى المحكمة في قضية أثارت اهتمام الرأي

العام وشدت الآلاف من الناس إلى المحكمة . وتحدى للبيرن القضية ، وطالب بمرض القضية على هيئة المخلفين . فلما صدر الحكم ببراءة الكتاب الأربعة جميعهم انطلقت من الجمع الحاشد صيحة مدوية جماعية ، يعتقد أنه لم يسمع مثلها قط في دار البلدية ، استمرت نحو نصف ساعة بلا انقطاع ، حتى علا الشحوب وجوه القضاة من شدة الفزع (٦) وظل للبيرن لمدة طامين بطل الجيش . ونفى في ١٦٥٢ ثم عاد في ١٦٥٣ فقبض عليه ثانية ، ثم برىء (أغسطس ١٦٥٣) ، ولكنه ظل مع ذلك سجيناً . وفي ١٦٥٥ أفرج عنه وقضى نحبه ١٦٥٧ ، وهو في الثالثة والأربعين من العمر .

وذهب بعض « أنصار المساواة » (حزب نشأ في البرلمان الطويل ١٦٤٧ يدعو إلى إزالة الفوارق بين الناس) إلى أبعد مما ذهب إليه للبيرن والديمقراطية ، فدعوا إلى توزيع السلع توزيعاً أقرب إلى المساواة . أنهم تساءلوا : لم يكون هناك أغنياء وفقراء ؟ لماذا يتضور بعض الناس جوعاً على حين يحتكر الأغنياء الأرض ؟ . وفي أبريل ١٦٤٩ ظهر « نبي » يدعى وليم إفرارد Everard ، وقاد أربعة من الرجال إلى تل سان جورج في سرى . ووضعوا أيديهم على بعض الأرض غير المشغولة ، وفلجوها ، ونثروا فيها البذور ، ودعوا الناس إليها . فانضم إليهم ثلاثون آخرون من جماعة « الحفارين » (وهو اسم أطلق عليهم) . وأنهم ساء كما جاء في تقرير إلى مجلس الدولة ، ليهددون الجيران بأنهم سيجعلون الجماعة كلها على القدوم وشيكاً إلى التلال للعمل فيها (٧) . « ولما سبق إفرارد للشغل أمام تقيب الجيش سيرتوماس هيرفاكس ، أوضح له أن أتباعه قد اعتزموا احترام الأملاك الخاصة ، « وأنهم لن يقربوا إلا الأراضي العامة غير المفلوحة ليعملوا فيها حتى تؤتي ثمارها ، « وأنهم يأملون » في أن يحين لجأة الوقت الذي يأتي فيه كل الناس طائعين غتارين وينزلون من أراضيهم وضياعهم ويدعون الجماعة الأخيار هذه (٨) » . فما كان من هيرفاكس إلا أن أخلى سبيل الرجال على أنهم أفراد متمسبون لا يخشى منهم أي أذى . وتابع أحدهم — وهو

جيرارد ونستالي - الحركة ببيان أصدره في ٢٦ أبريل ١٩٤٩ ، تحت عنوان « لواء نصير المساواة الصادق يتقدم إلى الامام » : « في البدء جعل العقل (الخالق العظيم) الأرض ملكا عاما مشتركا للحيوان والإنسان » ، ولكن الإنسان فيما بعد سميت بصيرته فأصبح عبدا أكثر خضوعا لبني جنسه من خضوع حيوانات الحقل لشخصه هو ، وجرى التصرف في الأرض بالبيع والشراء ، وأحاطها الحكام بالحواجز والأسياج ، وبقيت في حوزة فئة قليلة من الناس . وكل ملاك الأرض لصوص ولن تنقطع الجريمة والسكرامية والبطش ما لم تسترد الملكية العامة المشتركة^(٩) . وفي « قانون الحرية » (١٦٥٢) توسل ونستالي إلى الجمهورية أن تقيم مجتمعا لا يوجد فيه بيع ولا شراء ، ولا محامون ، ولا أغنياء ولا فقراء ، يجبر فيه الجميع على العمل حتى سن الأربعين ، وبعد ذلك يعفون من السكدح . ويباح حق الانتخاب لكل البالغين من الذكور ، ويسكون الزواج لإجراء مدنيا ، والطلاق حرا مباحا^(١٠) . وتحلى « الحفارون » عن مشروعهم ، ولكن دعاتهم نفذت إلى عقول الفقراء الإنجليز ، وربما عبرت القنال إلى فرنسا ، وعبرت المحيط إلى أمريكا .

أن كرومول نفسه ، وهو من مسلاك الأرض ، وهو الشديد الخبرة بطبيعة الإنسان ، لم يثق في هذه المثل العليا في الملكية العامة ، بل لم يثق حتى في حق الاقتراع للبالغين . وفي فترة القوضى التي لامعدي فيها ، عقب قلب أبة حكومة ، تدعو الحاجة إلى شيء من سلطة مركزة في بعض الأيدي ، وقد تمثلت في كرومول ، وأن كثير ممن أوغر صدورهم منه اعدام الملك ، رحبوا لبعض الوقت بدكتاتورية بدت البديل الوحيد للإحلال الاقتصادي والسياسي بل أن الجيش نفسه ، حين ترامت إليه أنباء الثورة المضادة التي تدبر في أيرلنده واسكتلنده ، غمره الفرح إذ أيقن أن يد كرومول الحديدية على أتم استعداد لقيادته ضد العصاة والثوار الذين

لم يسموا وراء « يوتويا » أو دنيا مثالية ديمقراطية ، بل وراء عودة ملكية تثار وتنتقم .

٢ — ثورة أيرلنده

في أيرلنده وحدرد الفعل ضد الثورة الكبرى ، بشكل عابر ، بين البروتستانت في اقليم (The Pale) في شرق أيرلنده — حول دبلن والسكاثوليك فيه وفيما وراءه . فقد حدث حتى قبل اعدام شارل الأول ، أن وقع أرل أورموند جيمس بتلر ، بوصفه نائب الحاكم في أيرلنده ، مع اتحاد السكاثوليك في كلكني Kilkenny (١٧ يناير ١٦٤٩) وافقوا بمقتضاها ، وفي مقابل الحرية الدينية وبرلمان أيرلندي مستقل ، على تزويده بخمسة عشر ألفا من المشاة وخمسمائة من الجياد . وبعث أورموند برسالة إلى أمير ويلز ، الذي اعترف أورموند لفوره بأنه شارل الثاني ، بدعوه فيها للقدوم إلى أيرلنده ليقود جيشا مشتركا من البروتستانت والسكاثوليك . وآنر شارل الذهاب إلى اسكتلنده ، ولكن كرومول اعتزم أن يواجه تهديدات أيرلنده أولا .

وحين حط كرومول رحاله في أيرلنده في أغسطس ، كانت القوات للموالية لجمهورية قد هزمت بالفعل أورموند في راثمينز ، وتراجع هو مع ما تبقى من قواته (٢٣٠٠ جندي) إلى مدينة دروجيدا المحصنة ، الواقعة على نهر بوين . فحاصرها كرومول بعشرة آلاف جندي وافتتحها واستولى عليها عنوة (١٠ سبتمبر ١٦٤٩) وأمر بقتل من من بقى حاميتها على قيد الحياة (١١) . ولم يفلت من المذبحة بعض المدينين ، وقتل كل قسيس في المدينة (١٢) ، حتى بلغ عدد ضحايا المذبحة المنتصرة نحو ٢٣٠٠ . واشترك كرومول في شرف النصر مع الله : « أرجو أن تنسب انقهلوب الطاهرة هذا المجد إلى الله الذي يرجع إليه الفضل في هذه الرحمة حقاً » (١٣) « وتغنى »

أن تساعد هذه المحنة كثيرا على حقن الدماء بفضل كرم الله (١٤) .
وإننا لنشاركه رجاءه المخلص في أن تضع مثل هذه الضربة الواحدة من
الإرهاب حدا لثورة ، وتنقذ حياة الكثيرين من الجانبين .

ولكن الحرب استمرت ثلاثة أعوام آخر ، فإن كرومول تقدم من
دروجيدا لحصار وكسفورد ، واستولى عليها ، واتى ١٥٠٠ من المدافعين
عنها ومن سكانها مصرعهم . وقال كرومول « أن الله ، بنىء من عناية
إلهية غير متوقعة ، في عدله القويم ، قد أنزل بهم حكما مادلا حيث
كفروا بدمائهم عن أعمال القسوة الوحشية التي اقترفوها ضد حياة الكثيرين
من البروتستانت المساكين (١٥) » . ولكن سياسة المذابح أخفقت فإن
مدينتي دنكانون ووترفورد تحدا حصار كرومول . واستسلمت كلكني
لجبرد أنها تلقت شروطا كانت مرفوضة في أى مكان آخر ، وتم الاستيلاء
على كلونمل ولكن بعد فقد ألنى رجل . وما أن ترمى إلى كرومول بأ
وصول شار الثانى إلى اسكتلنده حتى ترك مواصلة الحرب في ايرلنده لعهده
هنرى أيرتون ، وأبحر هو إلى انجلترا (٢٤ مايو ١٦٥٠) .

وكان أيرتون قائدا قديرا ، ولكنه مات بالطاعون في ٢٦ نوفمبر ١٦٥١ .
وبذت سياسة المذابح ، وصدر العفو عن اللثوار ، وبمقتضى معاهدة
كلكني (١٢ مايو ١٦٥٢) استسلموا جميعا تقريبا ، شريطة السماح لهم
بالمجرة دون طائق . وفي ١٢ أغسطس صدر « قانون التسوية في أيرلنده » ،
الذى ينص على مصادرة كل ممتلكات الأيرلنديين أو بعضها - أيا كان
مذهبهم - ممن يعجزون عن اثبات أنهم كانوا موالين للجمهورية ، وبهذه
الطريقة انتقلت ملكية نحو مليونين وخمسمائة ألف فدان (أيسكر) من
أراضى ايرلنده إلى جنود أو مدنيين إنجليز أو أيرلنديين كانوا يناصرون
كرومول في ايرلنده . وبهذا انتقل ثلثا أرض ايرلنده إلى أيدي
الإنجليز (١٦) . وانضمت مقاطعات كلدار ودبلن وكارلو وكلو وكسفورد

لثفـكل « Pale » أو إقليما إنجليزيا جديداً في أيرلنده ، وبذلك محاولات لإقصاء كل ملاك الأرض الأيرلنديين أياً كانوا ، ثم المواطنين الأيرلنديين عن هذه المقاطعات . وجردت آلاف الأسرات الأيرلندية من أملاكها ، وأعطوا مهلة نهايتها أول مارس ١٦٥٥ ليجدوا لأنفسهم وطناً آخر . وشحن المئات منهم على ظهور السفن إلى بربادوس ، (جزر الهند الغربية) أو أما كن أخرى بتهمة التشرد .

وقدر سير وليم ريتي أنه من بين سكان أيرلنده البالغ عددهم ١٠٠٠٠٠ ١٦٦٤ كان قد هلك حتى ١٦٥٢ نحو ٦١٦٠٠٠ بسبب الحرب أو للوت جوعاً أو الطاعون ، وقال أحد الضباط الانجليز : في بعض المقاطعات « قد يسير للمرء عشرين أو ثلاثين ميلاً دون أن يجد مخلوقاً على قيد الحياة ، إنساناً أو حيواناً أو طائراً » وقال آخر : « إن الشمس لم تشرق قط على أمة أشد تعاسة من هذه (١٧) » . وحرّم المذهب الكاثوليكي بحكم القانون وصدرت الأوامر إلى رجال الدين الكاثوليك بمغادرة أيرلنده في بحر عشرين يوماً ، وكان الموت عقوبة من يخفى أياً منهم ، وفرضت عقوبات صارمة على التخلف عن حضور الطقوس البروتستانتية يوم الأحد . ومنح القضاة والحكام سلطة جمع أطفال الكاثوليك وإرسالهم إلى انجلترا لتلقى أصول المذهب البروتستانتى (١٨) . إن كل الوحشية التي لقيها البروتستانت على يد الكاثوليك في فرنسا بين ١٦٨٠ — ١٨٩٠ ، صيها البروتستانت على رؤوس الكاثوليك في أيرلنده بين ١٦٥٠ — ١٦٦٠ . وأصبحت الكاثوليكية جزءاً لا يتجزأ من الروح الوطنية الإيرلندية ، لأن الكنيسة والشعب قذف بهما في بحران من المعاناة والشقاء . وحلقت هذه السنين المريعة بذات كرات أيرلنده وكأنها تراث من البغضاء لا يفنى .

٣ — ثورة اسكتلندة

صدم الاسكتلنديون باعدام شارل الأول الذى كانوا هم أنفسهم قد أسلموه إلى البرلمان الانجليزى ، وعاد إلى ذاكرتهم فجأة أن والده كان اسكتلنديا . ورأوا فى «تطهير برايد» الذى أخرج المشيخيين (البرسبتريناز : كنيسة بروتستانية يدير شئونها شيوخ منتخبون يتمتعون جميعاً بمنزلة متساوية) من البرلمان الطويل ، نقضا « للعصبة المقدسة واليثاق المقدس » الذى أقسم فيه ذلك البرلمان يمين الإخلاص لاسكتلندة وللذهب المشيخى ، وأوجسوا خيفة من أن يحاول البيوريتانيون المنتصرون فرض مذهبهم البروتستانتى على اسكتلندة كما فرضوه على إنجلترا . وفى ٥ فبراير ١٦٤٩ ، أى بعد مضى أقل من أسبوع على أعدام شارل الأول ، نادى البرلمان الاسكتلندى (مجلس الطبقات) بأبنة شارل الثانى ، الذى كان آنذاك فى الأراضى الوطيفة ، ليكون الملك الشرعى على بريطانيا العظمى وفرنسا وأيرلندة .

وقبل أن يجهز الاسكتلنديون لشارل الثانى الدخول إلى اسكتلندة طلبوا إليه أن يوقع لليثاق الوطنى وعهد العصبة المقدسة واليثاق للقدس ، ويقسم يمين الحفاظ على المذهب المشيخى أو إقامته فى كل أرجاء ملكه وفى بيته . على أن شارل الذى كان يدين بالفعل بمزيج من الكاثوليكية والتشكك ، لم يكن يروقه مذهب المشيخية ، فى الوقت الذى كان يتوق فيه أيما توق إلى العرش ، فوقع على كره منه ، كل هذه المطالب فى « بريددا » فى أول مايو ١٦٥٠ . وقاد مونتروز ، أنبل الاسكتلنديين فى ذاك العصر — قوة صغيرة من جزر أوركنى إلى اسكتلندة ، أملا فى أن يجمع لشارل جيشا مستقلا عن الميثاقين المشيخيين ، ولكنه هزم وأسر وأعدم شنقا (١١ مايو ١٦٥٠) . وفى ٢٣ يونيه حط شارل رحاله فى اسكتلندة ، وهو يتلهف على أن يكون على رأس جيش يفزوه به الجمهورية البيوريتانية التى أطاحت برأس

أييه . وقبل أن يهب الاسكتلنديون لنجدته ، استحثوه على إصدار بيان يرغب فيه « أن يركع في ذلة وخشوع أمام الله تكفيرا عن معارضة أييه لمصيبة المقدسة والميثاق للقدس ، ومن أجل خطيئة أمه بسبب عقيدتها الوثنية (أى اعتناقها الكلدانية) » (١٩١) . « ولتكفير عن خطيئات شارل الأول والثاني فرض رجال الكنيسة الاسكتلندية على الجيش والشعب صوما جادا رهيبا ، وأكادوا للجيش أنه لن يقهر ، (٢٠) لأن الملك الشاب قد أَرْضَى السماء . وتحت إلحاح القساوسة طهر الجيش من الضباط الذين وضعوا ولائهم للملك فوق ولائهم للميثاق والكنيسة الاسكتلندية ، وبهذه الطريقة طرد ثمانون من أقدر القواد .

واقترح كرومول على البرلمان الانجليزى غزو اسكتلنده في الحال ، ودون إنتظار هجوم من جانبها . واعتزل فيرفا كس آنذاك القيادة العليا لجيوش الجمهورية . وكان قدر فض الاشتراك في محاكمة شارل الأول ، وعين كرومول خلفا له ، فنظم قواته بعزمته وعجلته للمهودتين ، وعبر إلى اسكتلنده (٢٢ يولييه ١٦٥٠) ، على رأس ١٦ ألف رجل . وفي ٣ أغسطس أرسل إلى لجنة الجمعية العامة للكنيسة الاسكتلندية رسالة زاخرة بالشجاعة والثبات والقدرة على الاحتمال : « هل كل ما تقولون يلتئم إلثاما لاشبهة فيه مع كلمة الله ؟ أتوسل إليكم ، بحق أحشاء المسيح ، أن تفكروا في أمكم قدتكومبون مخطئين (٢١) » . وفي دنبار (٣ سبتمبر) أوقع بالجيوش الاسكتلندية الرئيسية هزيمة منكرة وأسر عشرة آلاف رجل ، وسرطان ما استولى على أدنبره وليث . وانهارت مكانة الوعاظ الاسكتلنديين ، وتبدد وجههم بأنهم مسمومون من الخطأ . واستدعى الضباط المطرودون على عجل ، وتوج شارل الثاني رسميا في « سكون Scone » . أما كرومول فقد إلتابه المرض في أدنبره ، وتوقف القتال بضعة شهور .

ثم تقدم الجيش الاسكتلندى بعد إعادته تنظيمه ، وعلى رأسه شارل ،

إلى انجلترا ، أملا في أن ينضم إلى لواء الشرعية والحق ، كل الملكيين
والمشيخيين المخلصين . فتمتعهم كرومول ، حيث كان يحشد أثناء مروره
بالمدين الإنجليزية كل قوات الطوارئ ، والمواطنين الصالحين للجندية ،
وفي ووتر ، في ٣ سبتمبر ١٦٥١ ، دارت رحى المعركة التي أبقت على
الجمهورية ، وحكت على شارل بأن يلوذ بالمنفى مرة أخرى . وفيها ، بفضل
الاستراتيجية الفائقة والبسالة ، استطاعت قوات كرومول الأقل عددا ، أن
تهزم ثلاثين ألفا من الاسكتلنديين . وكان شارل شجاعا ولكنه لم يكن
قائدا . أنه بذل أقصى الجهد في أن يستحث ويلم شعث جنوده الذين اختل
نظامهم ، ولكن يبدو أنهم ذعروا وارتعدوا فزعاً من ميمة كرومول محاربا
لم يخسر قط معركة ، فألقى كثير منهم السلاح ولاذ بالفرار . وتوسل شارل
إلى ضباطه أن يطلقوا عليه الرصاص فأبوا . واقتاده نفر من أشد أتباعه
اخلاصا إلى مكان آمن مؤقت في مقر أحد الملكيين . وهناك تمجرد من شعر
رأسه إلى حد كبير ، وغير لون يديه ووجهه واستبدل بملابسه ثياب أحد
العمال ، وبدأ مسيرة طويلة ، على ظهر جواد ، وعلى قدميه ، متسللا من نجبا
إلى نجبا . ينام تحت سطوح المنازل أو في الحظائر والغابات . ونام مرة في
أحدى أشجار « رويال أوك » في بوسكوبل ، على حين كان جنود الجمهورية
يفتشون عنه تحتها . وكثيرا ما عرفه الناس ، ولكنهم لم يغدروا به أو
يكشفوا أمره . وبعد أربعين يوما من الفرار ، وجد هو ومرافقوه ،
في هورهام في سسكس ، قاربا ارتضى رباه ، غاطرا بحياته ، أن ينقلهم إلى
فرنسا (١٥ أكتوبر) .

وعهد كرومول إلى القائد جورج مونك بالضرب على أيدي الثوار
الاسكتلنديين بصفة نهائية ، وتم هذا في فبراير ١٦٥٢ . وأخضعت
الاسكتلنده لانجلترا ، وحل برلمانها المستقل ، ولكن أجيز لها إرسال
ثلاثين نائبا عنها إلى برلمان لندن . وعوقبت الكنيسة الاسكتلندية بحظر

انعقاد جمعياتها العامة ، و اقرار التسامح الدينى مع كل الشيع البروتستانتية المسلمة . ومن الناحية الاقتصادية أفادت اسكتلنده من الحرية الجديدة في الإتجار مع انجلترا . أما من الناحية السياحية فقد ظلت ترقب حودة أسيرة ستيوارت وتدعو الله أن يحقق هذا الرجاء .

٤ — أوليفر حاكماً مطلقاً

ماد كرومول إلى انجلترا منتصراً انتصاراً يسكله التواضع . وإذ رأى الجموع التي احتشدت لتشهد مقدمه ، فقد جال بخاطره أن جمهوراً أكبر من هذا كان يمكن أن يحتشد ليشهد مصرعه على جبل المشنقة (٢٢) . ومنحه البرلمان المبتور راتباً سنوياً قدره أربعة آلاف جنيه ، وخصص له قصرأ كان يوماً ملكياً في هامبتون كورت . واعتقد البرلمان أنه سيقنع بالبقاء في منصب القيادة العامة . كما اقترح اجراء انتخابات جديدة ، لزيادة عدد أعضائه إلى ٤٠٠ ، على أن يحتفظ الأعضاء الحاليون بمقاعدهم دون الدخول في الانتخابات الجديدة ، وكان عليهم أن يحددوا شروط حق الانتخاب . وصحة الأصوات . وحجى للبرلمان نفسه ضد حملات النقد بالحد من حرية الصحافة والخطابة بشكل صارم : « لن يسمح باسم حرية الخطابة أو حرية الوعظ ، بأى شيء يعكس صفو الحكومة أو يسئ إلى كرامتها (٢٣) » . وحرّم رجال الكنيسة الأنجليكانية الرسمية من أرزاقهم وحكم بمصادرة ثائى ممتلكات من يعتنقون المذهب الكاثوليكي ، بصفة غرامة . وقدمت الجوائز لمن يقبضون على القساوسة الكاثوليك (٢٤) .

أن كرومول ، على الرغم من بطئه في اتخاذ قرار ، كان خازماً متأهباً لسرعة التصرف إذا اعتزم أمراً . وقد احتمل في صبر نافذ المناقشات التي أفستت السياسة في البرلمان وعوقت الإدارة . أنه اتفق مع شارل الأول على أن تكون السلطة التنفيذية متميزة ومستقلة عن السلطة التشريعية .

ثم بدأ يتساءل : ألم يكن خيرا وبركة أن يكون كرومول ملكا . ولمح بهذه الفكرة (ديسمبر ١٦٥٢) إلى صديقه هوايتلوك الذى فقد صداقته بإعراضه عليها (٢٥) . وفى صبيحة يوم ٢٠ أبريل ١٦٥٣ ، عندما علم أن البرلمان المبتور كان على وشك أن ينصب نفسه سيدا غير منتخب على البرلمان الجديد ، جمع حفنة من الجنود اتخذوا مواقعهم على باب مجلس العموم ، ودخل هو إليه ، وإلى جانبه اللواء توماس هاريسون ، وأصغى لبعض الوقت إلى المناقشة فى صمت رهيب . وعندما بدأ أخذ الأصوات على موضوع البحث ، نهض كرومول ، وتحدث أول الأمر فى اعتدال ، ومالبت حتى تحدث فى عنف ، فنعى على البرلمان المبتور أن يكون أوليغاركية (أقلية حاكمة) تخلد نفسها بنفسها ، لاتصلح لحكم إنجلترا . ثم صاح : « أيها السكارى » متجها إلى عضو بعينه ، ثم صرخ فى عضو آخر « أيها الداعر الفاجر » « أنتم لستم برلمانا . أقول إنكم لستم برلمانا . ولسوف أضع حدا لاجتماعاتكم » . ثم التفت إلى هاريسون وأمره : « استدع الجنود ، استدعهم إلى هنا » . ودخل الجنود إلى القاعة . وأسرهم كرومول باخلائها ، وغادرها الأعضاء محتجين قائلين :

« ليس هذا من الأمانة فى شئ » . ووضعت الأقفال على القاعة الخالية ، وفى اليوم التالى وجد معلقا عليها لافتة « بيت للإيجار » غير مؤثت الآن (٢٦) . ثم ذهب كرومول بصحبة اثنين من القواد إلى حيث يجتمع مجلس الدولة ، وقال لأعضائه « إذا كنتم تجتمعون الآن بصفتكم الشخصية فلا بأس ، ولا يزعجنكم أحد — أما إذا كنتم تجتمعون كمجلس للدولة ، فلا مكان لـكم هنا ... وأرجو أن تعلموا أن البرلمان قد حل (٢٧) » . وهكذا كانت كانت النهاية المخزية للمزرية للبرلمان الطويل الذى كان قد اجتمع فى وستمنستر بكامل هيئته أو بشكله المبتور ، منذ ١٦٤٠ ، والذى كان قد حول دستور إنجلترا وحكومتها . ولم يعد هناك الآن دستور ، بل جيش وملك غير ذى لقب أو ملك غير متوج .

وكان الشعب بصفة عامة فرحا بالتخلص من برلمان كان قد جر إنجلترا إلى حافة الهاوية . وعلى حد قول كرومول ، لم يكن هناك « مجرد نباح كلب ، ولا تذمر ظاهر لحله (٢٨) » . وتقبل البيوريتانيون الغيورون المتحمسون حل البرلمان على أنه إفساح الطريق « للملكية الخامسة » أى مجيئ المسيح المنتظر وحكمه وتشجع المسكيون وتهامسوا بأن كرومول سوف يستدعى الآن شارل الثانى ، ويقنع هو بدوقية أو بمنصب نائب الملك فى أيرلنده . ولكن أوليفر لم يكن بالرجل الذى يرتضى أن يكون رهن مشيئته رجل آخر . فأصدر توجيهاته إلى معاونيه العسكريين أن يختاروا - بصفة أساسية من الجامع البيوريتانية فى إنجلترا - ١٤٠ رجلا ، من بينهم خمسة من اسكتلنده وستة من أيرلنده ، ليجتمعوا على هيئة « برلمان معين » . ولما إنعقد هذا البرلمان فى هويتبول فى ٤ يولييه ١٦٥٣ أعترف كرومول بأن الجيش هو الذى إختارهم ، ولكنه رحب بهم باعتبار أنهم يبدؤون فترة يحكم فيها القديسون حكما صحيحا تحت رياسة يسوع المسيح (٢٩) ، وإقتراح أن يخولهم السلطة العليا ، ويكل إليهم مهمة وضع دستور جديد - وظل هذا البرلمان طيلة خمسة أشهر يبذل أقصى الجهد فى إنجاز هذه المهمة ، ولكنه ضل الطريق فى متاهات المناقشة ، الطويلة . وإنشق الأعضاء على أنفسهم ، يأسا وعجزا ، فى موضوعات الدين والتسامح الدينى . وأطلق ظرفاء لندن عليه اسم « برلمان باريبون » ، نسبة إلى أحد أعضائه Barebone ، وهو أحد القديسين فى « الملكية الخامسة » سائلة الذكر .

وضاق الجيش ذرعا بهؤلاء الأعضاء ، كما ضاق من قبل ذرعا بمن طردهم فى أبريل . وعرض الضباط - وهم يمثلون دور أنطونيوس - على كرومول أن ينصب نفسه ملكا ، وتردد قيصر وإعترض فى رفق ، ولكن ثمانية من أعضاء البرلمان ، بإجماع محدد من الجيش ، أعلنوا إلى كرومول فى ١٢ ديسمبر أن الجمعية الجديدة لم تصل إلى اتفاق ، وأنها تقترح على حلها . وعرضت « وثيقة حكومية » أعدها زعماء الجيش ، على كرومول أن يكون « حامي

جمهورية إنجلترا واسكتلندة وإيرلندة ، وأن ينتخب برلمان جديد على أساس نصاب من الثروة يخول حق الاقتراع ، مع استبعاد الملاكين والسكانوليك ، وأن تكون السلطة التنفيذية في يد مجلس من ثمانية من المدنيين وسبعة من ضباط الجيش ، يختارون مدى الحياة ، على أن يعمل هذا المجلس بمثابة هيئة استشارية « لحامي حامي الجمهورية » وللبرلمان ، كليهما . ووافق كرومول ووقع هذه الوثيقة ، وهي « أول وآخر دستور إنجليزي مسطور (٣٠) » ، وفي ١٦ ديسمبر ١٦٥٣ أقسم اليمين بوصفه « حامي الحامي » . وبذلك انتهت الجمهورية ، وبدأت الحماية - اسمان لأوليفر كرومول .

هل كان كرومول طاغية مستبداً؟ من الواضح أنه استساغ السيطرة والسلطان . ولكن تلك نزعة عامة ، وهي أمر طبيعي إلى أبعد حد في الموهبة الواعية . لقد فكر من قبل في تنصيب نفسه ملكاً ، وتأسيس أسرة ملكية جديدة (٣١) . ويبدو أنه كان مخلصاً حين عرض أن ينزل عن سلطته « للبرلمان المعين » . ولكن عجز هذا البرلمان أقنعه بأن سلطته التنفيذية هو نفسه هي آنذاك البديل الوحيد عن القوضى فإذا تخلى هو ، فقد كان يبدو أنه ليس ثمة رجل آخر يحظى بتأييد كاف للحفاظ على النظام . واستنكر المتطرفون في الجيش هذه « الحماية » باعتبارها مجرد « ملكية أخرى » . واتهموا كرومول بأنه « وغد منافق كذاب » و« وتوعده » بمصير أسوأ من المصير الذي لقيه الطاغية السابق (٣٢) . وأرسل كرومول بعض هؤلاء المتمردين إلى السجن « برج لندن » ومن بينهم اللواء هاريسون الذي تولى قيادة الجنود عند طرد أعضاء البرلمان المبتور . أن خوف كرومول على سلامته هو نفسه أدى به شيئاً فشيئاً إلى اللزيد من الاستبداد ، لأنه أدرك أن نصف الأمة كان يمكن أن يهمل لقتله . إنه أحس ، مثل سائر الحكام ، بالحاجة إلى احاطة نفسه بمظاهر الفخامة والوقار التي تثير الرهبة في النفوس ، فانتقل إلى قصر هويتول (١٦٥٤) وأعاد تأثيثه بأفخر

الرياش ، واتخذ لشخصه كل الجلال وكل العظمة الملكية (٣٢) . ولكن مما لا ريب فيه أن كثيرا من هذه المظاهر كان لابد أن يخلق انطبعا قويا في نفس السمراء ، ويشير الفزع في نفوس الأهل .

وفيما يتعلق بحياة كرومول الخاصة ، فإنه كان رجلا غير ميال إلى المظاهر والأبهة ، يعيش عيشة طابعا البساطة والإخلاص مع أمه وزوجته وأولاده . وأحبته أمه حبا مزموجا بالخوف عليه ، ترتد فرقا على حياته لكل طلاقة نسمعا ، وعند وفاتها في الثالثة والتسعين (١٦٥٤) قالت : « ولدى العزيز إنى أترك قلبى معلقا » . أنه هو نفسه ، فى أواسط الخمسينات من عمره ، كان يدب إليه الهرم بسرعة ، أن ما واجهه من أزمة تلو أزمة كان يهد من أعصابه التى قيل أنها حديدية . أن حملات إيرلنده واسكتلنده زادت الحمى على داء النقرس ، ولم يمر عليه يوم دون نصب أو قلق ورسم له المصور لى فى ١٦٥٠ لوحة مشهورة . وأن كل انسان ليعرف تحذير كرومول للمصور حيث قال له : « مستر لى ، بودى أن تستغل كل ما أوتيت من مهارة فى رسم صورة حقيقية مثل شخصى تماما ، ولا تملقنى على الإطلاق ، بل يجب أن تبرز هذه الخشونة والبثور والتواءات وكل شئ ، وإلا ، فلن أنتدك فلسا واحدا (٣٥) » . وقبض لى أجره ، ورسم « حامى الحمى » فى صورة مصقولة إلى حد بعيد ، ومع ذلك أبرز الوجه الصارم القوى ، والإرادة الحديدية كما أبرز روحا عصبية متوترة إلى حد الإنفجار .

ووجه النقد إلى كرومول من أجل البساطة السكتية فى لباسه العاذى - سترة وبذلة بسيطتان سوداوان - ، ولكنه كان فى المناسبات الرسمية يرتدى سترة موشاة بالذهب . أنه بين الناس كان يحتفظ بوقار لا أثر فيه لتكلف أو التظاهر ، ولكن فى حياته الخاصة كان ينصرف إلى ألوان الاسلية والهداية والمزاح ، بل إلى مزحات محلية وهزل ماجن طارىء (٣٦) .

وأحب الموسيقى وعزف على الأرغن عزفا جيدا (٢٧). وواضح أنه كان ، حسب ما يبديه ، مخلصا في ورعه وتقواه (٢٨) ، ولكنه كثيرا ما استخدم اسم الله (لا عبثا) لتدعيم أهدافه ، إلى حد أنهم معه الكثيرون بالنفاق . ويحتمل أنه كان ثمة بعض الرياء في تقواه العلنية ، وقليل منه في تقواه الخاصة ، مما شهد به كل من عرفوه . وكانت رسائله وخطبه نصف مواعظ ، ولا نزاع في أنه اعتبر ، بكل طيب خاطر أن الله هو ساعده الأيمن . . ولم تكن أخلاقياته الخاصة تشوبها شائبة ، على حين أن أخلاقياته العامة لم تكن تفضل أخلاقيات الحكام الآخرين ، فاستخدم الخداع أو القوة حينما رآهما ضروريين لأهدافه الكبرى . أن أحدا لم يوفق بعد بين المسيحية والحكم .

أن كرومول من الناحية الفنية ، لم يكن حاكما مطلقا . فإنه تنفيذاً لوثيقة الحكومة ، التي أسلفنا ذكرها شكل « مجلس الدولة » وانتخب برلمانا . وعلى الرغم من كل مساعي حامى الحمى والجيش لضمان عودة النواب الذين تميزوا بالكياسة ولين العريكة ، ضم مجلس العموم الذى اجتمع في ٣ سبتمبر ١٦٥٤ بعض الجمهوريين المزعجين ، بل كذلك بعض الملكيين . وثار النزاع حول من يسيطر على الجيش : حامى الحمى أو البرلمان . وإقترح البرلمان إنقاص عدد الجنود وأعطيتهم ، فتمردوا وحرضوا كرومول على حله (٢٢ يناير ١٦٥٥) . والواقع أن حكومة إنجلترا أصبحت دكتاتورية عسكرية منذ ظهر برايد البرلمان في ١٦٤٨ .

وسيق كرومول آنذاك إلى الحكم طبقا للأحكام العرفية وحدها دون سواها ، وفي صيف ١٦٥٥ قسم إنجلترا إلى خمسة أقسام عسكرية . ووضع على رأس كل منها هيئة من الجند يرأسها ضابط برتبة لواء وللواء نفقات هذه التجهيزات فرض ضريبة قدرها ١٠٪ على ضياع الملكيين . واحتج الناس ، وانتشر النقد والتمرد ، وصممت أصوات تمادى بعودة شارل الثانى . وأجاب كرومول على هذا كله بتشديد الرقابة والتوسع في أعمال التجسس

والإعتقالات التعسفية وإجراءات قاعة النجم التي أغفلت المحلفين وقانونية الإعتقال . وكان « سيرهارى فين Vanoo » من الثوريين السابقين الذين اقتيدوا إلى السجن . إن الثورات تأكل آباءها .

ولما كان كرومول في حاجة إلى مزيد من المال أكثر مما استطاع تحصيله عن طريق ما فرض من ضرائب أخرى مباشرة ، فإنه دعا برلمانا آخر . ولما التأم عقده في ١٧ سبتمبر ١٦٥٦ ، وضع مجلس الدولة على باب مجلس العموم بعضا من ضباط الجيش ، ومنع دخول ١٠٣ من الأعضاء الذين إنتخبوا إختخابا صحيحا ، ولكن يشته في أن لهم ميولا جمهورية أو ملكية أو مشيخية أو كاثوليكية . فقدم الأعضاء المبعدون احتجاجا استنكروا فيه إبعادهم بأنه انتهاك صارخ لإرادة ناخبهم التي عدروا عنها ، ودمغوا بأشد التفات « تصرف الطاغية وإستخدامه اسم الله والدين والصوم والصلوات العكسية ليستر قتام الحقيقة الواقعة ومرارتها (١٠) » . ومن بين الأعضاء البالغ عددهم ٣٥٢ الذين إجتازوا تمحيص المجلس ودقته كان هناك ١٧٥ عضوا من رجال الجيش أو من المعينين أو من أقرباء كرومول . وفي ٣١ مارس ١٦٥٧ قدم البرلمان المختزل المنتوص الخاضع المذعن إلى « حامى الحمى » توسلا ونصيحة بتواضعين « يطلب إليه فيها أن يتخذ لنفسه لقب « ملك » . ولكنه كان يشمر رائحة المعارضة من جانب الجيش لهذا العمل ، فأبى . ولكن ثمة حل وسط أعطاه الحق في تعيين خلفه « حامى الحمى » . وفي يناير ١٦٥٨ وافق على إعادة الأعضاء المبعدين إلى مقاعدهم في مجلس العموم . وفي نفس الوقت اختار تسعة من النبلاء و٦١ من العامة ليشكلوا المجلس الثانى (مجلس اللوردات) . ورفض كثير من ضباط الجيش تأييد هذه الحركة . وعندما عقدوا إتفاقا مع الجمهوريين في مجلس العموم لالحد من سلطات المجلس الثانى ، غضب كرومول غضبا شديدا وأفتحم قصر وستمنستر وطرد البرلمان (في فبراير ١٦٥٧) . وأبذاك من الوجهة القانونية ، ومن حيث الأمر الواقع ، انتهت الجمهورية الأنجليزية وأعيدت الملكية . وكان التاريخ

بهذا قد ضرب مثلاً جديداً للتعاقب التهكمى الساخر الذى ذكره أفلاطون ، وهو تعاقب الملكية ، فالارستقراطية ، فالديموقراطية ، فالدكتاتورية ، فالملكية (٤١) .

٥ — ذروة البيوريتانية

لقد إنطوى إنتصار البيوريتانية على ثورة دينية . وتحطمت الكنيسة الإنجليزية فى ١٦٤٣ بالغاء الحكومة الأسقفية فى الكنيسة ، وصادر مذهب البروتستانتيّة المشيخية (البرسبترىان) حيث كان يحكم مجامع الكنيسة قساوسة يوجههم مجلس (سنودس) فى كل قسم ، وتخضع مجالس السنودس هذه للجمعية العمومية — نقول أن مذهب الكنيسة المشيخية هذا جعل المذهب الرسمى للدولة فى ١٦٤٦ ، ولكن سيطرة مذهب المشيخية انتهت بعد طامين اثنين ، حين طهر « برايد » البرلمان من أتباع هذا المذهب . وبدأ لبعض الوقت أن الديانة يجدر تركها حرة طليقة من أية رقابة أو إعانة مالية من جانب الدولة . ولكن كرومول (الذى حدث أنه اتفق فى كل شئ تقريباً مع الملك الذى كان قد أودى بحياته) آمن بأن كنيسة معانة من قبل الدولة أمر لاغنى عنه من أجل التربية والتعليم والأخلاق . وفى ١٦٥٤ شكل « لجنة من الفاحصين » لتختبر صلاحية رجال الدين للتعيين فى رتب كنيسية والحصول على روائف . ولم يكن أهلاً لذلك سوى المستقلين (البيوريتانيين) وأنصار التعميد والبرسبترىانز . وأجيز لكل أبرشية أن تختار بين التنظيم المشيخى أو نظام الكنيسة المستقلة — وفيه يحكم كل مجمع نفسه . وإختار البيوريتانيون نظام الكنيسة المستقلة . أما التنظيم المشيخى الذى ساد فى اسكتلندة ، فقد اقتصر فى إنجلترا إلى حد بعيد ، على لندن ولنكشير . أما رجال الدين الأنجليكانيون . الذين بلغوا يوماً حداً كبيراً من القوة ، فقد حرموا من روائعهم ، وباتوا يخدمون أتباعهم أى يقومون لهم بالمراسم فى أماكن خفية ، مثل الكهنة الكاثوليك . وفى ١٦٥٧ أعتقل جون أفلين بسبب

حضوره الصلوات الأنجليكانية (٤٢) . وكانت الكاثوليكية لاتزال خروجاً على القانون . وأعدم قسيسان شنقا (١٦٥٠ — ١٦٥٤) بتهمة « تضليل الشعب » ، وفي ١٦٥٧ أصدر برلمان البيوريتانيين ، بموافقة كرومول ، قانوناً يقضى بمصادرة ثلثي ممتلكات أى فرد جاوز السادسة عشرة ، لم يتنصل من الكاثوليكية ويبرأ منها (٤٣) . وفي ١٦٥٠ كانت العقيدة الدينية قد أصبحت أساساً لوضع اجتماعى طبقى : فكان الفقراء يتحيزون للمذاهب المعارضة — أنصار العماد ، الكويكرز ، أصحاب فكرة الملكية الخامسة ، وغيرها ، أو الكاثوليك . أما الطبقات الوسطى فكانت البيوريتانية غالبية فيها . على حين أن الأرستقراطية ومعظم ذوى الحسب والنسب (ملاك الأرض الذين لا ألقاب لهم) كانوا يشايعون الكنيسة الأنجليكانية التى لم تعد الدولة تعترف بها .

وإنعكس التعصب الدينى رأساً على عقب ، أكثر مما تنافس أو خفت حدته . ذلك أنه بدلا من اضطهاد الأنجليكانيين للكاثوليك المنشقين والبيوريتانيين الذين اتهموا بـ « مسيحتهم من قبل طلبا للتساعح » ، باتوا الآن يضطهدون الكاثوليك والمنشقين والأنجليكانيين . وحرموا استعمال « كتاب الصلوات العامة » ولو سرا فى المنازل . وقصر برلمان البيوريتانيين التساعح على أولئك البريطانيين الذين ارتضوا التثليث والإصلاح الدينى والكتاب المقدس باعتباره كلمة الله ، كما ارتضوا نبذ الأساقفة . أما أتباع سوسينوس أو التوحيديون فلم يشملهم التساعح بناء على ذلك . وفرضت عقوبات صارمة على أى تقديوجه إلى العقيدة أو الطقوس الكلفنية (٤٤) . وكان كرومول أكثر تسامحا من برلماناته ، فتماضى عن بعض الصلوات الأنجليكانية ، ورخص لجماعة صغيرة من اليهود بالإقامة فى لندن ، بل وبناء معبد لهم ، واتهمه إثنان من الوعاظ من أنصار عدم تجديد العماد بأنه « وحش سقر الرؤيا » (الذى الكذاب) ، ولكنه احتمل هجومهم مبررا (٤٥) .

واستخدم نفوذه في وقف اضطهاد الهيجونوت في فرنسا وأتباع والدوني بيد موت . ولكنه عندما طالبه مازاران ، في مقابل ذلك ، بمزيد في التسامح مع الكاثوليك في إنجلترا ، تذرع بمعجزة عن الحسد من حماسة البيوريتانيين (٤٦) .

ومن الجائز القول بأن الدين لعب دورا هاما وتغلغل في الحياة اليومية عند اليهود وحدهم ، كما فعل عند البيوريتانيين . والحق أن البيوريتانية اتفقت مع اليهود في كل شيء تقريبا ، فيما عدا ألوهية المسيح . وشجعت معرفة القراءة والكتابة حتى يقبل الجميع على قراءة الكتاب للقدس . وكان ثمة ولع شديد بالتوراة (العهد القديم) لأنه يقدم نموذجا لمجتمع تسيطر عليه الديانة . وكان الشغل الشاغل في الحياة هو الخلاص من نار جهنم . والشیطان موجود حتماً وفي كل مكان . وبمنعمة الله وحدها يمكن لفئة قليلة مختارة أن تفوز بالخلاص وتضمن كلام البيوريتانيين وأقوالهم عبارات من الكتاب للقدس ومجازاته . وأشرق في عقولهم التفكير في الله وفي المسيح أو تجلياتهما لهم ، وملأتهم خشية ورهبة ولكن لم يفكروا قط في السيدة مريم . واتسم ملابسه بالبساطة والسكابة ، وخلت من أية زينة أو زخرف ، كما اتسم كلامهم بالوقار والزانة مع البطء . وكان منتظر منهم أن ينأوا بأنفسهم عن اللهو والدفن والذلة الحسية . وكانت للسارح قد أغلقت في ١٦٤٢ بسبب الحرب ، فخلت مغلقة حتى ١٦٥٦ بسبب شجب البيوريتانز واستنكارهم لها . وحرر سباق الخيل ومصارعة الديكية ومباريات المصارعة ، ومطاردة الدبة أو الذيران ، إلى حد أن الضابط (الكولونيل) البيوريتاني نبوسن قتل كل الدبة في لندن ليتأكد أنها لن تطارد بعد الآن (٤٧) . واقتلعت كل أعمدة مايو (كانت تزدان بالأشربة والهور وتقام في أول مايو) . وكان الجمال شبهة ، واحترموا النساء بوصفهن زوجات مخلصات وأمهات صالحات ، وفياعدا ذلك لم يتمتعن بحسن السمعة لدى البيوريتانيين لأنهن مصدر غواية وإغراء ، وأنهن سبب طرد الإنسان من الجنة . ونفروا من الموسيقى ، ما عدا في التراتيل الدينية .

وقضوا على الفن في الكنائس ولم يسمحوا باخراج جديد منه ، اللهم إلا بعض اللوحات الممتازة من عمل صمويل كوبر ، وبيتر لى ، وكان هولنديا .

وربما كانت محاولة البيوريتانز تقنين الأخلاق أجل عمل منذ شريعة موسى . واعترفوا بصلاحيية الزواج المدني ، وأبيع الطلاق ، لكن الزنى كان جريمه عقوبتها الإعدام . على أنه بعد تنفيذ حكم الإعدام مرتين عقابا على هذه الجريمة ، لم يكن المهلفون يحكمون بالإدانة . وكانت عقوبة الأيمان تتدرج وفقا لتسلم الإجتماعى ، فكان اليمين يكلف الدوق ضعف ما يكلف البارون ، وثلاثة أمثال ما يكلف المالك الذى لا يحمل لقباً ، وعشرة أمثال ما يدفع الرجل العادى ، بصفة غرامة ، ودفع رجل واحد الغرامة لأنه قال : « الله شهيد على (٤٨) » . وكان الأربعاء يوم صوم إجبارى عن اللحم حتى ولو وقع فيه عيد الميلاد المجيد . وكان من حق الجنود إقتحام البيوت لقتل كند من صوم الأهالى . ولم يكن مسموحا بفتح الحوانيت يوم الأحد ، كذلك كانت الألعاب والرياضة والأعمال الدنيوية محظورة فيه . ولم يسمح فيه بأية رحلة أو سفر يمكن إجتنابه ، كما كان محظورا « التسكع أو المشى الداس بلا هدف (٤٩) » . وعلى الرغم من عودة الملكية وما صحبها من انتكاس فى الأخلاق ، ظل يوم الأحد قاسيا متزمنا حتى أيامنا هذه .

أن كثيرا من هذه المحرمات القانونية أو الإجتماعية أثبت أنه أفسى مما تحتمل طبيعته البشرية . وقيل أن نسبة كبيرة من السكان لجأت إلى النفاق ، فسكابوا يفترون الآثام كما هى العادة ، ويحرون وراء المال والنساء والسلطة ، ولسكن دائما تعروهم السكابة ويخرجون أصواتا من أنوفهم وتنساب من أنفواهم العبارات الدينية . ومع ذلك يبدو أن عددا كبيرا من البيوريتانيين التزموا بأجملهم فى إخلاص وشجاعة . ولسوف نرى ألقين من الوعاظ البيوريتانيين بعد عودة الملكية يؤثرون العوز والفاقة على التخلي على مبادئهم . إن نظام البيوريتانية ضيق العقل ولكنه قوى الإرادة .

والخلق . أنه ساعد الإنجليز على حكم أنفسهم . وإذا كان الفزع من نار جهنم والطقوس البيوريتانية قد أشاعت في البيت الكاثوليكية والظلمة ، فإن حياة الأسرة عند عامة الناس قد أسبغ عليها نظام ونقاوة بقيتا بعد الإحلال الذي تميزت به صفوة المجتمع في عهد شارل الثاني .

وجملة القول أن النظام البيوريتاني ربما أحدث أصلا حقيقيا جديده ودعمته حركة المنهجية في القرن الثامن عشر (الميثودية حركة إصلاح ديني قادها تشارلز وجون ويزلي في أكتفود ١٧٩٢ لإحياء كنيسة إنجلترا) - وإليه يرجع أكبر الفضل في الأخلاقيات العالية نسبيا التي تميز بها الأمة البريطانية اليوم .

٦ - الكويكرز

تألفت في الكويكرز كل فضائل البيوريتانيين ، وهم فرع منهم ، ولو أخفاها لبعض الوقت الخيال الجاهل والتعصب الأعمى . وكانت خشية الله والخوف من الشيطان قوين جدا فيهم إلى حد يصيب أجسامهم برعدة . وقال واحد منهم هو روبرت باركلي ١٦٧٩ .

أن قوة الله سوف تقتحم الاجتماع الشامل ، ومن ثم سوف يكون هناك جهد باطني ، حين يحاول كل فرد أن يقهر قوى الشر في النفوس ، إلى حد أنه بأعمال هاتين القوتين المتعارضتين ، وكأنهما تياران متضادان ، يجهد الإنسان نفسه وكأنه في يوم المعركة ، ومن هذا يكون اهتزاز الجسم وحركته في معظم الناس إن لم يكن كلهم وهي هزات وحركات ، تنتهي بعد أن تسود قوة الحق ، من الوخزات والأناث ، بصوت رخيم من الشكر والحمد . ومن هنا أطلق اسم الكويكرز ، أي المهتز ، علينا ، وكان هذا من باب اللوم والتأنيب والسخرية في بدايه الأمر (٥٠) .

وتفسير مؤسس الطائفة جورج فوكس يختلف إختلافا يسيرا عن هذا .

« إن القاضى بنت من درجى هو أول من أطلق علينا هذا الاسم ، لأننا كنا نأمرهم بالاهتزاز عند ذكر كلمة الله . وهذا كان فى فى ١٦٥٠ » (٥١) . أما الاسم الذى أطلقوه هم أنفسهم على طائفتهم فكان « أنصار الحق » . وبعد ذلك أكثر تواضعا ، فقالوا : مجتمع الأصحاب .

وواضح أنهم كانوا فى بداية الأمر بيوريتانيين ، مع اقتناع شديد بصفة خاصة بأن ترددهم بين الفضيلة والخطيئة لم يكن إلا صراعا ، فى عقولهم وأجسامهم ، بين قوتين روحيتين ، قوة الخير وقوة الشر ، تحاول كل منهما أن تسيطر عليهما هنا ، وإلى مالا نهاية . إنهم تقبلوا المبادئ الأساسية عند البيوريتانيين : نزول الأسفار المقدسة عن طريق الوحي الإلهى ، خطيئة آدم وحواء ، كون الإنسان خطاء بطبيعته ، موت المسيح بن الله لتخليص البشر ، امكان نزول الروح القدس من السماء لتنوير نفس الإنسان وتشريعها . أن إدراك هذا « النور الباطن » ، والإحساس به والترحيب بإرشاده وتوجيهه ، كان جوهر الدين عند الكويسكرز . وإذا نهج الإنسان سنن ذلك « النور » لم تعد به حاجة إلى واعظ أو كنييسة . فان هذا « النور » أسمى من العقل البشرى ، بل من الكتاب المقدس نفسه ، لأنه صوت مباشر من عند الله إلى النفس .

لم يتلق جورج فوكس من التعليم إلا أيسره . ولكن « مذكراته » التى دمجها كانت من الآثار الأدبية فى الإنجليزية ، التى تكشف عن القوة الأدبية فى الكلام غير الأدبى ، إذا كان بسيطا جادا مخلصا . وكان جورج ابن أحد النساكين ، والتحق للعمل بمصنع أحذية ، ثم ترك سيده وأقرباءه ، « بأمر من الله » ، وبدأ فى سن الثالثة والعشرين (١٦٤٧) ، الومظ المتجول الذى لم يتوقف إلا بوفاته (١٦٩١) . وفى سنيه الأولى حيرته وأقضت مضجعه المخربات غراح يلتهم الصبح والمشورة لدى رجال الدين ، فأشار عليه أحدهم بالدواء وغصد الدم ، وأوصاه آخر بالتدخين وتلاوة الترايم

الدينية (٥٢). وفقد جورج ثقته بالقساوسة ، ولكنه وجد السلوى والعزاء .
حيثما فتح الكتاب المقدس .

غالبا ما حملت الكتاب المقدس وقصدت لأخذ مكانى فى احدى
الأشجار المجوفة فى مكان منعزل حتى يرخى الليل سدوله ، وكثيرا ما سرت
فى الليل محزوننا وحدى ، لأنى كنت رجلا مثقلا بالأحزان فى أيام أفعال
الله الأولى فى نفسى ثم وجهنى الله إلى الطريق ، ويسر لى إدراك حبه ،
وهو حب خالد لانهاية له ، يفوق كل معرفة تتيسر للناس فى حالتهم
الطبيعية أو يمكنهم الحصول عليها من صفحات من التاريخ أو من بطون
الكتب (٥٣) .

وسرطان ما أحس بأن الحب الإلهى قد اختاره ليبشر الجميع بالنور
الباطن ويعظمهم . وفى اجتماع الأنصار العماد فى بسترشير « حل الله عقدة
لسائى فأعلنت لهم جميعا الحقيقة الخالدة ، وظللتهم جميعا قوة الله » (٥٤)
« وذاع عنه أنه يتمتع « بروح بصيرة » ، ومن ثم جاء الناس أفواجا
ليستمعوا إليه . « حلت قوة الله وكان لها إيماءات وإلهامات وتنبؤات
عظيمة (٥٥) » . بينما كنت أسير فى الحقول قال لى الله : اسمك مكتوب فى
سجل الحياة لدى المسيح ، الذى وجد قبل خلق العالم (٥٦) . أى أن
جورج قر الآن عينا بما قر فى نفسه من أنه بين القلة التى اختارها الله
قبل الخليقة ، لتتلقى نعمته ورحمته وبركته الأبدية . وأحس آنذاك أنه
مساو لأى إنسان . ومنعه زهو به هذا الاصطفاء الإلهى من « أن أخلع
قبعى لأى من كان : حقيرا أو أميرا ، وأتم فى حاجة إلى ، أيها الرجال
والنساء ، دون اعتبار لغنى أو فقير ، وعظيم أو حقير (٥٧) » .

وإذا اقتنع بأن الدين الحق لا يوجد فى الكنائس بل فى القلب المستنير ،
فلأنه دلف إلى كنيسة فى نوتنجهام وقاطع الموعظة صائحا بأن الاختبار
الحق ليس فى الأشعار للقدسة بل فى « النور الباطن » . وقبض عليه فى .

١٦٤٩ ، ولكن عمدة البلدة أطلق سراحه ، وصارت زوجة هذه العمدة من أول المعتنقين لمذهبه . واستأنف فوكس جولاته التبشيرية ودخل كنيسة أخرى وهناك كما قال « دفعت لأعلن الحق للساكنين والناس ، ولكنهم انهملوا على » في غضب شديد وطرحوني على الأرض . وضربوني ضربا مبرحا وأذوني ايداء شديدا بأيديهم وكتبهم المقدسة وعصيمهم « فاعتقل مرة ثانية ، وأخلى الحاكم سبيله ، ولكن الأهالي قذفوه بالحجارة إلى خارج البلدة (٥٨) . وفي دربي تحدث مهاجما الكنائس والأسرار المقدسة على أنها تقرب لاغناء فيه إلى الله . فحكم عليه بالإقامة في الإصلاحية لمدة ستة شهور (١٦٥٠) ، وعرضوا عليه اخلاء سبيله شريطة الالتحاق بخدمة الجيش ، فكان جوابه مهاجمة فكرة الحرب . عند ذلك أودعه سجاووه معتقلا قدرا كربه الرائحة غائرا في الأرض ، ليس فيه فراش ، مع ثلاثين من المجرمين ، « حيث قضيت قرابة نصف عام (٥٩) . ومن سجنه كتب إلى القضاة والحكام معترضا على عقوبة الاعدام . وربما ساعدت شفاعته على انقاذ امرأة شابة محكوم عليها بالاعدام بتهمة السرقة من حبل المشنقة .

وبعد عام قضاء في السجن استأنف التجوال لنشر تعاليمه . وفي ويكفيلد حول جيمس نايلر ، وفي بغرلي دخل كنيسة ، وجلس منصتا حتى انتهت اللوحظة ثم سأل الواقظ : هل لم يشعر بالخلجل « حين يتقاضى ثلثمائة جنيه سنويا ليبشر بالأسفار المقدسة (٦٠) ؟ » وفي بلدة أخرى دعاء القسيس لالقاء عظة في الكنيسة فأبى ، ولكنه تحدث في فنائها إلى جمع من الناس .

أعلنت إلى الناس أنني لم أنحضر لأعترض سبيل معابدم الوثنية ولا قساوسهم . ولا عبورهم . ولا احتفالاتهم وتقاليدهم اليهودية الوثنية لأنني أنكرت هذا كله . وقلت لهم أن هذا المكان ليس أكثر قدسية من أي مكان آخر لذلك نصحت الناس أن ينهضوا كل هذه

الأشياء ، وأرشدتهم إلى روح الله واعمته فيهم أنفسهم ، وإلى نور المسيح في قلوبهم (٦١) .

وفي سوورثمور في يور كثير حول إلى مذهبه مرجريت فل ، ثم زوجها القاضي توماس فل ، وأصبحت دارهما ، قاعة سوورثمور ، أول مركز أساسى لاجتماع الكويكرز ، وهو إلى يومنا هذا مزار يحج إليه الأصحاب وليس علينا أن نتبع قصة فوكس إلى أبعد من هذا . وكانت أساليبه لجة غير فاضحة ولكنه عوض بما تذرعه به من صبر وجلد في ملاقة سلسلة الاعتقالات والصدمات العنيفة ، وهاجسه البيوريتانيون والمشيخيون والانجليكانيون ، لأنه نبذ الأسرار المقدسة والكنائس والقساوسة . وأرسل الحكام الكويكرز إلى السجون ، لأنهم انتهكوا حرمة العبادات العامة وأغروا الجنود بالكف عن الاشتراك في الحرب ، بحسب ، بل كذلك لأنهم رفضوا تأدية يمين الولاء للحكومة . واحتج الكويكرز بأن الفمين أيا كانت عمل غير أخلاقى ، ويكفى القول (بنعم) أو (لا) . وتعاطف كرومول مع الكويكرز ، واجتمع مع فوكس في لقاء ودى (١٦٥٤) وقال له عند انصرافه : « تعال إلى ثمانية أننا ، أنت وأنا ، لو اجتمعنا ساءة من نهار ، لاقترب الواحد منا من الآخر » (٦٢) . وفي ١٦٥٧ أصدر (حامى الحى) توجيهاته بالافراج عن المسجونين من الكويكرز ، كما أصدر تعليماته إلى القضاء بأن يعاملوا هؤلاء الوفاظ الذين لا كنائس لهم على أنهم (أشخاص واقعون تحت تأثير وهم شديد) (٦٣) .

إن أسوأ اضطهاد وأشده هو ما أصاب شيعة جيمس نايلر الذى بلغ به الإيمان بنظرية النور الباطن ، حد الاعتقاد أو الإدعاء بأنه هو المسيح مجسدا من جديد ، وأنه فوكس على هذا ولكن بعض أتباعه المخلصين الغيورين عبدوه ، وأكدهت إحدى النسوة أنه أعادها إلى الحياة بعد أن ظلت يومين في عداد الموتى ، وعندما ركب نايلر إلى بريستول ، أثلت

النسوة بأوشحتهن أمام جواده وأنشدن : « مقدس ، مقدس ، مقدس » ، قربان المقدس » وقبض عليه بتهمة التجديف . ولما سألوه عن دعاواه أو الدعاوى التى نسبوها إليه ، لم يكن جوابه سوى جواب المسيح « أنت قلت » . وعرض البرلمان إذ ذاك ، وكان البيوريتانيون يسيطرون عليه لقضية نايلز (١٦٥٦) وظل أحد عشر يوما يناقش موضوع إعدامه . وسقط القرار بأغلبية ٩٦ ضد ٨٢ صوتا . ولكن سادت روح تنادى بحل وسط إنسانى فحكم عليه بأن يقف ساعتين كاملتين وعنقه فى آلة التعذيب (المشهرة) ، ويجلد ١٣٠ جلدة ، وتدمغ جبهته بالحرف الأول من لفظة مجدف (B فى الانجليزية) ، وأن ينقب لسانه بقضيب من الحديد المحمى ، واحتمل هذه الفظائع بشجاعة . وحياء أتباعه على أنه شهيد ، وقبلوا جراحه وامتصوها واحتجزوه وحيدا فى معتقل لا قلم ولا ورق ولا تدفئة ولا ضوء فيه ، وانهارت روحه الممنوية يوما بعد يوم ، فاعترف بأنه غرر به ، فأفرج عنه فى ١٦٥٩ ، وقضى نحبه فقيرا معدما فى ١٦٦٠ (٦٤) .

ولقد تميز الكويكرز بما بدا لبعض معاصريهم بأنه أشياء غريبة تثير المتاعب . إنهم لم يجزوا أى أثر للزخرف والتبرج فى ملابسهم . وأبوا أن يخلعوا قبعاتهم لأى إنسان مهما كانت مكانته ، حتى فى الكنيسة أو القصر أو المحكمة . ولم يخاطبوا أى فرد بغير ضمير المفرد (أنت) بدلا من ضمير الجمع (أنتم) الذى يوحى أصلا بالتشريف والتكريم . وبذوا الأسماء الوثنية لأيام الأسبوع وشهور السنة ، فكانوا يقولون على سبيل المثال : « اليوم الأول من الشهر السادس » وأقاموا الصلوات فى العراء أو بين الجدران بنفس السهولة واليسر وطيب النفس ، وكان كل فرد من المصلين يدعى ليخبر بما أوحى به إليه الروح القدس أن يقول ، ثم يروج الجميع بعد ذلك فى صمت رهيب يكلله الجلال والوقار ، وكأنما هذا الصمت عقار مهدى مسكن بمد نوبة الحماس والغيرة — وهو صمت يعنى فى أساسه — عندم « إحساس بروح خيرة فى أحقادهم » . ورخص للنساء فى الصلاة

الزوجية فوق أى لوم أو أية شائبة . وحد من تكاثرهم ما تواضعوا عليه من الزواج بعضهم من بعض ، وعلى الرغم من ذلك بلغ عدد الكويكرز فى ١٦٦٠ فى انجلترا ستين ألف « صاحب » ، إذ ما اشتهروا به من أمانة وكياسة وجد وبعد عن الإسراف ، ارتفع بهم من للراتب الوضيعة التى ظهروا فيها أول ما ظهروا إلى الطبقات الوسطى التى ينتسب معظمهم الآن إليها .

٧ - الموت والضرائب

أن الطبقات الوسطى هى التى تمتعت بأعظم الازدهار، فى عهد كرومول . وفوق كل شيء انصرف التجار إلى التجارة الخارجية ، وضم البرلمان آنذاك أفرادا يمثلون للمصالح الاقتصادية أو يمتلكونها . ومن أجلهم قضى قانون الملاحة الصادر فى ١٦٥١ بنقل الواردات من المستعمرات إلى بريطانيا على مراكب إنجليزية — ومن الواضح أن هذا إجراء موجه إلى الهولنديين . وراودت كرومول فى بعض الأحيان فكرة التحالف مع المقاطعات المتحدة ، ابتغاء حماية البروتستانتية وتعزيزها ، ولكن تجار لندن آثروا الربح على التقوى والورع . وسرمان ما وجد كرومول نفسه (١٦٥٢) متورطاً فى الحرب الهولندية الأولى . وكانت النتائج مشجعة كما رأينا .

واستمرت حمى الإمبريالية بنمو البحرية . وأوحت ذكرى هو كنز ودريك إلى التجار وإلى كرومول نفسه بامسكان كسر شوكة الأسبان وسيطرتهم فى الأمريكتين ، واستيلاء انجلترا على تجارة الرقيق الرابحة وتوجيه الممادى النفيسة من الدنيا الجديدة إلى لندن ، وفوق ذلك كله ، كما أوضح كرومول ، فإن غزو جزر الهند الغربية يمكن المبشرين والوعاظ الإنجليز من تحويل هذه الجزر من الكاثوليكية إلى البروتستانتية (٦٥) .

وفى • أغسطس ١٦٥٤ بعث كرومول إلى فيليب الرابع ملك أسبانيا بتوكيدات الصداقة بينهما . وفى ٦ أكتوبر أرسل إلى البحر المتوسط أسطولاً بقيادة بليك . وفى ديسمبر أتبعه بأسطول آخر تحت إمرة وليم بن (والد أحد أعضاء الكويسكرز) وروبرت فينابل ، للاستيلاء على جزيرة هسبانيولا (أحدى جزر الهند الغربية) من أسبانيا وأخفقت هذه المحاولة الأخيرة ، ولكن بن استولى على جامايكا لانجلترا (١٦٥٥) .

وفى ٣٠ نوفمبر ١٦٥٥ وقع كرومول ومازاران « وكلاهما يخضع الدين لسياسة » تحالفاً إنجليزياً فرنسياً ضد أسبانيا . إن الحرب التى كانت أسبانيا قد استمرت نشنها على فرنسا بعد معاهدة وستغاليا ١٦٤٨ كانت قد شغلت هاتين الدولتين أيما شغل عن التدخل فى شأن كرومول واستيلائه على مقاليد الحكم فى إنجلترا ، أما الآن فإنها هبأت لسياسته الخارجية نجاحاً رائعاً ، وإن كان طاراً . وترى بليك لوقت غير قصير ، لأسطول الغضة القادم من أمريكا ، حتى عثر عليه فى ميناء سانتا كروز فى جزر كانارى ، ودمره عن آخره (٢٠ أبريل ١٦٥٧) . وأخذ الجنود الإنجليز زمام المبادرة فى هزيمة الجيش الأسباني فى معركة تلال الدونز (بالقرب من دنكرك) فى ٤ يونيه ١٦٥٨ . ولما انتهت الحرب بصالح البرانس (١٦٥٩) تخلت فرنسا عن دنكرك لانجلترا ، وبدا كرومول وكأنه عوض عن فقدان ماري تيودور لشفر كاليه قبل ذلك بقرن من الزمان . أنه فكر فى أن يضئ على اسم الإنجليز من العظمة ما كان للرومان من قبل ، وكان قاب قوسين أو أدنى من تحقيق هدفه ، فقد أصبح لانجلترا السيادة على البحار ، ومن ثم كانت المسألة مسألة وقت حتى تسيطر على أمريكا الشمالية ، وتمتد حكمها وسلطانها فى آسيا . ونظرت أوروبا كلها بعين الفزع إلى البيوريتانى الذى كان يسبح الله ولكنه ابتنى بحرية ، وألقى المواعظ ولكنه كسب معركة ، والذى أسس الإمبراطورية البريطانية بالقوة العسكرية وهو يردد اسم المسيح . أن الرؤوس التى تعلوها

التيجان ، والتي حسبته محدث نعمة دعيا مغرورا ، بدأت الآن تخطب وده وتلتمس التحالف معه دون أن تعير اللاهوت اهتماما .

ولكن جون ثورلو سكرتير مجلس الدولة أنذر كرومول بأنه كان من الخطأ أن يساعد فرنسا ضد أسبانيا ، لأن فرنسا آخذة في الصعود على حين أن أسبانيا كانت آيلة للإضمحلال ، وأن سياسة إنجلترا في تدعيم توازن القوى في القارة ، إن لم تتطلب مساعدة أسبانيا ، تقتضى يقينا عدم مساعدة فرنسا . والآن في ١٦٥٩ كان لفرنسا السيادة في البر ، وكان الطريق أمامها مفتوحا للتوسع في الأراضي الوطيدة وفرانش كونتيه والورين . وكمن من رجل إنجليزي كان يجود بحياته لوقف أطماع لويس الرابع عشر العدوانية .

وفي نفس الوقت ازدهرت أحوال أمراء التجارة بسبب الحروب ، وأعيد في ١٦٥٢ تنظيم شركة الهند الشرقية بوصفها مشروطا برأس مال مشترك ، « وأقرضت » كرومول ستين ألف جنيه ، حتى تتجنب تدقيق الحكومة في خمس شئونها (٦٦) . وكانت هذه الشركة الآن من أقوى العوامل في اقتصاد إنجلترا وفي سياستها . وواجهت الحكومة نفقات الحرب برفع الضرائب إلى حد لم تبلغه في عهد شارل الأول وشارل الثاني . وباعت معظم أراضي التاج وأراضي الكنيسة الأنجليكانية ، وضياع كثير من المملوكين ، ونصف أراضي أيرلنده ، وبرغم ذلك كله بلغ متوسط العجز السنوي ٤٥٠ ألف جنيه بعد ١٦٥٤ . ولم ينتفع المواطن العادي إلا قليلا . وطرحت جانبا كل الأهداف التي ناضلت من أجلها الثورة الكبرى فيما بين ١٦٤٢ — ١٦٤٩ . ولم يقل فظاعة عن ذي قبل فرض الضرائب دون موافقة البرلمان ، والاعتقال غير القانوني ، والمحاکمة دون محلفين ، وبات حكم الجيش وحكم القوة دون تستر أشد ازطاجا وظلما عن ذي قبل ، مذ أضفوا عليه مسحة من الدين . وأضحى حكم كرومول بغيضا بغضا ليس له مثيل ، لا من قبل ، ولا من بعد (٦٧) .

وكانت انجلترا ترقب موت حامي الحمى بصبر نافذ . وكَم من مؤامرة دبرت لاغتياه ، وكان عليه دوماً أن يأخذ حذره ، وزاد الآن عدد حرسه إلى ١٦٠ رجلاً ، واستخدم ضابط متطرف سابق (برتبة مقدم) يدهى سكسي Sexby ، أحد السفاحين لقتله . وكشفت المؤامرة (يناير ١٦٥٧) ، واعتقل السفاح ومات في السجن . وفي شهر مايو نشر سكسي كتيباً بعنوان « قتل ليس بقتل » ، كان دعوة صريحة للاطاحة برأس كرومول ، وعثر على سكسي ومات هو أيضاً في السجن . ودبرت اللواصمات في الجيش وفي دوائر الملاكين ، حيث ازداد أملهم بشكل جنوني في عودة أسرة ستيوارث إلى الحكم . واعتنقت ابنة كرومول الكبرى ، زوجة اللواء المتطرف شارل فليتيوود المبادئ الجمهورية ، ونعت على والدها دكتاتوريته (٦٨) .

وحطمت الموموم والمخاوف وفقدان الأهل والولد روح الرجل الحديدي . إنه مثل كثير من بلغوا ذروة السيطرة والسلطان ، استشعر الأسف أحياناً لأنه تخلى عن حياة الدعة والهدوء في أيامه الأولى يوم كان من مالكي الأرض في الريف . « إنها أقول ، وأشهد الله على ما أقول » لو أني عشت في ظل تعريشة ورعيت قطيعاً من الغنم ، لكان خيراً من أن أتولى حكومة مثل هذه (٦٩) ، وفي أغسطس ١٦٥٨ ماتت إليزابيث أحب بناته إليه ، بعد مرض طويل أليم ، وبعد تشييع جنازتها بفترة وجيزة لزم كرومول فراشه وقد انتابه حُمى متقطعة ، وربما أفاد الكينين في شفائه ، ولكن طبيبه أبي أن يستخدمه لأنه سلاح حديث أتى به الجزويت الوثنيون إلى أوربا (٧٠) . وبدأ أن كرومول أبل من مرضه ، وتحدث في جرأة وشجاعة إلى زوجته قائلاً : « لا تظني أنني سأطرق الحياة ، أني واثق من عكس هذا (٧١) » . وطلب إليه مجلسه أن يمين من يخلفه فأجاب « ريتشارد » أي ابنه الأكبر . وفي الثاني من سبتمبر أصيب بشكسة ، وأحس باقتراب

منيته . ودعا الله أن يغفر له خطاياہ ويحفظ البيوريتانيين . وبعد ظهر اليوم التالى طارق الحياة . وكتب السكرتير نورلوه : « لقد صعد إلى السماء مضمخا بدموع شعبه ، على أجنحة صلوات القديسين ودهواتهم (٧٢) » ولما وصلت أبناء موت كرومول إلى أمستردام « أضيئت المدينة أينا اضاءة ، وكأنا نطلقت من عقالها ، ومضى الأطفال فى القنوات هاتفين متلهلين فرحا لموت الشيطان (٧٢) .

٨ - طريق العودة

١٦٥٨ - ١٦٦٠

لم يمتلك الشيطان نفس ريتشارد بن كرومول . كما أنه لم يكن لديه من الصلابة والإرادة الحديدية ما يمكن أن يقيد به انجلترا فى الأغلال التى صنعتها القوة والتقوى . وكان ريتشارد يفارق أخته ، رقة للمقل بما جعلهما ينظران فى فزع خفى إلى سياسة الدم والحديد التى انتهجها والدهما . لقد جثا ريتشارد من قبل على ركبتيه أمام أبيه ، ضارعا إليه أن يبقى على حياة شارل الأول . وطيلة عهد الجمهورية والحماية ، طاش فى هدوء وسلام فى الريف على الضيعة التى حصل عليها بالزواج ولم يسكن به من طموح فى أن يصبح فى ٤ سبتمبر ١٦٥٨ ، بناء على وصية والده ، « حامى الحى » انجلترا ووصفته لوسى هتشنسون بأنه « وديع مهذب فاضل ، ولكنه فلاح بطبيعته ، ولم تكن تليق له العظمة (٧٢) » .

وأفلتت الآن ، فى جراءة أكثر ، كل العناصر التى كان أوليه رقد كبح جراحها ، عندما أدركت وهن نسيج ريتشارد . من ذلك أن الجيش القمى كره فيه خلفيته المدنية ، والذى رغب فى أن يحتفظ بالسلطة التى كانت على عهد والده عسكرية بشكل صريح ، تقول إن هذا الجيش القمى منه أن يتخلى عن إدارة الجيش إلى فليتوود ، فأبى ، ولكنه هدأ من روع زوج أخته

بتعيينه قائدا . ولما كانت الخزانة خاوية مثقلة بالديون ، فإنه دعا برلمانا اجتمع في ٢٧ يناير ١٩٥٩ ، وراجت الشائعات بأنه يدبر عودة أسرة ستوارث إلى العرش . لجاء ضباط الجيش لتبصمهم زسمرن الجنود إلى ريتشارد وطلبوا إليه فض البرلمان ، فأرسل إلى حرسه ليتولوا حمايته فتجاهلوا أوامره . واستسلم ريتشارد للقوة ووقع أمرا بحل البرلمان (٢٢ أبريل) ، وأصبح الآن تحت رحمة الجيش . ودعا الجمهوريون المتحمسون في الجيش يتزعمهم اللواء جون لمبرت ، أعضاء البرلمان الطويل الباقين على قيد الحياة للاجتماع من جديد ، وممارسة السلطة التي كانت لهم ، كما كانت للبرلمان المبتور ، حتى يحى كرومول ، وطرده إياهم بمعونة الجمهوريين المتحمسين في الجيش ١٦٥٣ . والتأم عقد هذا البرلمان المبتور الجديد في وستمنستر في مايو ١٦٥٩ . ولكن ريتشارد الذي لقي من السياسة نصبا ، أرسل استقالته إلى هذا البرلمان في ٢٥ مايو . واعتزل الحياة العامة ، وفي ١٦٦٠ آوى إلى فرنسا حيث عاش في عزلة تحت اسم مستعار هو جون كلارك . وعاد إلى إنجلترا في ١٦٨٠ ، حيث وافته منيته في ١٧١٢ وهو في السادسة والثمانين من العمر .

وكتب أحد المسكين في ٣ يونية ١٦٥٩ يقول : « أن الفوضى كانت تعتبر كالا ، إذا قيست إلى نظامنا الراهن وحكومتنا الحاضرة (١٥) » واستمر الصراع على السلطة بين الجيش والبرلمان ، ولكن قطاعاته المقيمة في اسكتلنده وايرلنده أيدت البرلمان . وكان ثمة حزب ملكي قوى في البرلمان الذي كانت غالبيته من الجمهوريين . وفي ١٣ أكتوبر حشد لمبرت جنوده عند مدخل قصر وستمنستر وطرد البرلمان ، وأعلن أن الجيش سيتولى مقاليد الحكومة . وبدا أن تماقبات الأحداث التي بدأت بحركة برايد في التطهير ، سوف تتكرر : مع كرومول آخر هو لمبرت .

وقال ملتون هن « انقلاب » لمبرت « أنه عمل أبعد ما يكون عن

الشرعية ، ومن أشد الأعمال خزيا ومارا ٠٠٠٠٠ إلى لأخشى أن أكون واحدا في مجتمع محبى متبربر ٠٠٠ والافسكيف يجرؤ جيش مأجور أن يخضع لسلطانه هو السلطة العليا التى أقامته ، على هذا النحو (٧٦) «ولكن الشاعر كان عاجزا لاحول له ولا قوة . إن القوة الوحيدة فى بريطانيا ، التى كان فى مقدورها أن تقف فى وجه الدكتاتورية العسكرية هى جيش آخر ، أو العشرة آلاف جندى الذين خصصهم البرلمان من قبل للجنرال جورج مونك لإقرار سيادته فى اسكتلنده . ولسنا ندرى إذا كانت نمة أطماع شخصية خفية وراء اعتزام مونك تمهدى الجيش فى لندن ومقاومة اغتصابه السلطة . فأعلن مونك : « أن الضمير والشرف يقضيان على بأن أحرر انجلترا من حكومة اسيف التى كبلتها فى أغلال العبودية التى لا تحتمل » . وأثار بيانه الحماسة والحمية فى عناصر مختلفة معارضة للحكمسكرى . ورفض الأهالى دفع الضرائب وأعلن الجيش فى أيرلنده والأسطول وصبيان الحرفيين ، انضمامهم إلى البرلمان . ورفض صرافو لندن أن يدفعوا للقادة المغتصبين القروض التى اعتمدوا عليها فى دفع الرواتب للجند . وأحست الآن طبقات التجار والصناع الذين كانوا قد أقروا من قبل خلع شارل الأول ، أن القوضى التى تنتشر ويتفاقم خطرهما ، تهدد الحياة الاقتصادية فى انجلترا ، وبدأوا يمجبون ويتساءلون : هل من المستطاع استعادة الاستقرار السياسى أو الاقتصادى دون ملك ، تهدىء شرعية مركزة من روع الناس ، وتوفر الضرائب وتسكن العاصفة ؟ . وفى ٥ ديسمبر قاد مونك قواته إلى انجلترا . وأرسل قادة الجيش قوات لا اعتراض طريقه ، ولكنها رفضت القتال ضد مونك ، وسلم الضباط المغتصبون بالهزيمة وأعادوا البرلمان ، واستسلموا له ، وصاروا تحت رحمته (١٤ ديسمبر) .

وكان عدد أعضاء البرلمان المنتصر ٣٦ عضوا ، ولا يزال يميل إلى النظام الجمهورى . وكان من أول القرارات التى اتخذها ، قرار يتطلب من الأعضاء

الحاضرين ومن ينضمون إليهم في المستقبل ، أن يتعهدوا بالتخلي عن أسرة
ستيوارت . كما رفض هذا البرلمان عودة المشيخيين الذين بقوا على قيد الحياة
من أعضاء البرلمان للمبتور السابق ، على أساس أنهم يجذبون عودة شسارل
الثاني . وازدري الناس هذا البرلمان على أنه مجرد أحياء لبركان مبتور
لا يمثل إنجلترا ، وعبروا عن مشاعر الاحتقار « بشواء ردف البقرة » على
هيئة تمثال يلقي به في النيران السكثيرة المشتعلة في الهواء الطلق ، حتى بلغ
عدد هذه الحرائق ٣١ في شارع واحد في لندن . وأما الجنرال موناك الذي
كان جيشه قد وصل إلى لندن في ٣ فبراير ١٦٦٠ فقد أنذر البرلمان قائم بأنه
إذا لم يدع إلى انتخابات جديدة موسعة ، ويحل نفسه في موعد غايته ٦ مايو ،
فإنه — أي موناك — لن يتولى حمايته بعد ذلك . كما أشار على البرلمان
بإعادة الأعضاء للمشيخيين الذين سبق إبعادهم ، فقبل . وأعاد مجلس العموم
للموسع (ازداد عدد أعضائه) إقرار مذهب المشيخية (البرسبتريناز)
في إنجلترا ، وأصدر الدعوة إلى انتخابات جديدة ، وأعلن حل نفسه . وعند
ذلك كانت النهاية الرسمية الشرعية للبرلمان الطويل (١٦ مارس ١٦٦٠) .

وفي اليوم نفسه محا أحد العمال ، أو لطخ بالطلاء ، عبارات « أخرج
أيها الطاغية ، هذا آخر ملك » التي كانت الجمهورية قد علقتها في « بورصة
لندن » . ثم ألقى العامل بقبعته وهتف « فليبارك الله الملك شارل الثاني »
وعندئذ ، كما يروي ، « انضم كل من كان في المكان يهتفون بأصوات
مدوية (٧٨) » . وفي اليوم التالي التقى موناك سرا برسول شارل ، سيرجون
جرينفل ، الذي أسرع في الذهاب إلى بروكسل يحمل رسالة موناك إلى الملك
غير ذي العرش .

٩ - ويعود الملك ١٦٦٠

منذ غادر شارل الثاني إنجلترا في ١٦٥٠ هارباً لاقى في هربه هنتا ومشفقة ، طاش متشرداً قلقاً في القارة . واستقبلته أمه هنريتا ماري في باريس ، ولكن الفرنسيون كانوا قد أفقروها . وقضى شارل وحاشيته بعض الوقت في أشد العوز ، طالة على الإمانات ، حتى أن مستشاره المخلص ، فيما بعد ، ادوارد هايد كان يعيش على وجبة واحدة في اليوم . أما شارل نفسه فقد لم يكن لديه ما يسد الرمق في البيت ، فكان يتناول الطعام في الحانات في معظم الأحوال فسيئة ، على حساب تطلعاته . ولما عاد لويس الرابع عشر إلى أيام الوفرة والرخاء أجرى شارل معاشاً سنوياً قدره ستة آلاف فرنك ، ومن ثم بدأ شارل يستمتع بحياة رغدة طليقة إلى أبعد حد ، حتى يدخل السرور على قلب أمه .

وتعلم في أيام باريس هذه كيف يحب أخته هنريتا أن أعق حب وأخلصه وجهدت الأم والأخت كلتاهما في ضمه إلى الكاثوليكية ، كما أن الكاثوليك الإنجليز المهاجرين إلى فرنسا لم يألوا جهداً في تذكيره ، حتى لا ينسى ، ما فعلوه من قبل لنصرة أبيه . ووعدوه بمبعوثو المهاجرين المشيخين بالمساعدة على عودته إذا ارتضى حماية مذهبهم . واستمع لكلا الجانبين في لطف وكياسة ، ولكنه عبر عن تصميمه على التزام مذهب الكنيسة الانجليكانية الذي قاسى أبوه من أجله ما قاسى (٦٩) ، وربما نزع به الجدل الذي حاصروه به ، إلى الشك في الدين كله . ولكن يبدو أن العبادة الكاثوليكية التي رآها حوله في فرنسا ، كان لها أثر أقوى عليه ، وبات سرّاً مكتوماً في حاشيته الصغيرة أنه لو أطلقت يده لانهاز إلى الكنيسة الكاثوليكية (٨٠) وفي ١٦٥١ كتب إلى البابا انوسنت العاشر يمدد بأنه لو عاد إلى عرش إنجلترا فلسوف يبطل كل القوانين التي صدرت ضد الكاثوليك . ولم يجب البابا بشيء . ولكن جماعة الجزويت أبلغوا شارل أن الغائب كان لا يمكن أن يؤيد أميراً هرطيقاً (٨١) .

وعندما شرع مازاران في التفاوض لعقد تحالف مع كرومول أقنع شارل مستشاروه بمغادرة فرنسا . ووافق الكاردينال مازاران على الاستمرار في صرف المعاش لشارل ، فانتقل إلى كولون ومنها إلى بروكسل . وهناك في ٢٦ مارس ١٦٦٠ حمل إليه جرينفيل رسالة مارك : إذا وعد شارل بعفو تام ، باستثناء مالا يزيد عن أربعة أشخاص ، ومنح ، حرية الفكر ، وثبتت الملك الحاليين للممتلكات المصادرة ، فإن مارك يلتزم بمساعدته . وفي نفس الوقت ، حيث أن إنجلترا مازالت في حرب مع أسبانيا ، فيحسن بشارل أن يترك الأراضي الوطنية الأسبانية . فانتقل شارل إلى بريدا في إقليم برامانت الهولندي ، وهناك في ١٤ إبريل وقع اتفاقا قبل فيه شروط مارك من حيث المبدأ ، تاركا التفاصيل الدقيقة للبرلمان الجديد .

وجاءت الانتخابات لمجلس عموم ذي أغلبية ساحقة من الملكيين ، واتخذ اثنان وأربعون من صفار النبلاء مقاعدهم في مجلس اللوردات الجديد وفي أول مايو تليت في المجلسين كليهما الرسائل التي حملها جرينفيل من شارل وفي « إعلان بريدا » قدم الملك الشاب عفوا عاما فيما عدا الأفراد الذين يستثنىهم البرلمان فيما بعد ، وترك للبرلمان تسوية موضوع الأملاك المصادرة ووعد « بالآيزعج شخصاً أو يستدعيه لمساءلته بخلاف في الرأي في أمور العقيدة ، وألا يعكر صفو الأمن في المملكة » . ثم أضاف بيانا حكيما أعده له المستشار هايد :

أنا تؤكد لكم ، تحت كلمتنا الملكية أن بعض أسلافنا كانوا يقدرون البرلمان أكثر مما نقدره نحن . وإنا لنؤمن بأن هذا كله جزء حيوي من دستور المملكة ، ضروري لحكومتها ، إلى حد أننا ندرك تمام الإدراك أنه ليس نمة شعب أو أمير يمكن أن يحيا حياة سعيدة إلى درجة مقبولة بدونه . ولسوف ننظر دوما إلى نصائحهم على أنها أفضل تراث منهم ، ولسوف نكون معترين بمآثرهم مهتمين بالمحافظة

عليها وهمايتها ، قدّر اعتزازها واهتمامنا بأقرب شيء إلى
أنفسنا ، وألوم شيء لصيانتنا والحفاظ علينا .

وسر البرلمان لهذا ، وفي ٨ مايو نادى بشارل الثانى ملسكا على انجلترا ،
مؤرخا لقبه من يوم وفاة والده ، غير مستند فى ذلك إلى أى قرار برلمانى ،
بل إلى حق المولد الوراثى . كما أقر إرسال مبلغ خمسين ألفاً من الجنيهات إلى
شارل مع دعوته إلى القدوم فوراً لاعتلاء عرشه .

وابتهجت انجلترا كلها تقريبا بانتهاء عقدين من السنين سادهما العنف ،
بعودة النظام دون إراقة قطرة من الدماء . ودقت النواقيس فى طول البلاد
وعرضها . وفى لندن جثا الناس فى الشوارع وشربوا نخب الملك (٨٢) .
وهلت كل الرؤوس المتوجهة فى أوروبا لانتصار الشرعية ، حتى للمقاطعات
المتحدة ، وهى جمهورية بشكل قوى ، كرمت شارل طوال رحلته من ريديا
إلى لاهاي ، وقدمت له الجمعية التشريعية التى كانت قد تجاهلته حتى الآن ،
مبلغ ثلاثين ألف جنيهه لنفقاته ، عربونا للنيات الطيبة فى المستقبل . وجاء
إلى لاهاي أسطول انجليزى توفّر عليه الأعلام مزدانة بالحروف الأولى
من « الملك شارل » وحمله إلى انجلترا فى ٢٣ مايو .

وفى ٢٥ مايو وصل الأسطول إلى دوفر ، واحتشد على الشاطئ عشرون
ألفا لاستقبال الملك . ولما اقتربت السفينة من الشاطئ سجد الجميع ، كما
سجد الملك عندما واثت قدماه الأرض ، شكرا لله . وكتب فولتير :
« أنبأنى العجايز الذين كانوا هناك أن معظم العيون أغرورقت بالدموع » .
وربما لم يحدث من قبل مشهد مؤثر إلى هذا الحد (٨٣) . وعلى طول الطريق
الذى احتشدت فيه الجوع السعيدة على مسافات قريبة ، ركب شارل
ومرافقوه ، تتبعهم مئات الناس ، إلى كنتربرى ، ثم روشستر ومنها إلى
لندن . وهناك خرج (١٢٠) ألفا للترحيب به ، حتى الجيش الذى حارب ضده ،
انضم الآن إلى قوات مونك ، فى هذا المرض . وانتظره أعضاء مجلس

البرلمان في قصر هو يتحول . وقال رئيس مجلس اللوردات : « أيها الملك
الطيب ، أنت مناط رغبة ثلاث ممالك ، وقوة لثلاث طبقات الشعب وسند
لها ، في تخفيف الانفعالات والآلام ، وتسوية الخلافات ٠٠٠٠ واستعادة
شرف هذه الأمم المنهار ^(٨٤) » . وتقبل شارل كل هذه التحية والإطراء
في لطف وتملكه شعور خاص ، وعندما آوى إلى شيء من الراحة بعد أن
أرهمته الانتصار ، قال لأحد أصدقائه : « لا بد أنه كان من الخطأ أني لم
أحضر من قبل ، فلاني لم ألتق اليوم بمرء واحد لم يحتج بأنه كان دوما
راغباً في عودتي ^(٨٥) » .

الفصل الثامن

ملتون

١٦٠٨ - ١٦٧٤

١ - جون بنيان : ١٦٢٨ - ١٦٨٨

في غمرة التعمس للدين والأخلاق لم يحس البيوريتانيون بالحاجة إلى أدب دينوي . وكان في أنجيل الملك جيمس الأول (أي الذي ترجم إلى الإنجليزية في عهده) زاد كاف لهم من الأدب . وبدأ كل شيء فيها عدا ، تقريبا ، نافها أو خبثا آنما . وفي ١٦٥٣ اقترح أحد أعضاء البرلمان ألا يدرس في الجامعات سوى الأسفار المقدسة و « كتاب يوم ومايمانه (١) » . وقد يبدو هذا الأمر مزعجا محزا ، ولكن يجدر أن نلاحظ أنه في ذروة هيمنة البيوريتانيين (١٦٥٣) نشر سير توماس اركهارت ترجمته الرائعة لرابليه (*) ، مؤثرا الأدب الداعر المكشوف على الإيمان بالبعث والحساب . وفي العام نفسه أخرج إيزاك والتون كتابه صياد السمك المثالي Compleat Angler كشف فيه عما في الماء من أعماك ، وحتى في أيامنا هذه التي نقفز فيها قفزات حكيمة من نوع من السمك إلى آخر ، نحمد هذا الكتاب ممتعا في بساطته وعذوبة أسلوبه ، كما أنه يذكرنا بأنه على حين كانت انجلترا تمر بشورة لا تقل عنفا عن ثورة ١٧٨٩ ، فإن الناس كانوا يستطيعون أن يقصدوا في هدوء إلى القنوات في الريف ليصيدوا ويوقعوا في شراكهم مخلوقا حذرا يقطا .

(*) للكتابان الأول والثاني ١٦٥٣ ، والثالث ١٦٦٣ . واكمل بييرموتيه-

الترجمة في ١٧٠٨ .

انحرف قليلا عن الطريق أيها العالم الجليل ، أعرج بنا عن الطريق قليلا حيث يمكن أن نجلس ونغنى عند هذا السياج من الشجيرات الغنية برحيق الأزهار ، حتى تفرغ هذه السحابة ماءها على الأرض التي تلبت الزرع (٢) .

وحافظ أندرو مارفل على حياته بحكمة وتعقل ، طيلة التعديل المستمر في الحكومات من يوم مولده في ١٦٢١ إلى يوم وفاته في ١٦٧٨ ، ورحب بعودة كرومول من أيرلنده في قصيدة غنائية قوية عذبة ، ولكنه تجرأ فيها على التعاطف مع الملك الفتيل شارل الأول : —

إنه لم يأت يأمر مبتذل أو دنيء ، في هذا المظهر المشهود ، يل تفحص بصره الحاد نصل البلطة ، كما أنه ما أهاب بالآلهة في حق بنديء لتدافع عن حقه اليائس ، ولكنه حتى رأسه الوسيم ، وكأنه يحنيه على الفراش (٣) .

وأصبح مارفل مساعدا للبتون في وظيفة سكرتير لكرومول للغة اللاتينية . وانتخب عضوا في برلمان ١٦٥٩ ، وساعد على انقاذ ملتون من انتقام الملكيين المنتهزين ، وعاش ١٨ عاما في ظل الملكية العائدة ، واستنكر مبادئها وفسادها وعجزها ، في قصائد هجاء أحجم في حرص شديد عن نشرها .

وكتبت روائع جون بنيان ، مثلها في ذلك مثل ملاحم ملتون ، بعد عودة الملكية . ولكن الرجلين كليهما تشكلا في ظل النظام البيوريتاني . وهو يقول : « كان منبتي وضيعا حقيرا ، وكان بيت أتي من أحط البيوت مكانة ، وكان موضع أشد الازدراء من الأسرات بمن حولنا (٤) » . وكان أبوه (مكريا) يصلح القدور والغلايات في قرية الستو بالقرب من بدفورد . وحصل الوالد ، توماس بنيان ، من مهنته على ما يكفي لإرسال ابنه جوب إلى مدرسة بدفورد حيث تعلم من القراءة والكتابة قدرا كافيا على الأقل « ليتفحص الأسفار المقدسة » ، ويكتب أشهر الكتب الإنجليزية .

وفي القرية اشتغل صبيا لوالده الذي لقنه تعليما شغويا بطريقة السؤال والجواب في أمسيات أيام الأحد . وعن أولاد المدينة تعلم الكذب والتجديف في الدين . وهو يؤكد لنا « أنه لم يضارعه إلا القليل في هذه الأفاين » (٥) . وأكثر من هذا أنه أدين بالرفص وممارسة الألعاب وتناول قدح من الجعة في إحدى الحانات . وكلها أمور يحاسب عليها البيوريتانيون الذين لم يكونوا قد استولوا بعد على مقاليد الأمور ، في سني شبابه (١٦٢٨ — ١٦٤٨) . وهو يقول عن نفسه « كنت أنزعج أعمال الرذيلة والشر والفسوق » (٦) . ومثل هذه الاعترافات بالخطايا الجسيمة كانت أمرا شائعا مألوفا بين البيوريتانيين ، حيث عملوا على جذب أشد الالتباه إلى اصلاحهم الديني ، وأظهروا قدرة الله على أن يهبهم نعمة الخلاص . ولما انتشرت التعاليم البيوريتانية من حوله ، أغض مضجعه وحد من نزعة الشر عنده ، تفكيره في الموت وفي يوم الحساب وفي الجحيم . ورأى مرة فيما يرى النائم أن السماء كلها فوقه تضطرم بالنيران وأن الأرض نحمته تزلزلت ، فنهض من نومه مذعورا ، وأزعج الأسرة بصرخاته : « يا إلهي ، أسألك الرحمة بي ، وقعت الواقعة ، ولم أعد نفسي ليوم الحساب » (٧) .

وفي سن السادسة عشرة سيق إلى جيش البرلمان حيث خدم لمدة ثلاثين شهرا في الحرب الأهلية . وهو يقول عن فترة الجندية « لم أكف عن الخطيئة والإثم ، وإزداد تمردى على الله ، وعدم اكتراثي بالخلاص » (٨) . وبعد تسريحه من الجيش تزوج من فتاة يتيمة (١٦٤٨) كان كل صداقها اثنين من الكتب الدينية ، وذكرياتها التي لا تنفتأ ترددها عن تقى أبيها . وورعه . ومذ خلف جون أباه في الحانوت ، فأنه استطاع أن يعملها « بالسكرة » . وازدهرت أحواله ، وتردد على الكنيسة بانتظام ، وتخلّى عن نزوات شبابه شيئا فشيئا . وكان يقرأ الكتاب المقدس كل يوم تقريبا ، حتى صارت لغته الإنجليزية البسيطة هي لغة بنيان نفسه . وتحدثت قرية الستو عنه على أنه مواطن نموذجي .

ولكن الشكوك اللاهوتية أرهقته ، كما يقول . ولم يكن على ثقة من أن رحمة الله قد وسعته ، وبدون هذه الرحمة سيلاقى أشد العذاب . وارتاب في أن معظم أهل الستو وبدفورد سيكون مصيرهم بالفعل إلى نار الجحيم . وأزعجه تفكيره في أن معتقداته للمسيحية كانت مجرد حداث جغرافي . وتسأل فيما بينه وبين نفسه : « ماذا نقول إلا أن الأتراك لديهم كتاب مقدس عظيم ، مثل كتابنا ، يثبت أن رسولهم (محمداً) سوف يكون شفيعاً لهم ، كما يجب أن نثبت نحن أن للمسيح مخلصنا (٩) ؟ » « لقد غرقت روحي في بحرين من التجديف على الله والمسيح والأسفار المقدسة ٠٠٠ ونارت في نفسى التساؤلات عن حقيقة وجود الله وابنه الوحيد الحبيب . وهل يوجد حقاً إله أو مسيح ؟ » وهل كانت الأسفار المقدسة إلا خرافة أو قصة بارعة أكثر منها كلمة الله للمقدسة الخالصة ؟ (١٠) وانتهى إلى أن هذه الشكوك أثارها شيطان يسكن بين جنبيه . « إنى لحظت الكلب والضعفدعة وحسبت ما أعد الله لهما مما جعلهما في حالة أفضل من حالى بكثير . . . لأنهما ليس لهما نفس ترزح تحت وطأة عذاب النار أو الخطيئة ، كما هو محتمل أن تفعل نفسى (١١) » .

وبينما كان يوماً في طريقه إلى الريف مستغرقاً في التأمل في شرور قايه تذكر كلمات القديس بولس : « صنع السلام بما سفك من الدم على صليبه (١٢)

» وقويت في ذهنه فكرة أن للمسيح مات من أجله ومن أجل الآخرين » ، حتى كنت مستعداً أن أغرق في نشوة . . . من الحبور والهدوء الحقيقيين (١٣) . وانضم إلى كنيسة معمدانية (١٦٥٣) في بدفورد ، وعمد ، وقضى طامين في حياة تسودها السعادة والهدوء الروحيين ، وفى ١٦٥٥ انتقل إلى بدفورد وعين شماساً فى هذه الكنيسة ، وفى ١٦٥٧ كاف بالوعظ ، وكان موضوعه هو رسالة لوتر : ما لم يؤمن للمرء إيماناً راسخاً بأنه قد تخلص من جنوحه إلى الإثم بالطبيعة ، بسبب موت للمسيح بن الله ،

فإنه لابد بصرف النظر عن فضائله — لاحق بالأكثرية العظمى من البشر الذين يحشرون في نار جهنم . إن تضحية المسيح المقدسة بنفسه ، هي وحدها التي يمكن أن تعدل جسامه خطيئات الإنسان . وكان من رأيه أن يلقي الأطفال هذا الأمر في وضوح تام : —

في اعتقادي أن الناس يسلكون طريقاً خاطئاً في تعليم أبنائهم العبادة ويبدون أنه من الأفضل أن ينمي الناس أطفالهم ، في وقت مبكر ، وقبل فوات الأوان ، أية مخلوقات بغيضة لعينة هم ، وكيف أنهم يبوؤون بغضب من الله ، بسبب الخطيئة الأولى الأصلية الفعلية ، كما يظهرونهم على طبيعة غضب الله ، وخلود البؤس والشقاء (١٤) .

ووسط هذه النصائح والتحذيرات ، ضمت مواعظ بنيان كثيراً من الآراء الحكيمة في تنشئة الأطفال ومعاملة المستخدمين ، وكان مثل غيره . من الوعاظ ، عرضة لتحديات الكويكرز ، الذين قالوا إنه ليست الأسفار المقدسة ، بل النور الداخلي هو الذي يهيء المعرفة والخلاص . وفي ١٦٥٦ وضع كيتابين هاجم فيهما الطائفة الجديدة المزعجة . فكان جوابهم أنهم اتهموه بأنه يسوعي ، قاطع طريق ، زان ساحر (١٥) . أما أسوأ الشدائد فقد حلت عليه بعودة الملكية ، فقد جدد القانون القديم الذي صدر في عهد إليزابيث والذي قضى بحضور كل الإنجليز الصلوات الأنجليكانية دون غيرها ، وأدعن بنيان إلى حد إغلاق مكان اجتماعاته الخاص في بدفورد ، وإلتي بمجموع المصلين في أما كن خفية وألقي عليهم مواعظه ، فاعتقل ، وعرض عليه إطلاق سراحه إذا وعد ألا يعظ علانية . فرفض وأودع سجن بدفورد (نوفمبر ١٦٦٠) ، وهناك قضى اثني عشر طاماً ، مع بعض فترات تمتع فيها بحرية محدودة . وتجدد في أوقات متفرقة عرض الإفراج عنه ، بنفس الشروط ، مثيراً نفس الرد : « إذا أطلقتكم سراحى اليوم فسأشرع في الوعظ غداً (١٦) » .

وربما أصبحت حياة الأسرة عبثاً ثقيلاً ، لقد توفيت زوجته الأولى في ١٦٥٨ تاركة له أربعة أطفال أحدهم أعمى ، وكانت الثانية حاملاً . وعاون الجيران في إقامة أود الأسرة ، وأسهم بنيان في نفقاتها بصنع بعض المحرمات في السجن وتدير أمر بيعها ، وأجيز زوجته وأولاده أن يزوروه كل يوم كما أجيز له أن يعظ رفاق السجن ، وأن يغادر السجن متى شاء ، حتى للسفر إلى لندن (١٧) . ولكنه استأنف الوعظ سرّاً فضيقوا عليه الخناق في السجن . وفي المعتقل قرأ الكتاب المقدس المرة تلو المرة ، كما قرأ كتاب فوكس « سجل الشهداء » ، وأذكى حرارة الإيمان عنده بمحارق الأبطال البروتستانت ، ووجد متعة عظيمة في رؤية سفر الرؤيا ، ولا بد أنه كان مزوداً بالقلم والقرطاس ، لأنه في السنوات الست الأولى من احتجازه كتب ست قطع دينية ، كما وضع مؤلفه العظيم « الرحمة تتسع لسكبير الخطائين » . وهو سيرة حياته الروحية ، وهو رؤيا تسكاد تكون مفزعة من رؤية العقل البيوريتاني .

وفي ١٦٦٦ . وفي ظل « الإعلان الأول للتساح » الذي أصدره شارل الثاني ، أطلق سراح بنيان فعاود الوعظ فأعيد إلى السجن . وفي ١٦٧٢ أجاز « الإعلان الثاني للتساح » الذي أصدره شارل الثاني ، للقساوسة المنهقين أن يلقوا المواعظ ، فأخرج عن بنيان ، وانتخب على الفور راعياً للكنيسة القديمة . وفي ١٦٧٣ أبطل العمل بإعلان التساح ، وتجدد تحریم الوعظ على المنهقين ، فلم يمثل بنيان له ، وأعيد إلى السجن (١٦٧٥) ، ولكن سرعان ما أخلى سبيله .

وفي هذه المرحلة الثالثة والأخيرة كتب بنيان الجزء الأول من « انطلاق الحجاج من هذه الدنيا إلى العالم الثاني » ، وقد نشر هذا الجزء في ١٦٧٨ وأعقبه الجزء الثاني في ١٦٨٤ . (في مقدمة شهرية مضحكة رديئة غير معقولة زعم بنيان أنه كان قد وضع هذا الكتاب ملهاة وتساية لنفسه دون أن يفكر في نشره) وعرض القصة ، في لطف ، في صيغة وهم أو

خيال جامع .

« بينما كنت أضرب في فيافي هذا العالم ، جئت إلى مكان معين حيث كانت نمة « خلوة » فتمددت في هذا المكان لأنام ، وإذ غلبني النعاس رأيت فيما يرى النائم حلما (١٨) . »

إن كريستيان استبد به في هذه الرؤيا ، التفكير في أنه يجب عليه أن يتخلى عن كل شيء وينسى كل شيء ، وألا يلتمس سوى المسيح والجنسة . فيهجر زوجته وأولاده ، ويبدأ رحلته إلى « المدينة السماوية » . ويأحق به « للوحي بالأمل Hopafal » الذي يعبر عن العقيدة البيوريتانية في إحكام بارع :

كنت يوما في حزن شديد ، أحسب أنه أشد ما لقيت في حياتي . وبتج هذا الحزن عن رؤية صادقة لجسامة آثامي وفضاعتها ، ولما كنت آنذاك لا أفكر في شيء إلا الجحيم والعذاب المقيم . فإني فجأة ، وأنا غارق في التفكير ، رأيت يسوع المسيح ينظر إلى من علياء السماء ، قائلا : « آه ن يسوع المسيح وسيكتب لك الخلاص (١٩) » . ولكني أجبتة : إني خطاء كبير خطاء كبير جداً ، فأجاب « رحمتي تتسع لك » ... وهنا غمرني الفرح (٢٠) وبعد شيء كثير من المحنة والنزاع يصل الحجاج إلى « المدينة السماوية » فنذكرك هذا الذي كانوا يأملون فيه في حماسة بالغة :

ومن عجب أنهم حين دخلوا ، تغيرت هيئتهم وأحاطت بهم حالة من الجلال ، وارتدوا ملابس بدت وكأنها من ذهب . كما كان هناك من قابلهم بالقيثارات والتيجان وأعظام إياها - القيثارات - لترتيل آيات المدح والثناء والتيجان رمز للتكريم والتشريف ، وانظر ، ان « المدينة السماوية » يتألق نورها وكأنه ضياء الشمس ، والشوارع مكسوة أرضها بالذهب ، وفيها سار خلق كثير تلو رؤوسهم التيجان ويسكون بأغصان الغار في أيديهم ، ومعهم قيثارات من الذهب ينشدون عليها ترانيم الثناء والشكر (٢١) .

أما « الجبل للمسكين » الذى تبعمهم ، متمثرا فى عرجه ، دون أن يتزود بالإيمان الصادق ، فإنه يأتى إلى أبواب « المدينة السماوية » ، ويطرقها ، فيسأل عن جواز مروره فلا يجده ، فيلقى به فى الجحيم (٢٢) — إن القصة تروى بشكل جذاب ، ولكننا نعطف أحيانا على « العنيد » الذى يقول عن المسيح ورفاقه ، « هناك فئة من هؤلاء المخبولين المغرورين الذين ، حين يمسون بطرف من الخيال ، يظنون أنهم أعقل حتى من يستطيعون تحكيم عقولهم (٢٣) » .

أن فكرة حج النفس من نطاق المغريات الدنيوية إلى نعيم الآخرة ، فكرة قديمة ، وتلك كانت صفتها المجازية فى العصور الوسطى ، ويحتمل أن بنيان كان قد قرأ بعضا من هذه الكتب (٢٤) . وجو النسيان ذبوله الآن عليها فى عمرة النجاح الخارق الذى لاقتة القصة الجديدة ، حيث صدر منها تسع وخمسون طبعة فى المائة العام الأولى من ظهورها ، وبيع منها مائة ألف نسخة قبل وفاة بنيان . وبيع منها ملايين من النسخ منذ هذا الوقت ، وترجمت إلى ١٠٨ من لغات أمريكا البيوريتانية . وكانت تقتنى فى كل بيت تقريبا . ودخلت منها إلى الحديث الدارج عبارات كثيرة — (سالمخ) . التخلص من الجزع ، غرور الدنيا رجل الدنيا الحكيم . وفى القرن العشرين فقد الكتاب شعبيته بسرعة ، حيث لم يعد للخلق البيوريتانى وجود ، ولم يعد هناك إيمان بما جاء فى الكتب ولم يعد يقتنى ، ولكنه لا يزال فيضا من اللغة الإنجليزية البسيطة العذبة الواضحة .

وضع بنيان نحو ستين كتابا ، وليس ثمة ما يدعو اليوم إلى قراءتها . وبعد إطلاق سراحه للمرة الأخيرة ١٦٧٥ أصبح واحداً من ألمع الوعاظ فى عصره ، والزعيم المعترف به لطائفة المعمدانين فى إنجلترا . وأبدى إعجابه بشارل الثانى . وأمر أتباعه بالولاء والإخلاص لملك أسرة ستيوارت بوصفه درع إنجلترا وحاميها ضد البابا (٢٥) . وبعد انقضاء ثلاث سنوات على إعلان شارل الثانى اعتناقه الكاثوليكية وهو على فراش الموت ، أنهى

بنيان رسالته ، ومن الغريب أن نهايته كانت مثل نهاية لوتر . ذلك أنه حدث في ريدنج (مدينة في وسط إنجلترا) نزاع باعد بين والد وولد كان بنيان مولعا بهما ، فسافر إليهما على ظهر جواد من بدفورد . فأصلح بين القريةين المتخاصمين ، ولكنه عندما قفل راجعا على ظهر جواده ، فاجأته العاصفة وبللته قبل أن يعثر على مأوى يعصمه منها ، وانتابته حمى لم يبل منها قط . وورى التراب في مقبرة للمنشقين في بنهل فيلدز (Bunhill Fields) حيث يرقد حتى اليوم مع شاهد حجري على قبره .

الشاعر الشاب ١٦٠٨ - ١٦٤٠

كان جد ملتون كاثوليكيًا حكم عليه في ١٦٠١ بدفع غرامة قدرها ستون جنيهًا لتغيبه عن الصلوات الأنجليكانية ، وحرّم ابنه من الميراث لأنه تخلى عن الكنيسة الرومانية . أما جون ملتون ، الذي تبرأوا منه وأنكروه فقد حصل على قدر لا بأس به من المال بوصفه كاتبًا صوميا في لندن ، صاحب قلم برع في كتابة أو نسخ المخطوطات والوثائق والمستندات القانونية . وأولع بالموسيقى ، ونظم القصائد الغزلية القصيرة ، واحتفظ في داره بكثير من الآلات الموسيقية ومن بينها أرغن ، وانتقل هذا الانعطاف نحو الموسيقى إلى الشاعر الذي ربما أقر بأن المرء لكي يجيد الكتابة ، لا بد أن تتغلغل الموسيقى في نفسه ، وأن تكون له أذن موسيقية واعية . أما الأم ، ساره جفري ، فكانت ابنة خياط تاجر ، أنجبت لزوجها ستة أبناء كان صاحبنا جون ثالثهم . أما أخوه الأصغر فأصبح مالكيا يدين بالولاء لأسرة ستيوارث ، وواحدًا من رجال الكنيسة التقليدية . على حين أن جون أصبح جمهوريًا يوربانيًا من أنصار كرومول . وكان البيت في « برد ستريت » مؤسسة يوربانية تقية مغلصة ، ولكن غير متزمتة ، فان حب الجمال الذي ساد عصر النهضة ، امتزج هنا بالتذوق إلى الخير والفضيلة ، الذي أتى به الإصلاح الديني .

واشتري جون الأكبر عقارا ، وأنزى ، واستخدم معلمين (بيوريتانين) من أجل جون الأصغر ، وأرسله في سن الحادية عشر إلى مدرسة سانت بول . وهناك تعلم الصبي اللاتينية واليونانية والفرنسية والإيطالية وبعض العبرية ، وقرأ شكسبير ولكنه آنز عليه سبنسر . وأنا لاحظ ، طبرين ، أنه تأثر كثيرا بالترجمة الإنجليزية لكتاب « الأسبوع » مؤلفه دى بارتاس (١٥٧٨) ، وهو عبارة عن ملحمة تصف خلق الدنيا في سبعة أيام :

كان بي نهم شديد إلى العلم والمعرفة ، إلى حد أنى ، منذ بلغت الثانية عشرة كدت لا أترك الكتاب أبداً ، ولا آوى إلى النوم قبل منتصف الليل . وهذا أدى في الأساس إلى فقد بصرى . وكانت عيناي (مثل عيني أمه) ضعيفتين بطبيعتهما ، وكنت عرضة للإصابة بالصداع كثيرا ، ولكن هذا على أية حال لم ينقص من حبي للاطلاع ، ولم يعوق تقدمي في التحصيل (٢٦) .

وفي سن السادسة عشرة انتقل إلى كريست كوليدج في كمبريدج . وهناك أدى نزاعه مع أحد المدرسين إلى التضارب والتلاكم بالأيدي . وأحس صمويل جونسون « بالهجل حين أروى ما أخشى أن يسكون حقيقة ، وهى أن ملتون كان من أواخر من وقعت عليهم العقوبة البدنية من طلبة الجامعاتين كليهما » (٢٧) . وطرده لمدة فصل دراسى واحد ثم سمح له بالعودة ، وكان بالفعل ينظم شعرا جيدا . وفي ١٦٢٩ ، وهو فى الحادية والعشرين ، نظم قصيدة غنائية رائعة فى الاحتفال « بصبيحة عيد الميلاد » . وبعد ذلك بعام واحد ، نظم قصيدة من ستة عشر بيتا ، أحياء لذكرى شكسبير ولتنقش على قبره ، وقد ووفق بعد ذلك على نشرها فى الطبعة الثانية لأعمال شكسبير : —

ما حاجة شكسبير العزيز إلى جهد جيل فى إقامة أحجار مسكونة لهظامه .
المكرمة ، أو لإخفاء رفاقه المقدسة تحت هرم يشير إلى النجوم ؟
أيها العزيز الذى لا يغيب عن الذاكرة ، أيها العقائم سائل الشهرة ، ماذا

يريد من شاهد هزيل على اسمك الرنان (*) .

وقضى ملتون في كمبردج ثمان سنوات ، وحصل على درجة البكالوريوس في ١٦٢٨ ، والماجستير في ١٦٣٢ . ثم تركها دون أن يحس بالولع المعروف في المتخرجين بحضور يوم السكية التي تخرجوا فيها . وكان أبوه يتوقع أن ينخرط في سلك الخدمة السكوتية . ولكن الشاب المغرور أبى أن يقسم بيمين الولاء للمذهب الأنجليكاني وطقوسه الدينية : —

ومذ رأيت كيف غزا الطغيان الكنيسة — بمعنى أن الذي يرسم قسيسا يجب أن يتعهد بأن يكون عبدا رقيقا ، وفوق ذلك يقسم اليمين الذي لو لم يلتزم به إلزاما يبعث على الضجر فإنه أما أن يحنث في يمينه أو يرأى في إيمانه — فأنى وجدت من الأفضل ايثار الصمت البريء أمام الوظيفة المقدسة ، وظيفه الكلام والوعظ ، التي تشتري بالعبودية والقسم الكاذب (٢٩) .

وآوى ملتون إلى بيت والده الريفي في هورتون بالقرب من وندسور ، ومن الواضح أن والده تولى الاتفاق عليه هناك ، وتابع هو دراساته ، القديمة بصفة أساسية ، إلى أن أُلْمَ حتى بأصغر المؤلفين اللاتينيين شأنا . وكتب قصائد باللغة اللاتينية ، أثنى عليها كاردينال كاثوليكي . وسرطان ماجمل دفاعه باللاتينية عن سياسة كرومول برن صدها في أنحاء أوروبا . وحتى حين كتب نثرا بالإنجليزية ، فإنه كتب باللاتينية حيث كان يخضع الإنجليزية لتقديم وتأخير وتعقيدات والتواءات كلاسيكية ، واسكنه كان يكتب في لغة غريبة ساحرة رنانة .

ويحتمل أنه في هورتون وسط الحقول المورقة والخضرة في الريف الإنجليزي ، كتب القطع المزروجة ، التي خللت ذكرى الابتهاج الخالي من

(*) يؤسفنا أن نضيف أنه لما وكل إلى ملتون مهمة الدفاع عن اهدام شارل الأول ، ذكر من بين المساويء التي تلطخ ذكرى هذا الملك اهتزازة ووامه بشكسبير (٢٨) .

ألم ، ونوبات السكابة في شبابه العابر ، سواء بسواء . إن كل سطر من « Allegro » يطالب بأن يتغنى به الناس . و « اللجرو » هي « الإبنة الجميلة . للممتلئة الجسم ، للرحمة اللطيفة ، المولودة من « زفير » الريح الغربية العلية . وهي تداعب أورورا الفجر » أن كل شيء في مشهد الربف يدخل الآن البهجة على قلب الشاعر : القنبرة تشق سكون الليل ، الديك يحتال في مشيته أمام دجاجاته ، الكلاب تقفز عند سماعها بوق الصياد ، شروق الشمس « في أشعة وضاعة في لون الكهرمان » (أصفر ضارب للحمرة) : بائعة اللبن التي تغنى والقطعمان التي تلوك غذاءها ، ورقص الشبان والشابات على الحشائش ، والأمسيات بجوار المدفأة أو في المسرح :

إذا مثل بن جونسون احدى تمثيلياته الراقية أو صدح شكسبير الشاعر العذب القوى الخيال بألحان الغابة الشعبية الفطرية الموسيقى .

وتفك الأغلال التي تقيد روح التألف والانسجام الخفية ، إنك إذا استطعت أيها المرح أن توفر لى هذه المباحج كلها ، فإنى أود أن أحياء معك .

وحتى الآن لم يكن ثمة بيوريتانى متجههم عبوس مكتئب ، بل شاب إنجليزى مفعم بالصحة يجرى في عروقه بعض دم شعراء عصر اليزابث .

ولكن طراً بين الحين والحين مزاج آخر ، حتى بدت هذه المسرات تنافه للعقل المفكر ، حين يتذكر المأساة (القراجيديا) ، وينقش عن مغزى ، ولا يجرد في الفلسفة إجابات ، بل تساؤلات لم يحس بها من قبل . عندئذ يأتى « Penseroso » المفكر : يسير دون أن يراه أحد :

حيث يرى القمر المتجول ، راكباً قرب الظهيرة ، وكأنه رجل ضل الطريق ، عبر السموات المترامية الأرجاء الخالية من المسالك . أو يجلس وحيداً إلى جانب المدفأة :

حيث الجرات المتوهجة في الغرفة تعلم الضوء كيف يسكتسى بالظلمة بعيداً عن أى مصدر للاهتمام والفرح ، اللهم إلا صرار الليل على الموقد .

أو أنه تابع « في برج طال بمنزل » ، تغلبت عليه النجوم ، يقلمب
صفحات أفلاطون ، ويقسماء ابن المساء .

أية عوالم وأية أقطار شاسعة تنسع لهذا العقل الخالد الذي تخلق عن
قصره في زاوية من جسده .

أو هو يتذكر مآسى العشاق والميتات الحزينة للملوك . وخير من هذه
الفلسفة الصارمة هناك « صحن الدير الذى يعج بالجهد والجد فى العمل
والدرس » فى الكاتدرائية الكبرى ، ونوافذها التى تروى مشاهد التاريخ
وضوئها المظلل :

فليعزف الأرغن المجلجل ، للمرتلين ذوى الأصوات الممتلئة أدناه ، فى
أصوات عالية وترنيمات صافية ، فلربما غمرتنى عذوبة الأنغام فى أذنى بنشوة ،
وأبرزت كل السموات أمام ناظرى » .

تلك هى المتعة والمسرات التى يجدها « الرجل المفكر » ، وإذا بدت
مرتبطة بالكسابة ، فإن الشاعر سيقضى حياته مع الكسابة . فى هاتين
القصيدتين البهيجتين ، يكشف ملتون عن ذاته وهو فى الرابعة والعشرين ،
شابا تتحرك مشاعره لكل ما فى الحياة من جمال ، ولا يجد حرجا فى
المسرات والملذات ، كما وجد التفكير الحير فى الحياة والموت طريقه إلى
نفسه فتأثر به ، كما أحس بالصراع بين الدين والفلسفة يحتمل بين جوانحه .

وحانت أول فرصة ليرز فيها الشاعر ويذبح صيته فى ١٦٣٤ حين كاف
بكتابة مسرحية ريفية يمثلها ممثلون مقنعون فى الاحتفالات بتولية ارل
رد جروتو رئيسا « لمجلس الغرب » . ولحن هنرى لاوس الموسيقى التصويرية .
أما شعر ملتون فكان مجهولا اسم مؤلفه تواضعا . وكان موضع ثناء واطراء ،
إلى حد أنه حمل على الاعتراف بأنه مؤلفه . واطراء سير هنرى وتون
قائلا : فى أغانيك وقصائدك رقة دورية (نسبة إلى الدورين الذين غزوا
بلاد الأغر يق فى القرن ١٢ ق . م) لم أر لها مثيلا فى لغتنا حتى اليوم (٣٠)

« وكان عنوان القطعة في الأصل « مسرحية في قصر لدلو (في شروايشير) ، أما اليوم فهي تسمى « كومس Cornus » (المسرحية) وقد مثلها اثنان من صغار النبلاء مع شقيقةتهما ، وكانت فتاة في ربيعها السابع عشر ، من وصيقات الملكة هنريتا ماريا . وعلى الرغم من أن معظم المسرحية كان شعرا مرصلا غير مقفى ، محشوا بالأساطير ، فقد كانت زاخرة بالغناء العاطفي المرح والأناقة الرائعة الشجية : وتميزت ببراعة لم تتكرر في شعر ملتون فيما بعد وكانت الفكرة الرئيسية فكرة تقليدية : حذراء فاتنة ، تتجول في الغابات على غير هدى ، وهي تشدو : « بأغنيات رعاة خلقت نفسها من تحت برائن الموت » .

ويدنو منها الساحر « كومس » ويقرأ عليها تعويذة حتى تتخلى عن عفتها ، ويتوسل إليها أن تلهو معه ، وقد تألقت نضارة وشبابا ، فتدافع الفتاة ، في فصاحة بالغة عن الفضيلة وضبط النفس و « انقاسفة السماوية » ، وجرت كل الأبيات على خير وجه . فيما عدا قطعة ربما كانت مشثومة ، أشارت إلى « الجمهورية » ، كان من المحتمل أن تؤدي بهذا الجمع الحاشد المسرف النفور والاستياء :

إذا كان لكل رجل منصف ، يصيبه الآن الهزال والنحول تحت وطأة العوز قدر متواضع يليق به ، من هذا الترف الفاجر الذي تنعم به الآن . فئة قليلة في إسراف بالغ ، لتوزعت كل خيرات الطبيعة توزيعا عادلا في أنصبة متساوية غير زائدة عن الحاجة ، ولما اختزنت الطبيعة مثقال ذرة . هذه الخيرات (٣١) .

وفي ١٦٣٧ اعتل مزاج الشاعر وتكدر صفو حياته بفراق صديقه الشاب ورفيقه الشاعر إدوارد كنج . وأسهم ملتون في كتاب تذكاري عن كنج ، بقصيدة رثاء « ليسيداس » Lycidas منظومة في شكل رعوى مصطنع محشوة بالآلهة الموتى ، ولكنها غنية بالأبيات التي لا تزال تهاق فيمها الذكرى الحبيبة .

وا أسفاه ماذا يحملنا على أن نرهق أنفسنا بهذا الهم المقيم ، في النهوض بصنعة الراعى (نظم الشعر) البسيطة المحتقرة ، وللتأمل بكل ما أوتينا من قوة في ربة الشعر الجحود ؟ . أما كان من الخير ، كما يفعل الآخرون ، أن يلهو ويلعب مع الراعية أما ريلاس فى الظل ، أو يعبت بمخصلات شعر « نيرا » . أن الشهرة هى الحافز الذى يثير الروح الصنافية وهى آخر الوهن فى العقل الرفيع) ، ليزدرى بالمباهج ، ويسكد ويشقى طوال أيامه . ولكن حين تأمل فى الحصول على الجزاء الوفاق . وتفكر فى الانطلاق إلى الوهج الخاطف تأتى « الروح العمياء » (ملك الموت) بآلاتها البغيضة ، لتقضى على الحياة الواهنة الخيوط .

ويبدو أن جون ملتون الأكبر (الوالد) أحس بأن ست سنوات من الإنصراف إلى العمل فى روية وأناة فى هورتون كانت جزاء وفاقا للموهبة التى أبدعت مثل هذه القطع الغنائية ، وليكمل حسن صنيعه أرسل ابنه ليتجول فى أنحاء القارة مع دفع كل النفقات . وغادر ملتون إنجلترا فى أبريل ١٦٣٢ يرافقه خادم . وقضى بضعة أيام فى باريس (وكانت آنذاك تحت قبضة ريشليو العسكرية) ، وأمرع إلى إيطاليا ، حيث أقام شهرين فى فلورنسة ، زار خلالها جاليليو الكفيف نصف السجين ، وألتقى برجال الأدب ، وجاس إلى الجامعيين ، وتبادل معهم التحية فى شعر باللاتينية ، ونظم بالإيطالية قصائد السونيت ، وكأنه نشأ وترعرع على ضفاف نهر أرنوا أو نهر بو . وفى نابلى استقبله ورحب به وكرمه نفس المركيز مانسو الذى صادق وناصر تاسو ومارينى من قبل . وقضى فى رومه أربعة أشهر ألتقى فيها ببعض الكاردينالات للثقفين وأحهم ، ولكنه أعلن بصراحة مذهبه البروتستانتى . ثم عاد إلى فلورنسة ، ثم قصد إلى البندقية عبر بولونيا وفيرارا ، ثم ذهب إلى فينيز عبورا بمدينة فيرونا وميلان ثم قفل راجعا إلى لندن مروراً بمجنيف وليون . وباريس (أغسطس ١٦٣٩) .

وفى كتاباته الأخيرة دون قطعتين مشهورتين عن رحلته فى إيطاليا .

واكتب ردا على تعريض أحد الخصوم به : « أشهد الله أنه في كل تلك
الأمكان التي لا تلتقي فيها الرذيلة إلا أيسر الاستنكار والتثبيط ، وترتكب
في أقل خجل وأيسره ، لم أحد أنا قط من جادة الفضيلة والزاهة (٣٢) » .
ويتذكر كيف امتدح النقاد الايطاليون شعره :

وهكذا بدأت أوافق كل الموافقة على ما ذكره هؤلاء النقاد الايطاليون
أو يقول نهر من أصدقائي هنا في بلدي ، كما استمع بنفس القوة إلى استحضات
داخلي بنمو بين جوانحي كل يوم ، من أنه بالعمل الجاد والانكباب على
الدرس (وهذا ما اعتبره قدرى في هذه الحياة) بالإضافة إلى الليل الطبيعي ،
بهذا كله يمكن أن أخلف شيئا مكتوبا للأجيال القادمة ، قد لا يرتضون أن
يقنى (بل يبقى ويخلد على الزمن) (٣٣) .

وبدأ ملتون الآن يخطط للمهمة تخلص ذكر وطنه وعقيدته . وتخلصه
على مر القرون . وكان لزاما أن تمضي الآن عشرون سنة قبل أن يتمكن من
البدء فيها ، وتسع وعشرون سنة قبل أن يتمكن من نشرها . وفيما بين فترتي
نظمه الشعر : الفترة الأولى (١٦٣٠ - ١٦٤٠) والثانية (١٦٥٨ - ١٦٦٨) ،
لعب دورا في الثورة الكبرى ، وسفر قلعه للحرب والنشر .

٣ — المصالح : ١٦٤٠ — ١٦٤٢

في ١٦٣٩ استأجر ملتون مسكنا لرجل أعزب في « سانت بريد تشير
شيارد » في لندن ، حيث تولى التدريس لأبناء أخته . وبعد سنة واحدة
انتقل معهم إلى أولد رزجيت ستريت « ، وهناك (١٦٤٣) استقبل عددا
آخر من التلاميذ بين سن العاشرة إلى سن السادسة عشرة آوام وعلمهم ،
وحصل من ذلك على دخل متواضع يكفل به المبلغ الذي خصصه له والده .
وفي كتاب إلى « مستر هارتلب (١٦٤٤) صاغ ملتون آراؤه في التعليم .
فأتى لهذه اللفظة بتعريف قوى رائع : « أقول أن التعليم التام الواسع هو
الذي يعد الانسان لينهض ، بحق ومهارة ورعاية صدر ، بكل مهامه الخاصة

والعامة ، في السلم والحرب ، سواء بسواء (٣٤) ، وأول واجب على المعلم هو أن يغرس الخلق القويم في نفس التلميذ ، « ويصلح ما أفسده آباؤنا الأولون » — أى أن يقهر نزعة الشر الطبيعية في الانسان (الخطيئة الأولى) — أو (كما يجدر بنا أن نذكر الآن) أن يعيد تكييف الخلق القويم الذى سبق تشكيله وفقا لحاجات مرحلة الصيد ، نقول تكييفه تبعا لمتطلبات حياة المدنية الحالية . وأحس ملتون أن هذا يمكن تحقيقه على خير وجه بأن يغرس في الذهن الناشئ « إيمانا قويا بالله واحد بصير ، وأن نعوذه على ضبط النفس وفقا لنظام رواقى (التحرر من الانفعال ، عدم التأثر بالفرح أو الحزن ، الخضوع دون تدمير لحكم الضرورة) وضرب لتلاميذه مثلا يحتذونه : « الدراسة الشاقة والطعام اليسير » . فقلنا أجاز لنفسه يوما « اللهم والمتعة (٣٥) وبعد الدين والأخلاق ، يجب أن تأتى الدراسات اللاتينية والأغريقية القديمة ، والتي لم يستخدمها ملتون مجرد نماذج للأدب ، بل وسائل لدراسة العلوم الطبيعية والجغرافيا والتاريخ والقانون والأخلاق والفسيولوجيا والطب والزراعة وهندسة العمارة ، والخطابة والشعر والفلسفة واللاهوت . وإذا كان هذا التوفيق الفريد بين العلم والانسانيات قد افترض أن النزر اليسير قد أضيف إلى العلم منذ سقوط رومه ، فيجب أن نلاحظ أن هذا حقيقى فعلا ، اللهم إلا بالنسبة لجاليلىو ، بل أن كوبر نيكس نفسه كان له سلفه الأغريقى فى شخص أرسنار خوس . وفوق ذلك ، اقترح ملتون تعريف لتلاميذه كذلك ببعض النصوص الحديثة فى العلوم والتاريخ ، لحتى ببعض النماذج الحية فى الفنون العملية ، وكان يأمل فى أن يستقدم إلى حجرات الدراسة صيادين وبحارين وبستانيين ومشتغلين بالتشريح وصيدالين ومهندسين ومهاريين ، لينقلوا إلى التلاميذ أحدث ألوان المعرفة فى هذه المجالات (٣٦) وخصص وقتا كافيا للموسيقى والتمثيل ، وساعة ونصف الساعة يوميا للرياضة البدنية والتدريب العسكرى . ويمكن أن يطوف طلابه أرجاء البلاد فى جماعات على سهوات الجياد ، يرافقهم أدلاء معروفون

بالزراعة والحصافة ، ليتعلموا ويلاحظوا ، « أو » يلتحقون بالبحرية بعض الوقت ليتعلموا الملاحة ومصارعة البحر ، وأخيراً وبعد بلوغهم سن الثالثة والعشرين ، يمكنهم أن يسيحوا خارج إنجلترا . وهذا برنامج شاق ، ليس لدينا دليل على تطبيقه تطبيقاً كاملاً في مدرسة ملتون ، وربما كان في حينه الامكان تطبيقه لو أن التلاميذ اقتبسوا من معلمهم شيئاً من غيرته وجدده .

وراوده أحياناً حلم إنشاء أكاديمية تنافس أكاديمية أنلاطون وأرسطو . ولكنه افتتن بأحداث العصر البارزة واشغل بها . من ذلك أن التثام البرلمان الطويل (١٦٤٠) كان نقطة تحول في حياته ، بل يكاد يكون تحولاً عنيفاً غير طبيعي عن الشعر والتعالم إلى السياسة والإصلاح . وفي ١١ ديسمبر قدم حزب « الجذر والفرع » البيوريتاني الذي انقرب إليه بعض أصدقائه . قدم إلى البرلمان عريضة صارخة متهورة بخمسة عشر ألف توقيع (يحتمل أن يكون من بينهم ملتون) يلتمسون فيها إقصاء الأساقفة عن الكنيسة الإنجليزية . ورد جوزيف هول أسقف أكتر على العريضة « باحتجاج متواضع إلى المحكمة العليا في البرلمان » (يناير ١٦٤١) ، دافع فيه عن النظام الأسقي بأنه مأخوذ عن « عصر الرسل الأبرار بلا انقطاع ٠٠٠ حتى العصر الحاضر (٣٨) » فاستل خمسة من السكينة للشيخين أقلامهم في « الرد على الاحتجاج المتواضع » (مارس ١٦٤١) وقعه باسم مستعار مكون من الأحرف الأولى من أسمائهم (*) . ورد الأسقف هول وبعض الأسقفيين الآخرين ، وأقر مجلس العموم الاقتراح ، ورفضه اللوردات . واشتد الجدل على اللنابر وفي الصحف وفي البرلمان ، وانضم ملتون إلى للجمعية بكتيب من تسعين صفحة « إصلاح يمس نظام الكنيسة في إنجلترا » (يونيو ١٦٤١) .

وفي عبارات قوية لاهثة ، استوعب بعضها نصف صفحة ، عزى ملتون تدهور الكنيسة الرسمية إلى سببين : الإبقاء على الطقوس الكاثوليكية ،

(*) هم ستيفن مارشال ، آدموند كالامى ، توماس بنج ، ماتيو زوكوم .

واحتكار الأساقفة لسلطة تعيين القساوسة . وهزأ ملتون « بهذه الطقوس الفارغة التي لا معنى لها ، والتي تحتفظ بها الكنيسة لمجرد أنها علامة خطيرة للإنزلاق نحو روميه ، والتي لا تستخدم إلا كمجرد مسرحية تعرض أبهة الأساقفة » (٣٩) . إن الأساقفة — كانوا يتسللون خلسة إلى الكاثوليكية في طقوسهم — وتلك طعنة صريحة لرئيس الأساقفة لود الذي كان قد قدمت له قبعة الكاردينالية . وأنكر ملتون مازحه جيمس الأول وشارل الأول من أن الأساقفة ضرورة لازمة لحكومة الكنيسة وللنظم للملكية . وأهاب بالاسكتلنديين المشيخيين أن يواصلوا حربهم القديمة ضد النظام الأسقي ، وتضرع إلى الثالث الأقدس أن يرعى للصالح العامة :

يا الهى : أول عنايتك لـكنيستك البائسة التي كادت تنهار وتلفظ أنفاسها الأخيرة ، لا تتركها هكذا فريسة لتلك الذئاب للزعجة التي تهرس وتفكر طويلا لتلتهم قطيعك الوديع ، تلك الخنازير البرية التي سعلت على كرمك ، وتركت بصمات حوافرها للندسة على نفوس عبادك . لا تدعهم ينفذون خططهم اللعينة التي تقف الآن على مدخل الهاوية غير ذات القرار ، مترقبة أن يفتح الحارس ويطلق الجراد والعقارب الفتاكة ، لتحتويننا في غلام جهنم الدامس ، حيث لن تشرق علينا بعمده شمس حقيقتك ، ولن نعود نأمل في بزوغ الفجر البهيج ، أو نسمع زقزقة المصافير في الصباح (٤٠) .

واختتم هذه العبارة بإلقاء جماعه الطقوس التقليدية في الجحيم : ولكن أولئك الذين يتوقون إلى مناصب الحكم الرفيعة والارتقاء هنا في هذه الدنيا ، على حساب إفساد عقيدتهم الحقمة والانتقاص منها ، وعلى حساب كروب بلادهم واستعباده ، لا بد أنهم ، بعد خاتمة مزرية في هذه الحياة (التي وهبهم الله إياها) ، سيأق بهم في الدرك الأسفل من النار ، وهناك يتلقاها من سبقهم من المحكوم عليهم بالهلاك الأبدي ، فيتحكون فيهم في حقد وحسد ، ويطأونهم بأقدامهم ويزدرونهم ، وفي حماة تمذيبهم ، ان يجدوا الراحة إلا في ممارسة أشد ألوان الطغيان عسفاً ووحشية ، معهم

بوصفهم أرقاءاً وعبيداً لهم ، وسيبقون على هذه الحال إلى الأبد ، مخلدين في أحط وأسفل مهاوى الهلاك الأبدى وأشدّها كآبة واحتقاراً واضطهاداً (٤١) .

وعندما رد الأسقف هول على القساوسة الخمسة للمشيخيين وهاجمهم بعنف ، انبرى ملتون لنصرتهم في بيان طائف لا بد أنه أخرج الأسقف وهو في الخامسة والستين من رده الكهنوتى : « نقد للاذع لدفاع المحتج على بيان المشيخيين » ، ظهر ، مجهولاً كاتبه ، في يولييه ١٦٤١ . واعتذر ملتون في مقدمه عن عنفه فقال :

في الكشف عن إنسان سيء السمعة عدو للحق ، ولسلام بلاده وإدائته وبخاصه إذا اغترباًن له لساناً ذريعاً منطلقاً مؤثراً ، فإنه لا يتنافى مع اعتدال المسيحية وتواضعها أن ترد على مثل هذا الرجل بأسلوب أعنف وأشد من أسلوبه ، وأن تشيع غطرسته إلى مثواها مضطجعه بمائه المقدس (٤٢) .

وأعاد الأسقف وابنه السكره ببيان عنوانه « حججه داحضه متواضعه جديدة » (يناير ١٦٤٢) هاجم فيه كاتب « النقد للاذع » بحجة تميز بها هذا العصر المغيظ المحقق (٤٣) . فرد ملتون كيد الأسقف في تحريره ببيان عنوانه « دفاع ضد الحججه الداحضه المتواضعه » (أبريل) اعتذر فيه مرة أخرى عن سوء معاملته للأسقف هول ، وشجب القرية العريضة « التى أورد ها هول » وهى اتهام ملتون بأنه طرد من كبرديج ، وأكيد ملتون للعالم بأسره بأن زملاءه فى « كريست كوليدج » دعوه ، بعد تخرجه ، للإقامة معهم ، وأكيد من جديد طهارته التى لا مطعن فيها :

على الرغم من أنى لم ألقن إلا قدراً يسيراً من المسيحية ، فإن شيئاً من التحفظ والنزعة الطبيعية والقواعد الخلقية ، استقيمت من أنبل فاسفة ، كان كافياً ليجعلنى ، أحتقر من ألوان الفجور ما هو أقل كثيراً مما يجرى فى المواقير . ولكنى قد عرفت مبداً الأسفار المقدسة التى تكشف عن الأسرار السامية الطاهرة . . . التى تقول بأن « الجسد للرب ، والرب للجسد »

فإنى كذلك سألت نفسى : إذا كان التجرد عن العفة فى المرأة التى ينتمى لها القديس بولس بأنها فخر الرجل ، ففضيحة وخزيا وعاراً ، فالأمر يقيناً كذلك فى الرجل الذى هو صورة الله وفخره معاً ، فإنه لا بد أن يكون أشد فساداً وعاراً ، لأنه يقترب الإثم ضد جسده ، وهو الجنس الأكمل ، وضد فخره الذى يمكن فى المرأة ، والآنكى من ذلك ضد صورة الرب وفخره ماثلين فى شخصه هو (٤٤) .

ومن ثم نحمد ملتون يرثى لأحلاق كثير من الشعراء القدامى ، ويؤثر عليهم دأبى وبتاراك ، اللذين لم يكتبيا قط إلا تسكريماً وتشريفاً منهما لأولئك الذين نذرا لهم أشعارهما التى عرضا فيها أفسكاراً سامية نقية ، دون تأنيب وانتهاك للحرمات . ولم ألبث إلا قليلاً حتى تأكدت عندى هذا الرأى : إن هذا الذى لا يمكن أن يخيب أمله فى أن يكتب كتاباً جيدة ، يحذر أن يكون هو نفسه قصيدة صادقة ، أى مركباً مكرواً من أفضل لأشياء وأشرفها ، لا يقدم على أن يكون قصيدة عقود مدح وثناء للرجال البطوليين أو المدائن المشهورة ، إلا إذا أوتى من التجربة والخبرة والمران على كل ما هو أهل للثناء والاطراء (٤٥) .

وبعد هذا المثال الذى اقتبسناه ، انتقل ملتون إلى الحديث عن قديم الأسقف وجوربه الذى يبعث « برأىحه منتنه إلى السماء » ، وإذا بدت هذه اللغة غير لائقة باللاهوت فإياه دافع عنها « بقواعد أعظم الباطن » وبأنه يحذو حذو لوثر ، وذكر قراءه بأن « المسيح نفسه وهو يتحدث عن التقاليد البغيضة لا يتردد فى استعمال ألفاظ مثل الغائط والمرحاض » (٤٦) .

والآن نكتفى بهذا القدر من النزاع السكريب ، الذى سقناه لأنه يلقى ضوءاً على شخصية ملتون وعلى آداب السلوك فى ذلك العصر ، ولأنه وسط هذا الهراء القاسى وفوضى الأجرومية والجل الطويلة ، كانت هناك قطع نثرية ذات جرس موسيقى ، مشرقة تمز المشاعر مثل شعر ملتون ه — قصة الحضارة

وفي نفس الوقت (مارس ١٦٤٢) ، كان قد نشر باسمه كتيباً أكثر موضوعية : « اثار تفكير حكومة الكنيسة في حظر السلطة الأسقفية » : « هذا النير البغيض الذي لا يمكن أن يزدهر أى عقل حر أو موهبه ممتازة تحت وطأة ما يفرضه من غباء وعداء تعسفى وطفيان » (٤٧) . وسلم بالحاجة إلى نظام أخلاقى واجتماعى . والحق أن ملتون أدرك أن فى نهوض النظام وسقوطه مفتاح ارتقاء الدول وانهيارها :

ليس فى هذا العالم شىء أعظم أهمية وأشد إلحاحاً وخطراً فى كل حياة الإنسان بأسرها من النظام . وهل أنا فى حاجة إلى ضرب مثل على ما أقول ؟ إن كل من قرأ فى تبصر وتدبر عن الأمم والدول ٠٠٠ لابد أن يقر على الفور بأن ازدهار المجتمعات المتحضرة واضمحلالها ، وكل تحركات الأحداث البشرية وتحولاتها ، إنما تروح وتجيء وكأنها على محور عجلة النظام . وأنه ليس نعمة كمال اجتماعى فى هذه الحياة ، مدنى أو دينى ، يمكن أن يسمو فوق النظام وقواعد الانضباط . لأن النظام هو الذى ، بفضل أوتاره الموسيقية يحافظ على كل أجزاء الحياة ويسك بها متضامة بعضها إلى بعض (٤٨) .

ومثل هذا النظام ، على أية حال يجب ألا يستقى من أية هيئة كهنوتية متسلسلة فى رتب كنسية ، بل من ادراك أن كل إنسان بذاته يمكن ان يكون كاهناً .

وفى كل المراحل كان ملتون يعنى ويدرك كل قدراته ومواهبه . أنه قدم للجزء الثانى من رسالته بقطعة عن سيرة حياته ، أبدى فيها حزنه لأن النزاع قد باعد بينه وبين إخراج عمل عظيم شغل باله طويلاً : إن هذا الذى أداه أعظم العباقرة وصنوفهم فى أثينا وروم أو إيطاليا الحديثة ، والبرانيون القدامى : لبلادهم ، يمكن أن أقوم به أنا لبلدى ، بدورى ، ويقدر حظى من الحياة والعمل ، هذا بالإضافة إلى أنى فوق كل شىء مسيحى (٤٩) . « وروى ملتون كيف أنه كان بالفعل يعد الموضوعات التى يضمها مثل هذا

الكتاب . ولكنه أراد به صملا يستطيع من خلاله « أن يصور تصويرا نابضا بالحياة وبصف . . . سجل الطهر والفضيلة بأسره » ، و « كل ما هو سام ومقدس في العقيدة الدينية » (٥٠) ، « وكأنها » كان يتنبأ بأن الأعوام الستة عشر قد تنقض قبل أن تدع له الثورة الكبرى فرصة للشروع في الكتابة : فقال يعتذر عن تأخره :

لست أخجل من الاتفاق مع قارئ فطن ذي دراية ، على أنه في بضع سنين يتعهد بدفع ديونى الحالية ، لأنه عمل ليس تناجا لنزوة الشباب أو لعب الخمر بالعقل ، مثل هذا المذنب يسيل به « قلم عاشق شرس » بذىء في أوقات الضياع ، أو شاعر متطفل في فورة حقه . كما أنه عمل لا يمكن إنجازه بالتضرع وقراءة التعاويذ للذاكرة وبناتها المغويات (بنات الأفكار) ، بل بالدعوات والصلوات المخلصة الخاشعة « للروح الأبدى الخالد الذى يستطيع انراءنا بالتعبير والمعرفة ، ويبعث إلينا بأحد ملائكتة (وحارس عرشه) ساروفيم ، مع نار مذبحه المقدسة ، ليمس ويطهر شفقتى من يشاء . ويجدر أن يضاف إلى هذا ، دأب على القراءة الجادة المنتقاة ، ومثابرة على الملاحظة الدقيقة ، وتبصير بالفنون والمسائل العامة الجذابة والواسعة ، حتى إذا تم العمل ، إلى حد ما تحت مسؤوليتى وبجهدى الخاص ، فإنى عندئذ لا أرفض أن أذكرى هذا الأمل المنشود عند كثير ممن لا ينفرون من المفارقة بالوثوق إلى هذا الحد بما أقطع على نفسى لهم من تعهدات أو وعود (٥١) .

٤ - زواج وطلاق ١٦٣٤ - ١٦٤٨

في « الحجة الداحضة المتواضعة » كان الأسقف هول قد اتهم ملتون بأنه يسمى لشهرة أدبية ، ويطن عن مواهبه وقدراته وتجاربه وثقافته وبيئته السابقة ، أملا في الفوز « بأرملة ذات ثراء » أو أية جائزة أخرى . وفى « الرد » عليه حمد ملتون إلى تسفيه هذه الفسكرة والتنديد بها ، وقال أنه « على النقيض من ذلك ، « نشأ فى بمحبوحة من العيش » . واتفق فى الرأى مع « أن أولئك الذين يؤثرون فى حكمة وتبصير وبروح طيبة هم الذين هم غير ذائبي »

تراء عريض ، وذات أصل كريم ، على أغني الأرامل ، (٥٢) . وبينما
انسأقت أنجلترا إلى الحرب الأهلية (١٦٤٢) ، انطلق ملتون إلى الزواج
(١٦٤٣) .

لم ينضم ملتون إلى جيش البرلمان ، وعندما اقتربت القوات الملكية من
لندن (١٢ نوفمبر ١٦٤٢) نظم قصيدة (سونيت) يشير فيها على قادتها أن
يحموا بيت الشاعر وشخصه ، كما فعل الاسكندر الأكبر مع الشاعر بندار
من قبل ، واعداد إيام بأن ينشر على الملأ شعرا « حسن صنيمهم (٥٣) » .
على أن القوات الملكية ردت على أعقابها . ولم يمس بيت ملتون بأذى ،
وبقى ليستقبل زوجته .

وكان ملتون قد التقى بماري باول Powell في فورست هل في اكسفورد
شير ، حيث كان والدها قاض الصلح . وهذا الوالد ، ريتشارد باول كان
قد اعترف من قبل ، في ١٦٢٧ ، بأنه مدين لملتون ، وكان آنذاك في
كبردرج ، بمبلغ ٥٠٠ جنيه ، خفف فيما بعد إلى ٣١٢ ، ولكن لم يسدد
بعد . والظاهر أن الشاعر قضى عند أسرة باول شهراً (مايو - يولية ١٦٤٣)
ولسنا ندرى ليسترد الدين أو يحظى بزوجة . وربما أحس جون وهو في
الرابعة والثلاثين ، بأنه قد آن الأوان للزواج والنسل ، وواضح أن ماري
كانت تتخلى بالمعذرية التي ينشدها . وفاجأ أبناء أخته بمودته إلى لندن
متأبط ذراع زوجة .

ولم تدم السعادة طويلا لأحد . فقد كره أبناء الأخت ماري كدخيلة
عليهم ، وكرهت هي كتب ملتون ، وافتقدت أمها و « القدر الكبير من
الصحة والأنس والبهجة والرفص . » الذي كانت تنعم به في فورست هل .
ويقول أوبري « كثيراً ما كانت تسمع أبناء الأخت هؤلاء يضربون
فيتعالى صراخهم (٥٤) مذكرأي ملتون أن ماري محدودة التفكير ضيقة
الافق ليس لديها سوى التذو اليسير من الأفسار ، التي هي في جلتها ملكية »
فأله انصرف ثانية إلى كتبه . وتحدث فيما بعد عن « شريكة حياة يسكاه

جامدة كثيفة لا روح فيها ، ورنى « للإنسان الذى يجسد نفسه مرتبطاً بأوثق رباط بهيكل من طين وبلغم ، كان يأمل منه أن يكون شريك مجتمع تملؤه السعادة والبهجة والسرور (٥٥) » ويعتقد بعض الباحثين فى الزواج غير المتسكاف أن مارى أثبت عليه البناء بها (٥٦) . وبعد شهر طلبت السماح لها بزيارة والديها ، فوافق ملتون ، مع التفاهم بينهما على عودتها . ولكنها ذهبت ولم ترجع . وبعث إليها برسائل تجاهلها ، ولما لم يجسد أى متفلس آخر لمشاعره ، كتب ونشر دون توقيع « مبدأ الطلاق ونظامه » (أغسطس ١٩٤٣) ، وأهداه إلى « برلمان إنجلترا والجمعية » أى جمعية وستمنستر التى كانت تصوغ آنذاك اعترافاً بالمذهب المشيخي . وتقدم إلى البرلمان بـرجاء أن يتحلل من أغلال التقاليد ، ويسير بالإصلاح قدماً ، باقرار أسس أو شروط أخرى للطلاق ، غير الزنى ، وعرض أن يوضح : —

أن التصور ، وعدم الأهمية أو تنافر العقول الناشئ عن سبب طبيعى لا يتسنى تغييره ، مما عوق ، والأرجح أنه كثيراً ما يعوق إلى الأبد ، مزايا الحياة الزوجية ، وهى السلوى والبهجة والهدوء والطمأنينة ، نقول أن هذا سبب للطلاق أقوى من البرودة الزوجية الطبيعية ، لا سيما إذا لم يكن هناك أطفال ، وكانت هناك موافقة من الطرفين (٥٧) .

واقترح ملتون القانون اليهودى القديم الذى ورد فى التوراة (سفر التثنية ٢٤ - ١) « إذا أخذ رجل امرأة وتزوج بها ، فإن لم تحببها بعينه لأنه وجد فيها عيب شئ . وكتب لها كتاب طلاق ودفعه إلى يدها وأطلقها من بيته . وواضح أن السيد المسيح رفض هذا الجزء من شريعة موسى . فقد جاء فى الإنجيل متى (٥ - ٣١ ، ٣٢) « وقيل من طلق امرأته فليعطها كتاب طلاق . وأما أنا فأقول لكم أن من طلق امرأته إلا لعل الزنى يجعلها زنى » ، واحتج ماتون بأنه « المسيح لم يصد أن يؤخذ كلامه بمعناه الحرفى ، كلمة بكلمة » (٥٨) ، وكثيراً ما أعلن أنه لم يأت ليغير مقدار ذرة من شريعة موسى . وكافح ملتون حتى يجعل تفسيره الواسع يشغل

قضيته الشخصية ، حتى أنه ذهب إلى حد تبرير الطلاق لعدم القدرة على الإسهام . في حديث مناسب معقول . « لأن عدم الصلاحية والتخلف في العقلية التي تنفر من الزواج » يمكن أن تهبط بالزواج إلى « حالة أسوأ من حياة الوحدة الموحشة » حيث تكون النفس النابضة بالحياة مربوطة إلى مجرد جثة (١٠٩) .

ونفذ الكتاب الصغير بسرعة ، لأنه قوبل باستنكار تام . وفي فبراير ١٦٤٤ نشر ملتون طبعة مزيدة منقحة ظهر عليها اسمه في جرأة وشجاعة . ورد على ناقديه في أسلوب العالم المتفقه ، في « Tetrochordon » ثم في أسلوب أخف في Colasterion (صدر كلاهما في ٤ مارس ١٦٤٥) ، تناولهم فيهما بأقصى القدح والألفاظ المقذعة — كتلة من الطين ، خنزير ، خنزير برى ، ذو أنف بشع ، محام له منخ الديك ، حمار صفيق ، بغيض ، كربة الرائحة (٦٠) لقد استطاع ملتون في الصحيفة الواحدة أن يقفز من مرتفعات بارناسوس إلى أحط مهاوى السفاهة والبذاءة .

وحيث أخفق في أن يحصل من البرلمان على تعديل في قانون الطلاق ، اعتزم أن يتحدى القانون ، ويتخذ زوجة ثانية ، وكان يفضل مس دافيز التي لا تعرف عنها شيئاً إلا أنها رفضته . ولما ترامت شائعات هذه الخطبة إلى مسامع ماري باول قررت أن تستعيد زوجها ، على أى الأحوال ، حلوها أو مرها ، قبل فوات الأوان . وذات يوم بينما كان ملتون في زيارة لصديق فاجأته ماري وجئت بين يديه وتوسلت إليه أن يعيدها إلى مخدعه وبيته . وتردد هو ، ولكن أصدقاءه ناصروا قضيتها ، فقبل عودتها إليه . وانتقل الآن إلى بيت أوسع في بارنيكان ستريت ، ضمها كما ضم أباه وتلاميذه . وسرعان ما جاء أبواها لللازمة أيضاً مع الشاعر ، بعد أن تدهورت حالهما بهزيمة الملكية ، مما جعل هذا البيت أقرب ما يكون إلى دار المهجائين ، أو للفلسفة . وزاد الأمر ضخماً على أبالة في ١٦٤٦ ، مولد طاملة ملتون الأولى آنى . وخفف من هذه الفوضى موت ريتشارد باول في يولية ، كما أن جون

ملتون الأكبر (الوالد) اختتم حياته المديدة الكريمة فى مارس التالى .
ومن ثم أصبح الشاعر وريثا لمنزلين أو ثلاثة فى لندن ، ولبعض المال ، وربما
لبعض العقارات فى الويف . وفى ١٦٤٧ فض ملتون مدرسته وانتقل مع
زوجته وابنته واثنين من أبناء أخته إلى « هاى هلبورن ستريت » وفى
١٦٤٨ ولدت له ابنته الثانية ماري .

٥ — حرية الصحافة ١٦٤٣ - ١٦٤٩

فى ١٣ أغسطس ١٦٤٤ ، تحدث الكاهن المشيخى هربرت بالمرأمام
مجلس البرلمان ، واقترح أن تحرق علنا رسالة ملتون عن الطلاق . ولم تحرق
الرسالة ، ولكن شكوى بالمرربما أدت « بشركة المكتبات » التى تضم كل
باعة الكتب الإنجليز ، إلى لفت نظر مجلس العموم (٢٤ أغسطس) إلى أن
الكتب والنشرات تخالف القانون الذى يتطلب تسجيلها واجازتها بمعرفة
الشركة . وكان هذا القانون قد صدر فى عهد إليزابث ، كما أن البرلمان كان
قد جدد العمل به فى ١٤ يونيه ١٦٤٣ ، بإصداره أمرا ينص على :
أنه لا يطبع كتاب أو نشرة أو ورقة ، أو أى جزء من شىء من هذا
القبيل ، أو يعرض للبيع ، قبل التصديق على نسخة منه واجازته ، من
أشخاص معينهم لهذا الغرض أحد المجلسين أو كلاهما معا ، وقبل أن يسجل
فى السجل للمعد لذلك فى شركة المكتبات ، طبقا لما جرى عليه العرف من
زمن بعيد (٦١) .

ويماقب أى خرق لهذا القانون بالقبض على من تولوا التأليف والطبع .
وكان ملتون يهمل دوما تسجيل ما ينشره ثرا . وعلى الرغم من أن
كتابه « مبدأ الطلاق ونظامه » ظهر بعد صدور الأسر سالف الذكر
بشهرين ، فإنه تجاهل ما يقضى به . وربما كان شاعرنا ذاحظوة لدى البرلمان
لأنه ناصره فى صراعه مع الملك . على أن البرلمان على أية حال ، تفاضى
عنه وحده . ولكن الأمر ظل سييفا مصلتا على رأسه وعلى رؤوس سائر
البرلمانيين فى بريطانيا . وبدا الملتون ضربا من المحال أن يزدهر الأدب فى ظل

مثل هذه الرقابة . فإذا يجدى خلع ملك وتحطيم نظام أستقى استبدادى قاس ، إذا استمر البرلمان والكنيسة على التدقيق والتحقيق فى كل كلمة يتفوه بها الإنجليز ؟ . وفى ٢٤ نوفمبر ١٦٤٣ أخرج درن تسجيل أو إجازة أروع أعماله النثرية « أريوباجيتيكا » : حديث من جون ملتون عن حرية المطبوعات دون إجازة ، إلى برلمان إنجلترا^(١) . وليس فى هذا الحديث قذف ولا طعن ولا نقد لاذع ، بل كان على مستوى عال من اللغة والفكر وفيه يطلب إلى البرلمان بكل اجلال واحترام ، أن يعيد النظر فى قانون الرقابة ، من حيث أنه ينزع إلى « تثبيط الهمم فى سبيل العلم والمعرفة ، ويعوق بل يقضى على أى ابداع واكتشاف يمكن أن يخرج فى المستقبل إلى حيز الوجود فى مجال الحكمة الدينية والمدنية كليهما . » ثم يستطرد فى قطعة مشهورة قيمة :

لست أنكر أنه من أعظم صلاحيات الكنيسة والدولة أن ترقب بعين يقظة كيف تحط الكتب من قدرها ومن أقدار الناس ، ومن ثم تحتجز أو تسجن أو تطبق أقصى ما تقضى به المصلحة على عوامل الشر لأن الكتب ليست أشياء ممتدة اطلاقاً ، بل أن فيها من الفعالية والحياة ما يجعلها نشيطة فى مثل نشاط النفس التى أنتجتها . ليس هذا لحسب ، بل أنها كذلك ، تحفظ ، وكأما تحفظ فى قنينة ، أبقى عصارة وقوة مؤثرة للفكر الحى الذى نماها وأبدعها . وإنى لأدرك أنها نشيطة قوية الإنتاج مثل أسنان التنين الخرافية إذا نثرت على الأرض هنا وهناك انبعث منها رجال مسلحون (هكذا تقول الخرافة) . ومن جهة أخرى ، فإنه إذا لم يكن معه حيطه وحذر ، فإن قتل الإنسان يعدل تقريباً قتل الكتاب الجيد . إن من يقتل رجلاً يقتل مخلوقاً قلائد صورة الله ، على حين أن من يدمر الكتاب الجيد ، يقتل العقل نفسه ، بل يقتل صورة الله ، فى صميمها . وكمن من إنسان

(١) Areopagitica — يقصد بها المسائل المتعلقة بالحكمة العليا فى أثينا ، واسمها أريوباجوس ، نسبة إلى الجبل الذى كانت تجتمع عليه . واقتبس ملتون هذا العذر من رسالة وجهها آيزوكرات ٣٥٥ ق . م . إلى هذه الحكمة .

يعيش حملا ثقيلا على الأرض ، ولكن الكتاب الجيد هو دم الحياة الغالى للروح السامية يسان ويخزن ، قصدا لحياة وراء الحياة . حقا أن أى عصر لن يستطيع استعادة الحياة ، وقد لا يكون فى هذا خسارة ، ولا تعوض نورات المصنوع فى الغالب عن فقدان حقيقة منبوذة ، ساءت حال امم بأكملها من أجل افتقارها إليها .

وينبغى لذلك أن نكون حذرين يقظين لأى اضطهاد نصبه على الأعمال الحية لمشاهير الرجال البارزين ، وكيف تبدد حياة الرجل الناضجة المحفوظة المخزنة فى كتاب . فإذا رأينا عملا من أعمال القتل يرتكب على هذه الصورة ، وهو فى بعض الأحيان استشهاد ، وإذا امتد هذا إلى كل الإنتاج ، حتى ينتهى الأمر إلى مذبحة ، فمن ثم لا ينتهى الإعدام عند خلق الحياة للفطرية ، بل ينمذ إلى الجوهر السماوى الخامس البالغ الرقة ، أى روح العقل ذاته ، فيقضى على الخلود أكثر ما يقضى على مجرد حياة (٦٢) .

ويستشهد ملتون بالنشاط الفسكورى فى أثينا القديمة ، حيث لم تفرض الرقابة إلا على الكتابات التى تتضمن إلحادا أو قذفا ، وهكذا حكم قضاة محكمة أريوبا جوس العليا بإحراق كتب يروتاجوراس ، وبنفيه خارج البلاد ، لمقالة بدأها بالاعتراف بأنه لا يدري « إذا كان هناك آلهة أم لا » . ويمتدح ملتون حكومة رومة القديمة لإتاحتها قدرا كبيرا من الحرية للكتاب ، ثم يصف نمو الرقابة فى رومة الإمبراطورية والكنيسة الكاثوليكية . ويحس ملتون بأن قانون الرقابة هذا أشتم منه رائحة « البابوية » وما فائدة أن تكون رجلا : لا مجرد تلميذ فى مدرسة ، إذا كنا فقط هربنا عن الدرة أو العصا « لنسمع تحت أير الرخصة (للاطباعة) (٦٣) » ؟ أن الحكومات ومراقبيها ليسوا معصومين من الخطأ ، فليس لهم أن يفرضوا ما يروق لهم أو ما يفضلونه من آراء ومبادئ على الناس ، والأولى بهم أن يتركوا الناس ليختاروا ويتعلموا ، حتى ولو كلفتهم التجربة والخطأ أبهظ الثمن :

إني لا أستطيع أن أمتدح فضيلة مفروضة عليها الحماية والرقابة ، لا يمارسها أحد ولا ينشق عبيرها أحد ، لا تنطلق قط لترى خصومها ، بل تنسلل بمعزل عن الناس (٦٤) . أعطى الحرية لأعرف وأتحدث وأناقش ، بلا قيد ، وفقا لما ي عليه الضمير ، فوق كل الحريات (٦٥) . . . ومع أن كل رياح للذاهب وللبادئ أطلقت لتهب على الأرض ، حتى إذا دخلت الحقيقة إلى الليدان ، أسأنا إليها بالرقابة والحظر ، لنشكك في قوتها ، فلنتركها مع البهتان يتصارعان ، فن ذا الذي رأى يوما أن الحقيقة تنهزم في معركة حرة مفتوحة (٦٦) ؟ .

ومهما يكن من أمر فإن ملتون لا يطالب بالحرية المطلقة للمطبوعات ، فهو يؤمن بأن الإلحاد والتشهير والتفحش يجب أن يحرمها القانون ، ويرفض التسامح مع الكاثوليكية لأنها عدو للدولة ، ولأنها هي نفسها موصومة بالانعصب (٦٧) . وفيما عدا ذلك ، فإن الدولة التي تسود فيها حرية الفكر والكلام لا بد أن ترق وتنمو فيها سائر الأشياء سواء بسواء .

يخيل إلى أنى أرى بعين البصيرة أمة كريمة قوية تستيقظ وتنفض النوم عن جنونها ، مثل رجل قوى يفيق من سباته ، وتهز خصلات شعرها . ويبدو لي أنى أراها مثل نسر ، يجدد شبابه ويفتح غيبيه الحادتين (٦٨) في وقدة الظهيرة .

ولم يلتفت البرلمان لدفع ملتون أو حجته ، بل على النقيض من ذلك ، سن قوانين تصاعدت صرامتها (١٦٤٧ ، ١٦٤٩ ، ١٦٥٣) ضد اصدار مطبوعات غير مرخصة . وشكا أعضاء شركة المكتبات من أن ملتون لم يكن قد سجل « الأريو باجيتيكا » . وعين مجلس اللوردات اثنين من رجال القضاء لمساعدته ، ولسنا نعرف النتيجة . ولكن من الواضح أنهم لم يزعجوه ، لأنه كان صوتا ذا نفع وقيمة للبيوريتانيين المنتصرين .

وفي فبراير ١٦٤٩ ، أى بعد اعدام شارل الأول بأربعة وعشرين اذنين ، نشر ملتون رسالة عن « ولاية الملوك والحكام » ، ارتضى فيها نظرية العقد

الاجتماعى التى تقول بأن سلطة الحكومة مستمدة من سيادة الشعب ، وأنه من حق من يملكون السيادة أن يحاسبوا أى طاغية أو ملك شرير ، وعزله وإعدامه ، بعد إدانته إدانة عادلة (٦٩) . وبعد شهر واحد دناه مجلس الدولة فى الحكومة الثورية لىكون « سكرتير المجالس اللغات الأجنبية » . فنحن ملصقته جانباً ، لىتفرغ لمدة أحد عشر طاماً لخدمة جمهورية البيوريتانيين وحكومة « الحماية » على عهد كرومول .

٦ - سكرتير اللغة اللاتينية ١٦٤٩ - ١٦٥٩

كان النظام الجديد فى حاجة إلى من يتقن اللغة اللاتينية ، لىحرر للرسائل الأجنبية ، وكان ملتون البارز لهذا العمل . حيث كان يستطيع الكتابة باللغات اللاتينية والابطالية والفرنسية كأحد أبناء رومة القديمة أو فلورنسة أو باريس ، كما أنه كان قد أثبت فى أشد أوقات الحرج أنه مخلص لقضية البرلمان فى نزاعه ضد الأساقفة والملك . وكان مجلس الدولة لا « كرومول » هو الذى استخدمه لهذا العمل . ولم يكن له صلة وثيقة بالحاكم الجديد ، ولكنه لا بد أن يكون قد رآه كثيراً ، وأنه قد أحس فى تفكيره وفى كتاباته ، بالتقارب مع هذه الشخصية المربعة . ولم يستخدم المجلس ملتون لمجرد ترجمة رسائله الأجنبية إلى اللاتينية ، بل كذلك ، لىبرز للحكومات الأجنبية ، فى نشرات لاتينية ، وجه العدالة والحق فى سياسته الداخلية التى ينتهجها المجلس ، كما يبرز ، فوق ذلك كيف كان من الحكمة وسداد الرأى الاطاحة برأس الملك .

وفى أبريل ١٦٤٩ ، فور تقلده منصبه ، انضم ملتون إلى موظفين آخرين فى المجلس فى وقف نشرات الملكيين وأنعصار المساواة ضد نظام الحكم الجديد (٧٠) . وكانت الرقابة على المطبوعات آنذاك أشد صرامة منها فى أى وقت مضى فى تاريخ إنجلترا ، متبعة فى ذلك القاعدة العامة التى تقول بأن الرقابة تشدد بتزعزع مركز الحكومة . إن الرجل الذى كان قد دبح بأفصح بيان النداء الذى لم يكن له نظير من قبل ، من أجل حرية الصحافة

بات الآن ينظر إلى الرقابة من وجهة نظر السلطة الحاكمة ، على أنه . يجدر بنا أن نلاحظ أن ملتون قال من قبل الأريوبا جيتيكا : إنه من أهم صلاحيات الكنيسة والدولة أن ترقب بعين يقظة كيف تحط الكتب من قدرها ومن أقدار الناس ومن ثم تحتجز أو تسجن أو تطبق أقصى ما تقتضى به العدالة على عوامل الشر » (٧١) .

ومذ كان جون للبيرن بصفة خاصة كاتباً مزعجاً من أنصار المساواة ، فإن المجلس أصدر تعليماته إلى ملتون ليتولى الرد على كتابه المتطرف « اكتشاف أغلال جديدة » . ولسنا ندري هل قام ملتون بهذه المهمة أو لم يقم . ولكنه يروى هو نفسه (٧٢) أنه « أمر » أن يرد على « صورة ملك » وامتثل لهذا الأمر فنشر في ٦ أكتوبر ١٦٤٩ كتاباً من ٢٤٢ صفحة تحت عنوان « محطم الصورة » . وارتياحاً ، ولكن اعتراضاً منه بأن « صورة الملك » هو ما أوهم بأنه من تأليف شارل الأول نفسه ، فإنه — أى ماتون تناول حجة الملكية فقرة فقرة ، وانبرى لتفنيدها بكل ما أوتى من قوة ومن خلال ذلك دافع عن سياسة كرومول ، وبرر إعدام الملك ، وأبدى احتقاره « لتلك الشرذمة من الغوغاء المتقلبين الذين يعوزهم التفكير البهيم المولعين بالصور ، . . . قطع ساذج طاجز تربى على الدل والظنوع يفتتن بالطغيان » (٧٣) .

واستبد الغيظ والحنق بشارل الثانى ، وهو يتجول فى القارة ، فاستأجر أعظم علماء أوربا كلود سومير ليتولى الدفاع عن الملك الميت ، وسرطان ما أصدر « سالماسيوس » « دفاعه عن الملك السابق شارل الأول » ، فى ليدن (نوفمبر ١٦٤٩) ، نعت فيه كرومول وأتباعه بأنهم « أوغاد متعصبون . . . وأنهم العدو المشترك للبشرية » وأهاب بكل الملوك ، من أجلهم هم أنفسهم : أن يجهزوا الجيوش للقضاء على هذا الوباء بقينا أن دم الملك العظيم يستصرخ كل الملوك والأمراء فى العالم للمسيحى للتأثر له . ولا يمكن أن يقوموا بعمل فيه هدوء وروح وسكونها خيرا من أن يعيدوا لوربته

الشرعى كل حقوقه كاملة ، ويستردوا له عرش أبيه ٠٠٠٠ وأن يذبحوا ،
كضحايا على جثث الميت للقدس ، هذه الوحوش البالغة الضراوة ، الذين
تأمروا على قتل مثل هذا الملك العظيم (٧٤) .

وخشى كرومول أن — تزيد حملات مثل هذا العالم الذائع الصيت في
أوروبا من الاستياء السائد في القسرة ضد حكومته ، فطاب إلى ملتون
الرد على سالماسيوس . وجهد السكرتير اللاتيني في انجاز هذه المهمة قرابة
عام كامل ، في ضوء الشموخ ، على الرغم من تحذير طبيبه له بأنه بفقد بصره
تدرجيا ، وأنه مهدد بالعمى . وكانت إحدى العينين عاطلة بالفعل ، وفي ٣١
ديسمبر ظهر « دفاع الشعب الإنجليزي عن نفسه ضد دفاع سالماسيوس عن
الملكية — لجون ملتون » ، بدأ بالسخرية من سالماسيوس لبيعه خدماته
لشارل الثانى ، واستطرد ليظهر أن سالماسيوس قبل أربع سنوات فقط
كتب يهاجم النظام الأسقى الذى يدافع عنه الآن :

أيها العميل الفاسد المرتضى المـ أجور ٠٠٠ أيها الجبان المحتقر المرتد
الخارج على مبادئك ٠٠٠ يا أشد الخفى سذاجة وبلاهة ٠٠٠ أنت جدير
بعكازة المهرج ، حين تظن أنك تفرى الملوك والأمراء بالحرب ، يمثل هذه
الحجج الصبائية الواهية ٠٠٠ هل تتخيل إذن ، أيها المتلعثم المحامى الصغير
الحقير ، الذى لم يولد إلا لينسخ ويقلد كبار الكتاب ، الذى لم يؤت أية
موهبة أو ذكاء أو عبقرية ، أنك ستنتج شيئا تكتب له الحياة من عندياتك ؟
صدقنى أنك وكتاباتك العقيمة معا ، ستلقى فى زوايا النسيان فى الجليل
القادم . لولا أن « دفاعك عن الملك » سيدين ببعض الفضل لارد عليه ،
بمحض الصدفة ، وعلى الرغم من أنه قد أغفل وطرح جانبا لبعض الوقت ،
فإنه لذلك سيبحث من جديد (٧٥) .

وهذا هو ما حدث على وجه الدقة . أن سالماسيوس كان قد أضنى على
شارل الأول صورة مثالية . ولكن ملتون يحط من قدره . ويشته به .
أن شارل عرض دوق بكنجهام على دس السم لوالده جيمس الأول ، ويتم

الملك الميت بكل « ضروب الفساد الخلق والإثم » مع الدوق المذكور ، ويتهم شارل بتقبيل النسوة في المسرح ، وبمداعبته أئداء العذارى والعقيلات علنا (٧٦) . « وكان سالماسيوس قد أطلق على ملتون أسماء كثيرة ، فثأر ملتون بأن نعت سالماسيوس بأنه ، غبي ، خنفساء ، حمار ، كذاب ، قذاف مغتر ، مرتد ، معتوه ، جهول ، متشرد ، عبد ذليل ، ويسخر من سالماسيوس لسيطرة زوجته عليه ، ويعنفه على أخطائه اللاتينية . ويدعوه إلى أن يشنق نفسه ، ويضمن له الدخول إلى الجحيم (٧٧) . ونظر توماس هوين إلى هذه الكتب المتنافسة من علياء فلسفته ، فأعلن أنه عاجز عن أن يقرر أى الفريقين أقوى لغة وأيهما أضعف حجة (٧٨) . على أن مجلس الدولة قدم الشكر لملتون .

تلقى سالماسيوس نسخة من « دفاع » ملتون أثناء وجوده في بلاط الملكة كريستينا في ستكهلم ، ووعد بالرد عليه ، ولكنه أبطأ . وفي الوقت نفسه انصرف ملتون عن الشؤون الخارجية إلى شئون بيته . ففي ١٦٤٩ انتقل إلى دار في « شيريج كروس » ليكون قريبا من صله . وهناك وضعت زوجته ولدا ، لم يلبث أن مات ، وفي ١٦٥٢ وضعت بلتا ، « ديبورا » كلفته ولادتها حياة أمها . وفي تلك السنة فقد ملتون بصره تماما . وعندئذ نظم قصيدة من أروع قصائده (السونية) « عندما أتدبر كيف فقدت نور عيني » . وأبقى عليه المجلس سكرتيرا لاتينيا ، وخصص له كاتباً ليدون له ما يعليه عليه .

ومنى ، وهو رعين العمى ، بخسارة أخرى ، ففي ١٦٥٣ انهارت الجمهورية التي طالما هلك لها ورحب بها ، إلى « ملكية عسكرية » وأصبح فيها « حامى الحى » كرومول ، في واقع الأمر ملكا . وراض ملتون نفسه على هذه التطورات بقوله : « أن أساليب العناية الإلهية يحوطها الغموض والإبهام (٧٩) . وظل على إعجابه بكرمول وامتدحه بأنه « أعظم نبي الزمان وأكثرهم تألقا وامتيازاً » . « أنه أبو البلاد » ، وأكده « أنى في التلايف .

المجتمتع الإنشائي ليس ثمة شيء أحب إلى الله ، أو أكثر إلتزاما مع العقل من أن يتولى أمضى العقول السلطة العليا (٢٨) .

وسرعان ما طلب إليه أن يتولى الدفاع عن « حامي الخي » في اتهام خطير . ذلك أنه في ١٦٥٢ ظهر كتاب يشكل عنوانه نفسه صيحة الحرب « صرخة الدم الملصكي إلى السموات ضد الإنجليز الذين قتلوا أبائهم » وبدأ الكتاب بأن نعت ملتون بأنه « حيوان شرير بشع ، قبيح المنظر ، ضخم الجسم ، مكفوف البصر جلاد يستحق الشنق » . وقرن الكتاب اعدام شارل الأول بصلب المسيح ، واعتبر قتل الملك كبرى الجرائم (٨١) وسخر من جهر « الغاصبين » بإيمانهم بالدين :

أن لغة وثائقهم العامة محشوة بالتقى والورع وكان لزاما أن يجاريها أسلوب كرومول ومن يدافعون عنه ، وأنه للمهايثير الاشتمزاز ، كما يثير السخرية للريرة ، إلى أي حد من الوقاحة والصفاقة يخفى هؤلاء الأوغاد الخفيون والاصوص الظاهرون حقيقة شرورهم بذريعة أوستار من الدين (٨٢) .

وكما فعل سالماسيوس ، آهاب للؤلؤ المجهول بدول القارة أن تغزو إنجلترا وتعيد آل ستيوارث إلى العرش . وختم الكتاب بتوجيهه إلى الحارس القدر للتوحش ، جون ملتون ، المدافع عن قتل الآباء وقتلتهم ، مع الأمل في أن يلتق وشيكا شر الجزاء فيضرب بالسياط :

حول هذا الرأس الحائث سدد الضربات جيدا ، وشوه كل بوصة فيه بآثار العصا ، إلى أن أصبح الجثة كثلة هلامية واحدة . هل توقفت ؟ اضرب حتى تتفجر الصفراء من كبده من خلال عينيه الداميتين (٨٣) .

واستمح مجلس الدولة ملتون للرد على هذا العنف ، ولكنه تمهل توقعا لجملة من سالماسيوس ، أملا في أن يرد على الخصمين في رسالة واحدة . ولكن سالماسيوس قضى نحبه (١٦٥٣) دون أن يتم زده . وخدع ملتون في اعتقاده بأن كاتب « صرخة الدم الملصكي » هو الكسنايدن مورس —

Morus ، وهو قسيس عالم في مدلبرج فطلب إلى مراسليه في اللقاطعات للتحفة مواطناته ببيانات عن حياة مورس العامة والخاصة (٨٤) . وكتب أوريان أولاك ، طابع الكتاب ، إلى هارتاب ، صديق ملتون ، مؤكدا أن مورس ليس هو المؤلف (٨٥) . ولكن ملتون أبي أن يصدق هذا ، وأيده في هذا ، ما يتناقله الناس في امستردام . وفي أبريل ١٦٥٤ كتب جون دروري إلى ملتون ، محذرا إياه بأنه غطى في نسبة « صرخة الدم للملكي » إلى مورس ، ولكن ملتون تجاهل هذا التحذير ، وفي ٣٠ مايو كتب الدفاع الثاني للشعب الإنجليزى « - جون ملتون .

وكان سحر البيان في هذا الكتاب الذى بلغ عدد صفحاته ١٧٣ ، أمرا مشهودا ، حيث أملاه باللاتينية رجل كف بصره تماما . وعزا أعداؤه ما أصابه من عمى إلى العقاب الإلهى جزاء خطايا الفادحة . وأجاب ملتون على هذا بأنه لا يمكن أن يكون ، لأن حياته كانت مثالية ، وهو يشعر بالفرح والابتهاج لأن الدفاع الأول :

هكذا أصاب غريمى بهزيمة ساحقة ٥٥٥٠ إلى حد أنه استسلم من فوره وقد تحطمت روحه وانهارت سمعته ، وعلى مدى السنوات الثلاث التالية من حياته ، ولو أنه كان يهدد ويرغى وبزيد كثيرا ، فإنه لم يعد يزعمنا ، فيما عدا أنه استعان بالجهد التافه لشخص جدير بكل الازدراء ، حرضه بما لست أدري من الللق القبيح المسرف ، على أن يرقم قدر الإمكان يمدحهما ، ما حل بشخصه مؤخرا من دمار غير متوقع (٨٦) .

ثم يعرج ملتون على عدوه الجديد ، فيذكر أن « مورس » تعنى بالأغريقية « مغفل » ، ويتهمة بالهرطقة والتثك والوثني ، وبأن خادمة سالما سالماسيوس حملت منه سفاحا ، ثم هجرها . بل أن طابع « صرخة الدم للملكي » نفسه يجلد بالسوط ، وكل إنسان يعرف أنه غشاش مفلس سىء السمعة (٨٧) . وفي ظرف وصرح أكثر ، يستعرض ملتون أعمال كرومول ، ويدافع عن حملاته في أيرلنده ، وعن حل البرلمان ، وعن استيلائه على السلطة .

ويوجه الحديث إلى « حامى الحمى » :

إننا جميعاً نقدرك حق قدرك ونقر بفضلك الذى لا يدانيه فضل ، فاهض
فى طريقك القويم ، يا كرومول ، يا محرر بلادك ، ويا من أرسى دعائم
الحرية فيها ، ويا من تفوقت بأعمالك المجيدة ، لا على انجازات الملوك لحسب ،
بل على مغامرات أبطالنا الأسطورية أيضاً (٨٨) .

ولكن بعد عبارات الإجلال والإكبار هذه ، لم يتردد ملتون فى أن
يمحض كرومول النصيح فى أمر السياسة . فأشار عليه بأن يحيط نفسه برجال
من أمثال فليتوود ولمبرت (وهما من المتطرفين) ، وأن يدعم حرية الصحافة
وأن يترك الدين منفصلاً تمام الانفصال عن الدولة . كما ينبغى ألا تجمع أية
عشور لرجال الدين ، فانهم بالفعل متخمون ، (وكل ما فيهم سمين ، حتى عقولهم
دون استثناء ١٨٩) . ويسترسل ملتون فيحذر كرومول من أنه « ونحن
نعمه ، دوننا جميعاً ، أعدل وأقدس وأفضل رجل » إذا أقدم على قمع الحرية
التي دافع عنها ، فلن تكون النتيجة إلا وبالا ودماراً ، لا أشخصه لحسب ،
بل كذلك لكل متطلبات الفضيلة والتقوى (٩٠) . ويوضح ملتون بأجلى
بيان أنه لا يقصد « بالحرية » الديمقراطية ، وهو يسأل الناس :

لماذا يؤكد لكم أى إنسان حقكم فى الاقتراع العام ، أو قدرتكم
على انتخاب من تريدون للبرلمان ؟ هل من أجل أن تتمكنوا من انتخاب
رجال من حزبكم فى المدن ، وفى الأقاليم ، تنتخبون الرجل الذى مدلكم
للموائد فى بذخ بالغ ، أو أسرف فى تقديم الشراب لرجال الريف والفلاحين
السذج ، سواء كان جديراً أو غير جدير بالانتخاب ؟ ومن ثم لا يجتمع لنا
فى البرلمان أعضاء اتسموا بالخصافة والحسكة والخبيرة والنقة ، بل أعضاء
صنعتهم الخزبية وموائد الطعام !! وبمباراة أخرى تحصل على أعضاء من تجار
الخمر والباعة للتجولين ، من الخائبات فى المدن ، ومن الرعاة ومربي الماشية
فى الريف ، فهل يجدر بأى إنسان أن يكل أمور الجمهورية لأمثال هؤلاء
الذين لا يثق أحد فى أن يعهد إليهم بشأن من شئونه الخاصة (٩١) ؟ .

كلا ، إن مثل هذا الاقتراع العام لا يعتبر حرية :
فلأن أن تكون حراً ، هو بالضبط أن تكون تقيماً قاعداً معتدلاً
مكتفياً بذاتك ، لا تعتمد يدك إلى ما بأيدي الناس ، وقصارى القول ، أن
تكون شهماً رحب الصدر شجاعاً . أما إذا تجردت من هذا كله أو كنت
على نقيضه ، فإنك لن تعدو أن تكون عبداً رقيقاً . وقد حكم الله على
الامة التي لا تستطيع أن تحكم نفسها وتدبر أمورها بنفسها ، والتي
استعبدها شهواتها ، بأنها لا بد أن تستسلم لسلطان غيرها ، فتقع في ذل
العبودية بإرادتها وضد إرادتها معاً (٩٢) .

وفي أكتوبر ١٦٥٤ أعاد أولاك طبع « الدفاع الثانى » لملتون ، في
لاهاى ، مع رد عليه بقلم مورس بعنوان « دليل دامنغ » . وفي المقدمة
أكد الطابع أن مورس ليس مؤلف « صرخة الدم للمسكى » ، وأنه ، أى
أولاك ، تسلم مخطوطته من سالما سيوس الذى أى أن يعيط اللثام عن اسم
المؤلف . وأسكر مورس انكاراً تاماً أنه المؤلف ، وأكد أن ملتون قد
أبلغ بهذا صراحاً وتكراراً ، واتهمه بأنه قد رفض من قبل تغيير « دفاعه » ،
لأنه لن يتبقى منه شيء يذكر إذا حذف منه السباب الذى وجهه إلى مورس .
وفي أغسطس ١٦٥٥ أصدر ملتون كتاباً من مائتين وأربع صفحات « دفاع
عن النفس » ورفض أن يصدق انكار مورس ، وأورد من جديد فعلته
الشائنة مع خادمه سالما سيوس ، وأضاف أنها ، في شجار مشروع أوسعت
مورس ضرباً وطرحته أرضاً ، وكادت أن تفقأ عينيه (٩٣) . واسكن تبين في
خاتمة اللطاف أن أحد رجال اللاهوت البروتستانت ، واسمه بيير دى مولان ،
هو الذى كتب « صرخة الدم للمسكى » ، وأن مورس هو الذى نشره
وكتب إهداءه (٩٤) . ولما دعى مورس ليسكون راعياً لإحدى كنائس
الإصلاح قرب باريس ، أرسل شاعرنا عدة نسخ من « الدفاع الثانى » إلى
الأبرشية لمنع تعيينه (٩٥) . واسكن مجلس الأبرشية عينه على الرغم من ذلك
كله ، وختم مورس سيرته التى اكتنفها للمضايقات (١٦٧٠) وهو أنصح

الوظائف البروتستانت بياناً في باريس أو فيما حولها .
ويبدو ملتون في مظهر أرق في قصيدة السونيت « مذبح يد موت »
(١٦٥٥)^(٥) . ويحتمل أنه هو الذي دون الرسائل التي أهاب فيها كرومول
بدوق سافوى ليضع حداً لاضطهاد « الفدوا Vaudois » (أتباع يتر
خالدو — بيوريتانيون منشقون في جنوب فرنسا) ، وإلى مزران وحكام
السويد والدنمرك والمقاطعات المتحدة ومقاطعات سويسرا ، ليتوسطوا
لدى الدوق .

وفي ١٦٥٦ ، بعد أربع سنوات من حياة العزوبة ، تزوج ملتون من
كاترين وودكوك التي لم تسكت حل عيناه بمرآها ، بطبيعة الحال ولكنها أثبتت
أنها بركة ونعمة عليه ، فكانت ممرضة صابرة متجلفة لزوج مكثوف عفيف ،
وأما لبساته الثلاث ، ولكنها قضت نحبها (١٦٥٨) ، أثناء وضع طفل لم
يصر . وكانت تلك سنة عصيبة على ملتون ، حيث رحل عن الوجود
وكرومول أيضاً ، فكان لزاماً على السكرتير اللاتيني أن يحافظ على منصبه ،
قدر طاقته ، في غمرة فوضى الأحزاب التي انحدرت بريتشارد كرومول إلى
مجرد رجل عاجز تافه محب للخير . وعلى الرغم من أن ملتون لا بد كان يدرك
أن إنجلترا سائرة في طريق استعادة الملكية آل سنيوارث ، فإنه أصدر
في أكتوبر ١٦٥٨ طبعة جديدة من « دفاع الشعب الانجليزي عن نفسه »
في أسلوب يغري بالاستشهاد . وفي مقدمة رائعة وصف ملتون « الدفاع
الأول » بأنه « أتر ... تنعذر إزالته بسهولة » ، وزعم أنه من وحى السماء
، ووضعه في المرتبة التالية لمآثر كرومول ، الذي ألقذ حرية إنجلترا (٩٦) .

وقاوم في شجاعة صياء حركة إعادة شارل الثاني ، وعندما وصل جيش
مونك إلى لندن ، وتردد البرلمان بين الجمهورية والملكية ، نشر ملتون في
فبراير ١٦٦٠ رساله موجهة إلى البرلمان ، تقع في ١٨ صحيفة ، « الطريق للمهد
السهل لإقامة جمهورية حرة ، ومزاياه المرتقبة بالمقارنة إلى مساوي ومخاطر

إعادة الملكية في هذه الأمة . ومهرها في جرة وبساله باسمه (بقلم جون ملتون) وفيها ناشد البرلمان :

ألا يلوث ويهزأ بدم آلاف الانجليز المخلصين البواسل الذين خلفوا لنا هذه الحرية ، التي اشتريت بحياتنا نحن . وماذا عسى أن يقول خيرائنا عنا وعن اسم إنجلترا ، إلا أنهم على أحسن الفروض ، سيسخرون منا ، قدر السخرية بهذا الرجل الغبي ، الذي أورد (مخلصنا) ذكره ، والذي بدأ يبني صرحاً وعجز عن إتمام البناء ؟ أين صرح الجمهورية الشامخ الذي تباهى الانجليز بأنهم سيقومونه ليتقلص ظل الملوك ، وتصبح إنجلترا رومة أخرى في الغرب ؟ ما هذا الجنون الذي اعتري هؤلاء الذين يستطيعون في شرف وكرامة أن يدبروا شئونهم بأنفسهم ، حتى يحولوا كل هذه السلطات إلى شخص رجل واحد يا اللعين والنذالة أن نحسب أن مثل هذا الفرد هو مناط حياتنا ، ونعاق عليه كل سعادتنا وأمتنا وسلامتنا وخيرنا ، وبدونه لا يكون لنا وجود ، أو نكون مجرد أفراد كسالى بلداء أو أطفال ! إنه ليجدر بنا أن نعتمد على الله وحده ، وعلى أنفسنا نحن ، وعلى فضائلنا العملية وحمولنا الجاد (١٩٧) .

وتنبأ ملتون بأن كل (الاعتداءات القديسة) التي ارتكبتها الملكية ضد حرية الشعب سوف تعود وشيكاً بعودة الملكية . واقترح أن يحل محل البرلمان (مجلس عام) يضم أقدر الرجال الذين ينتخبهم الشعب للعمل حتى الموت ، ولا يخضعون للعزل إلا عند الإذاعة بإحدى الجرائم ، ويجدد المجلس بانتخابات دورية . وعلى هذا المجلس ، على أية حال أن يوفر أكبر قدر ممكن من حرية الكلام والعبادة والحكم المحلي . واختتم ملتون رسالته بقوله : « أرجو أن أكون تحدثت إلى حد الإقناع إلى مجموعة كبيرة من الرجال الواعين المخلصين ، أو إلى بعض من قد يقيمهم الله من هذه المقاعد الحجرية ليصبحوا « أبناء الحرية » ، ويوقفهم ويجمعهم على قرارات حكيمة تقيم ما أصوج من أمورنا ، وتصلح ما فسد من أحوالنا ، وتعالج هذا الخلل العام

النفسي في الجمهور الذي أسى استغلاله وأعوزه من يوجهه ويرشده (١٨) .
ونجاهل البرلمان هذا الالتباس الذي ينطوى على القضاء عليه . وظهرت
النشرات المطبوعة التي تهاجم ملتون ، وحيدت إحداها شنقه وأصدر مجلس
الدولة ، وهو آنئذ ملكي النزعة ، أمراً بالقبض على طابع رسالة ملتون ،
وفصله من منصبه (السكرتير اللاتيني للمجلس) فكان جوابه على ذلك إنه
أصدر طبعة ثانية مزيدة من الرسالة « الطريق للمهد السهل » (أبريل ١٦٦٠)
وحذر البرلمان من أن الوعود التي يقطعها الآن شارل من اليسير أن تنقض
بمجرد تثبيت دعائم السلطة الملكية الجديدة . وسلم بأن غالبية الشعب ترغب
في عودة شارل الثاني ، ولكنه دفع بأن الأغلبية ليس لها الحق في استبعاد
الأقلية أو التحكم فيها . إنه لمن الأعدل ٠٠٠٠ إذا وصل الأمر إلى حد
الغرض بالقوة ، أن ترغب الأقلية مجموعة أكبر منها على أن تعيد إليها حريتها .
من أن تفرض الأغلبية على أقلية من الناس من بني وطنهم أن يكونوا عبيدا
أرقاء لهم ، بشكل يسمى إليهم أبلغ إساءة (٦٩) . وتسببت الهجمات والحملات
على ملتون وناشدت إحداها الملك شارل الثاني ، وكان آنذاك في بريدا
أن يتذكر جيدا الإهانات التي وجهها ملتون من قبل في رسالته « معطام
الصور » وغيرها ، إلى والده شارل الأول . واقترحت أن يغم ملتون إلى
قائمة قتلة الملك الفعلين ، لأنه يستحق الإعدام (١٠٠) .

وقبل أن تصل هذه النشرة إلى شارل الثاني ، كان قد أبحر هو بالفعل
إلى إنجلترا ، وفي ٧ مايو ، ودع ملتون أولاده وآوى إلى مخبأ مع أحد
الأصدقاء . ولكن كشف أمره وأودع السجن وبات مبره لمدة ثلاثة
أشهر مرهونا بما يقرره البرلمان الملكي ورأى كثير من الأعضاء أنه إذا كان
نمة من يستحق الإعدام ، فهو ملتون . وكان هذا متوقعا . ولكن مارفل
دافينانت وبعض الأعضاء الآخرين توصلوا إلى البرلمان أن يرحم شيخوخته
وبصره المكثوف فاكتمنى البرلمان بالأمر بإحراق بعض كتب بعينها
من مؤلفاته ، حينما وجدت . وأطلق سراحه في ١٥ ديسمبر ، فأتخذ دارا

في هلبورن ، انتقل إليها هو وأولاده ، حيث أنصرف — بعد أحد عشر عاماً — صاحبها غصيباً مضطرباً ، عن النشر ، إلى الفترة الثانية من نظم الشعر ، وهي فترة بالغة الروعة والمعظمة .

٧ — الشاعر المعجوز : ١٦٦٠ — ١٦٦٧

وجد ملتون بعض السلوى والعزاء في العزف على الأرغن وفي الغناء ، ويقول أوبري « كان صورته رخيماً رقيقاً » (١٠١) « وفي ١٦٦١ انتقل إلى دار أخرى ، وفي ١٦٦٤ استقر به لل مقام نهائياً في بيت في Artillery Wolk ، فيه حديقة صغيرة استطاع أن يتمشى فيها دون أن يقوده أحد سوى يديه وقدميه . وكثيراً ما قدم إليه أبناء أخته لزيارته ومعاوئته ، وقد نسوا ما كمال لهم من ضرب في سابق الأيام ، كما جاء إليه الأصدقاء ليقروا له ، أو يسكرتوا ما يعليه عليهم . وتولى بناته الثلاث خدمته بصبر نافذ وجهد جهيد . وكانت كبراهن — آن — عرجاء شوهاء لكناء . وكانت ديبورا تتولى له الكتابة ، وتعلمت هي وأختها ماري قراءة اللاتينية واليونانية والعبرية والفرنسية والإيطالية والأسبانية ولو أنهما لم تكونا تفهمان ما تقرأآن (١٠٢) . والحق أن أيامهن لم تذهب قط إلى مدرسة ، ولكن تلقين بعض الدروس الخاصة . ولكن لم يحظين من التعليم إلا بأقل نصيب ، على أحسن الفروض وباع ملتون معظم مكتبته قبل وفاته ، لأن بناته لم تعين بالكتب إلا قليلاً . وشكا من أنهن يعن الكتب خفية ، وأنهن أهملن شأنه في وقت الحاجة والشدة ، وأنهن تأمرن مع الخدم على مغالطته وسلبه عند شراء حاجيات المنزل (١٠٣) ، ولم يشعر البنات بالسعادة في هذا البيت المكتيب ، مع والد قاس كثير المطالب سريع الغضب . ولما سمعت ابنته ماري بآه يرتب لزواج جديد قالت : « ليس نعمة أباء تستحق أن تسبح عن زفافه ، ولكن النبأ الجدير بالاستماع هو نبأ وفاته » (١٠٤) . واتخذ ملتون في ١٦٦٣ ، وهو آنذاك في الخامسة والخمسين ، زوجة ثالثة ، هي اليزابث منشول M nashull ، وكانت في الرابعة والعشرين من العمر . وتولت خدته

بإخلاص وأمانة حتى آخر أيام حياته . وبعد سبع سنوات مع زوجة الأب التي وصفها أوبري بأنها « وديعة مسالمة مرحلة مقبولة » (١٠٥) هجر البنات الثلاث منزل والدهن ، ليتعلمن ، على نفقة ملتون بعض الحرف .

وكانت عودة الملك قد كلفته كثيراً ، وكادت أن تسكفه حياته ، ولكنها مهدت الطريق لنظم « الفردوس المفقود » . فلولاها ربما أفنى ملتون نفسه في الترشق بالنشر في المعركة ، لأن « المقاتل » كان في مثل قو « الشاعر » في شخصه . وبرغم هذا كله ، لم يودع ملتون قط الأمل في أن يكتب لانتجلا شيثاً تتغنى به لقرون قادمة . وفي ١٦٤٠ أعد بياناً بموضوعات يمكن أن تكون ملحة أو دراما ، كان من بينها موضوع خطيئة آدم (خروجه من الجنة) ، وأساطير الملك آرثر (ملك بريطانيا الذي يفترض أنه عاش في القرن السادس ق . م ، وبطل المائدة المستديرة) وتأرجح بين اللاتينية والإنجليزية ، بأيتهما يكتب ، وحتى حين قرقراره على « الفردوس المفقود » ، موضوعاته ، فكر في أن يكتبه على شكل مأساة إغريقية ، أو رواية دينية ، على غرار روايات المصور الوسطى ، وفي أوقات مختلفة نظم بعض أبيات أو مقطوعات أدخلت فيما بعد في القصيدة . ولم يتسن له إلا بعد وفاة كرومول ، أن يجد فسحة من الوقت بومياً ، ليكتب الملحمة ، وفي ١٦٥٨ فقد بصره تماماً .

في الأيام السود ، وألسنة سوء ، ولو أنها ولت ، فقد لننا الظلام واكتشفنا الأخطار من كل جانب (١٠٦) .

وتواردت على ذهنه الأبيات ، حين كان برقد طاجراً أرقاً ، ويكاد ينفجر بها . فينادى على من يكتب له قائلاً : « إنه يحتاج إلى من يحابه (١٠٧) » . وكانت ثنتابه هي الشعر ، فيملي أربعين بيتاً « في نفس واحد » ، ثم يجد في تصحيحها عندما تماد تلاوتها عليه . ويحتمل ألا تكون ثمة قصيدة نظمت بمثل هذا الجهد والسكد والشجاعة والجراءة . وداخل ملتون شعور قوي بأنه يمثل لانتجلا هو ميروس واشعيا معا ، حيث اعتقد بأن الشاعر

حوت الله ، وأنه نبى أوحى إليه أن يعلم الناس .

وفى ١٦٦٥ ، حين انتشر الطاعون بلندن ، اتخذ التدابير صديق سجين من الكويكرز ، هو توماس الود ، لنقل ملتون ليقم فى « كوخه المكون من عشر حجرات فى « كالفوت سانت شيل فى بكنجها مشير » . وهناك فى هذه « المقصورة الجميلة » أكل الشاعر « الفردوس المفقود » ولكن من ذا الذى يقدم على نشرها ؟ لقد كانت لندن فى اضطراب بالغ فى ١٦٦٥ - ١٦٦٦ بسبب الحريق الذى جاء فى أعقاب الطاعون ، وإذا كان ثمة شئ من الفرح والمرح باق ، فهو عودة الملكية فى صخبها وعربدتها . وفى حالة نفسية ليس معها مجال للمحمة من ١٠٥٥٨ بيتا عن الخطيئة الأولى . لقد حصل ملتون من قبل على ألف من الجنيهات عن رسالته « دفاع الشعب الإنجليزى » أما الآن ، فى ٢٧ أبريل ١٦٦٧ ، فقد باع كل حقوقه فى « الفردوس المفقود » إلى الناشر صمويل سيمونز لقاء خمسة جنيهات نقداً ، مع الاتفاق على دفعات أخرى قيمة كل منها خمسة جنيهات ، يتوقف تسديدها على ما يباع من الكتاب ، فكان كل ما حصل عليه هو ١٨ جنيها (١٠٨) . ونشرت القصيدة فى أغسطس ١٦٦٧ . وبيع منها فى العامين الأولين ١٣٠٠ نسخة ، وفى الأحد عشر عاماً الأولى بيع ٣٠٠٠ نسخة . وربما لا يقبل على قراءة القصيدة بأكملها مثل هذا العدد من القراء فى أية سنة فى أيامنا هذه ، فليس لدينا فراغ كبير ، حتى لقد اخترعنا كثيراً من الأدوات التى توفر الجهد .

وتشارك « الفردوس المفقود » مع « ازيادة فرجيل » ، فيما أصاب كليهما من نسكة وتعويق ، لظهورهما بعد الياذة هوميروس ، فان مشاهد المعركة والمحاربين الخارقين للطبيعة يفقدون قوتهم وسحرهم ، اسكونهم تقليداً ومحاكاة . ولا ريب فى أن هوميروس فلذ نماذج قديمة ، ولسكننا اسينائها ولم نعد نذكرها ، وذهب جونسون إلى أن « الفردوس المفقود » ، بطبيعة موضوعها ، تمتاز على ما عداها ، بأنها ممتعة مشوقة للجميع دائماً ، ولسكنه

اعترف بأن « أحدا لم تساوره الرغبة في أن تكون أطول مما هي (١٠٩) .
أن موضوع « الخطيئة الأولى للإنسان . ونمار الشجرة المحرمة التي جلب
مذاقها القاتل الموت والقناء على العالم ، وجلب علينا كل الكروب
والويلات » ، كان موضوعا مناسباً إلى حد كبير ، لأيام شباب ملتون ،
حين كان يتلقى سفر التكوين على أنه تاريخ ، وحين كانت الجنة والنار ،
واللائكة والشياطين ، هي نسيج التفكير اليومي . أما اليوم فإن موضوع
القصيدة أكبر عائق في سبيلها ، إنها قصة خرافية تروى للشبان في أحد عشر
قسماً ، وأن الاستمرار في مشاهدة مثل هذا العرض الطويل اللاهوت من
البداية حتى النهاية جاف قاس عتيق ، ليتطلب اليوم جهداً شاقاً متسللاً .
وما كان المرء ليسنع عليه يوماً مثل السمو والرفعة قط . إن عظمة المشهد
وجلاله ، ومعانقة الجنة والنار والأرض ، والانسياب الفخم المهيّب للشعر
المرسل ، ومعالجة الموضوع المعقد ببراعة فائقة ، والوصف الرقيق الجديد
للطبيعة ، والمحاولة الموفقة لأسباع الوقعية والشخصية على آدم وحواء ،
وكمرة القطع الشعرية البالغة الروعة والقوة ، كل أولئك بعض الأسباب التي
جملت من « الفردوس المفقود » أعظم قصيدة في اللغة الإنجليزية .

وتبدأ القصة في جهنم حيث الشيطان على هيئة طائر « ضخم الجسم » ،
ذئ جناحين مبسوطين ، ينصح ملائكته الأهابطين بالأيأسوا :

لم يضع كل شيء ، فإن الإرادة التي لا تقهر ، وتدبر الأخذ بالنار
والسكراهميه التي لا يخبوا أوارها أبداً ، والشجاعة التي لا تخضع ولا تستسلم ،
أما أن تنثنى متوسلة للرحمة ، على ركبتين ضارعتين ، وتعظم من سلطانه ...
فهذا أمر دنيء حقا هذا خزي وعار أنسكى من هذا السقوط ويبقى العقل
والروح ولا سبيل إلى قهرهما (١١٠) ...

وكأنى بهذه الأبيات تردد صدى كرومول وهو يتحدى شارل الأول ،
وصدى ملتون وهو يتحدى شارل الثاني ؛ ونعم عدة قطع في وصف
الشيطان تذكرنا بملتون :

عقل لا يغير منه زمان أو مكان ، فالمقل راسخ في مكانه ، يستطيع في نفسه أن يجعل من الجنه جحيماً ، ومن الجحيم جنه (١١١) .

وفي الأجزاء القديمة من القصيدة نجد أن فصاحه ملتون أغرته بأن يرسم لابليس صورة تسكاد تتسم بالود والعطف ، وكأنه زعيم ثورة ضد الساطة الرسمية الاستبدادية . وتخلص الشاعر من أن يجعل الشيطان بطل الملاحمة بتصويره ، فيما بعد ، بأنه « أبو الأكاذيب » الذي « يجنم مثل ضفدع الطين » . أو كالأفعى التي تنزلق ملتوية فوق الوحل (١١٢) . ولكن في هذا القسم من الملاحمة نفسه ينهض الشيطان مدافعاً عن المعرفة :

المعرفة محرمه محظورة ؟ لماذا ينفس عليهما ربهما ذلك ؟ هل تسكون للمعرفة انما ؟ أو تسكون فناء ؟ هل يعيشان (آدم وحواء) على الجهل وحده ؟ أو أن حالتهما السعيدة هي دليل طاعتها وإيمانها ؟ سأثير في عقليهما مزيداً من الرغبة في المعرفة (١١٣) . . .

ومن ثم يحاور حواء وكأن كنيسة عقلائيته تحمل على كنيسة جامدة . تعيش في ظلام الجهل ، تقف عقبه كأداة في طريق انتشار المعرفة :

لماذا إذن كان هذا التحريم ؟ . لماذا كان ، إلا ليرهب عباده وبيعتهم على حالة من الإنحطاط والجهل ، إنه يعلم أنه في اليوم الذي تأكلان من تلك الشجرة ، فإن أعينكما التي تبدو الآن صافية ولسكنها كليله ، سوف تنفتح وتصفو تمام الانفتاح والصفاء ، ومن ثم تكونان مثل الآلهة (١١٤) .

ويأمر روفائيل ، وهو أحد الملائكة ، آدم ، بأن يسكب من حبه لاستطلاع السكون ، فليس من الحكمة أن يتطلع الانسان إلى معرفة ما وراء نطاقه الفاني (١١٥) فالإيمان أعقل من المعرفة .

وكان لنا أن نتوقع ألا يفسر ملتون « الخطيئة الأولى » بأنها رغبة في المعرفة ، بل أنها علاقة جنسية . أنه على القيقض من ذلك ، يشد تسبيحة غير بيوريتانيه اطلاقاً ، من أجل مشروعيه اللذة الجلسيه ، في حدود الزواج ، ويصور آدم وحواء منغمسين في مثل هذه القيم المادية ، مع

بقائهما على « حالة البراءة » (١١٦) ، ولكن بعد « الخطيئة » أى ، أكل
الفاكهة المحرمة من شجرة المعرفة — بدأ يستشعران الخزي والعار فى
الاتصال الجنسي (١١٧) . وهنا ينظر آدم إلى حواء على أنها مصدر كل
الشر ، « ضلع أعوج بالطبيعة » ويرثى لأن الله خلق المرأة :

لماذا خلق الله فى النهاية هذه البدعة على الأرض ، هذه العلة الجميلة
فى الطبيعة ، ولم يملأ العالم على الفور ، رجال مثل الملائكة ، دون إناث ،
أو يجد طريقة أخرى لتوالد بنى البشر (١١٨) ؟ .

ومن ثم فإن الإنسان الأول ، فى تاريخ الزواج فى الكتاب المقدس ،
سرعان ما اصطنع ذريعة ليطلق الرجل زوجته فى سهولة ويسر ، وهنا نجد
ملتون ينسى آدم ، ويكرر شعرا ما سبق أن ذكره نثرا ، عن خضوع
للرأة خضوعا حقيقيا تاما للرجل (١١٩) . وسيعود إلى هذه اللازمة فى قصيدة
« Samson Agonistes » (١٢٠) . فهى حمله الأثير الحبيب إلى نفسه . وفى
رسالته السرية « العقيدة المسيحية » دافع عن إعادة « تعدد الزوجات ،
ألم يحزه العهد القديم . ألم يترك العهد الجديد هذا القانون الحكيم الشجاع
دون إلغاء أو تعطيل ؟ (١٢١) .

ومهما فسرت « مخالفة الإنسان الأول لأمر ربه » (الخطيئة الأولى) ،
فقد ثبت أنها موضوع أصغر من أن يملأ اثني عشر قسما ، لأن اللامعة تتطلب
سلسلة من الأحداث والأعمال ، ولكن حيث أن ثورة الملائكة انتهت حين
بدأت القصة . فإن المسرحية لا تدخل إلى القصيدة إلا عن طريق الذكريات
أو العودة إلى الماضى ، وهو صدى آخذ فى الذبول والثرؤال . ومشهد المعركة
موصوفة وصفا جيدا ، بما فى ذلك التصارع المناسب بالسلاح ، وشج
الرؤوس وتقطيع الأوصال ، ولكن من العسير أن تشعر بالألم أو بنشوة
الابتهاج لهذه الضربات الخيالية . وعلى غرار الكتاب المسرحيين الفرنسيين
يطلق ملتون لنفسه العنان للخطابة ، فالجميع ابتداء من « الله » إلى حواء
يخطبون ، ولم يجد الشيطان فى سمير جهنم ما يحول بينه وبين البلاغة وأنه

لن المزعج حقاً أن نعلم أنه حتى في الجحيم سنكون مضطرين إلى الاستماع إلى محاضرات .

« والرب » في هذه القصيدة ليس هو التألق الذي يجلب عن الوصف الذي تحس به في « جنة دانتى » فهو في القصيدة فيلسوف سكولاس (فيلسوف نصراني من العصور الوسطى) ، يدلى بأسباب مطولة غير مقنعة ، لأنه وهو القادر على كل شيء ، يحيز للشيطان أن يوجد ، وأن يغوى الإنسان ، متنبئاً ، طوال الوقت ، بأن هذا الإنسان سيذل ويخضع ، ويحلب على البشرية بأسرها قروناً من الخطيئة والشقاء والتعاسة . ويحاج بأنه بدون حرية الإنم لا تكون الفضيلة ، وبدون التجربة لا توجد الحكمة والتعقل ، ويرى أنه من الأفضل أن يواجه الإنسان الإغراء ويقاوم ، من عدم التعرض للإغراء مطلقاً ، دون أن يتوقع أبداً أن الصلوات سوف تتوسل إلى الله ألا يقود الإنسان إلى الغواية والإغراء . ومن ذا الذي يطبق التعاطف مع تمرد الشيطان على هذا الساذى الذي لا يصدق ؟ (السادية : الابتهاج بالقسوة المفرطة) .

وهل كان ملتون يؤمن حقاً بهذا الهول الجبرى المقدر ؟ . من الواضح أنه كان كذلك ، لأنه بسط الكلام فيه ، لافى « الفردوس المفقود » فحسب ، بل في رسالته المعرية « العقيدة المسيحية » كذلك (١٢٢) . أى أن الله ، قبل خلق الإنسان نـزمن طويل ، قدر أى الأرواح يكتب لها الخلاص ، وأنها قدر عليها العذاب المقيم . وانطوت هذه الرسالة ، على أية حال ، على شيء من الهرطقة . ولم ينشرها ملتون قط ، ولم يكشف أمرها إلا في ١٨٢٣ ، ولم تصل إلى المطبعة إلا في ١٨٢٥ .

إن هذه الرسالة وثيقة جديدة بالذكر ، فهي تبدأ في إطار من النقوى ، ودون جدل أو حاجة ، بافتراض أن كل كلمة في الكتاب المقدس هي وحى من عند الله . وسلم ملتون بأن نصوص الكتاب المقدس قد طرأ عليها « الزيف والتشويه والتبديل » ولكنها حتى في صيغتها الراهنة ، من صنع

الله . وهو لا يميز غير التفسير الحرفي الأمين . فإذا جاءت الأسفار بأن « الرب » ، إستراح ، أو خاف ، أو ندم ، أو كان غاضبا ، أو حزينا ، فإنه ينبغي أن تؤخذ هذه الألفاظ بمعناها الظاهري ، وألا تخفف على أنها مجازات ، بل كذلك أجزاء الجسم والصفات الجسدية التي تنسب إلى « الله » يجب قبولها على أنها حقيقية من الوجهه الماديه (١٢٣) . ولكن « الله » بالإضافة إلى هذا الكشف الظاهري الذي جاءت به الأسفار المقدسه والذي يكشف به عن كنهه فإنه ، زودنا بوحي داخلي ، هو الروح القدس الذي يتحدث في داخل قلوبنا . وهذا الوحي الداخلي « الملك الخاص لكل مؤمن ، أسمى بكثير ... ومرشد أصدق ، من الأسفار المقدسه (١٢٤) . ومهما يكن من أمر ، فإن ملتون يقتبس من الكتاب المقدس ، ما يؤيد ما يسوق من حجج ، على أنه البرهان الحاسم الدامغ .

وعلى أساس من الأسفار المقدسه ، ينبذ ملتون نظرية الثالوث الأقدس التقليديه ، ويؤثر عليها هرطقة آريوس (الذي يقول بأن المسيح ليس من مادة الله ، بل هو خير خلقه فقط) ، فالمسيح بكل معنى الكلمة ، ابن الله ، ولكن الأب ولده في زمن ما ، ومن ثم فهو غير معاصر للأب وليس متساويا معه أبدا . فالمسيح هو الوسيط الذي خلقه الله على أنه « الالوجوس أى الكلمة » الذى سيخلق منها كل من عداه . ولا يسلم ملتون « بالخلق من الدم » ، فعالم المادة ، مثل عالم الروح ، إنبثاق أو فيض سرمدى من المادة الالهية . وحتى الروح نفسها ، فهى مادة رقيقة جدا أثيرية ، ولا يجوز تمييزها تميزا حادا عن المادة . وفي النهاية ، المادة والروح ، والجسم والنفس . فى الإنسان ، شىء واحد (١٢٥) . ونعمة شبه كبير يستحق الملاحظة بين هذه الآراء ، وآراء هوبز (١٥٨٨ — ١٦٨٩) وسبينوزا (١٦٣٢ — ١٦٧٧) ، وقد ترى أنهما فارقا الحياة فى نفس المقد من السنين الذى مات فيه ملتون (١٦٠٨ — ١٦٧٤) . وربما اطلع ملتون على مؤلفات هوبز التى كان لها دوى ملحوظ فى بلاط شارل الثانى .

وخلت عقيدة ملتون خليطا غريبا من التوحيد والمادية ، ومن مذهب
حرية الإرادة عند جاكوب أرمنيوس (لاهوتى برتستانى هولندى
(١٥٦٠ - ١٦٠٩) ، ومن مذهب الجبرية أو القضاء والقدر عند كلفن .
ويبدو فى كتاباته أنه كان رجلا متعمقا فى أمور الدين . ومع ذلك لم يذهب
قط إلى السكينة حتى قبل فقد بصره ، ولم يقم الشعائر الدينية فى
بيته (١٢٦) . وكتب دكتور جونسون : « فى توزيع ساطعة لم يخصص وقتا
للصلاة ، وحده ، أو مع أهل بيته . وحذف الصلوات العامة ، لقد حذف
الصلوات جميعا (١٢٧) . وازدري رجال الدين ، ونمى على كرومول احتفاظه
بعدد من رجال الدين تدفع الدولة رواتبهم ، على أنه لون من « عبادة
الأوثان » ، يؤذى الدولة والكنيسة معا (١٢٨) . وفى أحد بياناته الأخيرة
« بحث فى العقيدة الحققة ، والهرطقة والإنشقاق عن الكنيسة والتسامح ،
وأمثل الطرق للحيلولة دون نمو البابوية » (١٦٣٣) طارض بطريق مباشر
الاعلان الثانى الذى أصدره شارل الثانى عن التسامح (١٦٧٢) ، محذرا
انجلترا من التسامح مع الكاثوليك وأنصار التوحيد ، أو أية شيعة أخرى
لا تعترف بالكتاب المقدس أساسا وجيدا للمذهبها .

أن هذا الرجل الذى تفوح منه رائحة الهرطقة ، عرف عنه مقاومة رجال
الدين وتدخلهم فى الشؤون العامة والخروج على الكنيسة ، هو نفس الرجل
الذى أخرج للعقيدة المسيحية أكرم شرح حديث لها .

٨ — السنوات الأخيرة : ١٦٦٧ - ١٦٧٤

احتفظ ملتون مع دخوله فى العقد السابع من العمر ، فيما خلا فقد
البصر ، بصحة جسمه وإعتداده بنفسه ، وهما اللذان دحماه وسانداه فى كل
الصراعات الدينية والسياسة التى خاضها . ويصفه أوبرى بأنه « نحيل . . .
متوسط القامة » . فهو جسم جميل متناسب الأجزاء ، وبشرته فوق
المتوسطه . . . صحيح الجسم ، لا يشكو علة ، قلما يتناول الدواء ، وكل ما فى
الأمر أن النقرس انتابه فى أخريات أيامه (١٢٩) . وكان شعره الذى فرقه

في الوسط يتدلى على كتفيه في حليقات أو عقصات • ولم تنبي عيناه عن فقد بصره • وظلت مشيته ثابتة منتصبه • وكان إذا غادر بيته بدا على زيه شدة الحساسة والكلف بملابسه ، وتغنطق بسيف ، لأنه كان فخورا ببراعته في المبارزة واللعب بالسيف (١٣٠) • وأضفت عليه الثقة الزائدة عن الحد وقارا ، وعزوا عن المرح • ولكنه كان مع ذلك حلو الحديث إلا إذا لقي معارضه • ولم يسكن بيوريتانيا بسكل معنى الكلمة : كان عنده شعور البيوريتانيين بالإثم ، والجحيم والإصطفاء والأسفار المقدسة التي لا تخطئ • ، ولكنه استساغ الجمال واستمتع بالموسيقى ، وألف روايه ، واحتاج إلى عدة زوجات ، وتخلقت أثارة من حيويه عصر الزباث وسط رزاقته الخاليه من المرح • وكان أنانيا ، وأنه كشف عن أنانيته الطبيعيه إلى حد الافراط غير المؤلف • إنه كما قال أنطوني رود : « لم يسكن مجهل مواهبه (١٣١) » ، وكما قال جونسون « قل من الرجال من كتب كثيرا وامتدح قليلا من الناس ، مثله (١٣٢) » ، وربما تطلبت العبقرية أنانيه يدمجها اعتداد داخلي بالنفس ، حتى تقف في ثبات في وجه الجمهور • إن أثقل ما يمكن قبوله في ملتون هو طاقه الكراهيه والبغضاء عنده ، وإساءته المفرطة لمن اختلفوا عنه وذهب إلى أنه ينبغي علينا أن نصلي من أجل أعدائنا ، ولكن ينبغي أيضاً أن نستنزل اللعنات جهاراً على أعداء الله وأعداء الكنيسة ، وكذلك على الأخوان المضللين الزائفين ، أو من يقتربون الآثام الفظيعة ضد الله ، أو حتى ضد أنفسهم (١٣٣) • أما الوجه الآخر لهذه العاطفه المشبوهه ، فهو شجاعه النهي في استنكار زمانه ، فإنه بدلا من أن يكتم فاه ما اقترن بعودة الملكية من شغب وصخب ، هاجم في عنف ، غراميات البلاط « في عهد شارل الثاني ، « والشهوات والاعتصاب » في القصور ، و « البسات المشتراة على شفاه بنات الهوى » و « المسرحيات الخليعة أو حفلات الرقص في منتصف الليل (١٣٤) » •

وكأنما كان ملتون يقذف ، بآخر سهم في جعبته تحديا للعصر المظلم ،

حين نشر في يوم واحد (٢٠ سبتمبر ١٦٧٠) في غير ماشفته ولا رحمة ، اثنين من أعماله : « الفردوس المستعاد » و « شمشون الجبار » . في ١٦٦٥ بعد أن انتهى توماس الوود من قراءة ملحة ملتون الأولى تحداه قائلا : « لقد تحدثت هنا كثيرا عن الفردوس المفقود ، فإذا عساك تقول الآن عن الفردوس الذي وجد ؟ » (١٣٥) ، وطرقت الفكرة ذهنه بشدة ، ولكنه تسأل : كيف يعرض استعادة الفردوس في أية مرحلة في التاريخ ، فإن موت المسيح نفسه لم يظهر الإنسان من الجرمية والشهوة والحرب ولكنه فسّر أنه رأى في مقاومة المسيح لاغراء الشيطان ، وعدا بأن جانب الله في الإنسان لا بد يوما أن يقهر جانب الشيطان في الإنسان نفسه ، وبهيمته للحياة تحت حكم المسيح والعدالة على الأرض .

ومن ثم فإن ملتون في الأقسام الأربعة من « الفردوس المسترد » ، لم يركز في حياة المسيح على الصلب ، بل على « تجربة الاغراء في البرية » ، حيث يقدم الشيطان للمسيح « ولدانا ... أجل من سقااة الآلهة » ، ثم « الحور والعذارى الغائبات » ، وسيدات من حدائق التفاح الذهبي ، ثم يعرض عليه المال والثراء — ولكن أولئك دون جدوى . ثم يريه الشيطان رومه الإمبراطورية تحت حكم تيبيريوس المنهوك المسكروه الذي لم يعقب ، فهلا يريد المسيح أن يقود ثورة بعون من الشيطان ، وينصب نفسه امبراطور على العالم ؟ . ولما لم يرق هذا في عيني يسوع ، ولم يستهو قلبه فإن الشيطان ، أراه أثينا بلد أرسطو وأفلاطون ، فهلا رغب في اللحاق بهما ليكون فيلسوفا ؟ ثم يدخل المسيح والشيطان في حوار غريب حول مزايا الأدب اليوناني والعبري . فينحاز المسيح إلى جانب أنبياء وشعراء بني إسرائيل على أنهم أسمى بكثير من اليونانيين :

أخذت اليونان عنا هذه الفنون ، ولم تجسن تقليدها (١٣٧) .

وبعد قسمين من الملحمة استغرقهما الحوار ، أقر الشيطان بهزيمته ، وبسط جناحيه وطار ، على حين تجمع فرقة من الملائكة حول المسيح

المنتصر ، وتلشد :

الآن انتقمت لآدم المغدور به ، وبالتغلب على الإغراء استمدت الفردوس المفقود (١٣٨) .

ولم يرو ملتون لنا القصة بمنزل الروعة الفياضة الرافنة التي تجلت في الملحمة الأولى الكبرى ، ولكن بمنزل براعته في الشعر ، وميله إلى المحاجة ، وهما أمران معهودان فيه ، كما كشف في القصة طوال الوقت عن سعة معلوماته في الجغرافية والتاريخ . ولم يستمر في القصة حتى حادث صلب المسيح ، وربما كان مرد ذلك إلى أنه لم يتفق مع القائلين بأن موت المسيح هو الذي فتح أبواب الجنة من جديد . فالفضيلة وضبط النفس وحدهما اللذان يجلبان السعادة . ولم يدرك ملتون قط لما رفضت إنجلترا أن تأخذ بأخذ الجسد ، إعادة كتابة الأناجيل على هذا الشكل المضحك ، وذهب إلى القول بأن الملحمة الثانية ليست أقل من الملحمة الأولى ، اللهم إلا من حيث مداها (١٣٩) . وكان لا يطيق أن يسمع أن « الفردوس المفقود » تفضل « الفردوس المسترد » (١٤٠) .

وتألفت عبقرية ملتون لآخر مرة في « شمشون أجونست — الجبار » . إنه بعد أن تحدى هوميروس وفرجيل ودانتى ، بملحمته ، نراه الآن يتحدى أخيليس وسوفوكليس برواية ارتضت كل قيود المأساة (انتراجيديا) اليونانية . وهو في المقدمة يطلب إلى القارئ أن يلاحظ أن المسرحية (الدراما) تخضع للوحدات التقليدية القديمة ، وتتنجب « خطأ الشاعر في خلط المادة الهزلية (السكوميديّة) بأحزان المأساة ووقارها ورهبتها ، أو في إدخال شخوص تافهين متبذلين . وهنا نجد ملتون يولى ظهره لعصر الزايت ، ويشق طريقه إلى اليونان ولا يبعد كثيراً عن النماذج اليونانية . إن شمشون الذي فارقه قوته بعد أن حلقت دليّة سبع خصلات من شعر رأسه ، وقلع من أوتقوه من الفلسطينيين عينيه ، نقول أن شمشون هذا لا يحكى فقط ، أوديب المكفوف في كولونس ، بل أنه يحكى ملتون نفسه يعيش في عالم بغيض لا يرى منه أثراً . — م ٧ — قصة الحضارة

« ضريرين أعداء ، أواء هذا شيء أسوأ من الأغلال أو الزنازة أو التسول ، أو العجز بفعل الحرم ، فالضياء ، وهو فاتحة صنع الله ، منطفيء ، أماى ، ولا أملك من مباحجه شيئاً . ربما كان يهدى من آلامى وأحزاني ، آه ، آه . ظلام والقتام والحلسكة وسط وهج النور عند الظهيرة ، ينشر كسواً كلياً لا خلاص منه ، دون أى أمل فى بزوغ النهار (١٤١) » .

والحق أن الرواية كلها يمكن تفسيرها بأنها قصة رمزية متناغمة متماسكة : فملتون هو شمشون يناضل ويتعذب فى محنته ، وبندو إسرائيل المقهورون هم البيوريتانيون ، أى الشعب المختار حطمت عوده المملكية ، والفلسطينيون هم المملكيون الوثنيون المنتصرون ، وهدم هيكلهم يسكاد يسكون تنبؤاً « بالثورة الجليلة » التى أطاحت بآل ستيورات « الوثنيين » فى ١٦٨٨ . أما دليلة فهى المرأة الخائنة ماري باول ، Powell . وتكرر فرقة الموسيقى (الكورس) حجج ملتون ومناقشاته من أجل الطلاق (١٤٢) . ويسكاد ملتون يسكون قد تخلص من غضبه وحقه بقرديده تلك الحجج والمناقشات على لسان شمشون الذى يتقبل نهايته التى لا بد آتية :

« سوف تمضى سلالة المجد ، أما سلالة الحزى والعار التى ستبقى فسلالتي بها وشيكاً (١٤٣) » .

وفى يولييه ١٦٧٤ أحس ملتون بأنه يضعف وتخط قواه ، ولأسباب لا نعلمها أهمل تدوين وصيته . وبدلاً من ذلك ، وجه إلى أخيه كريستوفر وصية « شفهوية » تكاد تكون غير مسطورة ، نقلها كريستوفر على الوجه الآتى :

« أخى ، إنى أترك نصيبى من تركه مستر باول Powell والد زوجتى السابقة ، لأولادى العاقين ، ولسكنى لم أسلم شيئاً منه ووصيتى ومقصدى ألا يستولوا على أى جزء آخر من ضيعتى أكثر من الجزء المذكور ، وبما ضيعت من أجلهم ، غيره ، لأنهم قصروا أشد التقصير فى القيام بواجبهم نحوى ، أما بقية ضيعتى فأنى أضمرتها تحت تصرف زوجتى الحبيبة إليزابث (١٤٤) وأعاد ملتون هذه الوصية الشفهوية على أسمع زوجته وأناس غيرها فى أوقات مختلفة .

وتفبت ملتون بالحياة في عزيمة قوية . ولكن آلام النقرس اشتدت عليه يوما بعد يوم حتى شلت يدها وقدماه . وفي ٨ نوفمبر ١٩٧٧ أنهكت الحمى قواه ، وفارق الحياة في تلك الليلة . وعاش ملتون خمسا وستين سنة وسبعة أشهر . ودفن في مقبرة كنيسة الأبرشية ، في سانت جيل كربولجيت ، بجوار والده . وكان القانون الإنجليزي يعترف بالوصايا الشفوية حتى ١٩٧٧ ، ولكن المحاكم كانت تدقق فيها تدقيقاً شديداً . واعترض البنات على وصية أبيهم ، ورفضها القاضي ، وأعطى ثلثي المال للزوجة ، والثلث الباقي ، وقدره ٣٠٠ جنيه للبنات . أما الحصة في أموال باول فلم يدفع منها شيء قط .

وأنا لنعلم عن ملتون أكثر كثيراً مما نعلم عن شكسبير ، ولا بد من تدوين الكثير عنه حتى نخرج له صورة حقيقية أو نصفه وصفاً كاملاً . ولكننا لا نزال نجعل ما يكفي للحكم عليه — إذا كان هذا ممكناً بالنسبة لأي رجل . فنحن لا نعلم ، بشكل كاف ، لماذا أثار بناته إستيائه إلى هذا الحد ، ولا كيف عاملن زوجته الثالثة التي واسته وأراحته في سنن شيخوخته ، ولكننا نستطيع فقط أن نبدي الأسف على أنه عجز عن كسب حبهم . ولسنا ندري بالتفصيل لماذا ارتضى أن يسكن رقيقاً على الصحافة أيام كرومول ، بعد دفاعه المجيد عن « حرية المطبوعات » . ويمكن أن نعزو كثيراً من تمسكه وبذاته في الخوصومة إلى أحوال العصر ومعاييره . وقد نعتفر غروره وأنايته باعتباره الرقيقة التي تستند إليها العبقرية إذا لم تجد إلا القليل من ثناء الدنيا واطرائها . ولسنا بحاجة إلى الاستمتاع به رجلاً ، والإعجاب به شاعراً ، وواحداً من أعظم النashرين الإنجليز .

إن الذين يعتزمون قراءة الفردوس المفقود من البداية إلى النهاية ، سيتولاهم الدهش إذ يجدون أنها غالباً ما تخلق في آفاق عالية من الخيال والبيان ، حتى ليغفرون أن عاجلاً أو آجلاً ، الصفحات المملة المحشوة بالنقاش أو العلوم أو الجغرافيا ، وكأنها بمثابة فترات لالتقاط الأنفاس من من فرط التأثر والتحليق . وأنه لمن الحق أن نتوقع أن تبقى هذه التحقيقات

المعروفة في التناغم والعاطفة بصفة مستمرة ، فقد يكون هذا في القصائد القصيرة . وهناك في ثثر ملتون وبخاصة في « الأريوباجيتيكا » ، قطع ، لا يسمو عليها ، في قوتها وروعها ، وفسكرها وموسيقاها ، شيء من سلسلة الأدب الديوى في العالم .

وأضنى عليه معاصروه شهرة يشوبها الحسد والتذمر ، وفي الفترة التي صعد فيها حزبه إلى منصة الحكم ، كان مناضلا ناثرا ، ونسيت قصائده الغنائية الأولى . ونشر ملتون قصائده الكبرى في عهد عودة الملكية ، ذلك العهد الذي احتقر شيعة ، ورضى له البقاء على قيد الحياة ، على كره منه . وعند ما طلب لويس الرابع عشر من سفيره في لندن أن يعدد له أحسن الكتاب الإنجليز الأحياء ، كان جواب السفير : لا يوجد منهم من يستحق الذكر إلا ملتون الذي دافع من قبل ، من سوء الحظ ، عن قتل الملوك الذين كانوا آنذاك يشنقون أحياء أو أمواتا . وحتى في هذا العصر المستهتر المشاغب ، على أيه حال ، نجد أن أشهر شعرائه ، جون دريدن ، الذي قال عنه ملتون من قبل أنه « ناظم قواف جيد ، وليس بشاعر (١٤٥) » . نقول ان دريدن هذا ، اعتبر « الفروس المفقود » من أعظم وأروع وأسمى ما أبدع هذا العصر وهذه الأمة من قصائد (١٤٦) . وبعد أن دالت دولة أسرة ستيورات عاد إلى ملتون مجده ومكانته الرفيعة . وأطنب أديسون في إمتداحه في مجلة « سبكتاتور » . ومنذ ذلك الوقت ازدادت صورة ملتون رفعة وقداسة في ضمير بريطانيا (١٤٧) حتى نأجاء وردزورث في ١٨٠٢ :

« أي ملتون ، ما كان أجدرك أن تسكون حيا بيننا في هذه الساعة . . ، أن روحك مثل نجم رحل عنا بعيدا ، لقد كان لك صوت يهدير كالبحر ، صاف مثل السموات المكشوفة ، صوت كريم حر . »

أن نفسه كانت مثل أثر باق ، قام بعيدا عن أقرب الناس إليه ، ولكن عقله خلق مثل السموات العلى ، فوق كل هموم البشر ، وصوته يدوى في الأسماع مثل « البحر المتلاطم الأمواج » عند هوميروس .

الفصل التاسع

عودة الملكية

١٦٦٠ — ١٦٨٥

١ — الملك السعيد

دخل الملك شارل الثاني لندن في اليوم التاسع والعشرين من مايو ١٦٦٠ ،
أى بعد ثلاثين سنة كاملة من مولده ، وسط مظاهر فرح وابتهاج ، تفوق
كل ماتعيه ذاكرة انجلترا من مثلها ، يواكبه عشرون ألفا من حرس المدينة ،
توفر أعلامهم اعتزازا وزهوا ، ويلوحون بأسيافهم وسط شوارع
انقشرت فيها الأزهار ، تقدى فيها البسط المزدانة بالرسوم والصور ، تدوى فيها
الطبول والنواقيس وهتافات الترحيب ، وتكتظ بنصف سكان المدينة .
وكتب ايفلين : « وقفت على « الشاطئ » ، ورأيت هذا المشهد « وجدت
الله (١) » . وهو مشهد كشف عن مزاج انجلترا ، وخيبة البيوريتانيين
واخفاقهم ، فقد اقتضى خلع شارل الأول ست سنوات من الحروب
والاضطرابات ، على حين لم ترق نقطة دم واحدة في سبيل عودة ابنه إلى
العرش . وتقاطر الإنجليز على قصر هويت هول لتحية الملك ، طوال هذا
الصيف الذى غمرته البهجة . وقال أحد شهود العيان : « كان تلهف الرجال
والنساء والأطفال على رؤية جلالته وتقبيل يديه ، شديدا إلى حد أنه لم
يسكد يجرد فسحة من الوقت لتناول الطعام لعدة أيام ٠٠٠ ولما كان الملك
راغبا كل اربعة في ارضاء نفوسهم ، فإنه لم يرد عنه أحدا ، ولم يفاق
الأبواب دون أى من الناس (٢) » وصرح بأنه يريد أن يكون كل شعبه
سعيدا مثله .

ولو أن الملك أخذ أية مشكلة مأخذ الجد في أيام الظفر هذه ، لمحت

العائد والمصاعب التي ورثها شهر العسل بالسواد والقتام . فقد بلغ رصيد الخزانة ١١ جنيها و ٢٨ شلن و ١٠ بنسات ، وكانت الحكومة مدينة بـ ١١ مليون جنيه . ولم تسدد رواتب الجيش والبحرية لعدة سنوات ، وكانت انجلترا في حرب مع أسبانيا . وأخذت ميناء دنكيرك ، بشكل غير مستقر ، لقاء مائة ألف جنيه سنويا ، وطالب بالتعويض عشرة آلاف من الفرسان الذين حاربوا من قبل في صفوف شارل فسلبهم كرومول أموالهم . ثم أن عشرات الآلاف من الرجال الوطنيين قدموا ظلمات يلتمسون فيها إلحاقهم بالوظائف ذوات الرواتب الكبيرة والعمل اليسير ، وأجاب شارل على كل هذا بالإيجاب ، في غير اكتراث ، تراوده الثقة في أن يوفر البرلمان الاعتمادات .

وكان البرلمان ، بدوره ، سعيدا ، سيطرت عليه للوهلة الأولى ، نزعة الامتنال الموسوم بالابتهاج للملك العائد : إننا وأبناءنا من بعدنا نضع أنفسنا تحت تصرف جلالتهكم ونلتزم بطاعتكم إلى الأبد (٣) » وقرر مجلس العموم « أن أعضاء أنفسهم وشعب إنجلترا بأسره لن يبرأوا من الجريمة البشعة ، جريمة الثورة الأخيرة غير الطبيعية ، وإن ينجو من العقوبات المترتبة على هذه الجريمة إلا إذا حظوا بصنع صاحب الجلالة وعفوه وبناءا على ذلك قصد إليه البرلمان بكامل هيئته وجنوا أمام الملك الضاحك المبتهج ، لينالوا غفرانه (٤) . وأحس مجلس العموم بمزيد من الإثم لأنه اجتمع دون دعوة من الملك ؛ أو دون موافقته ، ولذلك أطلق المجلس على نفسه تواضعا اسم « اجتماع أو مؤتمر » ، حتى تطيب نفس الملك ، فيعلن أنه برلمان شرعي (٥) . وبعد انتهاء هذه المراسم ، ألغى البرلمان كل التشريعات التي أصدرها البرلمان ولم يكن قد وافق عليها شارل الأول ، ولكنه أكد على الامتيازات التي كان ذلك المجلس قد منحها للبرلمان ، بما في ذلك سيادة البرلمان في كل ما يتعلق بالضرائب ، وثبت شارل الثاني هذه الامتيازات . وشارك البرلمان للملك الانتصار الحاسم الذي أحرزته السلطة المدنية على

السلطة العسكرية ، فدفعت الرواتب للتأخرة للجيش الذي حكم إنجلترا لمدة عقد من السنين ، وسرح الجنود البالغ عددهم أربعين ألفا ، وأهملوا إلى بيوتهم .

وكان شارل قد وافق على الصفع عن كل أعدائه ، فيما عدا من يستثنى البرلمان من العفو العام . وقضى البرلمان عدة أسابيع في جدل حول من يسلمهم إلى يد الجلاد ، ومن يبقى على حياتهم . وفي ٢٧ يولية ١٦٦٠ ، شخص للملك إلى مجلس اللوردات ، مناشدا إياهم أن يصدر قرارا سريعا حكيا :

« أيها اللوردات ، إنكم إذا لم تشاركوني في القضاء على الخوف الذي استولى على قلوب الناس وأرقهم ، ٠٠٠ فإنكم بذلك تحولون بيني وبين الوفاء بالوعد الذي قطعته على نفسي ، وأنا مقتنع بأنه لولاه لما كنا ، لا أنا ولا أنتم هنا الآن ٠٠٠ ولقد أدركت جيدا أن هناك أناسا لا يمكن أن يغفروا لأنفسهم ما اقترفوه ، ولا أن تغفر لهم نحن ذلك ٠٠٠ وإنني لأشكر لكم عدايتكم مع هؤلاء - القتلة المباثرون لوالدي - ، ولكني - وسأكون صادقا معكم - لم أفسر قط في استثناء أحد غيرهم من العفو العام . أن هذه الرحمة ، وهذا التسامح هما خير وسيلة تجعل الناس يستشعرون خالص الندم . وتجعلهم رعايا صالحين مخلصين ، كما تجعلهم أصدقاء وجيرانا صالحين لكم أنتم (٦) » .

ورغب البرلمان في التوسع في عملية الانتقام ، ولكن شارل أصر على ألا يستثنى من العفو إلا من واقعوا الحكم بإعدام والده (٧) . وكان ثلث هؤلاء قد فارقوا الحياة ، كما لاذ الثلث الثاني بالهروب ، وقبض على ٢٨ وحوكموا ، وحكم على ١٥ بالسجن مدى الحياة ، وشنق ١٣ ثم مزقوا أربا (١٣ ، ١٧ أكتوبر ١٦٦٠) . ويقول شاهد العيان بيتر : أن توماس هاريسون ، وهو أول من نفذ فيه الحكم ، « كان يبدو مرحاً ، كما يمكن أن يفعل أي رجل في مثل هذا الموقف » ، وتحدث بصفاعة من فوق المشقة

قائلاً أن دوره في الاقتراع على إعدام شارل الأول أملاه الله عليه (٨) .
ويضيف بيتر « وفي الحال مزق أرباباً ، وعرض رأسه وقلبه على الجمهور ،
فتمالت صيحات الفرح (٩) » ، وفي ٨ ديسمبر أصدر البرلمان أمراً بإخراج
جثث كرومول وأيرتون وجون برادشو من كنيسة وستمنستر ، وتعليقها
على أعواد المشانق . وتم ذلك بالفعل في ٣٠ يناير ١٦٦١ ، وكأنا كان هذا
لونا من الاحتمال بذكرى موت شارل الأول ، وعرضت رؤوسهم طيلة
يوم كامل في أعلى قاعة وستمنستر (حيث اجتمع البرلمان) ، ودفنت الأشلاء
في حفرة تحت مشنقة تبيرن ، كل أولئك جعل جون ايفلين يبتهج ويهال
« لحكم الله ، وهو حكم هائل تحار فيه الآلباب (١٠) » . وثمة ضحية
أخرى ، هاري فين ، الذي كان يوماً محافظاً للمستعمرة خليج ماساشوست ،
فقد شنق في ١٦٦٢ ، لأنه كان أداة فعالة في تدبير إعدام سترافورد .
وفي هذه القضية أغضبت رحمة الملك جفونها ، فقد وعد من قبل بالإبقاء
على « سير هاري » الرجل الشعبي المحبوب ، ولكن جراءة السجين وشجاعته
أثناء المحاكمة أوغرت صدر الملك فتحجر قلبه .

وفي ٢٩ ديسمبر ١٦٦٠ حل « المؤتمر » (البرلمان) نفسه ، حتى يهد
الطريق لانتخاب أعضاء أكثر تمثيلاً للشعب . وفي غضون ذلك واجهت
الحكومة أول مظاهرة عداوية تنازع في شعبيتها في العاصمة . أن هذه
الحكومة لم تفعل شيئاً لاسكات الشيع الدينية التي ظلت تأمل في نظام
جمهوري : فكان المشيخيون وأنصار تجديد العباد والمستقلون وأصحاب
مذهب الملكية الخامسة يخطبون ضد الملكية ، وتلبأوا بأن الإنتقام الإلهي
سيحل بها سريعاً ، فيرسل الزلازل والدم والصفاد تنقض على بيوت موظفي
الملك . وفي ٦ يناير ١٦٦١ ، وبينما كان الملك في توريسوث يودع أخته
الحبيبة هنريتا وهي في طريقها إلى فرنسا ، نادى بالتمرد والمعصيان أحـد
للمتغلبن بصناعة دنان التبيز في مجمع « لقديسى الملكية الخامسة » ، وعندئذ
سلح سامعوه للمتناجون أنفسهم ، وأسرعوا إلى الشوارع يرددون أن المسيح

وحده هو الذى ينبغى أن يكون ملكا ، ويعملون القتل فى كل من اعترض سبيلهم ، وعاشت المدينة فى ظل الإرهاب طيلة نهاريين وليلتين ، وانتشر « القديسون » فى كل مكان يقتلون الناس فى حماسة بالغة ، حتى تمسكت آخر الأمر فرقه صغيرة من الحراس كانت الحكومة الوائقة من نفسها تعتمد عليها فى حفظ الأمن ، من تطويق للشاغبين وإقتيادهم إلى جبل للشنقة . وعاد شارل مسرعا إلى العاصمة ، ونظم فرقا جديدة من الشرطة للمحافظة على الأمن فيها .

وفى ٢٣ أبريل ، فى يوم عيد سانت جورج راعى إنجلترا وحاميها ، توج الملك السعيد فى كنيسة وستمنستر ، فى كل مظاهر العظمة والجلال ، ذات القيمة الكبرى لدى الملوك التى يعتز بها الشعب ، وحرص رجال الكنيسة الأنجليكانية التى استعادت مكانتها ، وهم يسبحون الملك الداعر بالزيت المقدس ، على التوكيد على تعهد الملك والتزامه بالدفاع عن العقيدة وعن الكنيسة . وفى مايو اجتمع « برلمان الفرسان » الذى سمي كذلك لأن غالبية أعضائه كانوا ملكيين أكثر من الملك ، متلهفين على الإنتقام من البيوريتانيين . ووجد شارل مشقة فى أن يذنبهم عن الاسترسال فى إعدام أعداء والده ، واسترد البرلمان ، من الوجهة النظرية ، كثيرا من الإمتيازات التى كان قد فقدها شارل الأول : من ذلك أنه لا يصبح أى تشريع نافذ المفعول إلا بعد أن يوافق عليه المجلسان كلاهما ، والملك . وكانت للملك السلطة العليا على القوات الإنجليزية المسلحة فى البر والبحر ، وأعاد البرلمان تنظيم مجلس اللوردات ، وأعاد إليه أساقفة الكنيسة الرسمية ، ولكنه رفض تجديد قاعة النجم أو محكمة اللجنة العليا وأبقى على حق التحقق فى قانونية القبض على المسجونين بغير محاكمة ، وأعيدت إلى الفرسان أملاهم التى صادرها كرومول من قبل ، مع تعويض ضئيل لمن اشتروها ، واسترجعت الأرستقراطية القديمة ثراءها ونفوذها . وانقلبت الأسرار التى جردت من أملاكها على ملوك آل ستيوارت ، وانضمت فيما بعد إلى صفار النبلاء وأبناء

الطبقات الوسطى ليشكوا « الأحرار » ضد « المحافظين » .. إن شارل في النصف الأول من حكمه بلغ من الضعف والوهن حدا لم يستطع معه أن يعرض أى قدر من السلطة المطلقة ، من ذلك أنه أجاز « لبرلمان البرلمان » أن يستمر لمدة سبعة عشر عاما ، على الرغم من حقه الشرعى فى حله . أنه كان من الناحية العملية ملصكا دستوريا . فإن النتيجة الجوهرية لثورة ١٦٤٢ — ١٦٤٩ ، وانتقال السلطة العليا من يد الملك إلى البرلمان ، ثم من مجلس اللوردات إلى مجلس العموم ، كل أولئك عاش بعد عودة الملكية ، على الرغم من قيام الملكية المطلقة من الوجهة النظرية .

وكان من حسن حظ البرلمان أن شارل كان عزوفا عن الحكم ، وكأنه بعد أربعة عشر عاما من التشرذم والشقاء ، قد منحته العناية الإلهية الحق فى السعادة والهناء ، وأدخل جنات عدن التى وعد بها المسلمون . وكان الملك أحيانا ينهمك بحمد وكمد فى شئون الدولة ، وقد بوانغ فى إهماله لها (١١) . وقبيل نهاية حكمه دهشت الأمة إذ رآته يأخذ كل شىء على عاتقه ، وينصرف بكليته إلى إدارة شئون البلاد فى كفاية وعزيمة صادقة . ولكن فى أعوام العسل كان قد فوض إلى إدوارد هايد ، الذى عينه أرل كلارندون فى ١٦٦١ ، إدارة دفة الحكم ، بل تقرير السياسة .

وتسربت شخصية الملك ، بشكل مؤثر إلى عادات العصر وأخلاقه وسياسته . وغلب الطابع الفرنسى على أصله وتعليمه . فأمه فرنسية ، وأبوه ابن حميدة مارى جيز أو اللورين ، أضف إلى هذا جدا اسكتلنديا ودنمركيا وإيطاليا ، ومن ذلك نجد خليطا ضافيا ولكنه غير راسخ . أنه عاش من سن السادسة عشرة إلى سن الثلاثين فى القارة ، حيث تعلم الأساليب الفرنسية . ثم رآها فى أبهى صورها فى أخته هنريتا آن . وكان شعره الأسود وجلده الأسمر يذكران بحمدته الإيطالية مارى دى مديتشى ، وكان مزاجه لاتينيا مثل والده جدته لأمه مارى ملكة اسكتلنده ، وربما ورث عن جده الغسقوى هنرى نافر ، شفثيه الشهواتيتين وعينيه البراقطين وأنه المتطفل .

بل وربما ميله إلى النساء كذلك .

أما فيما يتعلق بالناحية الجنسية ، فقد كان شارل الثانى أخزى عادة زمانيه ، وأسوأهم ، فإن تصرفاته كانت أسوأ مثال تحتذبه حاشيته والمجتمع الإنجليزى والمسرح بعد عودة الملكية ، فانفلت الزمام للفجور والخلاعة فى هذه كلها ، وأنا لنعرف أسماء ثلاث عشرة من خليلاته ، أنه وهوى الثامنة عشرة ، حين جاء من هولنده إلى إنجلترا ليقاتل من أجل والده ، وجد فسحة من الوقت لينجب من « السمراء الجميلة الجريئة » لوسى وواتر ، ولدا كبر وترعرع تحت اسم جيمس سكوت ، اعترف شارل ببنوته فيما بعد ، وعينه دوق موغوث . ولحقت لوسى بشارل فى القارة ، وخدمته باخلاص ، والواضح أنه كان معها مساعدون آخرون لا نعرف الآن أسماءهم . وفور أن استقر به المقام فى القصر الملكى ، دعا بربارا بالمر لتسرى عنه همومه وتخفف من متاعبه . وكانت بربارا هذه — مثل بربارا فليبرز — قد أقامت لندن وأقامتها بجمالها . وفى سن الثامنة عشرة (١٦٥٩) تزوجت من روجر بالمر الذى أصبح أرل كاسلين . وفى سن التاسعة عشرة وجدت طريقة إلى مخدع الملك ، ومن ثم سيطرت على روحه الوادعة ، إلى حد أنه خصص لها جناحا فى قصر هويت هول ، وأنفق عليها أموالا طائلة وأجاز لها بيع المناصب السياسية ، والتحكم فى مصائر الوزراء . وولدت له ثلاثة أبناء وابنتين اعترف ببنوتهم جميعاً ، وساورته الشكوك على أية حال ، لأنها وسط حبها الشديد للملك ، لم تتورع عن الاتصال برجال آخرين (١٢) ، وازدادت تفواها بازدياد علاقاتها غير المشروعة . وفى ١٦٦٣ — أعلنت تحوّلها إلى الكاثوليكية . والفلس أقاربها من الملك أن يثنىها عن عزمها ، فأجابهم بأنه لم يتدخل قط فى « نفوس » السيدات (١٣) .

وفى ١٦٦١ فكر شارل فى أنه قد حان الوقت للزواج ، ومن بين المرشحات اختار كاترين براجز ابنة جون الرابع ملك البرتغال التى قدمت إليه مع صداق هيأته العناية الإلهية لىفى بحاجات ملك مبذر ودولة تاجرة :

٥٠٠٠٠ جنيه نقداً ، وميناء طنجة ، وجزيرة (والمدينة الصغيرة فيما بعد)
بعباي ، وحرية الاتجار مع كل ممتلكات البرتغال في آسيا وأمريكا
وتمهدت إنجلترا في مقابل ذلك ، بمساعدة البرتغال في المحافظة على استقلالها
ولما وصلت الأميرة العروس الغالية إلى بورتسموث كان شارل في استقبالها
للترحيب بها ، وتزوجا في ٢١ مايو وفقاً للطقوس الكاثوليكية أولاً ثم
الأنجليكانية ، وكتب شارل إلى والدته يقول أنه « أسعد إنسان في العالم »
وأحسن معاملة حاشيتهما من السيدات ذوات « الثنورات » الواسعة للطوق ،
ومن الرهبان الوقورين ، ووقعت الأميرة في غرامه لأول نظرة ، وسارت
الأمر سيراً حسناً لعدة أسابيع ، ولكن في يولييه وضعت كاسلمين ولداً
شهد شارل تعميده على أنه « العراب » (أبوه في المهاد) — وتلك مناسبة
أخرى يستخدم فيها اسم الله عبناً ولغوياً . ومذ هجرت باربارا زوجها ،
أصبحت الآن تعتمد كل الاعتماد على الملك ، وتوسلت إليه ألا يتخلى عنها ،
فاذنت سلم لرجائها ، وسرعان ما استأنف علاقته بها ، وفي إخلاص موصوم
بأشد الخسة والعار . ونسى الملك قواعد الملوك القوية للألوف ، فقدم باربارا
علانية إلى زوجته . فنزفت أنف كاترين دما وانقلبها إغماءة ، من فرط
الشعور بالمهانة والإذلال ، وحملت إلى خارج القاعة وبناء على إلحاح من
الملك ، أوضح لها كلارندون أن عملية الزنى امتياز ملكي معترف به للملوك
في أعرق أسرات أوروبا . وبمرور الوقت كبرت المأساة نفسها مع أساليب
زوجها الشرقيسة ، ولكنها كانت تزوره ذات يوم ، فوفعت عيناها على
« شيبب » صديق بجوار سريره ، فانسحبت في رفق وتلطف « حتى لاتصاب »
الحقنة الجميلة الصغيرة « المخفية وراء الستائر بالبرد » (١٤) ، وكانت هذه المرة
المثلة — هول دافيز . هذا في الوقت الذي حاولت فيه كاترين كثيراً أن
تنجب لشارل طفلاً ، ولكنها — مثل كاترين أراجون مع ملك سابق —
أجهضت عدة مرات . وفي ١٦٧٠ أقر البرلمان قانوناً بالتوسع في أحكام
الطلاق . وأشار بعض رجال البلاط المتلهفين على وريث بروتستانتى ، على

شارل بأن يطلق كاترين ، ولكنه أهى ، حيث كان قد عرف آنذاك كيف يجبها حباً عميقاً على طريقته الخاصة .

ويصف بيتر البلاط فى ٢٧ يولييه ١٦٦٧ فيقول :

« بقص على فن Fenn أن الملك وسيدتى كاسلين قد حدثت بينهما جموة شديدة ، وأنها ستفارقه ، ولكن بين جنبيها جنين ، إن الملك لابد متعرف بينوته ، وإلا فأنها ستحمل الوليد إلى قصر هويتبول ، وتشم رأسه أمام عيني الملك . ثم يضيف أن الملك والحاشية لم يكونوا فى أى زمان فى العالم بأسره أسوأ منهم الآن ، بسبب اللهو والبطالة والفجور والسكر والمريضة ، وغيرها من أخط الرذائل البغيضة ، مما لم ير العالم مثيلاً لها ، وهذا أمر يجر الهلاك والدمار على الجميع ، لا محالة (١٥) » .

وضاق شارل ذرعاً بغضبات كاسلين ، وفى إحدى زياراته الأخيرة لها ، فاجأ عندها جون تشرشل - دوق مالبروفيا بعد - ، الذى قفز من النافذة حتى يتجنب لقاء الملك (١٦) ، كما روى الأسقف بيرت . على أن شارل خلع على كاسلين لقب دوقة كليفلند ، ورتب لها مخصصات من الأموال العامة مدى الحياة .

وقد يشوقنا أن نقص كيف أن امرأة واحدة بعينها خيبت علانية أهل الملك المغرور المختال وصدته : تلك هى فرانسيس ستيوارت التى قيل إنها ربما كانت أجمل وجه وقعت عليه العين (١٧) ويقول أنطونى هاملتون « ينذر أن يتيسر العثور على امرأة أقل ذكاءً أو أكثر جالاً (١٨) » . وظل الملك يلحف فى الوصول إليها حتى بعد زواجها من دوق تشموند ويصف بيتر الملك وهو يجتدف وحده فى الليل إلى قصر سومرست ، « وهناك حيث وجد باب الحديقة موصدا تساق الجدران ليزور هذه المرأة وتلك فضيحة مخزية فظيعة (١٩) » .

وفى ١٦٦٨ رأى شارل « نل جون » وهى تمثل فى « مسرح درورى لين » ، وهى التى نشأت فى فقر مدقع ، وكانت تسلى رواد الحانة بأغانيها ،

جوتبيع البرتقال في المسرح ، وتقوم بالأدوار الصغرى أو الأدوار الرئيسية في الروايات الهزلية ، واحتفظت طوال عملها ، تلقائياً بروح طيبة و ارادة طيبة ، مما سحر لب الملك الذي لا يبالي بشيء ، والذي سئم المذات ، ولم تقم الممثلة أية عقبات في سبيل أن تكون عشيقة لجلالته . واستنزفت مبالغ طائلة من كيسه الذي يشكو خلو الوفاض ، واسكنها أنفقت القدر الأكبر منها في أعمال البر والإحسان . واسكن سرطان ما كان عليها أن تنافس امرأة مغوية خطيرة موفدة من فرنسا (١٦٧١) لتثبت شارل على العقيدة الكاثوليكية والتقاليد الفرنسية ؛ تلك هي لويز كيرووال التي قلدت نل مظاهرها الارستقراطية تقليداً ساخراً شيطانياً . وكل العالم يعرف ، كيف أنه ، حيث حسب سكان لندن خطأ أن نل هي منافستها الكاثوليكية ، فسخرها منها ، أخرجت رأسها الصغير من نافذة العربة وصاحت بهم « صه أبها القعب الطيب ، أنا البغى البروتستانتية (٢٠) » واستمرت تحظى بمطف شارل إلى آخر حياته ، ولم تبرح تخيلته حتى في ساعة احتضاره . أما كيرووال التي عينت على الفور دوقه بورتسموث ، فقد أثار حفيظة لندن ، حيث نظروا إليها هناك على أنها عميلة فرنسية باهظة التكاليف تبتز من الملك في كل عام ٤٠ ألف جنيه ، لتقتنى المجوهرات وتعيش في ترف باذخ أهاج معدة جون ايفلين (٢١) . وتقلص ظل سلطانها في ١٦٧٦ حين اكتشف شارل هورتلس مانسيفي ابنة شقيق الكاردينال مازاران المرحمة المنعممة بالحوية والنشاط .

وكان لشارل سقطات أخرى : انه في أيام شبابه التمس فقد كل الثقة في البشر ، وحكم على الرجال والنساء جميعاً بأنهم كواصفهم « لاروشفوكول » ومن ثم فإنه قلما استطاع أن يكون مخلصاً لأحد — اللهم إلا أخته — وضيع نفسه في أهوائه وغرامياته ، ولم تسكن نمة ود خالص . تيم ياتي ضياء حقيقة على البريق الأجوف في حياته . وباع بلاده بنفس اليسر الذي اشترى به النساء . وضرب لحاشيته أكبر المثل في المقامرة بمبالغ طائلة . وعلى الرغم

من الجمال الطائش في سلوكه وعاداته ، فانه أبدى في بعض الأحيان افتقاره إلى الرقة والكياسة اللتين كان من العسير التماسهما عند والده . من ذلك ، على سبيل المثال ، أنه لفت نظر جرامونت إلى أن خدمه يؤدون عملهم وهم راكعون (٢٢) . ولم يكن كثير الادمان على الخمر في أغلب الأحيان ، ولكنه أدمن بشكل مخيف لعدة أيام عقب صدور قانون ضد تعاطي المسكرات (٢٣) . وكان عادة يتقبل النقد بصدر رحب ، ولكن حين جاوز سيرجون كوفنتري حده ، وتساءل في البرلمان علانية « هل يجسد الملك متعته بين الرجال أو بين النساء ؟ » . أمر شارل رجال حرسه أن « يجملوا منه عبرة » فكمّنوا له وهاجموه وهشموا أنفه (٢٤) .

على أن فئة قليلة من الناس كانوا لا يملكون إلا أن يحبوه ، ومنذ شباب هنري الثامن لم يوجد في إنجلترا ملك في مثل شعبية شارل بين حاشيته ، وكانت حيويته الجسمية تبعث على الرضا والسرور ، ولم يكن به شح أو بخل ، بل كان يرعى الحقوق ، عطوفاً كريماً . فانه ، بعد أن ينقد رجال حاشيته رواتبهم ، كان يجد الوسيلة للبر والإحسان والصدقات . وجعل من المتنزه الخاص به مرتعاً لمختلف الحيوانات ، ولم يلحقها أى أذى . وكانت مكتبته المدللة تنام ، ويفترسها رقيقها وتلد وتضع صغارها في حجرة نوم الملك (٢٥) . وكان شارل بعيداً عن التكلف ، أنيساً ، حلوا المعاشرة ، يسهل الوصول إليه أو التحدث معه ، سرطان ما يهدى من روع محدثيه ويطمئن بالهم . وذكّر كل الذين تحدثوا عن شارل — فيما عدا كوفنتري ، أنه « ملك ودود طلق المحيا » (٢٦) ، وعده جرامونت « من ألطف الرجال وأرقهم وأكثرهم وداعة » (٢٧) . وقال عنه أوبري « إنه نموذج فذ في الجاهل » (٢٨) . وكان شارل قد صقل عاداته وسلوكه في فرنسا ، وكان ، مثل لويس الرابع عشر يرفع قبعته لأية سيدة ، حتى ولو كانت من أحط الطبقات . وكان يفضل شعبه بكثير في التسامح مع أية آراء أو مذاهب دينية معارضة إلى حد أنه شرب نخب خصومه السياسيين ، وسر كثيراً بالهجاء حتى

ولو كان موجهاً إلى شخصه . وكان حسن التقدير فيه ، مبعث ابتهاج لدى حاشيته . ووصفه بـ « بيز » بأنه كان يقود الحلقة في رقصة ريفية قديمة — cuckoldo All Awry . وما كان يقطع عليه مرحة ولهو الصاخب — لفترات قصار ، إلا أنباء الطاعون أو الحريق أو الانلاس أو الحرب .

ولم يكن الملك شارل الثاني عميق التفكير ، ولكنه لم يتعمق بتوافه الأمور إلى حد كبير ، وتخلص يوماً من رجل زعم أنه يتنبأ بالطالع ، بأن أخذه إلى سباق الخيل ، ولحظ أنه يخسر ثلاثة أشواط متوالية . وأولع ولما شديداً بالعلوم ، وأجرى التجارب ، وأصدر براءة تشكيك « الجمعية الماسكية » وأغدق عليها الهبات والمنح ، وشهد كثيراً من اجتماعاتها . ولم يهتم كثيراً بالأدب ، ولكنه أولى الفنون عناية كبيرة ، واعتز برافايل وتيشيان وهولبين وجمع أعمالهم . وتجلى في حديثه كثير من الحيوية والتنوع اللذين تميزت بهما الجماعات المثقفة في فرنسا . فتحدث جيداً عن الشعر مع دريدن ، وعن الموسيقى مع بورسل (المالحن) ، وعن هندسة العمارة مع رن . وكان حامياً ونصيراً حسن التمييز في كل هذه المجالات ، ولا بد أنه كان ثمة قدر كبير من مناقب ومآثر حميدة محببة تحلى بها رجل قالت عنه أخته وهي تلفظ أنفاسها الأخيرة « إني أحببته أكثر من حبي للحياة نفسها . وايس ثمة شيء آسف عليه في موتى ، إلا إني أفارقه » (١٢٩) .

٢ - مر جل الدين

هل تمسك الملك بأية عقيدة دينية ؟ أن حياته من هذه الناحية توحى بنفس النزعة التي سادت كثيراً من الفرنسيين المعاصرين الذين عاشوا ملحدين وماتوا كاثوليكين . ويبدو أن هذا يسر الفوز بمتاع الدنيا والآخرة معاً ، كما أنه كان أفضل كثيراً من « رهبان » بسكال . ويقول بيرنت « أن إحساسه الديني كان ضعيفاً ، إلى درجة أنه لم يسكن من التظاهر بالنفاق ولسكن بسلوكه الموصوم بالتهاون في الصلوات وفي الأسرار المقدسة ، كان لا ي

إنسان يراه أن يدرك كيف وقر في ذهن الملك أنه لا علاقة له بهذه الأمور (٢٠) . وقال أحد الوعاظ مرة لنبييل غلبه النعاس وهو جالس بين جماعة المصلين « سيدى ، سيدى : إنك تغط في نومك بصوت عال ، وقد توقظ الملك (٣١) » : وقال عنه سانت إيفرموند الذى كان يعرفه حق المعرفة أنه كان « ربوبيا (٣٢) » - وهو الذى يؤمن بوجود كائن أممى غير مجسم تقريباً ، ويفسر بقية المذاهب الدينية بأنها شعر شعبي . واتفق أول بكنجهام ومركيز هاليغا كسى مع سانت إيفرموند في هذا الرأى (٣٣) ويروى بيرت « قال لى الملك ذات مرة ، أنه ليس ملحداً ، ولكنه لا يظن أن الله يعذب الإنسان لأخذه بشيء من أسباب المتعة واللذة عرضاً أو خطأ (٣٤) » . ورحب الملك بصدافة هوبز الذى يدين بالمادية ، وتولى حمايته من رجال اللاهوت الذين طالبوا بتقديمه للقضاء بتهمة الهرطقة . ويرى فولتير أن « لامبالاة الملك المطلقة » بكل الصراعات الدينية التى تفرق بين الناس عادة ، أسهمت بدرجة غير يسيرة ، في حكمه السلمى (٣٥) .

وبحتمل أن شارل كان متشككاً ، مع شيء من الإنعطاف نحو الكاثوليكية ، بمعنى أنه كان يشك في اللاهوتيات ، ويؤثر الكاثوليكية ، لطقوسها النابضة بالحياة ، وتعلقها بالفنون ، وتساهلها مع الجسد ، وتأيدها للملكية . وربما غاب عن ذاكرته أن العصبة الكاثوليكية وبعض الآباء اليسوعيين قد أقروا من قبل قتل الملك . ولكنه تذكر أن الكاثوليك الإنجليز دافعوا عن أبيه ، وأن تلك النبلاء الذين ماتوا في سبيل النضال عن شارل الأول كانوا من الكاثوليك (٣٦) ، وأن الكاثوليك الأيرلنديين بقوا على ولائهم لأسرة ستيوارت ، وأن حكومة كاثوليكية كانت تمد له يد العون في منقاة الطويل الأمد - إن روح التعاطف التى تملكته بصفة عامة ، جنحت به إلى الرغبة في التخفيف بعض الشيء من القوانين التى صدرت في إنجلترا ضد الكاثوليك ، وهى في تقدير « هلام » قوانين « صارمة غاية الصرامة » ، بل هى في بعض الأحيان ، دموية أو متعطشة للدم (٣٧) . ولم

٨ - قصة المضارة

يفارق الملك البروتستانت الإنجليز فيما علق بأذهانهم من ذكرى « مؤامرة البارود » ١٦٠٥ ، أو الخوف من محاكم التفتيش أو البابا في رومه . ولم يغضب لالتزام أخيه العلني بالمذهب الكاثوليكي — والمفروض أنه وريث العرش . وقد يجوز لنا أن نحكم ، من تحوله إلى الكثلثة وهو على فراش الموت ، أنه كان من الجائز أن يعترف هو أيضا بها ، لو أن الاعتراف بها كان أمرا عبقليا من الوجهة السياسية .

وهكذا فإن شارل ، وهو السياسي اللطيف الودود ، قبل الكنيسة الأنجليكانية ودعما إنها قد دانت بالولاء لوالده ، وفنيت في الدفاع عنه ، وطأت ماعاءات في أيام كرومول ، وكأخت كفاحا شديدا في سبيل عودة الملكية . واعتبر شارل أنه من القضايا المسلم بها أن تكون هناك عقيدة دينية تحظى بموافقة الدولة ومعونتها ، على أنها وسيلة للشرع والتعايم وإقرار النظام الاجتماعي . انه ، أساسا ، كانت تزعجه البيوريتانية ، فوق أنها أتيحت لها من قبل فرصة الحكم ، فكانت صارمة بغيضة إلى حد بالغ . ولم ينس قط أن البرسبتيريانز سجنوا أباه وأن البيوريتانز اطلقوا برأسه ، وأنه هو نفسه أرغم على قبول مذهبهم والاعتذار عن أخطاء آبائه . ووقع القانون الذي أصدره « البرلمان المؤتمر » ، بإعادة السكينة الأنجليكانيين إلى أبرشياتهم ، التي كانت « الجمهورية » قد جردتهم منها ، وكان وجه العدالة والإنصاف واضح في هذا القانون . وعلى الرغم من ذلك ، كان قد وعد « بالحرية لذوى الضمائر الواهنة » ، وألا يضار أى إنسان بسبب الخلافات الدينية مادامت مسالمة . واقترح شارل في أكتوبر ١٦٦٠ تسامحا شاملا مع كل الفرق المسيحية ، بل كذلك تخفيف القوانين المعادية للكاثوليكية . ولكن البرسبتيريانز والبيوريتانز الذين خشوا مغبة هذا التراخي ، انضوا إلى الأنجليكانيين في رفض هذا المشروع . ورغبة في المصالحة بين البرسبتيريانز والأنجليكانيين عرض الملك طقوسا تكون حلا وسطا بين الطائفتين ونظاما أسقفيا محدودا يتولى بمقتضاه بعض المشايخ المنتخبين

تقديم العون والمشورة للأساقفة . ولكن البرلمان عارض هذه الفكرة . وأبلغ « مؤتمر سافوي » المكون من اثني عشر أسقفا ، ومشاهير من المصايخ — أبلغ الملك « أنهم لم يستطيعوا الوصول إلى اتفاق (٣٨) » . وتلك فرصة ضيعة ، لأن البرلمان الجديد كان أنجليكانيا بأغلبية ساحقة . فتمسك الجراح القديمة بإعادة النظام الأسقفى في اسكتلنده وأيرلنده ، وأعاد الحاكم الكنسية للمعاقبة على « التجديف » ، والتخلف عن دفع العشور للكنيسة الأنجليكانية ، وجعل « كتاب الصلوات العامة الانجليكاني » إلزاميا على جميع الإنجليز ، وبمقتضى « قانون التوحيد » (٢٠ نوفمبر ١٦٦١) حرمت المناصب العامة على كل الأشخاص الذين لم يتلقوا الأسرار المقدسة وفقا للطقوس الأنجليكانية قبل الانتخابات ، وبمقتضى « مرسوم التنسيق » (١٩ مايو ١٦٦٢) طلب إلى كل رجال الدين والمعلمين أن يقسموا اليمين على ألا يقاوموا الملك ، وأن يعلنوا موافقتهم التامة على كتاب الصلوات العامة . وكان على رجال الدين الذين رفضوا هذه الشروط أن يتخلوا عن مراكزهم في موعد غايته ٢٤ أغسطس ورفضها نحو ١٢٠٠ منهم فطردوا . وهؤلاء بالإضافة إلى ١٨٠٠ آخرين أخرجوا عند عودة الأنجليكانيين ، انضموا جميعا ، مع مجموعة كبيرة من المجامع ، إلى العدد المتزايد من « الشيع » أو « المنشقين » ، الذين أرغموا أولى الأمر في النهاية على إصدار قانون التسامح ١٦٨٩ .

وحاول شارل أن يعدل من « مرسوم التنسيق » فطلب من البرلمان أن يستثنى من العزل أولئك القساوسة الذين لم يعترضوا إلا على ارتداء اللباس الكهنوتي الأبيض ، أو استخدام الصليب في التعميد ، فوافق المهوردات ورفض النواب . وسمى الملك للتخفيف من أثر العقوبة ، بتأجيل تنفيذ للرسوم لمدة ثلاثة أشهر ، ولكن أحبطت هذه للساعي كذلك . فأصدر في ٢٦ ديسمبر ١٦٦٢ بيانا أعلن فيه عن عزمه على أن يستثنى من العقوبات التي نص عليها القانون الأشخاص للمسلمين الذين أبت عليهم ضائرم

أداء القسم المطلوب ، ولكن البرلمان ، إرتاب في هذا الاجراء ورفضه ، باعتبار أنه ينطوى ضمنا على سلطة الملك في الاعفاء من إطاعة القوانين . وعبر الملك عن مشاعره بالإفراج عن الكويكرز المعتقلين (٢٢ أغسطس ١٦٦٢) وبالتأكيد على التسامح الديني في المواثيق التي منحها لجزيرة رود وكارولينا ، وفي التمليلات التي وجهها إلى حاكي هايكا وفرجينيا .

وأحس البرلمان أنه ليس نعمة متسع لهذا التسامح في إنجلترا . ولكي يمنع اجتماعات الكويكرز السرية للعبادة ، قال إنها تضم أكثر من خمسة أشخاص بالإضافة إلى أفراد البيت ، وحكم ١٦٦٢ على كل شخص يحضرها بدفع غرامة قدرها خمسة جنيهات ، أو بالحبس لمدة ثلاثة أشهر ، للمخالفة الأولى ، ومضاعفة العقوبة (١٠ جنيهات غرامة أو ستة أشهر في السجن) للثانية ، والنفي إلى مستعمرات المجرمين ، لثالثة ، أما المخالفون الذين يعجزون عن دفع نفقات إنتقالهم إلى المستعمرات فكان عليهم أن يخدموا لمدة خمسة سنوات ، مما لا يعقود عمل خاصة . أما المدانون أو المخالفون المرحلون الذين يهربون أو يعودون إلى إنجلترا قبل انقضاء ، المدة المحكوم بها ، فتشكون عقوبتهم الإعدام ، وفي ١٦٦٤ امتدت هذه الإجراءات إلى البرسبتيريانز والمستقلين . وحظر « قانون الأميال الخمسة » (١٦٦٥) على القساوسة الذين امتنعوا على حلف الممين ، أن يقيموا في نطاق خمسة أميال في أية مدينة ذات مجلس بلدى ، أو يقوموا بالتدريس ، في أية مدرسة خاصة أو عامة . وأطلق على هذه القوانين « تشريع كلارندون » لأن الذي فرضها هو كبير وزراء الملك ضد إرادة الملك أو رغباته الصريحة ، وقبل شارل هذه التشريعات الصارمة لأنه كان يناهذ البرلمان إقرار الاعتمادات التي طلبها . ولكنه لم يغفر قط لكلارندون ، كما فقد ثقته في الأساقفة وقل إحترامه لهم ، لأنهم ما لبثوا أن اعيدوا حتى بدأوا ينتقمون أشد الإلتقام ، ويقبضون أيديهم عن البر والإحسان . وانتهى شارل إلى « أن المعيشية ليست مذهبا يليق بالرجل الماجد المهذب ، وأن الأنجليكانية ليست

مذهبا يليق بالرجل المسيحى (٢٩) .

وإذ أدركت الكنيسة الأنجليكانية اعتمادها على الملكية ، فإنها أكدت من جديد ، ويشكل أكثر إيجابية عن ذى قبل ، « حق الملك الإلهى » ، والإثم العظيم الذى يؤدى إلى الهلاك ، فى مناهضة حكومة ملكية فاعمة . وفى ١٦٨٠ نشر كتاب سير روبرت فلر « سلطة الملوك الطبيعيه المعترف بها » بعد موت المؤلف بسبعه وعشرين عاما ، وأصبح الدفاع القياسى عن النظرية . وفى كتاب أكنفورد « القضاء والقانون » (١٦٨٣) أعلن زعماء الكنيسة الأنجليكانية أنه « زيف وتحريض على الفتنة ، بل هو هرطقة وتجديف » ومن ثم جريمه عقوبتها بالإعدام « أن يتمسك امرؤ » بأن السلطه مستمدة من الشعب ، وأن الحكام الشرعيين يفقدون الحق فى الحكم إذا أصبحوا طغاة ، وأن الملك ليس له إلا حق مناظر لحق السلطتين الآخرين : مجلس اللوردات ومجلس العموم . وأضاف الكتاب « أن الطاعة العمياء هى سمه كنيسة إنجلترا وخصيصةها (٤٠) » . وتلك كانت نظريه تثير القلق والمناعب ، عندما حاول جيمس الثانى ، بعد عامين من هذا التاريخ ، أن يحول إنجلترا إلى الكاثوليكية .

ان الكنيسة الأنجليكانية ، التى استعادت مكانتها ، على الرغم من تمصها ، تجلت فيها صفات تدعو إلى الإعجاب ، فقد أباحت آفاقا رحبه للتفكير اللاهوتى بين أعضائها ، ابتداء من « الهوديين » (الذين عرفوا فيما بعد بأنهم الذين يؤكدون على الطقوس التقليديه High Churchmen) الذين اقتربوا من المذهب والطقوس الكاثوليكية ، إلى « المتحررين المتسامحين » (الذين عرفوا فيما بعد باسم ذوى الأفق الواسع — Broad Churchmen) وهم الذين جنحوا إلى لاهوت متحرر ، وأكّدوا على الجانب الأخلاقى ، لاعلى الجانب المذهبى أو العقائدى ، فى المسيحية ، ووقفوا فى وجه الاضطهاد ، وسعوا إلى المصالحة وتسوية الخلاف بين البيوريتانيين والمشيخيين والأنجليكانيين . وساعد شارل هولاء المتحررين

المتسامحين « وقدر فيهم الإيجاز النسبي في عقائهم (٤١) . وكان أعظم هؤلاء المتحررين ، جون تفلوتسون ، الذي عينه شارل قسيس القصر ، ثم عينه وليم الثالث رئيس أساقفته كنتربرى (١٦٩١) . وكان رجلا « راجح العقل حلي الشائل (٤٢) » ، ناهض « البايويه » والإلحاد والاضطهاد بنفس القدر من الحماسة والغيرة ، وتجاهر فبني المسيحية على العقل . وكان يقول « لسنا في حاجة إلى دليل على خطأ إنسان أقوى من أن نسمعه يتهم العقل ويحط من قيمته ، ومن ثم يرى أن العقل ضده (٤٣) » . ومال صغار رجال الدين الأنجليكانيين « الكهنة » إلى أن يسكون الخدم الروحيين للوردات المهليين ، بل حتى لبعض مالكي الأرض ، حتى قاربوا أن ينحدروا إلى وضـع العام (٤٤) . ولكن في المدن والمناصب الكنسية ذوات الرواتب الأكبر ، اشتهر كثير من رجال الدين الأنجليكانيين بسعة الإطلاع والمقدرة الأدبية حتى أنهم أخرجوا فيما بعد بعضا من أفضل كتب التاريخ الرسمي في أوروبا . وبصفه عامه سادت روح من الاعتدال المذهبي في الكنيسة الأنجليكانية ، أكثر منها بين المنشقين الذين زاد الاضطهاد من تمصهم لمذهبهم وتزمتهم .

ولم يعان البيوريتانيون آنذاك من الاضطهاد السياسي وحده ، بل إنهم كذلك كانوا موضع سخريه وازدراء من أولئك الذين أحسوا بالضيق والإزعاج أيام الحكم البيوريتانى بسبب أخلاقياتهم الهينه الهينه الخالية من التزمت . ولكن البيوريتانيين احتملوا في جلد وشجاعه دوران عجلة الزمن . وهاجر بعضهم إلى أمريكا ، وأدى كثير منهم القسم المطلوب . وكان ريتشارد باكستر ألع شخصية بينهم في ذاك العصر ، وكان رجلا ذا إتجاه معقول ، مستعدا لقبول أية تسوية لاتخل بلاهوته المتقدم . فلماه على الرغم من إخلاصه الشديد للمذهب البيوريتانى حتى النهايه ، استنكر إعدام شارل

(*) هناك وصف مبالغ فيه لهذا الموضوع في كتاب ماكولى « تاريخ إنجلترا »

(١ : ٢٥٢ - ٢٥٥) أنظر لى « تاريخ إنجلترا في القرن الثامن عشر »

(٢ : ٧٥ - ٧٩) .

الأول ، وحكم كرومول حكما استبداديا مطلقا ، وحيد عودة الملكية . ومنع بعد ١٦٦٢ من الوعظ ، واعتقل مرارا وتكرارا لمخالفته أمر الحظر . وكان من أكثر البيوريتانيين استنارة ، ولكنه مع ذلك استحسن أحراق السحرة في سالم ومساخوست ، وفكر في ربه على أساس جعل « مولوخ » (اله سامي كان يعبد عن طريق تضحية الأطفال على مذبحه) بجانبه ودودا لطيفا من هم الذين كتب لهم الخلاص ؟ ويجب باكثر : « إنهم فئة قليلة من البشر الضائع ، قدر لهم الله منذ الأزل هذه الراحة » (٤٤) . وأكد في عظاته على عذاب الجحيم التي « أوجدها الرب بنفسه » . إن تعذيب الملعونين المحكوم عليهم بالهلاك ينبغي أن يكون شديدا ، لأنه مظهر الانتقام الإلهي . إن العقاب رهيب ، ولكن الانتقام أمر لا سبيل إلى التخفيف منه (٤٥) . « وحرم باكثر الاتصال الجنسي إلا بقصد الإنجاب مع حليلة شرعية . ومذ رأى أن هذا التقييد يتطلب ضبط النفس على طريقه الرواقين ، فإنه أوصى بالحمام البارد والتغذى على الخضروات ، لتخفيف من الشهوة الجنسية » (٤٦) وقد تغفر له لاهوته إذا رأيناه ، وهو في السبعين من العمر (١٦٨٥) واقفا في قمص الاتهام أمام القاضى الوحشى الغليظ القلب « جفرى » ، لأنه تفوه ببضع كلمات ضد مزاعم الأنجليكانيين ولم تتح له أية فرصة للدفاع عن نفسه أو تفسير آرائه ، وحكم عليه بدفع غرامة قدرها ٥٠٠ جنيه ، أو السجن حتى يدفع المبلغ كاملا (٤٧) . وأفرج عنه بعد ١٨ شهرا ، ولكنه لم يسترد عافيته بعد ذلك قط .

وظل الكويكرز يعانون الاعتقال ومصادرة الممتلكات لرفضهم تأديبه القسم أول تخلفهم عن الصلوات الأنجليكانية ، أو عقد الاجتماعات غير المشروعة . وفي ١٦٦٢ كان في السجنون الإنجليزيه أكثر من ٤٢٠٠ منهم : « وحشر بعضهم في السجن حشرا لا يدع مجالا للجلوس وحرروا من فرش القش ليرقدوا عليها ، وكثيرا ما منع عنهم الطعام » (٤٨) . ولكن جلدوم ومثابرتهم وقشاشهم أكسبهم المعركة آخر الأمر ، وخفت حدة الاضطهاد صليا ، إن

لم يكن قانونا . وفي ١٦٧٢ أطلق شارل سراح ١٢٠٠ رجل منهم (٤٩) ،
وفي ١٦٨٢ منح أخوه جيمس دوق يورك براءة مقاطعه جرسى الشرقية
في أمريكا ، إلى روبرت باركلي وهو كويكرى اسكتلندي ، و « الصاخب »
الكويكرى الفنى « وليم بن » ، وبعض زملائهم الآخرين .

وكان بن وهو ابن أمير البحر وليم بن الذى استولى على جاياك لانجلترا .
قدم وهو صبي فى الثانية عشرة بأطوار مختلفة من الاتعمال الدينى الذى
فوجئ به فى أثناءه لغوره براحة فى أصمق نفسه ، وبهالة متألقة
فى الغرفة ، إلى حسد أنه قال عدة مرات بأنه منذ تلك اللحظة ختم بخاتم
القداسة والخلود . « الإيمان الراسخ » بأن هناك الها وأن نفس الإنسان
يمكن أن تنعم بهذا الاتصال الإلهى (٥٠) . وفى ١٦٦٩ طرد من أكسفورد
وحكم عليه بدفع غرامة لأنه رفض حضور الصلوات الأنجليكانية . ولما عاد
إلى أبيه أوسعه ضربا بالسياط ، وطرده من المنزل لإعلانه اعتناق مذهب
الكويكرز . ثم رق قلب الوالد فبعث بإبنيه إلى فرنسا ليتعلم « المرح
الباريسى » ، وربما اكتسب من هناك بعض السكياسة والأساليب المصقولة
التي تحلى بها ، وفى ١٦٦٦ ارتضى لنفسه اسم الخدمة فى الجيش الإنجليزى الذى
يعمل فى إيرلنده ، ولكن بعد عام واحد شهد اجتماعا للكويكرز فى
كورك ، وإلهبت حماسته من جديد ، فطرد جنديا ضايقه بكثرة الأسئلة
فاقتيد إلى السجن ، ومنه كتب إلى حاكم مونستر يلتمس إباحة حرية العبادة .
وبعد عودته إلى إنجلترا أحرق مراكبه من خلفه ، وأصبح واعظا كويكرى ،
وقبض عليه المرة بعد المرة . ولعبت محاكمته ١٦٦٩ دورا فى تاريخ القانون
الإنجليزى . ذلك أن هيئة المحلفين برأته ، فحكم القاضى على المحلفين بالسجن
والغرامة بتهمة إهانة المحكمة وإزدرائها . فاستأنف المحلفون أمام محكمة
الدعوى المشتركة ، التي أعلنت عدم شرعية القبض عليهم ، وكان فى هذا
تثبيت لحق هيئة المحلفين وسلطتهم فى إنجلترا . ولكن بن أودع السجن ،
على أية حال ، لأنه رفض أن يخضع قبعته فى المحكمة . وأُخلى سبيله فى الوقت

المناسب ليحضر وفاة أبيه (١٦٧٠)، وقد ترك له دخلاً يقدر بألف وخمسة جنيه في العام ، وديناً على التاج قدره ١٦ ألفاً من الجنيهات أقرضه أبوه شارل الثاني وأعيد إلى السجن لقيامه بالقاء العظات، وفيه كتب أبلغ دفاع عن التسامح تحت عنوان « القضية الكبرى لحرية الضمير »، (١٦٧١)، وفي إحدى الفترات التي تمتع فيها بالحرية تزوج من امرأة ثرية، واشترى حصّة في النصف الغربي لما يعرف الآن بولاية نيويورك. وصاغ لهذه المستعمرة دستوراً يؤكد فيه على التسامح الديني وسلطة المحلفين في التحقيق والحكومة الشعبية، ولكن الزمام أفلت من يده، ولم تطبق مواد هذا الدستور.

وفي ١٦٧٧ عبر بن وجورج فوكس وروبرت باركلي وجورج كيث القنال الإنجليزي ليبدشروا بمذهب الكويكرز في القارة. وأسس جماعة من « كرهيم » ممن حولهم بن إلى مذهبه، مدينة « جرمان تون »، في بنسلفانيا، وكانوا أول من أعلن أنه من الخطأ أن يكون للمسيحيين رقيق. ورجع بن إلى إنجلترا، وأخذ زمام المبادرة في منع الكويكرز من الانضمام إلى حركة اضطهاد الكاثوليك من أجل ما يسمى « بالمؤامرة البابوية ». وكان « خطابه إلى البروتستانت من جميع المذاهب » (١٦٧٩) نداء قويا للتسامح الديني في أكل صوره. وفي ١٦٨١ قبل التاج اقتراح بن التنازل عن حقه في المطالبة بالدين، لقاء منحه ما يعرف الآن باسم بنسلفانيا. أن بن اقترح اسم « بنسلفانيا » للجزء المتراعى الأطراف السكثيف الأحرار، فالحق شارل الثاني « مقطوع » بن « بهذه اللفظة » تخليداً لذكر أمير البحر. وعلى الرغم من الخضوع التام للملك، كان حكومة المستعمرة الجديدة كانت ديموقراطية، وكانت العلاقة مع الهنودودية قائمه على العدل والإنصاف، كما أطاق الكويكرز، وهم يشكلون غالبية المستوطنين، الحرية الدينية. وعمل بن في هذه المستعمرة بمجد لمدة عامين، ولكنه في ١٦٨٤ مبع نبأ اضطهاد جديد عنيف تتعرض له طائفته. فأسرع بالعودة إلى لندن. وهناك بعد عام واحد أصبح صديقه دوق يورك ملكاً على إنجلترا، وهو جيمس الثاني، كما صار بن من ذوي

النفوذ والمكانة في الحكومة • ولنا معه لقاء آخر .

أن طريق المتناومة السلبية الذي اتبعه الكويكرز ضد الاضطهاد كان أكبر قوة فعالة ساعدت على التسامح الديني في عصر التعصب ، وقدر أحد المذشقين أنه كان هناك ستون ألف حالة اعتقال بسبب الخلاف الديني بين عامي ١٦٦٠ و ١٦٨٨ ، وأن خمسة آلاف ممن اعتقلوا قضوا نحبهم في السجن (٥١) . وكان تعصب البرلمان أسوأ من جُور البلاط وللشرح . وذكر مؤرخ كتب التاريخ مثل ما صنعه تقريبا « في هذه الفترة الدقيقة الحرجة » كاد الملك أن يكون الصوت الوحيد الرحيم الذي ينادى بآراء عصرية حديثة ودأب طوال حكمه ، على النضال من أجل التسامح (٥٢) وفي ١٦٦٩ عندما صدر الحكم على ثلاثة أشخاص بدفع غرامة كبيرة للتاج ، بناء على قانون قديم صدر في عهد الملكة إليزابيث ، لتخلفهم عن حضور الصلوات الأنجليكانية ، أعفاه شارل من دفعها ، وأعلن أنه لن يسمح بتطبيق هذا القانون بعد اليوم « لأنه من رأيه وقناعته الخاصة أنه لا يجوز أن يضار أحد بسبب تفكيره وما يمليه عليه ضميره » (٥٣) .

وكان من المحتمل أن يقر وجهة نظر الملك في التسامح عدد متزايد من الأنجليز ، لولا أنهم كانوا يراقبون في رغبته في التخفيف من ويلات الكاثوليك في إنجلترا التي كانت لا تزال تخشى سيطرة البابا ، ومحاكم التفتيش الأسبانية وحكومة القساوسة ، إلى حد أن البرسبتيريانز والبيوريتانيين آثروا تحريم عبادتهم على السماح بالعبادة الكاثوليكية في إنجلترا . وكان الأنجليز الكاثوليك يشكلون آنذاك نحو ٥ ٪ من السكان (٥٤) . وكانوا من الناحية السياسية ضعافا عاجزين . ولكن الملكة كانت كاثوليكية ، كما أن شقيق الملك لم يبذل إلا أيسر الجهد في إحفاء تحولها إلى الكنائس (١٦٦٨) وكان في إنجلترا حينذاك ٢٦٦ من اليسوعيين . كان أحدهم أبنا غير شرعي لملك ، وبدأوا بظهور علنا في جرأة وثقة . على الرغم من القوانين البالغة التشدد . وكانت المدارس الكاثوليكية تقام في الدور الخاصة .

وأرغقت انجلترا . وأقام البروتستانت في كل طام عرضا تظاهروا فيه ضد البابوية ، وحملوا إلى « ميمفيلد » تمائيل للبابا والكرادلة ، أحرقوها هناك . أنهم لم ينسوا « جى فوكس » . ولكن الكاثوليك صبروا وصابروا ولم يفقدوا الأمل ، فن الجائز الآن أن يرقى كاثوليكي عرش انجلترا في أية لحظة

٣ — الاقتصاد الانجليزي ١٦٦٠ — ١٧٠٢

قدر عدد سكان انجلترا وويلز في ١٦٦٠ بنحو خمسة ملايين نسمة (٥٥) . ربما ازداد إلى خمسة ملايين ونصف المليون في ١٧٠٠ (٥٦) ، أى أنه لا يكاد يبلغ ربع عدد سكان فرنسا أو ألمانيا ، وأقل من ربع سكان إيطاليا أو أسبانيا (٥٧) . وكان سبع السكان من طائفة « اليومن » ، أى صغار مالكي الأرض الأحرار الذين يملكون الأرض التي يفلحونها ، وشكل المزارعون المستأجرون الذين يعملون في أراضي النبلاء وذوى الحسب والنسب ، نحو سبع آخر من السكان . أما بقية السكان فكانوا يقيمون في المدن .

وبازدياد السكان نقص نصيب الأسرة من الخشب ، وتزايد استخدام الفحم في البيوت والحوانيت ، وتطور علم المعادن واستخراجها من المناجم . وأصبحت شيفيلد مركزاً لصناعة الحديد . وسرت في انجلترا حتى الانتاج وجمع الثروات . وتوسل أصحاب المصانع إلى البرلمان أن يصدر تشريعات ترغم العاطلين الكسالى على مزاولة العمل . وتزايد تشغيل الأولاد في الصناعات المحلية ، وبخاصة النسيج . وتهلل وابتهج ديفو لأنه في كولشستر وتونتون لم يكن ثمة ولد فوق الخامسة من العمر ، في المدينة أو فيما حولها من القرى ، أمهله والده أو لم يتلق تعليماً ، إلا استطاع أن يكسب قوته « وبالمثل حول » وست رايدنج : « لا يكاد يوجد ولد جاوز الرابعة إلا صكفته يده مؤونة العيش (٥٨) » .

وكان معظم الصناعة يتم في المنازل أو في حوايت الأسرة . وحدث

توسع في نظام المصانع في النسيج والحديد . وتذكر نشرة ظهرت في ١٦٨٥ كيف أن « أصحاب المصانع يشيدون بتكاليف باهظة ، دوراً ضخمة تضم كل القائمين بعمليات صناعة الصوف ، من فرز وتمشيط وغزل ونسج وكبس بل وصباغة ، في صعيد واحد » . وقيل أنه كان هناك مصنع من هذا القبيل يعمل فيه ٣٤٠ شخصاً . وكان في جلاسجو في ١٧٠٠ مصنع لنسيج يضم ١٤٠٠ عامل (٥٩) . وكان تقسيم العمل والتخصص فيه آخذين في التقدم ، وكتب سير ولیم بنی في ١٦٨٣ « في صناعة الساعة » ، إذا قام فرد بعمل التروس ، وآخر يصنع الزبرك ، فثمة ثالث يحفر القرص المدرج ، ورابع يتولى صناعه الأغلفة ومن ثم تخرج الساعة أحسن وأرخص مما لو كلف بالعمل كله فرد واحد (٦٠) .

وظلت أجور الأعمال الزراعية يحددها الحكام المحليون وفقاً لقانون الغلمان المهنيين « الذي صدر في ١٥٨٥ في عهد إليزابيث ، فإذا دفع رب العمل ، أو أخذ العامل ، أكثر من الأجر المحدد ، تعرض كلاهما للعقاب . وتراوحت أجور الأعمال الزراعية في تلك الفترة بين خمسة وسبعة شلنات في الأسبوع مع الإقامة والطعام (٦١) . أما الصناعة فسكانت الأجور فيها أعلى قليلاً . فكان الأجر اليومي شلناً في المتوسط ، وربما كان هذا ، من حيث القيمة الشرائية ، يعادل ، دولارين ونصف دولار في ١٩٦٠ . أما أجور للساكن فسكانت منخفضة نسبياً ، حيث كان إيجار البيت المتوسط الاتساع في لندن يبلغ نحو ٣٠ جنيه في السنة (٦٢) . وكانت البيرة رخيصة الثمن ، أما السكر والملح والفحم والصابون والأحذية والملابس ، فسكانت أثمانها في ١٦٨٥ تعادل أثمانها في ١٨٤٨ (٦٣) . وازدادت أسعار الحبوب إلى خمسة أمثالها بين عامي ١٥٠٠ و ١٧٠٠ (٦٤) . وأكلت طبقات العمال خبز الجاودار والشعير والشوفان ، أما خبز القمح فسكان ترفاً ينعم به ذوو اليسار ، ونادراً ما ذاق الفقراء اللحم . واعتبر الفقر الذي كان عليه جمهور الشعب أمراً عادياً ، ولو أنه ربما كان أشد منه في أخريات العصور الوسطى (٦٥) . ويقول ثورولد روجرز :

« سعى مالكو الأرض طوال القرن السابع أن يحصلوا من مستأجري الأرض على أكبر ما يستطيعون من إيجار ، وبأقصى ما يمكن من قوة فرضوا على العمال أجورا تؤدي بهم إلى الجوع والعوز ، وبذلوا قصارى جهدهم في استغلال القشريع ليحصلوا من المستهلك على أسعار عالية تقرب الناس من حافة المجاعة والفقر . والتاريخ زاخر بالشواهد الكثيرة على تفاقم الحال يوما بعد يوم (٦٦) » .

وفي ١٦٩٦ قدر جريجورى كنج أن ربع سكان إنجلترا كان يعيش على الصدقات ، وأن الأموال التي تجمع لإطالة الفقراء كانت تعادل ربع تجارة الصادرات (٦٧) . وقهر الأغنياء الفقراء وغلّبهم على أمرهم إلى حدّ بات معه الأجراء والفلاحون أضعف من أن يثوروا ويتمردوا ، ولمدة نصف قرن خمد صراع الطبقات في إنجلترا (٦٨) .

أما الكنيسة الانجليكانية التي كانت قد تجاسرت أيام شارل الأول على أن تدافع عن الفقراء من وقت لآخر ، فقد خلصت الآن ، نديجة لثورة البيوربتانية ، إلى أن مصالحها تحقق على أحسن وجه ، إذا ربطتها بمصالح طبقات الملاك ربطا تاما (١٦٩) . وكان البرلمان شكلا من ائتلاف بين مالكي الأرض وأصحاب المصانع والتجار والرأسماليين . ومن ثم أصغى ، بحكم شعور الرماله للتبادل ، إلى صيحات طبقة أرباب العمل ليخلصهم من القوانين التي تعوق انطلاق القوى الاقتصادية للعمل دون قيود . وقبل نهاية القرن السابع عشر ، وقبل ظهور آدم سميث بزمن طويل ، سمعت إنجلترا صيحة رب العمل « اتركه يعمل » (سياسة عدم التدخل) من أجل الحرية الاقتصادية ، وتخلص أرباب العمل من العوائق القانونية والإقطاعية والنقابية ، في تشغيل العمال والإنتاج والتجارة (٧٠) ، وتجاوزوا القيود النقابية وانهزت النظم المهنية ، وبطل العمل بتحديد الأجور عن طريق الحكام المحليين ، بفعل القوة النسبية للمساومة بين أرباب العمل والأنبياء والعمال الجياع (٧١) . إن الأيديولوجية الحديثه لحرية ، بدأت هنا الآن ، حين طالب للقاولون

واللتزمون للغامرون ، في صخب وغضب ، بالتححرر من القيود القانونية والأخلاقية .

وباتت التجارة الآن عنصرا هاما فعالا في الاقتصاد الإنجليزي ، وعاملا حيويا في حصول البرلمان على الاعتمادات التي يقررها ، إلى حد أنها ، أي التجارة ، شقت طريقها لتفعل ما تشاء مع حكومه يسيطر عليها مالكو الأرض . وأصبح التشريع الإنجليزي في التجارة ، بحايي الإنجليز لاعلى حساب الهولنديين وخدمهم ، بل على حساب الايرلنديين والاسكتلنديين كذلك ، وحرم استيراد الماشية والأغنام والخنازير من ايرلندة واستبعد الغلال الاسكتلندي ، وفرضت ضرائب ثقيلة على واردات اسكتلندة . إن الرغبة في التوسع في التجارة الإنجليزية وتوفير الحماية العسكرية لها ، هي التي حثت على التحالف مع البرتغال ، وزواج شارل الثاني من كاترين براجانزا ، وعلى تحديد الحرب مع المقاطعات المتحدة ، والتصميم على الاحتفاظ بمجبل طارق . وتضاعف حجم تجارة إنجلترا بين عامي ١٦٦٠ و ١٦٨٨ ، بسبب الانتصار على الهولنديين ، إلى جانب أسباب أخرى (٧٢) ، وكتب شارل الثاني إلى أخته يقول : « إن أقرب شيء إلى قلب هذه الأمة هو التجارة وكل ما يتعلق بها » (٧٣) . وبات ثراء التجارة ينافس الآن اقتناء الأراضي الواسعة الطيبة .

ومدت للشروطات المغامرة الإنجليزية أذرعها في كل اتجاه ، فالتصمت للمستعمرات الجديدة في نيويورك ونيوجرسي ومنسلفانيا وكارولينا وكندا ، ومنحت شركة الهند الشرقية كل الحقوق فيما تستطيع أن تضع يدها عليه في الهند ، وكان لهذه الشركة أسطولها وجيشها وحصونها وعملتها وقوانينها ، وكانت تعلن الحرب وتفاوض لعقد الصلح ، وتم الاستيلاء على بمباي بالمصاهرة في ١٦٦٩ ، وعلى مناهاتان (في نيويورك) بحق الفتح في ١٦٦٤ . وفي العام نفسه استولى الإنجليز على الممتلكات الهولندية على الساحل الغربي لأفريقية . ومن أجل تزويد هذه المستعمرات بالأيدي العاملة أنشأت طادة « الإكراه » وهي إغراء الشبان الإنجليز بالعمل في هذه « للزارع » بتقديم الحر لهم أو ضربهم حتى يفقدوا وعيهم ، وعندئذ يحملونهم إلى ظهر سفينة

على وشك الإفلاج ، ثم يوضحون لهم فيما بعد أنهم كانوا قد وقعوا غفداً بعمل (٧٤) . إن القانون حرم هذا الإجراء ، ولكنه لم ينفذ . وكان موقف البرلمان واضحاً ، فإنه على حين انتهت ثورتا ١٦٤٢ — ١٦٤٩ و ١٦٨٨ — ١٦٨٩ إلى تغلب البرلمان على الملك ، حدثت في نفس الوقت ثورة إقتصادية متزامنة انتهت بسيطرة التجارة والصناعة والمال على البرلمان .

وكان في إنجلترا في تلك الأيام مئات من « المائنين أصحاب المصارف » (مقرضو النقود) الذين يدفعون ٦٪ أرباحاً على الودائع ، ويتقاضون ٨٪ على القروض (٧٥) . وكان شارل الثاني يلتمس أى منفذ لتجنب سلطة البرلمان على الخزنة ، فلجأ إلى الاستدانة كثيراً من أصحاب المصارف هؤلاء ، حتى بلغت ديونهم في ٢ يناير ١٦٧٢ ، ١٣٢٨٠٥٢٦ رجنياً (٧٦) ، وفي هذا التاريخ كان مجلس الملك على وشك أن يشن الحرب على المقاطعات المتحدة فأحدث في مجتمع المال هزة عنيفة « باغلاق خزنة الدولة » أى منع تسديد فوائد ديون الدولة لمدة عام . فساد الذعر ، ورفض أصحاب المصارف الوفاء بالتزاماتهم تجاه أصحاب الودائع ، أو تنفيذ إتفاقاتهم مع النجار ، وعمل المجلس على تهدئة العاصفة بوعود قاطعة باستئناف الدفع في نهاية العام . واستؤنف الدفع في ١٦٧٤ ، وسدد رأس المال عن طريق تمهيدات والتزامات حكومة جديدة . والواقع أنه في ٢ يناير ١٦٧٢ تمجددت بداية الدين الوطني في إنجلترا ، وتلك حيلة جديدة في تمويل الدولة .

ومذ باتت لندن موطن أصحاب المصارف وأسماء التجارة ومركز الثروة المجموعة عن طريق نظام الأسعار ، من منتجي الطعام والسلع ، فإنها كانت الآن أكثر مدن أوروبا اكتظاظاً بالسكان ، فنافست قصور رجال الأعمال قصور الأرسقراطية في البذخ والترف ، إن لم يكن في الذوق . وكانت فيها مجموعة من المخازن بدعاراتها الفاتنة ولافتاتها المزخرفة ونوافذها ذات العمدة الحجرية ، تعرض منتجات العالم (*) أمام أنظار الأقلية ، ورصفت

(*) حوالى هذه الفترة بدأت النوافذ الزجاجية تحمل محل النوافذ القديمة ذات الاطارات

الشوارع الرئيسية وحدها بالحصى عادة وحوالى ١٦٨٤ أضيفت بنور ضعيف حتى منتصف الليل فى الليل غير المقمرة بقناديل يملق واحد منها كل عشرة أبواب . ولم يكن فى الشوارع أرصفة للمشاة ، وكانت نهراً تمتع بالحركة الصاخبة من الباعة المتجولين الذين يعرضون بضاعتهم فى سلال أو عربات يد ، أو عجلات يد ، وبالمزادين الذين يعرضون القيام بخدمات منزلية مثل « قتل الفيران والجُرذان (٧٧) » . وكان هناك المتسولون والاصوص فى كل شارع ، كما وجد أيضاً المغنون الذين يرفعون عقيرتهم بالأغنيات من أجل الحصول على بنس . وكان حى الأعمال يسمى « الميقي » . وكان يحكمه عمدة وهيئة البلدية ومجلس ينتخب أرباب البيوت فى الأحياء أعضاء . وإلى القرب من هذا الحى ، كان يقع « الحى السياسى » وستمستر ، وفيه الكنيسة والقصر اللذان يحملان هذا الاسم (وكان القصر مقر البرلمان) ، وفيه القصران الملكيان هوبتهول وسان جيمس . وخارج هذين القسمين من المدينة كانت أحياء الأكوخ التى تمتع بالفقراء الكثيرى التناسل . ولم تكن الشوارع فيها مرصوفة فكانت العربات ترش ، مزهوة ، ماء المطر أو الوحل على المشاة ، وهى تصطدم بالجدران فى الأزقة الضيقة . وكانت المنازل متقاربة جداً بعضها من بعض ، والأدوار العليا متلاصقة متقابلة ، مما لا يدع مجالاً لضوء الشمس الممتطع أن ينفذ إليها . ولم يكن نظام المجارى الحسالى معروفاً فى لندن آنذاك ، بل كانت مراحيض خارجية وبالوعات ، وكانت العربات تحمل الفضلات وتذف بها خارج حدود المدينة ، أو فى نهر التيمز بطريقة خفية غير مشروعة

وكان تلوث الهواء آنذاك بالفعل مشكلة وبناء على طلب الملك أعيد جون افلسين ونشر فى ١٦٦١ خطه لتبديد الدخان الذى علق بسماه لندن ، قال :

« إن الامراف فى استخدام الفحم يعرض لندن لأسوأ الازعاج والحزى

== الخشبية الثغيلة ، لأن الزجاج يسمح بنفاذ قدر أكبر من الضوء .

والعار ، وليس هذا ناشئا من نيران اللطابخ التي لا يسكاد يرى لها أثر ، بل من بعض مداخن معينة في مصانع البيرة ومحال الصباغة وإحراق الجير ، ومصانع للملح وعلى الصابون وبعض مصانع أخرى ، تسكنى فوهة إحدى للمداخن فيها ، وحدها وبشكل واضح ، لثلوث الهواء وإزطاج لندن أكثر مما تفعل كل مداخن المدينة مجتمعة ... إن لندن تكون أقرب شهابها ببركان اتنه أو بضواحي جهنم ، منها بمجتمع تعيش فيه مخلوقات عاقلة ، حين تفتح هذه للمداخن أفواهها وتنفث القتام والسخام ... أن السامخ للزئوك سرعان ما يشم ، من مسافة عدة أميال ، رائحة المدينة التي يقصد إليها ، قبل أن يراها ... أن هذا الدخان الأسود السكريه ... يقرح الرئتين ، وهذا داء لا شفاه منه ، إلى حد أنه يقضى على أعداد كبيرة من الناس ، نتيجة السل المهيك الخطير ، كما ينبغي بذلك نشرات الوفيات الأسبوعية (٧٨) .

وأعدايفلين مشروع قانون للبرلمان الذي كان أقرب منألا لرجال الصناعة الأثرياء منه للجمهور الذي يعوزة التنظيم ، ومن ثم لم يحرك هذا البرلمان ساكنا . وبعد ثلاثة عشر عاما سويارفع سير توماس براون صوت الطب طاميا ، يحذر من : —

« الروائح السكريبه التي تنفثها البالوعات العامة ، والأماكن الممتلئة وفضلات المواد المغلية التي تستخدمها المصانع القذرة غير الصحية كما أن الضباب والسديم يعوقان دخان الفحم من أن يهبط ويتبدد ، ومن ثم ينتج بالسديم ويتنفسه الناس ، ولكل هذا آثار سيئة ، حيث يلوث الدم ويعرض السكان للنزلات الشعبية والسعال (٧٩) . »

إن الهواء الفاسد ، وضعف الرعاية الصحية وسوء التغذية كان يهدد بانتشار الأوبئة في كل عام وما أن تجيء فترة تتجمع فيها ظروف غير مواتية ، حتى تنزل كارثة الطاعون . وفي ٣١ أكتوبر ١٦٦٣ دون بيبز في مذكراته : « أن الطاعون منتشر في أمستردام ، ونحن في فزع منه هنا . وكانت السفن القادمة من هولنده تخضع للحجر الصحي ، وفي ديسمبر ١٦٦٤ مات شخص واحد بالطاعون في لندن ، واثنان في أبريل ١٦٦٥ ، ١ — قصة الحضارة

وفي مايو ٤٣ شخصاً ، وهكذا تفاقم الحال حتى حل الصيف الحار مع مطر قليل يساعد على تنظيف الشوارع ، فكان ضغثا على إباله ، وأيقنت لندن التي ملأها الفزع والجزع ، أنها تواجه شيئاً شبيها بالموت الأسود ١٣٤٨ الذي لا زال ذكراه عالقة بالأذهان . وكان دينو آنذاك صبيا في السادسة ، ولكنه استطاع أن يمي قدرا كبيرا مما تردد في هاتيك الأيام عن الطاعون : فكتب قطعة خيالية بعنوان « صحيفة عام الطاعون » تكاد تكون في منزلة التاريخ (٨٠) :

« منذ الأسبوع الأول من يونيه انتشرت العدوى بصورة رهيبة ، وارتفعت أرقام الوفيات ، ومهد الناس إلى إخفاء قلقهم قدر الطاقة ، حتى يحولوا دون ابتعاد جيرانهم عنهم ، أو دون إغلاق الحكومة لبيوتهم . وفي يونيه تزاحم الأغنياء على مفادرة المدينة ، وفي هويتشابل ما كان يمكن أن ترى إلا العربات ، وعربات السيد تحمل البضائع والنسوة والأطفال وغيرهم ، بالإضافة إلى عدد لا يحصى من الرجال على ظهور الخيل .. وهو منظر رهيب كئيب (٨١) » .

وزادت النسذر والتنبؤات عن المصير المشئوم من الرعب ، وأغلقت المسارح وحلقات الرقص والمدارس ودور المحاكم . وانتقل الملك وحاشيته في يونيه إلى أكسفورد « حتى يحوطهم الله برعايته إن شاء » دون أن يسمم سوء ، ولو أن صيحات التأليب تعالت ضدهم لأنهم هم الذين جلبوا هذا البلاء ، عقابا من عند الله ، على فسادهم وفجورهم ، وبقى رئيس أساقفة كنتربري في مقره في لامبث ، ينشق في كل أسبوع عدة مئات من الجنينيات عونا للمرضى والأموات . وبقى موظفوا المدينة فيها يقومون بأعمال بطولية . وأرسل الملك ألف جنية ورجال الأعمال في « السيتي » ستائة جنية أسبوعيا ، وهرب كثير من الأطباء ورجال الدين ، وبقى آخرون وقفوا كثيرين نجحهم متأثرين بالعدوى . وجرب الناس الأدوية والملاجات على اختلاف أنواعها ، فلما أخفقت لجأوا إلى التهايم والتعاويد التي قد تصنع

المعجزات • وفي ٣١ أغسطس ١٦٦٥ قال بيتر د في هذا الأسبوع مات ٧٤٩٦ شخصا منهم ١٦٠٢ بالطاعون • وكان حفارو القبور يحملون من يموتون في الشوارع على عربات اليد ، ويدفنونهم في مقابر عامة • وبلغت جملة من ماتوا بالطاعون من أهالي لندن في ١٦٦٥ ، نحو سبعين ألفا ، وهذا سبع السكان • وخف الوباء في ديسمبر ، وعاد الناس لمزاولة أعمالهم شيئا فشيئا • وفي فبراير ١٦٦٦ عادت الحاشية إلى العاصمة •

وماكاد السكان الباقون على قيد الحياة يروضون أنفسهم على احتمال ما كلفهم الطاعون من خسائر حتى داهمت المدينة كارثة أخرى • وكانت كارثة حقا ، ذلك أنه في يونيو ١٦٦٦ أبحر الهولنديون في جرة إلى التيمز ودرسوا المراكب الإنجليزية فيه بمدافع مع صوتها في لندن • ولكن في الساعة الثالثة من صباح الأحد ٢ سبتمبر ، في حانوت خباز في بودنج ثين ، شب حريق ، أتى في ثلاثة أيام على معظم الجزء من لندن الواقع شمال النهر • ومرة أخرى تآمرت الظروف وتجمعت المصائب : صيف جاف ، وبيوت كلها تقريباً مبنية من الخشب ، متلاصقة ، كثير منها خال من السكان الذين يقضون عطلة نهاية الأسبوع في الريف ، مخازن ملائ بالوت والقار والقنب والسكران والخمور وغيرها من المواد القابلة للاحتراق في الحال ، ثم هبت ربيع عاصفه حملت النار من بيت إلى بيت ، ومن شارع إلى شارع ، أضف إلى ذلك سوء التنظيم وعدم الاستعداد لمواجهة مثل هذا الحريق في مثل هذا الوقت من الليل • ومن حسن حظ ايفلين أنه كان في سوثنارك ، فأسرع إلى شاطئ النهر •

« حيث شهدنا للمدينة بأسرها وقد اندلع فيها الذهب الرهيب بالقرب من للاء ، في كل الدور من جسر لندن ، وفي شارع التيمز ، صعدا نحو تشيسيد ... وامتدت النيران في كل مكان ، وعرت الدهشة الناس ، إلى حد أننا لم ندر منذ البداية ، ماذا تولا من قنوط وجزع حتى أنهم بشق النفس تحركوا لاختادها ، فلم نكن نسمع أو نرى إلا الصرخات والمويل والنواج

وهم يبحرون هنا وهناك ، ذاهلين مخبولين . كذلك أحرقت النار السكنائس والقاعات العامة ، وسوق الأوراق المالية والمستشفيات والآثار والخراف والبيوت والأثاث أنها أتلفت كل شئ « ١٠٠ »

وهنا رأينا النهر مغطى بالبضائع الطافية فوق الماء والزوارق والقوارب محملة بالبضائع التي وجد بعض الناس فسحة من الوقت وأوتوا شيئاً من الشجاعة لانقاذها . كما كان هناك على الجانب الآخر العربات وغيرها ، تنقل إلى الحقل ، التي انتشرت لعدة أميال كل المنقولات من كل نوع ... كما نصبت الخيام ليأوى إليها الناس وما استطاعوا أن يستخلصوه من بضاعة ومتاع . يلهول المنظر الأليم المتجعجج الذي لم تصادف الدنيا مثله منذ بدء الخليقة . وغطت ألسنة النيران وجه السماء ، فبدت وكأنها أتون ملتهب ... انى أرجو الله ألا تقع عيناي ثانية على مثل هذا المنظر ، منظر أكثر من عشرة آلاف بيت تحترق كلها في لحظة واحدة وكان صوت اللهب المندلح وفرقته ورعده ، وصراخ النساء والأطفال ، وهروا الناس ، وسقوط الأبراج والمنازل والسكنائس ، أشبه شئ بعاصفة هوجاء ، وكان الهواء ساخناً إلى حد أن الناس اضطروا إلى الوقوف جامدين ، تاركين النار يشتد أوارها ، وتمتد ألسنتها لمسافة تقرب من ميلين طولاً وميل عرضاً (٨٢) .

وأبلى الملك وأخوه المسكروه جيمس ، كلاهما ، بلاء حسناً في هذه الأزمة ، وجدوا في العمل بأيديهم مع مكافئ النيران ، وأشرفوا على أعمال الإغاثة ومولوها وهبأوا المأوى والطعام لمن باتوا بلا مأوى ، وأصرروا ، برغم المعارضة الشديدة ، على هدم البيوت ليحولوا دون امتداد الحريق ، مما كان له أثره في انقاذ جزء من المدينة في شماله التيمز (٨٣) وكاد الحى التجارى أن يمحي عن آخره ، أما حى السياسة « وستمنستر » ، فقد أفتقد ، ودمر ثلثاً مدينة لندن ، بما في ذلك ١٣٢٠٠ منزل ، ٨٩ كنيسة بما فيها كنيسة سانت بول العتيقة ، ولقى ستة أشخاص فقط مصرعهم ، ولكن مائتى ألف شخص فقدوا مساكنهم (٨٤) . ودمرت معظم المكتبات واحترق من الكتب

ما قيمته ١٥٠ ألف جنيه . وقد ربح مجموع الخسائر والأضرار بنحو ٠٠٠ ر ٧٣٠ ر ١٠٠ جنيه (٨٥) ، وهو ما ربما يعادل اليوم ٥٠٠ مليون دولار . وبعد الكارثة نظم المجلس البلدى فى لندن إدارة للمطافىء ، وركبت خراطيم الماء فى أنابيب الماء الرئيسية . وكان على كل شركة أن تعين بعض أعضائها ليكونوا على أهبة الاستعداد لتشغيلها لدى سماع أى إنذار ، وكان على كل العمال أن يحذوا حذوهم إذا استدعاهم عمدة المدينة . وأعيد بناء لندن فى شىء من القهمل ، على طراز أمتن وأقوى ، وإن لم يكن أجمل من ذى قبل . وبأمر من الملك حل الطوب والحجر محل الخشب ، واختفت الطوابق العليا الناتئة ، وأصبحت الشوارع أوسع وأكثر استقامة ، ورصفت بالحجر السلس الأملس ، وخصصت الطوارىء للمشاة . وتحسنت الرماية المحمية . وقضت النيران على كثير من الأقدار والقيعان والبراغيث والجرائم فتخاضت لندن من الطاعون ، وجدد المهندس المعمارى « رن » بناء كنيسة سانت بول .

٤ — الفن والموسيقى ١٦٦٠ - ١٧٠٢

ولد كرسطوفر رن Wren فى أحضان الدين ، ورضع لبان العلم ، وتوجه بالفن . كان أبوه كبير كهنة وندسور ، وعمه أسقف الى Ely ، والتحق بمدرسة وستمنستر ، ثم كلية وادهام فى « أكسفورد » ، وفى ١٦٥٣ حصل وهو فى الحادية والعشرين على منحة لمتابعة الدراسة فى كلية « جميع النفوس » . ثم أصبح فى سن الخامسة والعشرين أستاذا للفلك فى كلية جريشام فى لندن ، وفى سن التاسعة والعشرين شغل « كرسى » « سافيل » للفلك فى أكسفورد . وبدأ أنه وهب نفسه للعلم ، فقد سحرت له الرياضيات والليكانيسكا والبحريات والأرصاد الجوية والفلك . فقوم السيكلويد (وجد أن الخط للمستقيم مكافئ لانحناء السيكلويد) . وشرح قوانين التصادم ، ونسب إليه نيوتن كثيرا من التجارب التى أدت إلى وضع قوانين الحركة الثلاثة (٨٦) . وعمل بجهد على تحسين التلسكوب وصقل

المدسات وبمحت في دوائر زحل . وابتكر طريقة لتحويل الماء للمالح إلى ماء عذب ، وأدى من أجل بويل أول عملية حقن للسائل في مجرى الدم في الحيوان . وأثبت أن الحيوان يمكن أن يعيش بسهولة بعد إزالة طحاله . واشترك مع توماس ولس Willis في تشريح المخ . وأعد الرسوم اللازمة « لتشريح ولس للشهور » وكان من أوائل أعضاء « الجمعية للملكية » وهو الذي كتب مقدمة ميثاقها . وما كان أحد ليحلم أنه سيغفل في التاريخ على أنه أعظم مهندس معمارى انجليزى .

أن الظروف قد تغير مجرى الحياة . وربما كانت مهارة رن في الرسم هي التي حدثت بإشارل الثانى إلى تعيينه مساعدا لسير جون دنهام (١٦٦١) رئيس للمساحة في الأشغال العامة . وسرعان ما وجد في المهارة ذلك التزاوج بين العلم والفن ، أى اضفاء الجمال على الحقيقة ، وهذا هو ما كان يشغل كل تفكيره . وكتب يقول : « هناك لونا من الجمال : الجمال الطبيعى والجمال المألوف أو العادى المتعارف عليه . والجمال الطبيعى تأتى لنا به الهندسة ، أما الثانى ، الجمال المألوف ، فإنه يتأتى من ترويض حواسنا على الأشياء التي تبعت السرور والبهجة عادة في نفوسنا ولكن للعيار الحقيقى دائما هو الجمال الطبيعى أو الجمال الهندسى (١٧) » . فالشىء الصحيح هندسيا ، كما يرى رن ، يسرنا هو نفسه ، ويكون جميلا (أحد الجسور الكبرى في العالم مثلا) . ومن هذه الزاوية أثر العمارة الكلاسيكية على العمارة القوطية . وفي تصميماته الأولى رسم خطى اينجو جونز .

وفي ١٦٦٣ وضع تصميم مسرح شلدون في أكسفورد للأسقف جابرث شلدون ، وهما منذ البدايه ، اتبع مبادئ كلاسيكية . ورفع الصرح الأثرى الضخم ، على نفس الطراز الذى وضعه فتروفوس في قديم الزمان وفيينولا في عصر النهضة . وساعدت إقامته الطويلة في فرنسا ١٦٦٤ - ١٦٦٦ على ترسيخ ميوله الكلاسيكية . ولكن إعجابه بكنيسة فرانسوا ماسارت في فال - دى - جراس ، جنح به إلى إضافه شىء من زخارف الباروك إلى

واجهات مبانيه . كما أنه تذكر قبه فال - دي - جراس ، وهو يعيد بناء كنيسة سانت بول .

وعادرن إلى لندن في مارس ١٦٦٦ . وفي أبريل ، بناء على طلب الأسقف شلدون وضع خطة لإصلاح الكاتدرائية المتداعية ، التي ساخت من العمر آنذاك نحو ٦٠٠ عام . وفي ٢٧ أغسطس وافقت لجنة إصلاح كنيسة سانت بول على مشروع رن . ولم يمض على ذلك أسبوعان حتى دمر حريق لندن التاريخي الكنيسة ، وجرى الرصاص الذي أذاخته النيران من سقفها في الشوارع .

أن هذا الحريق الذي أتى على ثلثي العاصمة هيأاً للعمارة فرصة لم تتح لها منذ حريق رومه . وكانت النيران لا تزال كامنة تنفث الدخان حين عرض رن على شارل الثاني مشروعه الرائع لإعادة بناء المدينة . وقبل الملك المشروع ، ولكن أعوزته المال اللازم له ، كما أن المشروع تعارض مع حقوق الملكية القوية . وشغل رن نفسه بمشروعات أخرى ، وأعد في ١٦٧٣ نصمياً للكنيسة سانت بول جديدة . ولكن رجال الكاتدرائية اعترضوا بأن التصميم تبدو عليه سيجاء معبد وثني ، وحشوا رن على التزام الطراز القوطي في الكنيسة العتيقة ، ووافق كارها على حل وسط ، بحيث يكون الداخل عبارة عن أفواس وجناح من الكنيسة ومكان خاص بالمرتلين ، وكلها على الطراز القوطي ، على أن تكون الواجهه من طراز عصر النهضة : مدخل ذو رواق معمد وقوصرة كلاسيكية وبرجان من طراز الباروك . وكانت النتيجة خليطاً كرهه المنتظر من الطراز ، ولو أن رن أصالح منه بعض الشيء بتتويج الجزء الداخلي بقبة تنافس قبة برونسكي في فلورنسة وميسكلاً لنجلو في رومه وستظل سانت بول أروع كنيسة شاهدها البروتستانت

وعلى حين مضى هذا المشروع في طريق التنفيذ لمدة خمسة وثلاثين عاماً ، فإن رن الذي خلف دنهام في تولي شئون المساحة العامة ، وضع تصميمها

ثلاث وخمسين كنيسة أخرى . اشتهر كثير منها بأبراجها وقبورها المستدقة التي جمعت بين حاسة الجمال عنده وبين نزعة الرياضية . أضيف إلى هذا دار الجمارك في لندن ، والمستشفى في كل من جرينتش وشاس ، والكنائس الصغيرة في كلية بمبروك في كمبردج وترينتي كولدج في أكسفورد ، ومكتبة ترينتي كولدج في كمبردج والجناح الشرقى الكلاسيكى في قصرها مبتون كورت ، وستا وثلاثين داراً نقابية ، وعددا من الدور الخاصة بل يبدو أنه في الأربعين عاما الأخيرة من القرن السابع عشر . لم يشيد مبنى له قيمته وأهميته ، إلا كان رن هو المهندس الذي تولاه (٨٨) واحتفظ رن بمنصبه في المساحة طوال حكم شارل الثانى ، وجيمس الثانى ، ووليم ومارى ، وآن . وتقاعد عن العمل فى سن السادسة والثمانين ، ولكنه ظل لخمس سنوات أخرى يشرف على العمل فى كنيسة وستمنستر ، وينسب بعضهم إليه فضل إقامة أبراجها ، وفارق الحياة فى سن الحادية والتسعين ، ودفن فى كنيسة سانت بول .

وكان فن النحت لا يزال يتجا فى انجلترا . ولكن الحفر على الخشب كان فنا رفيعا . وكان جرنلنج جيبونز معاونا له قيمته للمهندس رن ، قام بحفر المقاعد فى المكان المخصص للمرتلين وصندوق الأرغن الفخم فى كنيسة سانت بول ، والزخارف فى قصر ويندسور وقصر كفسنجتون وهامبتون كورت .

واستمر فن الرسم فى انجلترا على أن يستقدم الأساتذة وينشط من هم بنيه . وعلى الرغم من ذلك ، كان بعضهم يعد جون ريبلى أعظم رسام لصور الأشخاص فى فترة عودة الملكية . وأدرك جون أن الوجه المدروس الذى يرسم فى روية ، هو فى ذاته سيرة حياة ، فاستطاع أن يتسرا خطوطه ، وفى بصيرة نافذة كشف فى ثناياه عن خفاياه وأسراره وأبرزها فى شجاعه غير مريحه . وكاد تعليق شارل الثانى على صورة رسمها له ريبلى يكون سببا فى انهيار الفنان ودماره ، حين قال الملك : « أهذه صورتى ؟ يا خبيثه الأمل ،

اذن أنا رجل قبيح المنظر ، ومضى زمن طويل قبل أن تدرك الحاشية أن هذا كان مجرد تحية عفوية لأمانة الفنان . وبنفس الدقة والأمانة أخرج ريبلى صور الملك الأحمر جيمس الثانى ، وادموند وإلر الشاعر المرتد ، وارل آرونديل الأرستقراطى التافه المختال . ولكنه حين رسم كرسنوفورن وروبرت بويل ، وقع على العبقرية ووضع يده على إماراتها فى الوجه ، وعلى بريقتها فى العينين . قال هوراس وولبول « ربما كان فى مقدور ريبلى ، برقع غرور سيرجودفرى نلر ، أن يقنع العالم بتمغوقه وسموه (٨٩) . وفارق الحياة فى ١٦٩١ وهو فى سن الخامسة والأربعين .

وكان لى الهولندى ونللى الألمانى فارسى الحلبة المرموقين فى رسم الأشخاص فى عصر آل ستيوارت الثانى . وكان والد لى جنديا هولنديا اسمه فان درفاس . (واشتق لقبه هذا (لى) من زبقة كانت مرسومة على داره . واحذر اللقب إلى الإبن . ولد بيتر فى وستفاليا ١٦١٨ ، ودرس الرسم فى هارلم ، وعبر البحر إلى إنجلترا (١٦٤١) حين سمع أن شارل الأول أوفى الذوق والمال ، ووفق فى أن يخلف فانديك بوصفه مصور الأشخاص الذى يبتغيه الناس ، وظل محتفظا بمسكاته هذه على عهد كرومول وشارل الثانى ، واقتبس لى أسلوب فانديك فى اضفاء الأناقة والرشاقة على الجالسين أمامه (لرسمهم) . ولو فى اللباس فقط . وحاصرته ربات الجمال فى الحاشية ، من ذلك أننا نرى فى قاعة المتحف الوطنى لوحة نل جوين ريانة حاتنة داعرة . وكونتس شروزبرى التى ساءت سمعتها ، بمغامراتها الغرامية كما نرى على جدران قصر هامبتون كورت ليدى كاسلبن ولويزدى كير ووال ، تزدهيان بمحلات أندائهما . وأجل من ذلك جون تشرشل وهو طفل مع أخته (٨٩) أزابيلا (٩٠) ومن الذى كان يتوقع أن يصبح هذا الطفل للملائكى والطفلة الملائكية دون مالبرو القوى الجبار ، والعشيقة التى تصعب زحزحتها لجيمس دوق يورك ؟ . وعن طريق مثل هذه اللوحات حمل الى على لقب فارس ، وجمع ثروة . فقد جلس أمامه شارل الثانى وستة من الأدواق

لرسمهم . ورأى بيبز أنه جبار معتد بنفسه . . يحظى بمنزلة رفيعة (٩١) ، وكان يعيش « عيشه مترفه باذخه (٩٢) » وحدد له موعدا للقاءه بعد ثلاثة أسابيع .

وفي ١٦٧٤ ، أى قبل وفاة لى بست سنوات ، قدم إلى لندن رجل ألماني عقد العزم على أن يخلف سيربيتر (لى) فى رسم الأشخاص وفى كسب المال وفى الفروسية ، وحقق الرجل برنامجا وكان الرجل ، وهو جوتفريد فون نلر ، آنذاك فى الثامنة والعشرين ، وعينه شارل الثانى « مصور البلاط » واحتفظ نلر بهذا المنصب فى عهد جيمس الثانى ووليم الثالث الذى منحه لقب فارس ، ورسم سير جودفوى لوحات لثلاثة وأربعين من أعضاء « نادى كيت كات » ذى المسكاة السياسية البارزة (٩٣) ولعشر من النساء الخطيرات المغويات فى بلاط ولیم (٩٤) . وغطى على شهرة دريدن ولوك . ومثلما يتلطف أى إنسان على الخلود ، حول لمار مرسمه الفخيم إلى مصنع ينتج بالجملة ، بهيئة لم يسبق لها مثيل من المساعدين ، يتخصص كل منهم فى شىء معين : الأيدي ، الثياب الأشرطة والخطوط الملونة . وفى بعض الأحيان جلس أمامه أربعة عشر شخصا فى يوم واحد . وشيد قصر فى الريف ، وتنقل بينه وبين بيته فى المدينة فى عربة تجرها ستة جياد . واحتفظ بحياته فى كل التقلبات السياسية . وفاضت روحه وهو فى فراشه معززا مكروما فى سن السابعة والسبعين (١٧٢٣) وفى تلك السنة ولد ربنولدز ، وكان هوجارت فى السادسة والعشرين من العمر ، وبدأ الرسم الوطنى بترعرع ويشق طريقه .

وقضى البيوريتانيون تقريبا على الفن ، ولكنهم لم يخرسوا الموسيقى . ولم يخل من الآلات الموسيقية إلا أحقر البيوت ، ولحظ بيبز وجود العذراويه (آلة تشبه البيان الصغير بدون قوائم) فى كل قارب من ثلاثة من القوارب التى تحمل البضائع المنقذة فى التيمز أثناء الحريق (٩٥) ، وكتب يقول : « لا بد أن أفسح المجال للموسيقى والنساء مهما كنت مشغولا » .

وكان يورد ذكر صفاته ومزهره وعوده وفيثارته . قدما يذكر أسلحته (٩٦) وكل إنسان ورد ذكره في مذكراته ، كان يعزف ويغنى . وكان من القضايا للمسلم بها عنده أن أصدقاؤه كان في مقدورهم أن يشاركوا في الغناء (٩٧) ، وأنه هو وزوجته وخادماهما كانوا يغنون في حديقته غناء متناغما ، بشكل مقبول إلى حد أن جيرانهم كانوا يفتحون النوافذ ليستمعوا إليهم .

وفي الابتهاج بعودة الملكية صدحت الموسيقى من كل شكل ولون . واستقدم شارل الموسيقيين من فرنسا . وسرعان ما جعل الناس يدركون أنه كان يجهد الألحان الرخيمة المبهجة الواضحة التي لا تحسب الرياضيات تناسقا أو تناغما . ووضعت آلات الأرغن من جديد ولعلت في الكنائس الرسمية . وكان الأرغن الذي صمم لكنيسة سانت جورج في وندسور ، وللسكاتدرائية في أكستر ، من بين عجائب الدنيا التي أحدثت دوا في ذاك العصر . ولكن حتى في جماعه المنشدين في الكنيسة حل محل الوقار والرهبة ، عروض مسرحية من فنانين والآلات المنشدين المنفردين . وأمر شارل الثاني وجيمس الثاني بإعداد الموسيقى للشعر الغنائي وحلبات الرقص التي تقام احتفالا بالمناسبات الملكية . واستخدمت الكنائس الموسيقى لقاء أجر ، وجازفت المسارح بالأوبرا ، وبدأ الملحنون والمغنون الانجليز يرتقون من جديد .

وفي ١٦٥٦ أقنع سدير وليم دافانت حكومه الحمايه لترخيص له في إعادة افتتاح مسرح ، على أساس أنه سيخرج أوبرا ، لاروايه وفي « حفلة الأيام الأولى » التي مثلها لم يسكن هناك أوبرا بقدر ما كان هناك سلسلة من الحوارات سبقتها وتخللتها وأعقبها الموسيقى . ولكن في العام نفسه عرض دافانت في مسرحه الخاص « وتلنדהاوس » أول أوبرا إنجليزية « حصار رودس » (٩٨) ، ولكن إغلاق المسارح بسبب الطاعون والحريق ، عوق هذه التجارب . على أنه في ١٦٦٧ عرض دافانت المغامر ، في صورة

صوره موسيقية معدلة « العاصفة » التي زعم أنها من عمل أبيه . وحددت أوبرا بورسل « ديدو وإينياس » بداية الأوبرا الكاملة في إنجلترا .

وكما هو الحال غالبا في تاريخ الموسيقى ، فإن عبقرية هنرى بورسل كانت في معظمها نتاج وراثية اجتماعية — أى بيئة من المراهقة . فكان أبوه رئيس للمرتلين في وستمنستر ، وكان عمه يشغل وظيفة « ملحن القيثارات لصاحب الجلالة » . وكان أخوه ملحنا وكاتبا مسرحيا . وتابع ابنه وحفيده عمله في العزف على الأرغن في الكنيسة . أما هو فلم يمتد به الأجل لأكثر من سبعة وثلاثين عاما (١٦٥٨ — ١٦٩٥) ، وتولى الترتيل في الكنيسة الملكية وهو لا يزال صبيا ، حتى ضعف صوته . وألف في شبابه ترايم دينية ظلت تسمع في الكاندراتميات الإنجليزية على مدى قرن من الزمان : وألحانه الإثني عشر من نوع السوناتة (١٦٨٣) لقيثارتين أو لأرغن وبيان قيثاري ، هي التي جلبت شكل السوناتة من إيطاليا إلى إنجلترا ، ويقول بيرنى أن أغانيه وترايمه والكانتاتنا (قصه تنسدها المجموعة على أنغام الموسيقى من غير تمثيل) وموسيقى الفرقة التي ألّفها « فافت إلى حد بعيد كل ما أنتجته أو استوردته بلادنا من قبل ، إلى حد يبدو معه أن سائر الألحان الموسيقية جاءت بالاحتقار أو لاذت بزوايا النسيان (٩١) .

ولما كان بورسل منهمكا في عمله ، عازفا على الأرغن ومامحنا ، فإنه لم يتيسر له أن يخرج « ديدو وإينياس »^(٩٢) قبل ١٦٨٩ ، لنخبه مختارة من المتفرجين ، في إحدى مدارس البنات في لندن . وتبدو الموسيقى لنا الآن ، حتى الاستهلال المشهور ، هزيلة نحيلة ، ولكن يجب أن نتذكر أن الأوبرا كانت آنذاك في المهد ، وأن جمهور المستمعين آنذاك لم يولع بالفضاء والصخب مثلنا اليوم . أما اللحن الأخير — عويل ديدو ونواحها : « عندما

(٩٢) في الأساطير الرومانية — ديدو أميرة صور إلى أسست قرطاج وأصبحت ملكة عليها ، وتقول انيادة فرجيل ، أنها رحبت بإينياس حين قدم إلى قرطاج . بعد سقوط ترواده ، ووقعت في شرك غرامه ، ثم قتلت نفسها حين غادرها .

أتوسد الثرى » فإنه من أكثر ما يهز المشاعر ويؤثر في النفوس ، من
الحنان في تاريخ الأوبرا بأسره .

أما « الملك آرثر » (١٦٩١) التي كتبت كلماتها دريـدن ووضع
موسيقاها بورسل ، فليست أوبرا بالمعنى الكامل ، حيث يبدو أن الموسيقي
لم تكن مرتبطة إلا ارتباطاً يسيراً بحجج الرواية أو أحداثها ، مثلما أن
الرواية لم يكن لها صلة وثيقة بعصر آرثر كما نراه في مالورى وتليسون .
وبعد ذلك بعام واحد ، أحرز بورسل تقدماً أكثر في موسيقى ثانويه
لروايه « فيرى كوين : الملكة الجنيه » ، وتكييف مجهول الاسم « حلم
ليه منتصف الصيف » . ولم يمتد به الأجل ليشهد إخراجه ، وضاعت
الألحان ، ولم تسكتشف إلا في ١٩٠١ وهي الآن تعد من أحسن ما
أنتج بورسل .

وفي ١٦٩٣ وضع أكثر قصائده الغنائية الكثيرة ، أحكاماً واتقاناً ،
في الاحتفال بيوم سانت سيسيليا . ولكن أرق هذه القصائد هي « تسبيحة
الشكر والابتهاج » المرحه ١٦٩٤ . وكانت تعزف سنوياً في الإحتفال « بأبناء
رجال الكنيسة » حتى ١٧١٣ ، حتى اشتركت في هذا الشرف مع مقطوعة
هاندل « تسبيحة الشكر من أوترخت » ، فكانتا تعزفان بالتبادل سنوياً
حتى ١٧٤٣ . ومن أجل جنازة الملكة ماري ١٦٩٥ ، ألف بورسل ترتيلة
مشهورة « ياربنا : أنت أعلم بخفايا قلوبنا » . وفي سنواته الأخيرة
اسهم في الموسيقى الثانوية لروايه دريـدن « الملكة الهندية » ومن الواضح
أنه مرض قبل أن يتمها لأن موسيقى الخاتمة وضعها أخوه دانييل . وحانت
منيته ، ربما بسبب السل ، في ٢١ نوفمبر ١٦٩٥ .

وعلى الرغم مما امتلأت به فترة عودة الملكية من حيوية ونشاط ،
فإن الموسيقى الانجليزية لم تكن قد أفاقت بعد من نكستها على يد
البيوريتانيين بعد عهد اليزابث . وبدلاً من ترسيخ جذورها ثانية في القربة
الانجليزية ، حذت حذو الملك ، فانحنت إجلالاً وإكباراً أمام الأساليب

الفرنسية والآلات الإيطالية . وبعد أوبرا « ديدو واينياس » غزت الأوبرا الإيطالية مسرح الأوبرا الانجليزي ، يقدمها مخنون ايطاليون . كتب بورسل في ١٦٩٠ « ان للموسيقى الانجليزية لم تبلغ بعد سن الرشد إنها طفل آواق طموح يبشر بما يمكن أن يكون عليه في المستقبل ... إذا وجد أساتذته مزبدا من التشجيع (١٠٠) » .

٥ - الأخلاق

فلنبدأ لغورنا هنا بالتفريق بين عامة الشعب وأبناء الطبقات العليا ، فالاستهتار الجنسي الذي ساد فترة عودة الملكية ، سرى عن طريق الحاشية إلى الطبقة الوسطى العليا وسكان المدن وماحولها الذين ترددوا على المسارح وربما كانت أخلاق العامه للعمومين أفضل منها في عصر الزبائث ، لأن النظام الاقتصادي أبقاهم على اعتدالهم وبعدم عن السرف ، فلم يكونوا يملكون الوسائل التي يتردون بها في مهاوى الرذيلة والشر ، وظلوا يحسون بوازع من عقائدهم البيوريتانيه . ولكن في لندن ، وبوجه أخص ، في الحاشية للملكيه ، فإن التحلل من القيود البيوريتانيه ورد الفعل الناتج عن ذلك ، أديا إلى اتصال جنسى غير مشروع ومرح صاحب غير برى . أما الشباب الارستقراطي الذي اقتلع من أرض الوطن وأطلق لنفسه العنان في فرنسا ، فقد ترك أخلاقه وراءه في المنفى ، وأتى معه لدى عودته بضروب من الفوضى الموسومه بالرشاقه والظرف ، وانتقاما منهم للسنوات التي عانوا فيها عنت الظلم والحرمان والسلب والنهب ، شنوا بكل ما أتوا من قوة وذكاء ، الحرب على زى البيوريتانيين وحديثهم ولاهوتهم ومبادئ الأخلاق عندهم ، إلى حد لم يجرؤ معه واحد من أبناء طبقته أن ينهس ببنت شفه من أجل الحشمة والوقار . وباتت الفضيلة والتقوى والأمانة الزوجية كلها ألوانا من البراءة أو السذاجة الريفية وأصبح الزانى الذي يوفق كل التوفيق في هذه الرذيلة ، هو بطل عصره وفريد زمانه ، (كما هو الحال في رواية وتشترلى : الزوجة الريفية) والواقع أن الديانة فقدت مسكاتها

واعتبارها بين الناس ، ولم يبق لها شيء من هذا إلا عند الحرفيين والفلاحين . وصار الوعاظ موضع الإحتقار والازدراء على أنهم منافقون كثيرون أغبياء مزعجون يملون ثقال الظل . وأصبحت الديانة الوحيدة الصالحة للسيد المأجد هي الأنجليكانية المهدبة التي يحضر فيها اللوى (رب العمل أو مالك الأرض) صلاة الأحد لتدعيم مركز القسيس الذي يزرع الخوف من نار الجحيم في نفوس القرويين ، ويسبح بالحمد والشكر ، في إيجاز مناسب ، من جاب للنصبة التي يجلس إليها اللوى أو سيد القرية . وأصبح أقرب إلى طابع العصر أن يكون للمرء ماديا على مذهب هوبز ، لامسيحيًا مثل ملتون ، الأحمق المعجوز الأحمى الذى نظر إلى سفر التسكوين على أنه تاريخ ، وفقدت نار الجحيم التي بولغ فيها في العشرين سنة الماضية ، رهبتها وهبتها لدى طبقات المالسين . أما اللجنة في رأيهم ، فهي ماثله دوما في مجتمع متحرر من الثورة الاجتماعية والسكبت الخلقى في ظل حاشية وملك ضربا للثل وتقدما الركب في الفسق والتجور والليسر واللهو والمعبث .

وكان ثمة عدة رجال أفاضل ونساء فضليات بين أفراد البلاط الملكي ، وكان كلارندن مثلاً رجلاً ذا مبادئ وسلوك قويم حتى سارت ابنته في طريق الغواية فاهتاج وفقد صوابه ، وأوصى بقتلها وتحلى أرل سونمبتون الرابع ودوق أورمند الأول بالحشمة والوقار ، وكان بين رجال الدين الأنجليكانيين نفر من المخلصين الأتقياء ، حتى من الأساقفة أو ذوى المراتب الكنيسة العالية . وصدقت عزيمة الملكة وليدى فانفو والأنسة مملتون ، أو السيدة جودولفين فيما بعد ، في التمسك بأهداب الفضيلة . وبقينا كان هناك أفراد غير هؤلاء وهؤلاء ، ضاعت ذكراهم في ثنايا التاريخ لأن الفضيلة لا تعلن عن نفسها .

وكلما علت المسكانة أنحطت الأخلاق . فهناك جيمس ، دوق يورك ، شقيق الملك ، الذى يبدو أنه يز الملك في حصته من التخليلات العشيقات (١٠١) . وبينما هو في المنفى تسلل إلى مخدع آن هايد ابنة قاضى القضاء ، فلما حملت

منه توسلت إليه أن يتزوجها ولكنه كان يماطل ، وأخيراً وقبل أن تضع وليدها بسبعة أسابيع (٢٢ أكتوبر ١٦٦٠) اتخذ منها زوجة شرعية سرّاً . وعندما سمع أبوها (كلارندون) نبأ هذا الزواج ، كما تروى سيرته حياته (١٠٢) احتج لدى الملك بأنه لم يعلم شيئاً عن هذا الاتفاق ، وأنه « كان يؤثر أن تكون ابنته خليله الدوق لزوجته ، وأنهما إذا كان حتماً قد تزوجا » فينبغي على الملك أن يزج بالمرأة في السجن فوراً ، وأن يصدر في الحال قرار من البرلمان بقطع رأسها ، وأنه لن يوافق على هذا القرار فحسب ، بل سيكون عن طيب خاطر أول من يقترحه . وهز الملك كتفيه استهجاناً للموضوع على أنه هراء لا غناء فيه ، وكأنه يسمع جمجمة ولا يرى طحناً ، وربما أدرك قاضى القضاة أن الملك لن يلزمه بكلمته . وتحدث في صرامة وتجهّم ، على الطريقة الرومانية ، ليموض عما نار من ريبه في أنه رتب أمر الزواج من قبل ، ليجعل من ابنته ملكة على أن ابنته آن ماتت بالسرطان في ٢٦٧١ ، في سن الرابعة والثلاثين .

واتخذ جيمس ، بينما كانت زوجته (آن) تعاني مشاكل الأمومة ، من أرابللا تشرشل عشيقه له ، وهى التى إرتضى أخوها هذا الوضع حتى يحظى بالترقى فى مناصب الجيش . ورغبة فى معاونة آن وأرابللا والتخفيف عنهما اتخذ الدوق بضعة خليلات أخريات لمضاعفته واستاء إيفلين بصفتها واحدة من من سلوكه الشائن مع ليدى دنهام (١٦٦٦) (١٠٣) . ولم يغير تحول جيمس إلى السكتلiske من خلقه شيئاً . فكان كما كتب بيرنت « دائم التنقل من غرام إلى غرام دون أن يحسن الاختيار ، حتى قال الملك يوماً أنه يعتقد أن القساوسة هم الذين يقدمون له العشيقات عقوبة يكفر بها عن ذنوبه » (١٠٤) . ودامت علاقته بأرابللا نعمة عذبة من الأرغن ، وسط هذا التنقل بين مطارح الهوى ، وبعيت بعد موت آن ، وبعد زواج جيمس (١٦٧٣) من ماري مودينا .

وينبغى علينا أن نضيف إلى ما ذكرنا ، أن دوق يورك نفسه كان يتعلى بمناقب تدعو إلى الإعجاب ، فإنه — وهو أمير البحر

(١٦٦٠ — ١٦٧٣) ، بذل أقصى الجهد فى التغلب على سوء النظام والفساد فى البحرية ، نتيجة لصلالة الأجور والمؤن التى تصرف لرجال البحر وتدريبهم الهزيل ، وأبدى مهارة وشجاعة فى اشتباكات مع الهولنديين . ونهض بمهام الإدارة فى مقدرة وإخلاص . ولم تشب أية شائبة قط إخلاصه العميق لأخيه الملك ، بل انتظر صابرا طيلة ربع قرن من الزمان قبل أن يخلقه على العرش . وكان صريحا مخلصا يسهل الوصول إليه ، ولكنه كان شديد السكاف بمكانته وسلطانه إلى حد لم يكن معه شعبيا ، وكان صديقا يقيم على الود ، وعدوا عنيدا لا يفتقر إلى الساءة . وكان ذا جلد على العمل الشاق ولكنه لم يكن متوقد الذكاء . وكان يأبى النصيح والمشورة أيما إباء .

وكان يحتل المركز الثانى فى البلاط ، جورج فليبردوق يكنجهم الثانى . وكان ابن محظية جيمس الأول التى لقيت حتفها ، ومن ثم قاتل إلى جانب شارل الأول فى الحرب الأهلية ، ومع شارل الثانى فى وورسستر ، وعينه الملك الذى استرد العرش عضوا فى مجلسه الخاص وكان بارعا ذكيا أنيسا كريما ، ولذلك سيطر فى البلاط بسحره وفننته لبعض الوقت ، وكتب « ملهارة » رائعة . « التجربة » ، وتلهى بالكيمياء القديمة والعزف على القيثارة إلى حد ما . ولكن وجهه ورائه جلبا عليه الدمار . انه تنقل من امرأة إلى أخرى ، وانغمس فى عبث مخز شائن . وبدد ضيعته الهائلة . وكان يتوق إلى الظفر بكونتيس شروزبرى ، فتحدى زوجها لمبارزته ، وتنكرت هى فى زى خادم ، وأمسكت بجواد بكنجهم أثناء المبارزة ، وصرع بكنجهم الكونت ، وطاقت الأرملة السعيدة الدوق المنتصر الذى كان لا يزال مفرجا بدم زوجها ، وحادا ظافرين إلى قصر الفريسة (١٠٥) . وعزل بكنجهم عن منصبه (١٦٧٤) ، وانصرف إلى اللهو والعبث ، ومات فقيرا معدما يحمله الحزى والعار .

وكان ينافس بكنجهم فى المسكانة والذكاء والقصف والعبث والانحلال ١٠ — قصة الحضارة

جون ولموت أرل روشستر الثانى ، حصل جون على درجة الأستاذية من أ كسفورد فى سن الرابعة عشرة (١٦٦١) وهو أمر لا يصدق ، ولتحقق بالبلاط فى السابعة عشرة • وأصبح المشرف على حجرة الملك • وكان فى حاجه إلى المال وهو فى سن التاسعة عشرة ، فتودد إلى وريثه نرية تباطأت فى تحقيق بغيته ، فاخطفها ، ومن أجل ذلك زج به فى السجن ، فرق قلبها له ، ثم حظى بالزواج منها ، ثم بثروتها ، وكم من مرة أبعد شارل عن الحاشية وأعاد إليها ، مستسيغا فطنته وذكاءه • وكان روشستر — مثل بكنجهام — خبيرا فى التقليد والمحاكاة ، وكان يسر بالتنكر فى زى جمال أو متسول أو تاجر أو طبيب ألمانى ، وكان يوفق فى هذا التمثيل والمحاكاة إلى حد ضلل أو خدع معه أوثق أصدقائه صلة به • وزعم بوصفه طبيبا أنه يبرىء من الأدواء المستعصية عن طريق علمه بالتنجيم • وجذب إليه مئات من المرضى ، وشفى عددا منهم ، وسرطان ما قصدت إليه سيدات البلاط لملاجهن • وعجز أولئك الذين عرفوه حق المعرفة ، عن التعرف عليه (١٠٦) وفى كل هذه التنكرات تقريبا كان يطارد السيدات ، دون أى اعتبار لمكانتهن • وكن هن يتعقبنه كذلك ، وتسلى جون بكتابة قطع من الهجاء البذى الداعر • وقضى على حياته بالخر والفقور • وكان يفخر بأنه كان ثملا مخمورا لمدة خمس سنوات بلا انقطاع — ومات فقيرا نادما فى سن الثالثة والثلاثين .

وكان فى الحاشية رجال كثيرون من أمثال ولموت ، حتى أن يبهر نفسه ، وهو غير هاو الذى تسائل : « ماذا ستكون نهاية كل هذا الشراب وهذا السباب وهذه العلاقات الغرامية الفاجرة (١٠٧) » وعبر بوب عن هذه الحالة فى « بحث فى النقد » ، ولكنه لم يذهب الملك كل الإنصاف ، فهو يقول :

« إذا كانت المهمة الهينة اللينة للملك هى العشق والغرام ، فقلما نراه فى مجلس الحكم ، ولا نراه أبدا فى ساحة الوغى ، فان الدولة يحكمها النساء الحائشات بالعهد اللأفى يتنقلن من حب إلى حب ، أما رجال الدولة والسياسة فيكتبون للمرحيات الهزلية الساخرة ولا يستفاد بذوى اللواهب ،

والقورداث الشبان اليافعون خلوا من الذكاء والنظنة ، ولم تعد للروحة للتواضعة المحترمة ترفع ، وعلت الابتسامة وجوه العذارى لما كانت وجناتهن تحمله حياء وخجلا من قبل (١٠٨) .

وكان من الأمور للسلم بها أن الزوجات — مثل الأزواج — تموزهن الأمانة والاخلاص ، فان الرجال لم يتطلبن الأمانة والإخلاص إلا في عشيقاتهم (١٠٩) . إن مذكرات كوت فيليبرت دى جرامونت التي دونها بالفرنسية أخوزوجته ، أنطوني هملتون ، كانت ، أحيانا ، عبارة عن قائمة بالمفرورين المختالين ، أو سلسلة من الديوثين الذين لا يغارون على زوجاتهم . ويمعلمون انهم يأتين الفاحشة ، كما رآهم الكونت في منفاه السعيد في بلاط شارل الثاني .

وكم كانت الساعات تقضى وتخصص للرقص وسباق الخيل وصراع الدبكة ولعب البليارد والورق والشطرنج ، والألعاب الأرضية والحفلات التنكرية المرحية ، ثم كما يقسول بيرت « يطوف الملك وللملكة وكل أفراد البلاط ، وهم جميعا متنكرون ، بالبيوت غير المعروفة ، حيث يرفضون ويعبثون ويلهون في صخب فاجر (١١٠) » وكانت المراهنات على مبالغ طائلة . يقول ايفلين « في هذه الليلة ، افتتح جلالة الملك الحلبة ، كما هي العادة ، فألقى « الزهر » بنفسه في القاعة الخاصة ، . . . وخمس مائة جنيه . (وكان قد كسب في العام الماضي ١٥٠٠ جنيه) . وأقبل السيدات كذلك على اللعب اقبالا شديدا (١١١) » وحذت الطبقات العليا حذو الحاشية في القمار والدطارة . وتحدث ايفلين عن شباب أنجلترا الفاسق الفاجر الذي فاقت إلى حد كبير دطارته للذهله ، حماقات سائر الأمم المنحضرة مهما كانت (١١٢) . وانتشر اللواط ، وبخاصة في الجيش . وكتب روشستر رواية عنوانها « سودوى » (نسبة إلى سودوم قرية قوم لوط) مثلت أمام الحاشية . والظاهر أنه كان في إنجلترا عدد من المواخير لهذا الاختلاط بالجنسى الشاذ (١١٣) .

وكان عدد الزيجات القائمة على الحب يتزايد . وهناك أمثلة رائعة ، منها زواج دوروتى أو زيورن من وليم تمبل ، الذى ثبت أنه زواج سعيد ، ولو أن دوروتى كتبت تقول . « ليس الزواج القائم على الحب تصرفا معيبا ملوما ، إذا كنا لم نر من بين ألف من الزوجين الحبيين الذين يقدمون عليه ، زواجا واحدا يمكن أن يتخذ مثلا على أنه يمكن اتصافه دون ندم عليه فى المستقبل » (١١٤) . وكتب سوينف إلى سيدة شابة فى موضوع زواجها فتحدث عن الشخص الذى اختاره أبواها ليكون زوجها . وأضاف « أن زواجك كان قائما على الحكمة والحصافة والتدبر والشعور الطيب للتبادل ، خاليا من عوائق الانفعال السخيف فى الحب الرومانتيك (١١٥) » . ويذكر كلارندون : « إن رغبتي الأولى فى الزواج لم تتعلق إلا بضئعة ملائمة مريحه (١١٦) » .

ومن الناحية النظرية كان للزوج كل السيطرة على زوجته ، كما يتحكم حتى فى الصداق الذى أتت به إليه . وفى كل الطبقات كانت مشيئة الزوج قانونا . وفى الطبقات الدنيا استعمل الزوج حقوقه المشروعة فى ضرب زوجته ، ولكن القانون حرم عليه استعمال عصا يجاوز سمكها سمك ابهامه (١١٧) . وكان انضباط الأسرة أو نظامها قويا ، اللهم إلا فى الطبقات العليا فى لندن ، حيث شك كلارندون من أن الوالدين ليس لهما أى سلطان على الأبناء ، كما أن هؤلاء لا يدعونون للأباء ولا يطيعونهم . بل « إن كل انسان يتصرف كما يحلوه » (١١٨) . وكان الطلاق نادرا ، ولكن يمكن إجازته بقرار من البرلمان . ورأى الأسقف بيرت — مثل لوثر وميلتون — أنه يمكن السماح بتعدد الزوجات فى حالات معينة ، وعرض هذه الفكرة على شارل الثانى ، بسبب عقم الملكة ، ولكن الملك رفضها ، فتماشيا للتصادى فى اذلال زوجته (١١٩) .

وهددت الجريمة الأرواح والممتلكات بشكل مستمر . وكان الاصوص والنشالون يتجمعون فى عصابات ويسطون فى جنح الليل . وكانت المبارزة

حرمة بحكم القانون ، ولكنها بقيت امتيازاً للسادة الأماجد ، فإذا صرع مبارز غريمه وفقاً للقواعد ، نجا المنتصر عادة بسجن قصير مريح . وسعى القانون جاهداً ليكافح الجريمة عن طريق ما يبدو الآن عقوبات وحشية . ولكن ربما كانت الإجراءات الصارمة لازمة لغزو العقول المتحجرة أو المتبلدة . وكان التعذيب والموت عقوبة الخيانة العظمى . وكان الشنق عقوبة القتل أو الجناية أو تزيف العملة . وكانت الوجوه التي تقتل زوجها تحرق حية . أما السرقات الخفيفة فكانت عقوبتها الجلد ، أو قطع إحدى الأذنين ، وضرب أى فرد من حاشية الملك يعاقب بقطع اليد اليمنى . أما التزوير والخداع وغش الموازين والمقاييس فكانت عقوبتها التعذيب في المشهرة ، أحياناً مع دق الأذنين كليهما بالمسامير في آلة التعذيب ، أو ثقب اللسان بقضيب من الحديد المحمى (١٢٠) . وكان الناس عادة يستمتعون بمشاهدة مثل هذه العقوبات (١٢١) ، ويحتشدون ، وكأنهم في يوم عطلة ، ليشهدوا سجيناً على حبل المشنقة . وضمت السجون في عهد الملك السعيد عشرة آلاف سجين من أجل الديون ، وكانت السجون قذرة ، ولكن كان من الممكن أن يقدم الحراس بعض التيسرات مقابل رشوة . كانت العقوبات أشد صرامة وقسوة منها في فرنسا المعاصرة ، ولكن القانون كان أكثر تحرراً . ولم تكن في إنجلترا « أوامر مختومة » (لا لقاء أى شخص في السجن دون محاكمة) ، بل كان فيها نظام التحقيق في قانونية الاعتقال . إلى جانب نظام المحلفين .

وشاركت الأخلاقيات الاجتماعية في الانحلال العام . وتزايدت أهمال البر . ولكن ربما كان الواحد والأربعمون ملجأ في إنجلترا مجرد وجه آخر لجشع الأقوياء ، وكان كل فرد تقريباً يعتمد إلى الغش أثناء لعب الورق (١٢٢) ودب الفساد في كل الطبقات بمعدل أكبر من المستوى العادى . ومن مذكرات بيبز تفوح رائحة الفساد في مختلف الأعمال ، في السياسة وفي البحرية وفي بيبز نفسه . من ذلك أن المؤسسات وللصانع زادت في أسهمها دون زيادة مقابلة في رأس المال ، وزورت في حساباتها ، وتقاضت من

الحكومة أنمانا فادحة (١٢٣) . وكانت الاعتمادات التي يقرها البرلمان للجيش أو الأسطول يتحول جزء منها إلى جيوب الموظفين ورجال البلاط . وباع موظفي الدولة — حتى ولو كانت رواتبهم كافية تدفع بانتظام — الألقاب والعقود والبراءات والتعيينات وأوامر السفو ، إلى حد « بات معه الراتب الأصلي يشكل الجزء الأصغر مما يدخل إلى جيوبهم (١٢٤) » . وأثرى كبار رجال الحكومة مثل كلارندون ودانبي وسندرلند — أثروا في سنوات قليلة واشتروا أو بنوا ضياعا لا تتناسب قط مع رواتبهم . وباع أعضاء البرلمان أصواتهم للوزراء ، بل حتى للحكومات الأجنبية (١٢٥) وفي القرارات انتزع مائتا عضو من صفوف المعارضة ، نتيجة لأن الوزراء اشتروا أصواتهم (١٢٦) . وفي ١٦٧٥ قدر أن ثلثي أعضاء مجلس العموم كانوا مأجورين من قبل شارل الثاني ، والثلث الباقي من قبل لويس الرابع عشر (١٢٧) حيث وجد العاهل الفرنسي أنه من الميسور أن يرشوا الأعضاء ليصوتوا ضد شارل إذا حاد بشكل مزعج عن سياسة البوربون . أما شارل نفسه ، فبكم من مرة تسلم أموالا طائلة من لويس ، حتى يلتزم الدوران في فلك فرنسا في السياسة أو الديانة أو الحرب ، وهكذا كان المجتمع الإنجليزي أكثر المجتمعات استهتارا وفسادا في التاريخ .

٦ — العادات

حاولت العادات أو أساليب الحياة هنا أن تعوض عن النقص في الآداب — كما في فرنسا — ، وأن تضفي كياسة متكلفة على الملابس المزركشة الأنيقة والأدب الفاجر ، والحديث الدنس . وكان شارل نفسه مثالا لأسلوب الحياة وتسرب إلى الطبقات العليا ما يجمل به الملك من ظرف ولطف وجمالة وسحر وفتنة ، وترك كل أولئك بصماته على الحياة في إنجلترا . فتبادل الرجال القبلات عند اللقاء . وقبلوا يد المرأة إذا قدموا إليها . وفي لندن — كما كان في باريس — استقبلت السيدات الرجال في الفراش ، فكان هناك ضراحة

منعشة واحتقار للنفاق في الأدب وفي المسرح وفي البلاط . ولكن العراحة أطلقت فيضاً من الخشونة على المسرح وفي الحديث اليومي . وكانت البذاءة في إنجلترا بغير مثال . وفي هذا كان شارل من بين الشواذ الخارجين على القاعدة ؛ حيث كان لا يتجاوز في السباب « عبارته المفضلة *Odde Fish* » وكان البيوريتانيون الباقون يناوون بأنفسهم عن خش القول إلا إذا هاجوا خصومهم وسخروا منهم . أما السكويكرز فامتنعوا عن الخلف

وبز الرجال النساء في الأزياء الغربية ، من الشعر للمستعار للضمخ بالمساحيق لأجل التبرج ، إلى الجوارب الحريرية والأحذية ذات « الازيم » وكان الشعر المستعار بدعه أخرى مستوردة من فرنسا . وكان الفرسان والمختالون وغيرهم ، ممن كان شعرهم قصيراً ، أو ممن يخافون أن يخطئهم الناس على أنهم من البيوريتانيين ذوى الرؤوس المستديرة الذى كانوا يقصون شعرهم قصاً قصيراً جداً ، تقول ان هؤلاء وهؤلاء كانوا يغطون قصر شعرهم بشعور أجنبية مستعارة . أما الرجال الذين أبيض شعرهم أو مال إلى الشيب فقد وجدوا في الشعر المستعار وسيلة ناجحة لاختفاء أعمارهم . وكان كل الرجال تقريباً يحملون اللحية آنذاك . وكان هذا الشعر المستعار يصلح من شأن بشرة الملك الأسبانية وأفعه الضخم . وجعل يبرز من أول شعر مستعار وضعه مسألة خطيرة ، ورثى لشعره المحبب إليه الذى كان لزاماً أن يقص ليفسح الطريق « لباروكة — الشعر المستعار » ويزود بالشعر رأس إنسان آخر (١٢٨) ، وكان لزاماً أن يتم تنظيف شعره المستعار من القمل في أوقات منتظمة (١٢٩) — واختفى الآن طوق الرقبة المسكوكش للمتييس الذى كان سائداً في عهد إليزابيث وجيمس الأول . كما اختفت السترة الضيقة والعباءة الطويلة ليحل محلها الصدرية والمعطف . ووصلت الصدرية على أية حال إلى ربة الساق . وكانت تشد إلى الجسم بحزام . وتوقفت « بنطالونات » الركوب عند الركبتين . وتدللت السيوف إلى جوارب الأرستقراطيين أو الأغنياء . وساعد الخملات والخمرات وبالأشربة والأهداب وكشكشة الخياب

على استكمال الظرف والكياسة ، وربما استخدم الناس لتدفئة اليدين في الشتاء ، « الموقه » وهى غطاء أنبوبي طويل مكسو بالفراء ، يعلق في العنق .

أما نساء الطبقات العليا الأنيقات (طبقا لآخر طراز) فكان يضمنهن شعورهن بالمساحيق والعمطور ، ويمشطنها في خصلات فوق جباهن ، وزدن عليهن خصلات مستعمارة مرفوعة على أسلاك خفية ، وكسوز قبعاتهن بالريش النادر ، ووضعن على خدودهن أو جباهن أو أذنانهن « لصوقات تجميلية » (وهى قطع صغيرة جداً من حرير أسود يلصقها النساء كوسيلة لاختفاء العيوب أو للتبرج) ، زيادة في إغراء الرجال بمطاردتهن . وكشفن عن أكتافهن وعن أجزاء كبيرة من نهودهن ، وهكذا جلست لوزدى كيرووال أمام الرسام لى ليصورها وأحسد نهديها طار تماماً ، وبزتها نل جوين في ذلك . وكانت النساء تحجبن سيقانهن بشكل مفر ، وتزايد الطلب على أدوات التجميل الأنيقة . فسكات المرأة بالفعل شيئاً معقداً استخدم الإنسان كل براعته في تشكيكه وصنعه ، حتى صورتها إحدى الروايات في فترة عودة الملكية ، في شيء من المغالاة والإغراق في الوصف .

« صنعت أسنانها عند ناظم اللالى » (فى بلاك فرايرز) ، وحواجبها من خيوط أو أسلاك مجدولة (فى استراند) ، وشمرها فى شارع « الفضة » ، فإذا آوت إلى الفراش نزعته عن نفسها كل ما عليها لتضعه فى عشرين صندوقاً . حتى إذا نهضت من نومها ظهر اليوم التالى ، ركبت كل شيء فى مكانه على جسمها من جديد . وكأنها ساعة حائط ألمانية ضخمة (١٣٠) .

وكان التبذير واجبا حتميا ، لقد أصبحت الحياة مظهرية متكلفة من جديد ، ومن ثم اقتضت تجهيزات معقدة مفضلة . وكان لزاما استئجار عدد كبير من الخدم ، فكان منهم لدى والد اينلين نحو خمسين وكان لدى بييز طباط ومديرة للمنزل ووصيفة وخدمة . وكانت وجبات الطعام مرفوعة

ضخمة . أنظر إلى غداء بيبر في ٢٦ يناير ١٦٦٠ قبل أيام الطيش والغرارة
بزمن طويل :

« أعدت زوجتي غداء شهيا جدا : أعنى طبقا من « عظام النخاع » ،
ونخذا من الضأن ، وقطعة من لحم العجل ، وصحنا من الطيور ، وثلاث
دجاجات ، واثنى عشر زوجا من القنبر على طبق واحد ، وكعكة ضخمة
محمشة بالمربي والفاكهة المطبوخة (تورتة) ، ولسان بقرة ، وطبقا من
السبك الصغير « الأنشوجة » ، وطبقا من القريدس (الجبرى) والجبن .

وكانوا يتناولون الوجبة الرئيسية في الساعة الواحدة . وكان للطبخ
إنجليزيا . وعندما أوضح شارل الثانى جرامونت أن الخدم كانوا يقدمون
الطعام للملك ، وهم ركوع ، رمزا للاحترام والإجلال ، قال جرامونت
(أروى أنه قال) : « أشكر لجلالتكم هذا الإيضاح ، فقد ذهب تفكيرى
إلى أنهم إنما كانوا يلتمسون للغرفة لتقديمهم طعاما رديئا (١٣١) » .

ولم يكن تناول للشروبات الروحية مجرد مظهر اجتماعى ، فقلما كان
الناس ، حتى الأطفال ، يشربون الماء (١٣٢) ، وكانت « البيرة » أيسر منالا
من الماء الصالح للشرب . ومن ثم تناول كل الناس من مختلف الأسنان ،
البيرة ، وأضاف الموسرون إليها الويسكى أو استوردوا النبيذ . وتردد معظم
الناس على الحانات مرة واحدة فى اليوم ، وتناول كل الأفراد من جميع
الطبقات الخمر من حين إلى حين .

ودخل البن من تركيا حوالى ١٦٥٠ . وحتى ١٧٠٠ كان معظم البن
يستورد من إقليم مخا فى اليمن . وفى القرن الثامن عشر نقل الهولنديون
زراعته إلى جاوة والبرتغاليون إلى سيلان والبرازيل ، والانجليز إلى جايبكا .
وساعد استخدام القهوة فى التغلب على الحمول والكسل وفى شحذ الذهن ،
على انتشارها وإقبال الناس عليها . وافتتحت لندن أول مقهى فيها فى ١٦٥٢ ،
وما وافى عام ١٧٠٠ حتى كان بها ٣٠٠٠ مقهى (١٣٣) واتخذ كل فرد مهما
كان مكانته ، أحد اللقاءى محلا غفارا لمقابلاته باتظام ، حيث يلتقى بأصدقائه

ويستمتع إلى آخر الألباء والمخازى . وحاول شارل الثانى أن يحد من انتشار المقاهى ومن نشاطها باعتبارها مراكز لإهانة المشاعر السياسية والمؤامرات ، ولكن شهوة الحديث والشراب والاستمتاع برائحة التبغ أحبطت مساعيه . ومن بعض المقاهى نشأت الأندية التى لعبت دورا فى سياسة القرن الثامن عشر ، ثم أصبحت آنذاك ملاذاً ومهرباً من أحادية الزواج ، واختلفت المقاهى عن الأندية التى ظهرت متأخرة عنها ، لا لجرد أن القهوة كانت هى المشروب المفضل فيها ، بل لأن الحديث كان يلقى تشجيعاً فيها . كما أن مشاهير الأدباء مثل دريدن وأديسون وسوينف وجدا فيها منابرهم (فى المقاهى) . كما أن حرية الكلام فى إنجلترا انتعشت وازدهرت هناك .

وجاء الشاى إلى إنجلترا من الصين حوالى ١٦٥٠ ، ولكنه كان غالى الثمن . إلى حد أنه لم يحل محل البن فى الحياة الانجليزية إلا بعد قرن من الزمان . وحسب بيير أنه انما كان يقوم بمغامرة حين تناول أول فنجان من الشاى (١٣٤) . وفى نفس الوقت استورد حب الكاكو من المكسيك وأمريكا الوسطى . وحوالى ١٦٥٨ استحدث شراب جديد بإضافة « القانيليا » والسكر إلى الكاكو . وأصبحت « الشكولاته » الشائعة عن هذا المزيج شرباً محبوباً مألوفاً فى فترة عودة الملكية ، وكان يقدم فى كثير من المقاهى .

وفى تلك الآونة دخنت التبغ كل الطبقات ، بما فى ذلك كثير من النساء وبعض الأولاد ، فى أنابيب طويلة دوماً . وظن النساء أن لهذا التبغ بعض الفائدة فى التطهير وقاية من الطاعون . وربما نشأت عن هذه الفكرة عادة « السموط » فى تلك الأيام ، أى نشوق التبغ المسحوق .

والآن وقد تخلص الناس من كابوس البيوريتانية ، فتعد ازدهرت الألعاب وأسباب التسلية واللهو : واستمتع الفقراء من جديد بمسرح العرائس وعروض السيرك وصراع الديكة ومطاردة الدببة والثيران ، وألعاب البهلوان على الحبال والمصارعة ، والشموذة والملاكمة والسحر ، والنغمس الموسرون

فى الصييد بنوعيه : صيد النساء وصيد الحيوان ، وظل شارل الثانى يمارس لعبة
النس حتى بلغ الثالثة والخمسين . أما ايفلين فقد أحب لعبة البولنج على
الأرض الخضراء ، التى لا تزال منظرآ محببآ إلى الانجليز حتى اليوم . وكانت
لعبة الكريكيت قد بدأت تكون وسيلة لقضاء وقت الفراغ فى الأمة بأسرها
ولأول مرة فى ١٦٦١ يرد ذكر قطعة من الأرض مخصصة لهذه اللعبة ، وفى
تلك السنة خططت حدائق فوكسهول على الضفة الجنوبية للتيمز ، وسرطان
ما أصبحت منتجعا أنيقا على أحدث طراز . وافتتح شارل الثانى للجمهور
متنزه سان جيمس . وأقيمت آنذاك حدائق هايد بارك حيث يقصد إليها
فى الامسيات الظريفة ، عليه القوم وعلى رأسهم الملك والماسكة . إن
« المجتمع » بدأ آنذاك يستشفى فى مياه باث المعدنية .

و تنقل الناس — فيما خلا أفقر الطبقات — فى عربات تجرها الجياد ،
التى كانت قد بدأت تؤدى خدمة بريدية منتظمة لقاء بنس فى ١٦٥٢ ، ثم
استخدمت لنقل الركاب فى مواعيد منتظمة فى ١٦٥٨ ، وكانت هذه
العربات قد استخدمت لنقل السلع والتجارة داخل المدينة منذ ١٦٢٥ .
وتنقل كبار الأغنياء فى عربات تجرها ستة جياد . وكانوا يصطحبون
ثلاث فرق من الجياد ، لا مجرد العرض وحسب الظهور ، ولكن لتجربة العربى
فى الطريق الموحلة . وكانت الماشية المحلية فى بعض الأحيان تربط أمام
الجياد لتشد العربى وتسحبها من المستنقعات العميقة . لقد كانت الطرقات
منظفة بالأتربة أو الأوحال . إن الحانات والانزال على جانبي الطريق ،
بالخليط العجيب من زلاتها من سائقى العربات والمسافرين والممتهنين والبائسين
والاصوص والبغايا ، كانت تهيب السبيل أمام هؤلاء جميعا للاسهام فى الأدب
فى انجلترا وهكذا كانت تشكل انجلترا الحشنة المحببة الى النفس والمفعمة
بالحيوية ، التى عرفها دكنز فى شبابه .

٧ — الدين والسياسة

استمر الصراع بين المذاهب الدينية ، وتجدد النزاع القديم بين الملك والبرلمان ، وسط تفتح الناس وتوافر أسباب الحياة لديهم وتكاثرهم . وأحزن الملك المبتهج أن يرى مجلس العموم ، بعدما أظهر من اذعان وامتنال في شهر العسل ، يغار من سلطة الملك وقوته ، ويقبض عنه الاعتمادات . لقد كان الملك رفيق القلب ولسكنه حازم صلب العود . فولى وجهه شطر ملك فرنسا ليحصل منه على قروض خاصة ، ووعد ، وواضح أنه رغب — في التخفيف من ويلات الكاثوليك الانجليز ، كما وعد بتأييد سياسة لويس الرابع عشر ضد الأراضي الوطیئة ، وبيع ثغر دسكرك على القنال الانجليزى لفرنسا ، وكان جنود كرومول قد استلوا عليه . والحق أن الدفاع عنه كان يكلف أمولا طائلة ، وكان شوكة في جنب فرنسا . فتخلى شارل عن دسكرك (١٦٦٢) مقابل خمسة ملايين فرنك بالإضافة الى امانات سرية من البوربون ، استطاع بها لبعض الوقت أن يتجاهل أو ليحار كية الأرض والمال التي تحسكت في البرلمان آنذاك

ان هؤلاء الأوليجاركين ، على أية حال ، رأوا أن أموال الحكومة ينبغي أن تستخدم في شن حرب مريحة أخرى ضد الهولنديين . ان نفس المنافسة على التجارة ومصايد الأممك التي أدت الى الحرب الهولندية الاولى من قبل في ١٦٥٢ هي التي عززت فكرة الحرب الثانية ١٦٦٤ . وقاوم شارل هذا الاتجاه الى الحرب ، لأطول مدة ممكنة ، لأنه آثر المحبة والمودة إيمانياً . وكتب لأخته يقول : لم أرقط مثل هذه الشهوة الجامعة للحرب في الريف والحضر كليهما ، وبخاصة لدى رجال البرلمان . إنى لأجد أننى الرجل الوحيد الذى لا يريد الحرب فى مملكتى (١٦٥٠) .

لقد ساءت الأحوال . وحارب الأسطول الإنجليزى ببسالة على الرغم من سوء تغذيته وضآلة ملابسه وذخائره ، ولكنه خسر بقدر ما انتصر ،

وفي الوقت الذي حى فيه وطيس الحرب ، ترك الطاعون والحريق لندن موحشة مقفرة ، كما ترك إنجلترا مفلسة ، وفي أخريات عام ١٦٦٦ فتح الهولنديون باب المنازعات لعقد الصلح وسر الملك بقرب التوصل إلى تفاهم ، فأرسل مندوبين إلى بريدا . ووثقا منه بأن الإتفاق كان وشيكاً ، ومذ رأى أن أمواله على وشك النفاذ ، فإنه تحى جانباً من أسطوله في «مدواى» ، وسمح للبحارة بالاستغفال على السفن التجارية . فما كان من «دى روتر» إلا أن قاد أسطولا هولنديا إلى التيمز ومدواى ودمر معظم السفن الإنجليزية التى خلت من الرجال . ويقول بيبر أنه فى تلك الليلة «كان للملك يتناول المشاء مع ليدى كاسلين عند دوقه مونموث» ، وقد شغل الجميع إلى حد الجنون باصطياد فراشه مسكينة (١٣٦) . وعندما وصلت أنباء الهجوم إلى لندن ، دعى كل رجل مفتول العضلات إلى حمل السلاح . ولكن الهولنديين كذلك رغبوا فى الصلح ، لأن الفرنسيين كانوا قد أفلأروا على إقليم فلاندرز . وأنتهت معاهدة بريدا فى ٢١ يوليه ١٦٦٧ ، الحرب الهولندية الثانية بشروط لم يرشح لها الجميع .

وأضعف هذا الإخفاق التام وتلك الكوارث التى توالى على لندن ، مركز الملك إلى حد أن بعض الإنجليز فكروا فى خلعهم . وطالب البرلمان بفرض رقابة برلمانية على مصروفات الحكومة . وأذعن الملك ، لأنه كان خالى الوفاض ، ولأن خطوة أخرى قد اتخذت نحو سيادة البرلمان الذى طالب كذلك بعزل كلارندون ، لسوء معاملته للشئون الخارجية . ولم يكن شارل يكره عزله ، لأن مستشاره كان يعارض تحركه فى إنجاء التساخ الدينى ، وينتقد إنغماسه مع الخليلات ، ولم يكتف مجلس العموم باستقالة كلارندون ، فقدم إقتراحا بمحاكمته بتهمة خضوعه للذليل لفرنسا . فاستمع كلارندون لنصيحة الملك ، ولاذ بالفرار إلى القارة . وكانت خاتمة محزنة قاسية لرجل حفل بسجل حياته بالخدمات . وكرم الشيخ الهرم منقاه بتدوين أجلة وؤاف تاريخى أخرجه الأدب الإنجليزى حتى ذاك اليوم . ووافته للنوة فى روان

(على السين في شمال فرنسا) في ١٦٧٤ ، وهو في الخامسة والستين .
وعين الملك شارل (١٦٦٨) خمسة رجال ليحلوا محل كلارندون :
توماس كليفورد ، إرل آرنجتون ، ودوق بكنجهام ، ولورد آشلي (الذي
أصبح على الفور إرل شافسبري الأول) وإرل لودرديل . وكوت الحروف
الأولى من أسمائهم لفظة « Ci bal » التي سميت بها الوزارة الجديدة .
وكان كليفورد يعلن عن كاثوليكيته ، وكان آرنجتون ميالا إلى هذا المذهب ،
وكان بكنجهام خليعاً ماسقاً ، وكان شافسبري متسامحاً شكاكاً ، أما لودرديل
فكان من « رجال المواثيق » السابقين ، وهو الذي فرض النظام الأسقي
بالنار والسيوف ، على مواطنيه الاسكتلنديين . واستمع شارل إلى آرائهم
أو مشوراتهم المتعارضة . ولكن تزايد ، على مر الأيام اعتماده على نفسه
والقزامة برأيه الخاص .

وكان للملك هدفان أساسيان : تجسيد الملكية المطلقة وإقامة
الكاثوليكية ورفع شأنها في إنجلترا . ونظر بعين الأمل إلى أن الذي
سيخلفه على العرش هو أخوه الكاثوليكي جيمس ، وتبادل الرسائل مع
زعيم اليسوعيين في رومه ، وأستقبل سرا مندوبا بابوياً قدم إلى لندن من
بروكسل (١٣٧) . وفي يناير ١٦٦٩ أبلغ أخاه كليفورد وآرنجتون ولورد
آرندل أنه يرغب في المصالحة مع كنيسة رومه ، وفي إطادة كل الإنجليز
إلى المذهب القديم (١٣٨) . أن أخته هنريتا لم تكف يوماً عن أن تحضه على
أن يعلن للملأ في جرأة وشجاعة عن إرتداده إلى الكاثوليكية .

وفي مايو ١٦٧٠ أرسل لويس الرابع عشر هنريتا إلى إنجلترا وفي محيطها
عدد من الدبلوماسيين الدعاة ، ليعاونوها على ربط شارل بسياسة فرنسية
كاثوليكية . وفي أول يونيو ١٦٧٠ وقع كليفورد وآروندل وآرنجتون
باسم إنجلترا معاهدة دوفر السرية . ووافق ملك فرنسا على أن يدفع لشارل
١٥٠ ألف قرنة عند إعلان إرتداده إلى الكاثوليكية . وتزويده ، عند
الاقتضاء ، بستة آلاف جندي تتولى فرنسا الانفاق عليهم ، وكان على
شارل أن يدخل الحرب إلى جانب فرنسا ضد المقاطعات المتحدة عندما يطلب

إليه ذلك . على أن يتسلم من فرنسا ٢٢٥ ألف جنيه طيلة قيام الحرب ، وكان لشارل أن يستولى على بعض الجزر الهولندية ويحتفظ بها ، كما كان عليه أن أن يؤيد مطالب لويس الرابع عشر في أن يرث أسبانيا (١٦٩١) . واما ما في خداع البرلمان والشعب في إنجلترا ، بعث شارل بدوق بسكنجهام إلى إلى باريس ليصوغ معاهدة صورية زائفة وقعت في ٢١ ديسمبر ١٦٧٠ ونشرت على الملأ ، تمهدت فيها لإنجلترا بالاشتراك في الحرب ضد الهولنديين ، ولكن لم يرد ذكر العقيدة الدينية .

وتلكا شارل نحو خمسة عشر عاما في اعلان تحوله الى الكاثوليكية . ولو أن أخاه أعلن تحوله إليها صراحة في ١٦٧٠ ، ولكن ارل أرلنجوت نفسه ، وهو الذي يؤيد الكاثوليكية ويميل إليها ، حذر الملك من اعلانه التحول الى هذا المذهب — كما فعل أخوه — قد يعجل بقيام ثورة . ومهما يكن من أمر ، فان شارل تحرك نحو هدفه بأن أصدر في ١٥ مارس ١٦٥٢ ، اعلان التسامح الثاني ، « لدوى الضمائر الرقيقة » يوقف فيه العمل ، بكل قوانين العقوبات ، أي كات ، في الأمور الكنسية ، ضد المنشقين أو المتمردين والمخالفين وفي الوقت نفسه أخلى سبيل كل من كانوا أو دعو السجون بسبب مخالفتهم لتشريعات البرلمان في المسائل الدينية . وبذلك أطلق سراح مئات من المنشقين ، من الكويكرز . وأرسل زعماءهما وفدا عنهم لتقديم الشكر للملك . وصنع المشيخيون والبيوريتانيون حين رأوا أن الحرية الجديدة التي منحت لهم امتد نطاقها لتشمل الكاثوليك وأنصار تجديد العهد ، كما فزع الأنجليكانيون من « أن البابويين والفرق الدينية ذوات المذاهب المختلفة » مجتمعون علنا في لندن . ولمدة عام كامل نعمت إنجلترا بالتسامح الديني أو شقيت به .

وفي ١٧ مارس ١٦٧٢ شنت إنجلترا الحرب الهولندية الثالثة . وتلك مسألة كان الملك والبرلمان كلاهما على اتفاق فيها . واعتمد البرلمان ٢٥٠ ر ١٢٥٠ جنيه للحرب . على أن يسلم هذا المبلغ للحكومة على أقساط كان من الواضح أنها تعتمد على استرضاء الملك البرلمان وموافقة على تشريعاته الدينية . وأعان مجلس العموم « أن قوانين العقوبات في المسائل الدينية لا يمكن ابطال العمل

بها الالة نون يسنه البرلمان . وأرسل الى الملك طلبا بسحب اعلان التسامح
ومذ كان لويس الرابع عشر يتوق الى أن يرى انجلترا صفا واحدا كالبنيان
المرصوص ، تأييدا للحرب ضد الهولنديين ، فانه نصح الملك شارل بالغاء
اعلان التسامح حتى تنتهى الحرب بالفوز ، وأذن شارل ، وألغى
الاعلان فى ٨ مارس ١٦٧٣ .

ومن المحتمل أنه فى هذا الوقت ، ترامت الى زعماء البروتستانت أنباء
مما هدة دوفر السرية أو أشتموا رايحتها ورغبة فى الحيلولة دون تحول الملك
الى الكاثوليكية ، سن المجلسان كلاهما « قانون الاختبار » الذى ينص على أنه
يجب على كل أصحاب الوظائف المدنية والعسكرية فى انجلترا أن يقرروا علنا
على تخليهم عن النظرية الكاثوليكية التى تقول بتحول خبز القربان والخبز الى
جسد المسيح ودمه وأن يتناولوا الاسرار المقدسة طبقا للعقوس الانجليكانية
وكافح كليفورد هذا المشروع بضراوة ، وبعد اقراره استقال من الحكومة ،
وآوى الى ضيعته ، وما لبث حتى مات منتحرا كما يظن ايفلين . أما شافيتسبرى
فقد عضده بكل قوة ، وعزل من الوزارة ، فجعل من نفسه زعيما « لحزب
الريف » الذى تاهض ، بمنف يقارب الثورة ، « حزب البلاط » الذى كان
يؤيد الملك . وبذلك قضى على الوزارة « السكالب » (١٦٧٣) . وأصبح
أرل دى كبير الوزراء .

واغترل جيمس كل مناصبه الحكومية . وخفف من حدة المعارضة
ضده بعض الشيء ، أنه على الرغم من أن زوجته الأولى إرانتضت الكاثوليكية
مذهبا من قبل ، فإن إبنيتها - الملكة ماري والملكة آن فيما بعد - نشأتا
على المذهب البروتستانتي . لكن زواجه آنذاك (٣٠ سبتمبر ١٦٦٣) من
أميرة كاثوليكية أثار ضده حملة من أقسى الإتهامات . تلك هى الأميرة
مارى مودينا التى دمغت بأنها « كبرى بنات البابا » ، والمفروض أنها لا بد
أن تنشى أولادها على الكاثوليكية . وفى الحال قدمت إلى البرلمان
مشروعات قوانين تقضى بتشئة أبناء الأسرة المالكة على المذهب البروتستانتي .

إن تطور الأحداث على هذا النحو أثار سخط انجلترا على الحرب ضد المقاطعات المتحدة وجعلها تحس بالمرارة ، فلو أن ملك انجلترا كان كاثوليكيا لأحاز إن عاجلا أو آجلا إلى جانب فرنسا وأسبانيا في تدمير الجمهورية الهولندية تدميرا ، تلك الجمهورية التي لم تبد الآن منافسا تجاريا ، بل بدت معقل البروتستانتية في القارة ، فإذا سقط هذا الحصن الحصين فكيف يتسنى للبروتستانتية الإنجليزية أن تثبت وأن تقاوم ؟ وفوض شارل عن طيب خاطر ، سير ولیم نبل في توقيع صلح منفرد مع الهولنديين . وفي ٩ فبراير ١٦٧٤ وقعت معاهدة وستمنستر التي أنهت الحرب الهولندية الثالثة .

٨ - (المؤامرة البابوية)

وأعقبت هذه الأحداث فترة كادت أن تتسم بالصفاء والتمعقل . وحيث تسلم شارل من لويس الرابع عشر مبلغا اضافيا قدره ٥٠٠ ألف كراون ، فإنه عطل البرلمان للتعبد إلى أجل ، وعاد إلى عشيقاته . ولكن السياسة لم تتوقف . فان شافيتسبرى وغيره من زعماء المعارضة أسسوا في ١٦٧٥ « نادى الوشاح الأخضر » . ومن هذا المركز نشر « حزب الريف » دعايته دفاعا عن البرلمان والبروتستانتية ضد ملك يتآمر مع فرنسا الكاثوليكية ، ووريثه الذى زف علنا إلى زوجة كاثوليكية . وفي ١٦٨٠ أطلق على رجال حزب الريف اسم Whigs ، وعلى المدافعين عن سلطة الملك اسم Tories* . وبدا للملك شارل أن شافيتسبرى « أضعف الرجال وأخبثهم » (١٤١) . وقال عنه بيرنت « أن علمه سطحي هزيل ، وأن غروره سخيف ، وأن

(*) من الواضح أن هويج انتصار الكلمة « هويجامور » ، ولذا اسم تصبى من الاسكتلنديين نشطت في مقاومة شارل الأول (١٦٤٨) . أما تورى فهي لفظة أيرلندية معناها لص . وقد أطلقها تيتسى أوتس على « حزب البلاط » لأول مرة (١٦٨٠) (١٤٠) .

عقليته نافذة (١٤٢) ، ولكن جون لوك الذى طاش مع شافيتسبرى لمدة خمسة عشر عاما رأى أنه مناضل باسل جرىء عن الحرية للدين والدينية والفكرية أو الفلسفية. وقال عنه بيرنت أنه يدين بالرهوية (مذهب طبيعى يقوم على العقل لاعلى الوحي) وقد يحق لنا أن نرتاب فى ديانتته من قوله هو نفسه « ليس للعقلاء من الرجال إلا دين واحد » ، فلما سألتته احدى السيدات ، وما هو ، كان جوابه « أن عقلاء الرجال لا يصدقون عنه قط » (١٤٣) .

وخفت حدة التوتر الدينى بعض الشيء فى ١٦٧٧ ، حين تزوج وليم أورنج من ماري البروتستانتية كبرى بنات دوق يورك . فإذا ظل جيمس دون عقب ذكر ، فإن ماري سوف تخلفه ، فى وراثة العرش ، ومن ثم ترتبط انجلترا بهولنده البروتستانتية بحكم المصاهرة ، ولكن فى ٢٨ أغسطس ١٦٧٨ مثل تيتس أوتس أمام الملك وأعلن أنه أكتشف « مؤامرة بابوية : ذلك أن البابا وملك فرنسا ورئيس أساقفة أرماج واليسوعيون فى انجلترا وأيرلنده وأسبانيا كان يدبرون قتل شارل وخلع أخيه ، وفرض الكاثوليكية فى انجلترا بحمد السيف ، وأن ثلاثة آلاف سفاح سيتولون ذبح زعماء البروتستانت فى لندن ، وأن لندن نفسها — قلعة البروتستانتية — كانوا يدبرون احراقها عن آخرها .

كان أوتس ، وهو آنذاك فى التاسعة والعشرين من العمر ، ابن أحد أنصار تجديد العماد . وكان قد أصبح قسيسا أنجليكانيا ، ولكنه فصل من وظيفته الكنسية لسوء سلوكه (١٤٤) . ثم قبل — أو تظاهر بقبول — التحول إلى الكثلركة . وكان قد درس فى السكليات اليسوعية فى بلد الوليد (أسبانيا) وسات أوامر حيث فصل أيضا . آخر الأمر (١٥) . وفى نفس الوقت ، زعم الآن أنه كان قد اطلع على خطط الجزويت السرية لغزو انجلترا . واعترف أنه شهد فى ٢٤ أبريل ١٦٧٨ مؤتمرا يسوعيا فى لندن توقفت فيه

وسائل قتل الملك . وعدد أسماء خمسة من النبلاء الكاثوليك ، على أنهم مشتركون في المؤامرة هم : أروندل ، بويس ، بتر ، ستافورد ، بلاسييس . وعندما أضاف أوتس أن بلاسييس هذا كان سيعين قائدا عاما لجيش البابا ، ضحك شارل ساخرا ، حيث كان بلاسييس طريق الفراش بداء النقرس . وخلص الملك إلى أن أوتس لفق القصة كلها أملا في الحصول على مكافأة ، وصرفه من حضرته .

ولكن المجلس المخصوص ارتأى أنه من الحكمة أن يفترض بعض الصديق في الاتهامات ، واستدعى أوتس لمثل أمامه في ٢٨ سبتمبر . وخشى أوتس أن يزج به السجن ، فقصده إلى قاضي الصلح سيراد موند برى جودفري وأودعه اعترافا خطيا مقرونا بقسم ، فصل فيه المؤامرة تفصيلا . وأصدر المجلس ، متأثرا بهذه الأدلة ، أوامره بالقبض على عدد من أنصار البابوية الذين تضمنهم اعتراف أوتس . وكان من بينهم أدوارد كولمان الذي كان لعدة سنوات (حتى عزل بأمر من الملك) سكرتير الدوقة يورك . وأحرق كولمان بعض أوراقه قبل القبض عليه ، ولكن الأوراق التي لم يكن لديه متسع من الوقت لاحتراقها أوضحت أن كولمان والاب لاشيز قسيس لويس الرابع ، تبادلوا من الرسائل مايعبر عن أمل الطرفين (شارل ولويس) في أن تصبح إنجلترا كاثوليكية في أسرع وقت وفي هذه الرسائل اقترح كولمان أن يرسل إليه « لويس الرابع عشر أموالا ليكسب بها أعضاء البرلمان إلى جانب قضية الكتللكه ، ثم أضاف « أن نجاحنا سوف يكون ضربة شديدة للعقيدة البروتستانتية ، لم تلاق مثلها منذ نشأتها تلك هي تحول ثلاث ممالك . ومن ثم ، فربما كان في هذا القضاء التام على هذه الهرطقة الوبيلة (١٤٦) إن اعدام كولمان لمعظم أوراقه حسدا بالمجلس إلى الاعتقاد بأن كولمان على علم بالمؤامرة التي وصفها أوتس ، وربما كان شريكا فيها . واستنتج شارل نفسه من تلك الرسائل ، وجود مؤامرة حقيقية بشكل ما .

وفي ١٢ أكتوبر اختفى القاضي جودفري ، وبعد خمسة أيام وجدت جثته في أحد الحقول في الضواحي . وبات من الواضح أنه قتل . بيد ضللاء مجهولين ، ولأسباب غير معروفة حتى الآن ، ولكن البروتستانت نسبوا القتل إلى الكاثوليك الذين كانوا يأمرون في الحيلولة دون نشر اعترافات أوتس . ويبدو أن هذا الحادث أكد الاتهامات . وفي هذا الجو الذي سادته الريبة وعدم الثقة ، الذي خلقته معاهدة دوفر السرية ، والخوف من اعتلاء جيمس عرش انجلترا ، كان طبيعيا أن تصدق انجلترا البروتستانتية آنذاك كل ما جاء على لسان أوتس من اتهامات ، وأن يعترىها نوبة من الجنون بدامعها أن حماية البروتستانتية تتطلب اعتقال كل من أورد أوتس ذكرهم في المؤامرة ، إن لم يكن اعدامهم .

وبدأت فترة من حكم الإرهاب امتدت لنحو أربع سنوات . وفر جيمس إلى الأراضي الوطيدة وتسليح أهالي لندن استعدادا لمقاومة أي غزو متوقع . ونصبت المدافع في هويت هول . واتخذ الحراس أما كنهم في الأقبية والسراديب تحت مبنى البرلمان بمجلسيه ليحولوا دون « مشروع بارود » آخر لنسف المبنى . وأقر البرلمان قانونا لطرده الكاثوليك من مجالس اللوردات ، وكرم أوتس بوصفه « مخلص الأمة » وكافأه بتخصيص معاش سنوي له قدره ١٢٠٠ جنيه لمدة الحياة ومنحه مسكنا في قصر هويت هول . وسرمان ما ازدحت السجون باليسوعيين والكهنة غير المنتسبين إلى رهبنيات ، والكاثوليك العلمانيين الذين أورد ذكرهم أوتس أو وليم بدلو الذي ظهر ، مدعيا العلم بأشياء تؤكد صحة اتهامات أوتس .

وفي ٢٤ نوفمبر وضع أوتس أمام المجلس اتهاما جديدا سرورا ، ذلك أنه كان قد سمع الملكة تيدى موافقتها على قتل زوجها بالسم ، بيد طبييها الخاص . وهنا أخذ شارل بهذه الكذبة الصارخة . وفقد ثقته في أقواله كلها ، وأمر بالقبض عليه . ولكن مجلس العموم أهر بالإفراج عنه ، وبالقبض على ثلاثة من خدم الملكة . واقترح على اصدار بيان يطالب

بعزلها . وقصد الملك إلى مجلس اللوردات ودافع عن إخلاص زوجته وولائها ، وأقنع اللوردات بالامتناع عن الموافقة على بيان النواب . وفي ٢٧ نوفمبر حوكم كولمان وكاثوليكي علماني آخر ، وثبتت إداتهما وأعدما . وفي ١٧ ديسمبر أعدم ستة من اليسوعيين وثلاثة من الكهنة المنتسبين إلى رهيئات . وفي ٥ فبراير ١٦٧٩ شق ثلاثة رجال بتهمة قتل جودفري . وثبت فيما بعد براءة هؤلاء الاثنى عشر .

وتزايدت الحملات إقترابا من الملك ، ففي ١٩ ديسمبر ١٦٧٨ تلقى البرلمان من باريس أنباء تهديد أن داني كان قد تسلم من لويس الرابع عشر مبالغ طائلة من المال . ورفض الوزير إيضاح أنها كانت إعانات فرنسية للملك . ووجه مجلس العموم الإتهام إلى الوزير . وخشى الملك الحكم على مستشاره للملكى بالاعدام ، فحل ، في ٢٤ يناير ١٦٧٩ « برلمان الفرسان » الذى كان قد التأم على فترات متقطعة ، لمدة ثمانية عشر عاما ، أى أنه كان أطول من « البرلمان الطويل » .

ولكن برلمان « الهويج » الذى اجتمع في ٦ مارس ، كان في عدائه لكاثوليكية والملك ، أشد إندفاعا وتحمسا من البرلمان السابق . واتهم مجلس العموم داني بالخيانة العظمى ، ولكن اللوردات أنقذوه بزجه في سجن لندن ، حيث قضى فيه ، في هدوء وقلق ، السنوات الخمس المضطربة التالية . وبناء على نصيحة سير وليم تمبل ، عين شارل مجلسا جديدا من ثلاثين عضوا ، بينهم — رغبة في تخفيف حدة المعارضة — زعيما حزب الهويج : شافتسبرى وجورج سافيل ، مركز هاليفاكس . وبناء على توصية الملك اختير شافتسبرى رئيسا للمجلس . وسعيا وراء المزيد من تهدئة العاصفة ، عرض الملك على البرلمان تسوية بديلة لاستبعاد أخيه عن العرش : ألا يسمح لأى كاثوليكي بمقعد فى البرلمان أو بتولى منصب قيادى يتطلب الثقة ، وألا يكون للملك حق التعيين فى المناصب الدينية ، وأن يخضع تعيين القضاء لموافقة البرلمان . وان يكون للبرلمان حق الرقابة والاشراف

على القوات البرية والبحرية (١٤٧). ولكن البرلمان أحس بشيء من الارتياح وعدم الثقة في موافقة جيمس على مثل هذه الاتفاقية . وفي ١١ مايو قدم شافتبيري نفسه أول مشروع قانون لاستبعاد (جيمس) في عبارة واضحة جلية لا لبس فيها « إسقاط حق دوق يورك في وراثة التاج الامبراطوري لهذه المملكة » . وكان موضع فخر وشرف للبرلمان أنه في ٢٦ مايو توسع في حق التحقيق في قانونية الاعتقال : بمعنى أنه يمكن الإفراج بكفالة عن أى سجين ، فيما عدا المتهمين بالخيانة أو بجناية ، وفي مثل هذه الحالة ينبغي أن يحاكم المتهم في الدورة التالية للمحكمة ، وألا أطلق سراحه . وكان على فرنسا أن تنتظر ١١٠ سنوات حتى تنعم بضمانات مماثلة ضد الاعتقالات التعسفية . وفي ٢٧ مايو خشي الملك إقرار « مشروع قانون الاستبعاد » فحل البرلمان .

ولم يكن حق التحقيق في قانونية الاعتقال مجديا بالنسبة لأنصار البابويه الذين إنهمم أوتس ، لأنهم حوكموا مع شيء من التباطؤ ، حتى إذا أدينوا بالخيانة أعدموا في سرعة فاضية ، وحشد الكثير منهم إلى المقصلة أو ساحة الإعدام طيلة عام ١٦٧٩ ، وكانت محاكمتهم سريعة جداً لأن القضاة الذين روعتهم صيحات الجوع المتعطشة للدماء خارج المحكمة ، أدانوا كثيراً من المدعى عليهم دون تمحيص الأدلة أو مواجهة الشهود بمضهم ببعض . وهب الشهود المزيقون الذين أغرام ما أغدق على أوتس من مكافأة ، وكأما هبوا من مرفد هم ، وأقسموا بأغلف الإيمان على ما يقولون : فروى أحدهم أن جيشاً من ثلاثين ألفاً كان قادماً من أسبانيا ، وقال آخر أنهم وعدوه بخمسمائة جنيه وبضمه إلى قاعة القديسين إذا هو أطاح برأس الملك ، وذكر شاهد مزيف ثالث بأنه كان قد سمع أحد رجال المصارف الكاثوليك الأنرياء يأخذ على نفسه عهد بأن يقوم بمثل هذا العمل (١٤٨) . ولم يسمح للمتهم بأى محام أو مستشار قانوني . ولم يبلغ بما نسب إليه إلا في يوم المحاكمة . وكان يفترض أنه مذنب حتى يستطيع أن يثبت براءته (١٤٩) . وحتى تسهل

الإدانة أحيوا قانوناً قديماً كان معمولاً به في عهد الزباث : وهو أن وجود أى كاهن في إنجلترا جريمة عقوبتها الإعدام . وكانت الجموع المحتشدة حول مبنى المحكمة تصرخ وتولول في وجوه شهود الدفاع استهجاناً ، وتقذفهم بالحجارة ، ويهتفون ويهللون فرحاً عند إعلان الحكم بالإدانة (١٥٠) .

فت كل هذا في عضد شارل ، وكان إمتحاناً قاسياً للملك الذى غمرته يوما الهجة والفرح ، والذى رأى الآن كل آماله تنهار ، وسلطاته تنتقص ، وزوجته تمنى الاذلال ، وأخاه يبوء بالاحتقار والارذراء وينحى . وفى ذروة العاصفة خر شارل مريضاً مرضاً خطيراً حتى توقعوا موته بين ساعة وأخرى . واستدعى هاليفاكس جيمس من بروكسل ، ولكن زعماء الهويج أمروا البيش بالحيلولة دون عودته . واتفق شافستبرى ومونتوث ولورد رسل ولورد جراي على أنهم - فى حالة وفاة شارل - سيتزعمون عصياناً مسلحاً لمنع أخيه من إرتقاء العرش (١٥١) ، وتيسر لجيمس أن يدخل البلاد متكرراً ، وشق طريقه إلى جوار الملك . وتظاهر شارل بأنه أبل من مرضه ، وابتسم للمخاوف التى ساورت حتى أعداءه الذين توقعوا موته . والحق أنه لم يبرأ من علته قط .

وبقي العداء للكاثوليك على أشده حتى تخبط أوتس أثناء محاكمة سير جورج ويسكان طبيب الملكة . فى شهادته أمام المجلس كان قد برأ الطبيب ، ولكن فى المحاكمة اتهمه بتدبير دس السم للملك . واكتشف هذا التناقض فى الأقوال . قاضى القضاة سكر وجز الذى سبق له أن تولى محاكمة الكاثوليك عنتهى الشدة . وصدر الحكم ببراءة ويسكان ، ومن ثم صارت شهادة أوتس تسمع فى مزيد من التدقيق ، وامتنع الشهود المزيفون الذين كانوا يعززون أقواله ، عن مساندته . وكان إعدام أوليهر بلسكت رئيس أساقفة آرماج الكاثوليكى ، آخر إجراء تم فى حركة الارهاب التى قامت ضد الكاثوليك (١ يوليو ١٦٨١) .

ولما خفت وطأة الرعب والافعال تأكد لدى بعض عقلاء الرجال أن

أوتس ، عن طريق الريب التي لا تستند إلى أساس من ناحية ومن ناحية أخرى عن الأكاذيب ، عجل بإرسال كثير من الأبرياء إلى الموت قبل الأوان. وانتهوا إلى أنه لم يسكن نمة تدبير لقتل الملك أو ذبح البروتستانت أو إحراق لندن . ولكنهم أحسوا بأنه كانت هناك مؤامرة حقيقية ، كاثوليكية ، وأن لم تكن « بابوية » : تلك هي أن أركان الحكومة دبروا ، أو راودهم الأمل ، بمساعدة أموال (أو جنود إذا لزم الأمر) من فرنسا ، أن يقضوا على عجز الكاثوليك وعدم أهليتهم الشرعية في إنجلترا ، ويحولوا الملك إلى الكاثوليكية ، ويثبتوا حق أخيه الذي تحول فعلا في إرتقاء العرش ، ويستخدما كل الوسائل لتدعيم الملكية دينا للدولة ، وفي النهاية للشعب . والواقع أن كل هذا تضمنته معاهدة دوفر السرية التي وقعت من قبل في ١٦٧٠ وكان شارل قد تراجع عن هذه الاتفاقية . ولكن رغباته لم تتبدل ولم يتدخل عنها قط ، وظل مصمما على أن يعتلي أخوه عرش إنجلترا ويكون ملكا عليها .

٩ - خاتمة الملهاة

أما شاففسبرى فقد وطد العزم على نقيض ما يبتغيه الملك . لقد اعترف كولمان أثناء محاكمته بأن جيمس علم أمر المراسلات المتبادلة بينه وبين الأب لاشيز ، وأقرها (١٥٢) . وأحس شاففسبرى بأن ارتقاء جيمس عرش إنجلترا لابد أن يحقق المرحلة الأولى من « المؤامرة البابوية » وعرض أن يساند شارل ويقف إلى جانبه إذا هو طلق الملكة العقيم وتزوج من بروتستانتية قد ينجب منها ابنا بروتستانتيا . وأبى شارل أن يدع كاترين دى براجانزا تكرر الدور الذي لعبته كاترين أوف أراجون . فولى شاففسبرى وحبه شطر دوق مونموث الابن غير الشرعى للملك ، الذي لم يغفر قط لأبيه خداعه وابعاده عن العرش بتقصيره في الزواج من أمه . ونشر شاففسبرى غفلة أن شارل كان بالفعل قد تزوج من لوسى والتر ، وأن دوق مونموث

هو الوريث الشرعى لعرش . فما كان من شارل إلا أن كذب هذا بإعلانه أنه لم يتزوج قط إلا من كاترين أوف براجانزا ، وإذ وجد أن شافيتسبرى خصم عنيد ، فإنه أقصاه عن المجلس الخصوص (١٣ أكتوبر ١٦٧٩) .

وأثناء توالى الأزمات والحن على هذا النحو كاد شارل أن يبدل من خلقه ومن شخصيته ، فودع حياة البهجة والدعة . وباع اسطبلاته ، وانصرف بكليته إلى الإدارة والسياسة ، وحارب أعداءه بتراجع محكم التدبير ، حتى جاوزوا حدودهم فاتهموا إلى الفشل إن الملك فى سنواته الخمس الأخيرة أبدى من قوة المزيمة والمقدرة ما أدهش حتى الأصدقاء . وإذ ما ودته الطعاً بئنة والثقة فقد دعا برلمانه الرابع .

واجتمع البرلمان فى ٢١ أكتوبر ١٦٨٠ . وأقر مجلس العموم فى شهر نوفمبر « مشروع قانون الاستبعاد » الثانى ، وقدم إلى مجلس اللوردات . وهنا تحول هاليفاكس الذى كان يصوت حتى تلك اللحظة إلى جانب « حزب الهويج » فنقل تحول الآن إلى جانب الملك ، وبدأ يحظى بلقب « القلب الحول » ويزهو ويختال به . إنه كان يبعض جيمس ويرتاب فى السكائوليكية ، ولكنه اتفق مع شارل فى ضرورة الإبقاء على مبدأ الملكية الوراثية . كما خشى أن يقود شافيتسبرى الجملة إلى حرب أهلية ثانية (١٥٣) . ومن ثم فإنه بفصاحته ومنطقه فى المناقشة الطويلة التى جرت بشأن « مشروع قانون الاستبعاد » أقنع اللوردات برفض المشروع . ورد مجلس العموم على هذا ، برفض الموافقة على أية اعتمادات مالية للملك ، وحظر على التجار وأصحاب المصارف . اقراضه أية أموال . وحاكم هاليفاكس وسكروجز وفيسكوت ستافورد . وهو أحد اللوردات الخمسة المعتقلين فى سجن لندن . وحكم على ستافورد بالإعدام بناء على شهادة أونس ، وضرب عنقه فى ٧ ديسمبر . وفض الملك البرلمان فى ١٨ يناير ١٦٨١ .

وبدلاً من أن يضحي شارل بأخيه يسبب حاجته إلى المال ، اعتزم شارل أن يعول الحكومة بأن يصبح من جديد أسيراً للملك الفرنسى لويس الرابع

هشر . وارتضى أن ينظر في شيء من التجلج ورباطة الجأش إلى سياسة فرنسا العدوانية ، مقابل ٧٠٠ ألف جنيه (١٥٤) — وهو مبلغ يغنيه لمدة سنوات عن اطاعات البرلمان واعتماداته . فلما أحس بالقوة دعا برلمانه الخامس . ولكن يحرمه من تأييد جمهور لندن وقوات الطوارئ فيها ، فإنه ، أى الملك أمر باجتماعه فى أكسفورد . وهناك إلتقى الجمعان مدججين بالسلاح : شارل مع عدد كبير من حرسه ، وزعماء الهويج مع أتباعهم حاملي السيوف والمسدسات رافعين أعلاما كتب عليها « لا بابوية ولا عبودية » وأقر مجلس العموم فى الحال « مشروع قانون الاستبعاد » الثالث ، ولكن قبل أن يصل المشروع إلى مجلس اللوردات حل شارل البرلمان (٢٨ مارس ١٦٨١) .

وتوقع كثير من الناس أن يلجأ شافيتسبرى الآن إلى الحرب الأهلية . أما رأى العام الذى استرجع فى ذاكرته أحداث ١٦٤٢ — ١٦٦٠ فقد تحول عنه وانحاز إلى صف الملك . ودافع رجال الكنيسة الأنجليكانية دفاعا مجيدا عن حق جيمس الكاثوليكي فى ارتقاء العرش . وعندما حاول شافيتسبرى أن يعيد تنظيم صفوف النواب المشنتين فى ميثاق ثورى (١٥٥) ، أمر شارل باعتقله ، ولكن هيئة المحلفين برأته (٢٤ نوفمبر) وعلى الرغم من أنه كان آنذاك مريضا بدرجة لا يسكاد معها يقوى على المشى ، فإنه انضم إلى دوق مونموث فى ثورة علنية (١٥٦) . وأمر الملك باعتقالها كلها وهرب شافيتسبرى من سجن لندن ، وفر إلى هولنده ، وهناك وافته منيته (٢١ يناير ١٦٨٣) بعد أن أنهكته الأحداث ، ولكنه حاف وراءه صديقه لوك ، ليتابع فى مجال الفلسفة ، المعركة التى لم يكتب لها لبعض الوقت التوفيق فى ميدان السياسة .

وصفح شارل عن مونموث ، ولكنه لم يغتفر قط المحلفين فى لندن تبرئهم لشافيتسبرى . والآن وقد تحول الملك انشوان إلى شخص آخر ، وكان متطرفا فى تحوله هذا ، فإنه عقد العزم على تعطيل استقلال المدن التى ترعرت فيها فسكرة الهويج (الأحرار) بل الفسكرة الثورية ، فأمر

بمراجعة المواثيق والعهود والقوانين التي هيأت الأجهزة البلدية الخروج على الارادة الملكية ، ووجد بالفعل في هذه بعض النقص والخلل من الوجهة التشريعية ، فأعلن إلغائها جميعا ، وصدرت عهود وقوانين جديدة تنص على أن يكون للملك حق الاعتراض وحق عزل كل الموظفين الذين ينتخبون لهذه الهيئات البلدية (١٦٨٣) . وخضعت الآن حرية الكلام وحرية الصحافة لقيود جديدة ، وبدأت موجة اضطهاد المنشقين — لا الكاثوليك : لأن معظم المنشقين كانوا من الأحرار (الهويج) . وفي اسكتلنده قاد جيمس حملة التعذيب بنفسه ، وبدأ أن انتصار حقوق الملك على اصلاحيات البرلمان بات انتصارا ساحقا كاملا ، وأن انجازات الثورة الكبرى كان واضحا أنه ينبغي التضحية بها في نسكة أو رد فعل تؤيده أمة تخشى تجدد الحرب الأهلية . وعكس هاليفاكس شعور البلاد حين نحى عن شافتبيري ، وأنحاز بحكمته المعتدلة البعيدة عن التطرف إلى جانب الملك ليكون في خدمته (١٦٨٢ — ١٦٨٥) فكان حامل الاختام الملكية .

وقام أنباع شافتبيري بمحاولة أخيرة . ففي يناير ١٦٨٧ ، اجتمع دوق مونموث وإرل اسكس وإرل كارليل ، ووليم لورد رسل وألجرون سدن في دار جون ممدن (حفيد بطل الحرب الأهلية) ورسموا الخطط لتطويق جيمس والتغلب عليه ، وقتل شارل إذا لم الأمر . وراود سدن أمل التقدم إلى خطوة أبعد ، وهي إعادة إقامة الجمهورية الانجليزية . وكان حفيد أحد أخوة سيرفيليب سدن « رئيس القروسية » ، وحارب في صف البرلمان أثناء الحرب الأهلية وجرح في مارستن مور . وعين عضوا في اللجنة التي شكلت المحكمة شارل الأول ، واسكنه رفض العمل بها على اعتبار أن الشعب لم يمنح اللجنة سلطة محاكمة الملك . وألقى نفسه في القارة حين عادت الملكية ، فظل بها ، مشغولا بدراساته وأبحاثه ، وتدير اللوامرات ضد شارل الثاني . وفي الحرب الهولندية النائية حرض الهولنديين على غزو إنجلترا ، وعرض خدماته على الحكومة الفرنسية ليشعل نار الثورة في إنجلترا إذ أمدهت الحكومة الفرنسية بمائة

ألف كروان (١٥٧) . وفي ١٦٧٧ سمح له شارل بالعودة ليشهد وفاة والده ،
وبقي في إنجلترا وانضم إلى « حزب الريف » (الأحرار ، الهويج) . وفي
كتابه « مقالات عن الحكومة » (الذي كتب ١٦٨١ ولم ينشر إلا في
١٦٨٨) دافع سدن عن المبادئ شبه الجمهورية ، واستبق لوك في مهاجمته
دفاع فلور عن حقوق الملوك الإلهية ، وأكد حق الشعب في محاكمة الملوك
وخلعهم . ومن الواضح أن سدن ورسل ، كليهما تسلما أموالا من
الحكومة الفرنسية التي كان يهما أن يظل شارل مشغولا بمشاكله
الداخلية (١٥٨) .

وصح عزم « مجلس الستة » على أسر الملك . وكان معروفا أنه سيشهد
سباق الخيل في شهر مارس في نيوماركت . وكان لابد له ، لدى عودته إلى
لندن من أن يمر « براى هاوس » في هودزدون في شمال المدينة ، فتقرر
أن تسد عربة محملة بالحشائش الجافة الطريق في هذا المكان ، ومن ثم يمكن
أسر الملك وربما أسر أخيه معه كذلك ، حين أو ميتين . ولكن في ٢٢
مارس شب حريق في ميدان السباق ، وانتهت المسابقات قبل موعدها المقرر
بأسبوع ، وحاد الملك سالما إلى لندن قبل أن يعد المتآمرون عدتهم . وخشى
أحدهم افتضاح الأمور وادها الأمل في العفو ، فأقضى بسر المؤامرة إلى الحكومة
(١٢ يونيو) . وقبض على كارليل فأكد الاعتراف وعفوانه . واحتج
مؤمنوث بأنه بريء ، وعلى الرغم من أن شارل علم علم اليقين أن ابنه كاذب
فيما يقول ، فإنه ألغى أمر اعتقاله . أما رسل فحوكم وثبتت إدانته وأعدم
(٢١ يوليو ١٦٨٣) . وانتحر اسكس في السجن . وعندئذ قال الملك « ما كان له
أن يقنط من الرحمة ، فإني مدين له بحياة (١٥٩) » . فقد مات أبوه من قبل من
أجل شارل الأول . وشتق عدد من صغار المشركين في « مؤامرة راي
هاوس » وأخذ سدن مجرم لم يقيم عليه دليل كاف من الناحية القانونية ،
ودافع عن نفسه دفاعا مجيدا ، وقابل الموت بصدر رحب (٧ ديسمبر) .
وكان شعاره « يدي هذه هي عدوة الطغاة » . ولكنه كان قد اختار سيفنا

ذا حدین • ونطق وهو على المشقة بكلمات تستحق الذكر : « إن الله ترك للشعوب حرية إقامة الحكومات كما تشاء (١٦٠) » . ورفض أية طقوس دينية قائلا أنه في سلام مع الله فعلا •

لقد انتصر شارل ولكنه كان مشرفا على النهاية ، ونعم ، مع جهده مضن ، بشعبية جديدة ، وكانت إقتصاديات إنجلترا قد ازدهرت في عهده ، أما الآن ، والبلاد تتطلع إلى هدوء سياسي ، فقد ركنت إلى ملك كان يمثل بقاء الأمة ونظامها ، ولو كان معنى هذا ، لفترة من الزمن « ملكا كاثوليكيا » • وغمرت إنجلترا لشارل أخطاه ، حين رآته ينهار ويذبل قبل الاوان • واتفقت معه ، بعض الشيء ، على أن الحكومة الانتخابية — لا الملكية الوراثية — مدعاة للاضطراب والهرج الذين يصاحبان انتخاب الحاكم عندما يحين موعده • واحترمت فيه اخلاصه لأخيه ، حتى في الوقت الذي حزت فيه لنتيجة هذا الإخلاص ، ورأت جيمس منتصرا ، ورأته ثانية قائدا أعلى للأسطول ، يتعقب أعداءه ليشأر منهم • وفي يناير ١٦٨٥ رفع جيمس دعوى مدنية ضد تيتس أوتس يطالبه فيها بتعويض قدره مائة ألف جنيه • وكسب جيمس القضية • ولما كان أوتس عاجزا عن الدفع فقد أودع السجن • وقال شارل في حزن بالغ « لست أدري ماذا سيمعل أخى عندما ينتهى الأجل وأفارق الحياة • أخشى ما أخشاه أنه عندما يأتى ليضع تاج الملك على رأسه ، أن يرغب على العودة من حيث أتى • على أنى سأعنى العناية كلها بأن أترك له مملكة يسودها السلام ، وكل أملى أن يحفظ لها بهذا السلام لأمد طويل • ولكن هذا يثير كل مخاوفى ، ولست أومل فيه كثيرا ، بل لايسكاد أمل يدور بخلدى أنه سيتحقق (١٦١) » • ولما اعترض جيمس على تجول شارل حول لندن راكبا عربته دون حرس ، أمره شارل أن يهدى من روعة : « لن يقتلني أحد ليجلسك أنت على العرش (١٦٢) » •

ولابد أنه اعترض على الأطباء • فإنه في ٢ فبراير ١٦٨٥ أصيب بحالة تشنج واضطراب شديدة ، شوهدت وجهه ، وجعلت فيه ، يرقى ، وأجرى

دكتور كنج عملية فصد بشق أحد الأوردة . وكان لهذا نتيجة طيبة .
ولسكن مرافقى للملك استدعوا ثمانية عشر طبيباً آخرين ليشخصوا الداء
ويصفوا الدواء . وطيلة خمسة أيام فى عذاب ألیم ، استسلم للملك للعملة التى
جردوها عليه مجتمعين . فبزلوا أورده ، ووضعوا كؤوس الحجام إلى
كتفيه . وقصوا شعره ليزيلوا البثور والقروح من جلدة رأسه ، ووضعوا
على باطن قدميه لصوقاً من القاروروث الحام . وقال مؤرخ طبيب
« ولكى يزيلوا الغزوات من عنقه نفضوا فى أعلى خياشيمه الخريق (وهو
عشب جميل الزهر) ثم جعلوه يعطس . ولكى يتقيأ صبوا فى حلقة الأنثيمون
وسلفات الزئبق . ولتنظيف أمعائه أعطوه مطهرات قوية ، وعدداً من الحقن
الشرجية فى تعاقب سريع (١٦٣) » .

ومادى للملك الذى يحضر زوجته التى عاشت فى شقاء عقيم ، ولم يكن
يدرك أنها جائية فى أسفل الفراش تدلك قدميه . وفى ٤ فبراير قدم له بعض
الأساقفة الأسرار الدينية الأخيرة وفقاً للطقوس الأنجليكانية ، ولكنه
رجام أن يسكنوا ، ولما سأله أخوه ، هل يريد كاهناً كاثوليكياً أجاب
« نعم ، نعم ، من كل قلبى (١٦٤) » فأرسلوا فى طلب الأب جون هدلتون
الذى كان قد أنقذ حياة شارل فى معركة وورسيستر ، كما أن شارل كان قد
أنقذ حياة الأب جون أيام « الارهاب البابوى » وأعلن شارل إعترافه
بلامذهب الكاثوليكى ، واعترف بذنوبه وخطايا ، وعفا عن أعدائه ،
وطالب المغفرة من الجميع . ومسحوه مسحاتاً بالزيت المقدس ، وتلقى
الأسرار المقدسة . وطلب الصفح والعفو ، بخاصة من زوجته ، ولكنه
كذلك أوصى أخاه خيراً بالسيدة لويز كبير ووال وأبنائه (منها) « لاترك
تلقى المسكينة تتضور جوعاً (١٦٥) » واعتذر لمن حوله عن أنه قضى مثل
هذا الوقت الطويل بشكل غير معقول ، وهو يمانى سكرات الموت (١٦٦) .

وعند ظهر اليوم السادس من فبراير ، كان دوق يورك ملكاً .

الفصل العاشر

الثورة الجليلة ١٦٨٥ - ١٧١٤

١ - الملك الكاثوليكي : ١٦٨٥ - ١٦٨٨

من ذا الذي كان يستطيع أن يتخيل حين يقع بصره على الصورة (١) التي رسمها فانديك في اللونين الأزرق والذهبي لدوق يورك وهو في الثانية من عمره ، أن هذا الطفل البريء الحي سيقضي قضاء مبرما على أسرة ستيوارت ، ويسكمل آخر الأمر ، في « الثورة الجليلة » انتقال السلطة من الملك إلى البرلمان ، وهو ما كان أبوه قد بدأه بشكل مخز من قبل ؟ ولكن في الصورة التي رسمها ربلي (٢) للشخص عينه تحت اسم جيمس الثاني ، نجد أن الحياء قد انقلب إلى ذهول وارتباك . وأن الحساسية تغيرت إلى عناد وتصلب ، وأن البراءة تحولت بين أحضان العشيقات اللذعنات الطيعات إلى لاهوت جامد لا ينثني . فما كان إلا أن حدد هذا الخلق لصاحبه مصيرا قاجما ، وفيه ، وكما يحدث في كل التراجميات أو المساعي الكبرى ، كان كل فريق يناضل من أجل ما يبدو له هو أنه حق ، ومن ثم يستحق منا بعض العطف .

لقد أوردنا من قبل ذكر بعض فضائل جيمس الثاني ، فسكم من مرة عرض نفسه لخطر الموت في عمله في البحرية . ووازن الناس بينه وبين أخيه ، موازنة مرضيه ، في النشاط الحسكوي والإداري ، والاعتدال في الإنفاق ، وفي ارتباطه بكلماته . أنه استمسك بما أوصاه به شارل وهو بمحتضر ، من العناية بأمر نل جوين ، فسدد ديونها ، وخصص لها ضيعة تسكفل لها رغد العيش . وبعد ارتقائه العرش ظل لبعض الوقت على علاقة مع آخر عشيقاته كاترين سدي . ولسكنه بناء على اعتراضات الأب بنز أجزل لها العطاء على

خدماتها وأقنعها بمغادرة إنجلترا ، لأنه اعترف بأنه إذا وقع بعمره عليها ثانية فإنه لا يملك فسكا كما من سلطانها عليه (٣) . إن الأسقف بيرت الذي ساعد على خلعه ، حكم عليه بأنه « صريح غاوص بطبيعته ، ولو أنه في بعض الأحيان متلهف محب للانتقام ، صديق ثابت على العهد ، إلى أن أفسدت عقيدته الدينية مبادئه وميوله الأولى (٤) » وكان مقتصدا ينمى ثروته بسرعة ، ولم يعمد قط إلى غش العملة ، كما كان رحيميا بالشعب في موضوع الضرائب (٥) . إن ما كولى بعد أن دون ثمانمائة صحيفة عن حكم جيمس الذى لم يدم لأكثر من ثلاثة أعوام ، انتهى إلى « أنه نحلى بمناقب كثيرة ، إلى حد أنه لو كان بروتستانتيا ، لابل كاثوليكيًا معتدلا ، لسكان عصره عصرًا زاهرًا مجيدًا (٦) » .

وتماقت أخطاؤه بنمو سلطانه . وكان مغرورًا متمعجرفًا حتى قبل اعتلائه العرش ، ينظر إلى معظم الناس باحتقار ، لا يفتح قلبه إلا لقلّة منهم ، وتمسك تمسكًا حرفيًا بنظرية أبيه ، وهى أنه ينبغى أن يكون للملك مطلق السلطة ، ولم يكن له للزواج الواقعى الذى كان لأخيه والذى أدرك به الحدود العملية لهذه السلطة المطلقة . ويجدر بنا أن نقدر حق التقدير غيرته الدينية ، ورغبته فى منح إخوانه الكاثوليك فى إنجلترا حرية العبادة والمساواة فى الحقوق السياسية . وكان مخلصًا لأمه وأخته الكاثوليكيتين ، وكان طوال الخمسة عشر طامًا السابقة محاطًا بالكاثوليك فى بيته ، وكان موضع استعجاب عند أن الديانة التى أنجبت مثل هذا العدد الكبير من أفاضل الرجال وفضليات النساء ، يضع الانجليز أمامها العراقيل ويبغضونها ويحدون من انتشارها . ولم يشاطر البروتستانت ماتناقلوه من ذكريات حيه فى أذهانهم عن مؤامرة البارود ، أو خوفهم من أن يولى عليهم ملك كاثوليكي ، يميل . طاجلاً أو آجلاً ويقتنع ، بانتهاج سياسة ترضى البابا الإيطالى . إن إنجلترا البروتستانتية كانت تشعر بأن أى ملك كاثوليكي لا بد أن يعرض للخطر استقلالها اللبى وانفكرى والسياسى .

إن تصرفات جيمس الأولى بعد ارتقائه العرش خففت من هذه المخاوف شيئاً قليلاً : أنه عين هاليفاكس رئيساً لمجلس الملك ، وسندرلند وزيراً ، وهنرى هايد (أرنل كلاروندى الثانى) حاملاً لأختام الملك ، وكل هؤلاء من البروتستانت . وفى أول خطاب له فى هذا المجلس وعد بالابقاء على نظم الكنيسة والدولة ، وعبر عن تقديره لتأييد كنيسة إنجلترا لاعتلائه العرش ، ووعد بأن يوليها عناية خاصة . وعند تنويجه أدى اليمين للألوفة لدى ملوك إنجلترا الحديثين ، بالمحافظة على الكنيسة الرسمية وحمايتها . وحظى الملك جيمس الثانى لعدة شهور بشعبية لم تكن متوقعة .

وأول اجراء مؤيد للكاتوليكية اتخذه جيمس ، لم يكن يحمل عدواناً مباشراً على البروتستانت . أنه أمر بالإفراج عن كل المسجونين بسبب رفضهم تأدية قسم الولاء والسيادة . وبهذا أفرج عن آلاف من الكاثوليك ، بل أخلى معهم سبيل ألف ومائتين من الكويكرز وكثير من المنشقين غيرهم . ومنع إقامة الدعوى بعد ذلك فى المسائل الدينية . وأطلق سراح دانجى واللوردات الكاثوليك الذين أودعوا السجن بناء على اتهامات تيتسى أوتس . وحوكم أوتس من جديد وأدين بتهمة الأيمان الساذبة التى أدت إلى إعدام عدد من الأبرياء ، وأعربت المحكمة عن أسفها لأنها لم تستطع الحكم عليه بالإعدام ، وحكمت عليه بغرامة فدرها ألفان من الماركات ، وأن يربط خلف عربة ويحمله بالسياط مرتين علانية ، الأولى من أولدجيت إلى نيوجيت ، والمرة الثانية بعد الأولى بيومين ، من نيوجيت إلى تايبيرن ، وأن يوضع فى آلة التعذيب ، المشهورة ، خمس مرات سنوياً طيلة بقائه على قيد الحياة . وعاش أوتس بعد هذا التعذيب ، وأعيد إلى السجن (مايو ١٦٨٥) وطلبوا إلى الملك اعفاءه من الجلد للمرة الثانية ، ولكنه رفض .

وتحطمت الهدنة المزعزعة بين الشيع الدينية بثورة مزدوجة . ذلك أنه فى مايو نزل أرشيبالد كامبل ، إرنل أرجيل التاسع ، فى اسكتلنده ، وفى ١٢ — قصة الحضارة

يونيّة رسا جيمس دوق مونموث على الشاطئ الجنوبي الغربي لإنجلترا ، في مسعى مشترك لخلع الملك الكاثوليكي . وأصدر مونموث بلافا وصم فيه الملك جيمس بأنة غاصب طاغية سفاح ، كما اتهمه بإحراق لندن وللاؤامرة البابوية ، ودس السم لشارل الثاني ، وتعهد الغزاة ألا يضعوا السلاح أو يكفوا عن القتال حتى يخلصوا البروتستانتية وحرّيات الشعب والبرلمان . ومنى أرجيل بالهزيمة في ١٧ يوليّة ، وأعدم في ٣٠ يوليّة ، وبذلك أخفق الجناح الشمالي للثورة . ولكن أهالي دورستشير — وهم بيوريتانيون شديديو التمسك بمذهبهم — رحبوا بمونموث وحيوه مخلصا ومنقذا لهم . وانضم تحت لوائه عدد كبير جدا من الناس ، إلى حد أنه في ثقة وجلال ومهابة ، اتخذ لقب جيمس الثاني ملك إنجلترا . ولم يقدم له الأشرف والطبقات الغنية أى عون أو تأييد . وهزم جيشه المحتل النظام على يد القوات الملكية في سدجور (٦ يوليّه ١٦٨٥) وهذا آخر حرب جرى فيها القتال على تراب إنجلترا قبل الحرب العالمية . ولأذ مونموث بالهرب ، وتوسل إلى الملك أن يعفو عنه فأبى ، وضرب عنقه .

وتعقب جيش الملك ، بقيادة برس كيرك ، فلول الثوار ، وشنق الأسرى دون محاكمة . وشكل جيمس لجنة يرأسها قاضى القضاة جفرز ، لتذهب إلى المنطقة الغربية لتحاكم الأشخاص المتهمين بالانضمام إلى الثورة أو التحريض عليها . وسمح للمحلفين بالاشتراك في المحاكمات ، باعتبار أن هذا من حق المتهمين ، ولكن جفرز قذف في قلوب المحلفين الرعب ، حتى أن قلة قليلة من المتهمين هي التي أصابت شيئا من الرحمة لدى هذه « المسكة الدمويه » (سبتمبر ١٦٨٥) (*) . وشنق نحو أربعمائته ، وحكم على ثمانمائته بالعمل الإجبارى في مزارع جزر الهند الغربية (٧) . وكانت الإزابات في ١٥٦٦ وكرومول في ١٦٤٨ ، قد اتهما قبل ذلك بمثل هذه الأعمال الوحشية ،

(*) Assizes الجلسات الدورية للمحاكم العليا في شكل مقاطعة

ولكن جفرين تفوق عليهما في إرهاب للتهمين والمخلفين والتجهم والعبوس ،
وصب اللعنات على ضحاياه ، والتعديق في وجوههم في كثير من الخبث ،
والإدانة لمجرد الشك ، إلا إذا ساعدت رشوة مجزية على إقناعه بالبراءة (٨) .
وبذل جيمس جهودا متواضعة ليضع حدا للوحشية ، ولكن ما أن تمت
الإبادة الكاملة وخدمت النار المحرقة حتى رفع جفرين إلى مرتبة النبلاء ، وعينه
رئيسا لمجلس اللوردات (٦ سبتمبر ١٦٨٦) .

وأسهم هذا الاجراء الانتقامي في إبعاد النبلاء عن الملك . وعندما طالب
من البرلمان إلغاء « قانون الاختيار » (الذي يقضى باقصاء الكاثوليك عن
الوظائف ومقاعد البرلمان) وتعديل قانون « حق التحقيق في قانونية
الاعتقال » وإنشاء جيش دائم تحت امر الملك ، لم يستجب البرلمان لشيء من
هذا . فعطله جيمس (٢٠ نوفمبر) وأخذ يعين الكاثوليك في وظائف الدولة .
ولما اعترض هاليفاكس على امتحان البرلمان على هذا النحو ، عزله جيمس
من المجلس . وأحل محله ، رئيسا للمجلس ، سندرلند الذي أعلن تحويله إلى
الكاثوليكية على الفور (١٦٨٧) . وحين امتدح جيمس إلغاء لويس الرابع
لرسوم بات (٩) استنتجت إنجلترا أنه لو تمتع جيمس بمثل السلطة المطلقة التي
يتمتع بها البوربون ، لما تردد في إتخاذ خطوات مماثلة ضد البروتستانت في
إنجلترا ولم يخف جيمس إعتقاده بأن سلطته الآن بات مطلقة بالفعل ،
وأن لويس الرابع عشر في نظره هو للمثل الأعلى للملك . وقبل الاطانات من
لويس لفترة من الزمن ، ولكنه أبى عليه أن يملئ سياسة الحكومة
الانجليزية . فتوقفت الاطانات .

وكان لويس أكثر تعقلا فيما يتعلق بإنجلترا منه بالنسبة لبلاده . وعلى
حين أنه أضعف فرنسا باضطهاده الهيجونوت ، نراه يحذر جيمس من مغبه
التسرع في تحويل إنجلترا إلى الكاثوليكية . كما أن البابا أنوسنت الحادى
عشر زود جيمس بمثل هذه النصيحة . وعندما أرسل إليه الملك الانجليزى
بعده بقرب انضواء إنجلترا تحت راية الكنيسة الكاثوليكية في رومه (١٠) ،

نصحه البابا بأن يقنع بالحصول على التسامح الديني للكاثوليك الانجليز ،
كمد حذر هؤلاء أن يسكفوا عن الأطماع السياسية ، ووجه رئيس الجزويت
لتعنيف الأب بنزولومه على القيام بمثل هذا الدور الخطير في الحكومة (١١) .
إن البابا أنوسنت لم يخفف من غيرته الكاثوليكية ، واسكنه كان يخشى قوة
لويس الرابع عشر التي تبتغى التطويق والسيطرة ، كما كان يأمل في إمكان
تحويل إنجلترا من مجرد تابع أو خادم ذليل للسياسة الفرنسية ومشروطاتها
إلى قوة متوازنة ضدها . وأوفد البابا مبعوثا بابويا — للمرة الأولى منذ
عهد ماري تيودور — ليوضح لجيمس أن أي تصدع في العلاقة بين البرلمان
والملك لابد أن يضر بالسكنيسة الكاثوليكية (١٢) .

ولم يستفد جيمس من هذا النصيح . إنه أحس ، وكان في الثانية والخمسين
حين اعتلى العرش ، أنه قد لا يتيسر له فسخة من الأجل لتنفيذ التغييرات
الدينية التي يشدها والتي يحبش بها صدره ، ولم يؤمل كثيرا في أن ينجب
ابنا ، وهنا قد تخلفه ابنته البروتستانتية ، وتقاب عمله رأسا على عقب ، إلا
إذا أقيم هذا العمل على أساس وطيد راسخ قبل موته . وطغت آراء الأب
بنزولومه وسلطانها على كل نصيح بالثروة والتريت . ولم يكتف الملك
بالذهاب إلى القديس ، تحفه الجلالة والمهابة الملكية ، بل طلب كذلك إلى
مستشاريه أن يلحقوا به لحضور القديس . وتكاثر الأساقفة حول الحاشية ،
وعين الكاثوليك في المناصب العسكرية ، وحرص القضاة (الذين كان له حق
تعيينهم وعزلهم) على توكيد حقه في أعفاء هؤلاء المعينين من العقوبات
التي فرضها عليهم « قانون الاختبار » . وجند ، تحت أمرة ضباط أغلبهم
من الكاثوليك ، جيشا قوامه ثلاثة عشر ألف رجل لا يخضعون إلا
لأوامره هو ، وواضح أن مثل هذا الجيش كان يهدد استقلال البرلمان .
وعطل العمل بالقانون الذي يفرض العقوبات على حضور العبادة الكاثوليكية
علانية . وأصدر في يونيو ١٦٨٦ مرسوما يحرم على رجال الدين لقاء عظمات
في الخلقات المذهبية . ولما خطب الدكتور جون شارب في « دوافع

المرتدين « أمر جيمس بوصفه الرئيس الشرعى للكنيسة الإنجليزية ، هنرى كيتون أسقف لندن ، بفصل شارب مؤقتا من سلك رجال الكنيسة الأنجليكانية ، فرفض كيتون . فعين جيمس ، متجاهلا قانونا صدر فى ١٦٧٣ « محكمة كنسية » جديدة ، سيطر عليها سندرلند وجفريز ، وحأكت كيتون بتهمة شق عصا الطاعة على التاج ، وعزلته من وظيفته . وبدأت الآن الكنيسة الأنجليكانية ، التى كانت قد التزمت من قبل بالطاعة المطلقة ، نقول بدأت تقلب للملك ظهر الحن .

أن الملك جيمس كان يأمل فى كسب الكنيسة الأنجليكانية إلى جانب المصالحه والتراضى مع رومه ، ولكن تصرفه المتهور قضى الآن على هذه السياسة . وبدلا من ذلك انتهج سياسة التوحيد بين الكاثوليك والمنشقين ضد الكنيسة الرسمية . ان وليم بن الذى وجد طريقه إلى قلب الملك وأحرز ثقته ، نصحه بأنه يستطيع أن يظفر بالتأييد الحار من جانب كل البروتستانت الانجليز ، فيما عدا الأنجليكانيين إذا هو بحجرة قلم ألغى القوانين التى تحرم العبادة العلنية على فرق المنشقين وفى ٤ أغسطس ١٦٨٧ أصدر جيمس أول « إعلان للتسامح » فى عهده . ومهما تسكن دوافع الملك ، فإن هذه الوثيقة تحتل مكانا فى تاريخ التسامح الدينى . إنه ألغى كل قوانين العقوبات فيما يتعلق بالديانة ، وأبطل كل الاختبارات الدينية ، ومنح الحرية الدينية للجميع ، وحظر التدخل فى شئون الاجتماعات الدينية المسالمة . وأخلى سبيل كل المسيحيين بسبب الخلافات الدينية . أن هذا الاعلان ذهب إلى أبعد مما ذهبت إليه إعلانات التسامح فى عهد شارل الثانى ، التى كانت قد أقيمت على الاختبار الدينى لمن يتولون الوظائف ، وسمحت بالعبادة الكاثوليكية داخل الدور الخاصة فقط . وأكد للكنيسة الرسمية أن الملك سيواصل حمايته لها فى كل حقوقها القانونية . ومما يدعو إلى الأسف والأسف أن هذا الاجراء قدر له أن يسكون إعلانا ضمينا للحرب على البرلمان ، الذى كان قد سن من قبل كل القيود وعدم الأهلية التى ألغيت الآن . ولو سلم

البرلمان بسلطة الملك في إلغاء التشريعات البرلمانية لكان لاما أن تنشب الحرب الأهلية من جديد .

ودخل هاليفا كس الذي كان في هاتيك الأيام ألمع عقلية في انجلترا ، للمرة بكتيب لا يحمل اسم المؤلف بعنوان « رسالة إلى منشق » (أغسطس ١٦٨٧) — « أكثر النشرات توفيقا في هذا العصر (١٣) » ، حيث فيه البروتستانت ان يكونوا على يقين من أن هذا التسامح الذي قدم إليهم الآن ، صدر عن ملك موال اسكنيسة تدعى العصمة من الخطأ ، وتذكر التسامح صراحة . وهل يمكن أن يكون نمة انسجام دائم بين حرية الفكر والتعبير وبين كنيسة لا تخطئ ؟ وكيف يطعن المخالفون إلى أصدقائهم الجدد الذين دمغوم بالآهس القريب بأنهم هراطقة ؟ « كنتم بالآهس أبناء الشيطان ، وأنتم اليوم ملائكة النور (١٤) » . ومن سوء الحظ أن الاسكنيسة الانجليكانية كانت قد اتفقت مع رومه فيما يتعاق بأبناء الشيطان ، وأنها في السنوات السبع والعشرين الأخيرة أخذت تغالبها لألوان من الاضطهاد والتعذيب تعفيهم من قبول الحرية حتى على أيد كاثوايكية . وأسرع رجال الدين الانجليكانيون إلى التماس التصلح مع المشيخيين والبيوريتانيين والكويكرز ، وتوسلوا إلى هؤلاء جميعا أن يرفضوا التسامح الزاهن ، ووعدوم على الفور بتسامح يحظى بموافقة كل عن البرلمان والاسكنيسة الرسمية . وبعث بعض المخالفين بخطابات شكر إلى الملك ، ولكن الأذائية تأت مجانبها في تحفظ . وعندما حانت ساعة الفهم لهذا الجلع الملك .

وتابع جيمس خطواته . لقد تطلبت جامعات انجلترا لمدة سنوات هذت من أسانذتها وطلبتها الالتزام بمذهب الاسكنيسة الانجليكانية ، ولم يستثن من ذلك إلا منح درجة لطالب لوثرى ، ومنح درجة نفزية لبلوماى . ولم على أن التساوسة الانجليكانيين رأوا في أكسفورد وكبر دج هيئات وظيفتها الرئيسية اعداد الرجال لقبول المذهب الانجليكانى ، وتقرر ألا ياتق بهما أى كاثوليسكى . ورغبة في كسر هذا القيد أرسل جودس ، إلى نائب رئيس

جامعة كمبردج رسالة يلزمه فيها بأن يستثنى من الأنجليكاني راهبا بندكتيا يسعى للحصول على درجة الأستاذية . ورفض نائب رئيس الجامعة فصل بأمر من لجنة المحكة الكنسية . فأرسلت الجامعة وفدا من بين أعضائه ايزاك نيوتن ، ليشرح للملك موقف الجامعة . ولكن الراهب حل المشكلة بالانسحاب (١٦٨٧) . وفي نفس العام رشع الملك لرياسة كلية مجدلن في أكسفورد ، رجلا لا يتمتع بوزارة العلم ، ولكنه ذو ميول كاثوليكية ، فرفض الزملاء انتخابه ، وبعد نزاع طويل اقترح الملك مرشحا ليس عليه إلا اعتراض أيسر من سابقه ، وهو باركر أسقف أكسفورد الأنجليكاني ، ولكن الزملاء الذين يشكلون الهيئة الانتخابية رفضوه كذلك ، ففصلوا بأمر من الملك ، وعين الأسقف باركر قسرا .

واشتدت وطأة الاستياء عندما ارتضى الملك أكثر فأكثر في أحضان مستشاريه الكاثوليك . وكان إعجابه بالأب بتر شديدا إلى حد الإلحاف على البابا برسمه أسقفا ، بل كاردينالا ، ولكن أنوسنت أبى . وفي بوليه ١٦٨٧ عين جيمس الجزويقي القدير ، ولكن المستهتر ، عضوا في المجلس الخصوصي (الملكي) ، فاحتج كثير من الكاثوليك الإنجليز بأن هذا تصرف طائش ، ولكن جيمس كان في عجلة من أمره ليصل بالنضال إلى غايته . وكان في هذا المجلس الآن ستة من الكاثوليك ، مكنت لهم حظوتهم لدى الملك من السيطرة والغلبة (١٥) . وفي ١٦٨٨ عين أربعة من الأساقفة الكاثوليك لإدارة شئون الكنيسة الكاثوليكية في إنجلترا ، وخصص جيمس لكل منهم راتبا سنويا قدره ألف جنيه ، والواقع أن الكاثوليك شاركوا الآن الأنجليكان في أنه أصبح لكل من الفريقين كنيسة تساندها وتعاونها الدولة .

وفي ٢٥ أبريل ١٦٨٨ جدد جيمس نشر « إعلان التسامح » الذي مضى على صدوره عام واحد ، وأكد فيه من جديد عزمه على توفير حرية الفكر والضمير « لكل الإنجليز إلى الأبد . فمن الآن فصاعدا لا بد أن

يعتمد التعيين في الوظائف والترقي فيها على الجدارة الشخصية لا للذهب الديني . وتنبأ بأن الاقلال من الخلفات الدينية لابد أن يفتح أسواقا جديدة للتجارة الانجليزية ، ويزيد من ازدهار الأمة ورخائها . وتوسل إلى رطايه أن يطرحوا جابا كل الأحقاد ، وينتخبوا البرلمان الجديد دون تمييز بين المذاهب الدينية ، وللتحقق من انتشار هذا الاعلان الموسع على أوسع نطاق ممكن ، أصدر مجلس الملك توجيهاته إلى كل الأساقفة ليرتبوا مع كل رجال الدين أمر تلاوته في كل كنيسة في الأقاليم في إنجلترا ، يوم ٢٠ أو ٢٧ مايو . واستخدام رجال الدين على هذا النحو ، وسيلة للاتصال بالجمهور ، أمر له سوابقه الكثيرة في إنجلترا . ولكن لم تكن الرسالة قط يوما بغیضة إلى الكنيسة الرسمية إلى مثل هذا الحد . وفي ١٨ مايو رفع سبعة أساقفة أنجليكانيين إلى الملك ظلامة أو ضحوا فيها أنهم لم ترض ضمائرهم أن يوصوا قساوستهم بتلاوة الاعلان ، لأنه يخرق قرار البرلمان بأنه لا يجوز إلغاء تشريع برلماني إلا بموافقة البرلمان نفسه ، فأجاب جيمس بأن رجال اللاهوت هم الذين كانوا يلحون على عظائهم وخطبهم دوما على ضرورة الامتثال للملك وطاعته بوصفه رئيسا للكنيسة ، وأنه ليس في الاعلان ما يخذش أو يسيء إلى كرامة أحد . ووعده بأنه سوف ينظر في ظلامتهم ، ولكنهم إن يتلقوا منه ردا في الغد فعليهم أن يدعوا الأمر .

وفي صبيحة اليوم التالي بيعت آلاف النسخ من هذه الظلامة في شوارع لندن ، في الوقت التي مازالت فيه قيد البحث عند الملك . وأحس جيمس بأن هذا يحافى قواعد اللياقة ، وعرض الظلامة على القضاة الاثنى عشر في المحكمة للملكية ، فأشاروا بأنه تصرف في حدود حقوقيه للمشروعة . ومن ثم أغفل الرد على الظلامة . وفي ٢٠ مايو تليت الظلامة في أربع كنائس في لندن ، وتجاهلوا في الكنائس الست والتسعين الباقية . وشعر الملك بأن سلطته قد امتهنت ، وأمر الأساقفة السبعة بالمثول أمام المجلس . فلما جاءوا أبلغهم بأن عليهم أن يخضعوا للمحاكمة بتهمة نشر طعن أو قذف فيه تحريض

على الفتنة ، وعلى أية حال فإنهم لكي يتفادوا السجن في الحال ، يمكن أن يقبل الملك منهم وعدا كتابيا بالحضور عند استدعائهم . فأجابوه بأنهم بوصفهم من أشرف المملكة ، ليسوا في حاجة إلى تقديم أى ضمان سوى كلمتهم . وأحالهم المجلس إلى برج لندن (السجن) وحياتهم الأهلى وهتفوا لهم على الجانبين عند نقلهم عبر نهر التيمز .

وفي يومى ٢٩ و ٣٠ يونيه حاكم الأساقفة السبعة - أمام محكمة الملك - أربعة قضاة مع هيئته المحلفين . وبعد يومين من مناقشات حادة في قاعة يحيط بها عشرة آلاف من أهالى لندن المحتاجين ، أصدر المحلفون حكما بعدم الإدانة . وابتهجت كل انجلترا البروتستانتية ، وقال أحد النبلاء الكاثوليك « لم تع ذاكرة الإنسان قط مثل هذه الصيحات والاحتفافات ودموع الفرح التى حدثت اليوم (١٦) » وتوهجت الشوارع بالمشاعل والنيران التى أضرمت في الهواء الطلق . وسار الناس في موكب خلف شيخوخ من الشمع تمثل البابا والكاردينالات والجزويت ، أحرقت وسط احتفالات صاحبه . إن هذا الحكم كان يعنى عند البسطاء من الناس أنه لا ينبغي التسامح مع الكاثوليكية ، وعند ذوى الادراك الأوسع أو العقل الأنضج كان يعنى تثبيت حق البرلمان في سن قوانين ليس للملك أن يبطلها ، وأن انجلترا ، في الواقع ، حتى ولو لم تسكن من الناحية النظرية ، ملكية دستورية ، لا ملكية مطلقة .

على أن جيمس الذى عراه الاكتئاب والحزن بسبب الهزيمة ، أخذ يتميز بالطفل الذى وضعته له الملكة في ١٠ يونيه ، قبل الموعد المتوقع للولادة بشهر ، وفي مقدوره أن ينشئ هذا الولد النفيس نفسه قوامها الولاء والاخلاص للكاثوليكية ، وكان يمكن للوالد والولد ، في وجه أیه معارضه أو معوقات ، أن يقتربا يوما بعد يوم خطوة من الهدف المقدس - ألا وهو الملكية القديمة ، تعيش في وئام ووافق مع الكنيسة ، في انجلترا يسودها الهدوء والسلام والتراضى ، في أوربا نادمه على

ارتدادها عن عقيدتها ، موحدة في ظل هذه العقيدة الحق الوحيدة العالمية .

٢ — الاطاحة بالعرش والمملك في المهدي

ربما كانت هذه الولادة التي جاءت قبل الأوان هي التي جلبت السكارته على رأس الملك المتهور . واتفقت إنجلترا البروتستانتية مع جيمس في أن هذا الولد قد يواصل السعي لأعادة الكاثوليكية ، ومن ثم يمكن القول بأنها خشيتة لنفس السبب الذي أحبه الملك من أجله وأنكرت إنجلترا البروتستانتية في أول الأمر ، بنوة الطفل للملك . واتهمت الجزويت بأنهم دسوا إلى مخدع الملك وليدًا اشتروه ، كجزء من مؤامرة أرادوا منها إبعاد الابنه البروتستانتية ماري عن ورائه العرش . وانعطفت إنجلترا أكثر فأكثر نحو ماري ، على أنها أمل البروتستانتية الانجليزيه ، ووطنت النفس على القيام بثورة أخرى لاجلاس ماري على العرش لتكون ملكة إنجلترا .

ولكن ماري كانت آنذاك زوجه وليم أورانج الثالث ، رئيس الدولة في المقاطعات المتحدة . ماذا يقول وليم المزهو بنفسه في أنه مجرد زوج الملكة ؟ لماذا لا يعرض عليه الاشتراك في الحكم مع ماري ؟ وفوق كل شيء ، أنه هو أيضاً يجرى في هروقه الدم الملكي الانجليزي . أن أمه كانت ماري أخرى ، وكانت ابنه شارل الأول . وليس في نيه وليم على أية حال أن يلعب دور الزوج لازوجه الملكة . ومن الجائز أن الاستف بيرت الذي كان قد اتخذ سبيله إلى القارة هرباً ، عند إرتقاء جيمس العرش - أقنع ماري ، بايعاز (١٧) من وليم ، أن تتعهد بالطاعة التامه لوليم « في كل الأمور » أيا كانت السلطة التي تخولها التصرف فيها ، فوافقت على « أن يكون الحكم والسلطة في يديه هو ، لأنها لا ترغب إلا في أن يعمل هو بالوصية التي تقول : أيها الأزواج أحبوا زوجاتكم ، كما تعمل هي بالوصية التي تقول : أيتها الزوجات أطيعن أزواجكن في كل شيء » (١٨) . وتقبل وليم الطاعة ، ولكنه تجاهل التلميح الرقيق إلى علاقته بعشيقته السيدة

فليير (١٩) ، فإن الأحكام البروتستانت أيضا ، يجوز لهم فوق كل شيء ، أن يخذعوا أو يخونوا زوجاتهم .

إن ولیم الذي يحارب لويس الرابع عشر حفاظا على استقلال هولنده والبروتستانتية ، راوده الأمل لبعض الوقت في كسب والد زوجته (جيمس) في تحالف ضد ملك فرنسا الذي كان يحطم توازن القوى والحريات في أوروبا ، ولما خاب فآله ، حمد إلى التفاوض مع الإنجليز الذين تزعموا حركة للقائمة ضد جيمس . إنه تفاوض من قبل عن الحملة التي إنظمها مونموث على الأرض الهولندية ضد الملك جيمس ، وسمح لها بالإقلاع من أحد الثغور الهولندية دون طاق (٢٠) ، وخشى بحق أن يكون جيمس قد دبر خطة لإعلان عدم أهليته لوراثه عرش إنجلترا . ومتى ولد للملك ابن فبن الواضح أن يستطحق ماري في العرش . وفي أوائل ١٦٨٧ أوفد ولیم افرهارد فان ديكنات إلى إنجلترا ليقم علاقات ودية مع زعماء البروتستانت . وعادت البعثة برسائل مبشرة من مركيز هاليفاكس ، وأرسل شروزبرى وأرل كلارندون (ابن رئيس اللوردات السابق) ومن داني ، والأسقف كمتون وغيرهم . وكانت الرسائل غامضة مبهمة إلى حد لا يثمن عن خيانة صريحة ، واسكنها انطوت على تأييد حار لولیم في نضاله من أجل العرش .

وفي يونيو ١٦٨٧ أصدر كاسبار فاجل ، الحاكم العام ، رسالة أوضح فيها بصورة جازمة آراء ولیم في التسامح . إن ولیم يريد حرية العبادة للجميع ولكنه يعارض إلغاء « قانون الاختبار » الذي يقصر حق تولي الوظائف العامة على أتباع المذهب الأنجليكاني (٢١) . أن هذا البيان الرسمي للتحفظ أكسب ولیم تأييد الأنجليكانيين البارزين . ولما قضى . ولد ابن لجيمس على فرص ولیم في أن يخلفه (جيمس) قرر زعماء البروتستانت دعوة ولیم للقدوم والاستيلاء على العرش عنوة . ووقع الدعوة (٣٠ يونيو ١٦٨٨) إرل شروزبرى الثاني عشر ، دوق ديفونشير الأول ، إرل داني ، إرل سكاربره ، وأمير البحر ادوارد رسل (ابن عم ولیم رسل الذي أعدم في

١٦٨٣) هتري سدنې (أخو الجرنون) ، والأسقف كبتون ، أما هاليفاكس
فإنه لم يوقع متذرعاً بأنه يؤثر المعارضة الدستورية . ولكن كثيرين غير
هؤلاء ، من بينهم سندرلند وجون تشرشل ، وكلاهما آنذاك في خدمة جيهمس
بعثوا إلى وليم يؤكدون مساندتهم له (٢٢) . وكان الموقعون يعلمون علم اليقين
أن دعوتهم خيانة ، ولكنهم وضعوا حياتهم على أكتفهم همدا ، وندروا
أموالهم للمغامرة ، من ذلك أق شروزبرى الكاثوليكي السابق الذي تحول
إلى البروتستانتية ، رهن ضياعه نظير أربعين ألف جنيهه ، وعبر البحر إلى
هولنده ليساعد في توجيه الغزو (٢٣) .

ولم يكن في مقدور وليم أن يتخذ أي إجراء فوري . لأنه لم يكن
على ثقة من شعبه . كما كان يخشى أن يجدد لويس الرابع عشر هجومه على
هولنده في أية لحظة . وخشيت الولايات الألمانية كذلك مهاجمة فرنسا لها ،
ومع ذلك لم تبد هذه الولايات اعتراضاً على غزو وليم لانجلترا ، لعلها بأن
الهدف الاسمي لوليم هو كبح جماح ملك البوربون . أما حكومتا آل هابسبرج
في النمسا وأسبانيا فقد نسيتا كشاكشيتهما في بعضهما للمالك لويس الرابع
عشر ، وأقرتا خلع ملك كاثوليكي يصادق فرنسا بل أن البابا نفسه منح
الحمله بركته ورضاه السامى . ومن ثم أصبح بإذن من الدول الكاثوليكية
أن يأخذ وليم البروتستانتى على عاتقه الإطاحة بجيمس الكاثوليكي . وتعجل
لويس وجيمس كلاهما الغزو ، وأعلن لويس أن روابط «الصدقة والتحالف»
القائمة بين انجلترا وفرنسا نحتم عليه أن يعلن الحرب على كل من يغزو انجلترا .
ولكن جيمس الذى خشى أن يؤدي هذا البيان إلى توحيد صفوف رعاياه
البروتستانت ضدّه بشكل أقوى ، نى وجود مثل هذا التحالف ، ورفض
مساعدة فرنسا له . وانهصر غضب لويس الرابع عشر على استراتيجيته ،
فأمر جيوشه بمهاجمة ألمانيا ، لاهولنده (٢٥ سبتمبر ١٦٨٨) ، ووافقت
الجمعية العمومية للمقاطعات المتحدة ، التى تحررت لبعض الوقت من الخوف
من فرنسا ، على أن يقود وليم حملة قد تؤدي بإنجلترا إلى الدخول في

تخالف ضد فرنسا .

وفي ١٩ أكتوبر تحرك الأسطول — خمسين سفينة حربية ، وخمسمائة سفينة نقل ، وخمسمائة فارس ، وأحد عشر ألفاً من المشاة ، بما فيهم عدد كبير من الهيجونوت اللاجئين من الاضطهاد في فرنسا . وصدت الرياح الأسطول ، فانتظر حتى يهب « نسيم بروتستانتى » (مؤات) ، وأفلح ثانية في أول نوفمبر . وخرج أسطول إنجليزى ليعترض سبيله ، ولكن عززته العاصفة . وفي ٥ نوفمبر ، وهو يوم عطلة وطنية احتفالاً بذكرى « مؤامرة البارود » ألقي الغزاة مراسيمهم في « ثورباى » ، وهو منفذ على المانش على شاطئ دورستشير . ولم يلق الغزاة أية مقاومة ، ولكنهم كذلك لم يلقوا أى ترحيب . فإن الناس لم يكونوا قد نسوا جفرين وكيرك . وأصدر جيمس أوامره إلى جيشه بالتجمع في سالسبورى تحت أمرة لورد جون تشرشل ، ولحق للملك به هناك ، ولكنه وجد القوات يعوزها الولاء والاخلاص ، يخيم عليها الفتور إلى حد الإرتياب في اشتراكهم في معركة ، فامر بالتقهقر ، وفي تلك الليلة (٢٣ نوفمبر) إنحاز تشرشل واثنان من كبار الضباط في جيش الملك إلى وليم مع أربعمائة رجل (٢٤) . وبعد ذلك بأيام قلائل انضم جورج الدنركى ، زوج الأميرة آن ابنة جيمس ، إلى جماعة المحارجين على الملك ، والذين يتزايد عددهم ، ووجد الملك التعس ، لدى عودته إلى لندن ، أن ابنته آن وسارا جنيز زوجة تشرشل قد هربتا إلى نوتنجهام . وتحطمت روح الملك الذى كان يوماً مريضاً مختالاً ، حين وجد أن ابنتيه كلتيهما قد انقلبتا ضده . فأوفد هالينفا كس للتفاوض مع وليم وفي ١٩ ديسمبر غادر الملك نفسه عاصمة ملكه . ولما عاد هالينفا كس من الجبهة ، وجد الأمة بلا رئيس ولا زعيم ، فعمد جماعة من النبلاء إلى تنصيبه رئيساً للحكومة مؤقتة . وفي يوم ١٣ تسلموا من جيمس رسالة تقول بأنه وقع فى أيدي الأعداء ، فى فاغرشام فى كنت . فأنفذوا بعض القوات لانقاذه ، وفى يوم ١٦ عاد الملك الذليل إلى قصر هويتبول وأرسل

وليم أثناء تقدمه نحو لندن ، بعض حراس هولنديين زودهم بتعليمات بأن يحملوا جيمس إلى روشستر ، وهناك يسلمون له طريق القرار . وقد كان ، ووقع جيمس في الفخ الذي نصب له ، وغادر إنجلترا إلى فرنسا (٢٣ ديسمبر) . وعمر ثلاثة عشر عاماً بعد سقوطه ، ولكنه لم ير إنجلترا ثانية قط .

ووصل وليم إلى لندن في التاسع عشر من ديسمبر . واستغل انتصاره في حزم وحذر واعتدال ممتاز ، ووضع حداً للشغب الذي آثاره البروتستانت في لندن وسلبوا فيه منازل الكاثوليك وأحرقوها . وبناء على طلب الحكومة المؤقتة ، دعا اللوردات والأساقفة وأعضاء البرلمان السابقين للاجتماع في كوفنترى . وأعلن « المؤتمر » الذي انعقد هناك في أول فبراير ١٦٨٩ أن جيمس اعتزل العرش بقراره . وعرض المجتتمعون أن يتوجوا ماري ملكة ، ويرتضوا وليم نائباً لها ، فقبلا (١٣ فبراير) . ولكن المؤتمر قرن هذا العرض « باعلان الحقوق » الذي سنه وأصدره البرلمان من جديد في ١٦ ديسمبر على أنه « وثيقة الحقوق » ، وأصبح (بالرغم من عدم موافقه وليم عليه صراحة) جزءاً حيويًا أساسيًا في قوانين المملكة :

حيث أن الملك السابق جيمس الثاني .. سعى جهده أن يدمر ويستأصل العقيدة البروتستانتية وقوانين وحریات هذه المملكة من جذورها :

١ — باتحاله لنفسه وممارسته سلطه التحلل من القوانين وإلغائها ، أو تنفيذها دون موافقه البرلمان ..

٣ — بإنشاء « محكمة خاصه بالقضايا الدينيه » .

٤ — بحماية أموال من أجل الملك وليستخدمها هو ، بحجه الامتيازات والحقوق الملكيه ، في غير الوقت ولغير الغرض اللذين أقرهما البرلمان .

• — بتجنيد جيش ثابت والاحتفاظ به دون موافقه البرلمان .

٧ — بإقامه الدعوى أمام « محكمة الملك » في مسائل وقضايا هي من إختصاص البرلمان وحده .

وكل هذا يتعارض تماماً ، وبطريق مباشر ، مع قوانين هذه المملكة

وشرائعها المعروفة . ولما كانوا (أعضاء البرلمان - المجتمعون) على ثقة تامة من أن . . أمير أورالج . . سوف يحميهم من إهدار حقوقهم التي أثبتوها هنا ، ومن أية محاولات أخرى للاعتداء على حقوقهم الدينية وحرّياتهم ، فإن اللوردات والآباء الروحيين والنواب المجتمعين في وستمنستر ، يقررون أن يعينوا وليم وماري ، أمير وأميرة أورالج ، ملكا وملكة على إنجلترا وفرنسا وأيرلنده ، وأن يقسم اليمين المذكورة بعد ، كل الأشخاص الذين يتطلب القانون منهم أن يقسموا يمين الولاء . .

« أقسم أنا (س من الناس) أن أمقت وأبغض وأبذ من كل قلبى على على أنها كفر وهرطقة ، تلك النظرية الدنسه اللعينه . . التي تقول بأنه يجب أن يخلع أو يقتل ، بيد رعاية أو غيرهم أيّا كانوا ، كل أمير يصدر ضده البابا أو أية هيئة في المقر البابوي في رومه ، قرارا بالحرمان من الكنيسة أو من العرش . . كما أعلن أنه ليس ، ولا ينبغي أن يكون . لاي حاكم أو فرد أو مطران أو دولة أو عاهل أجنبي ، أية ولاية أو سلطة أو سيادة أو سلطان . . في هذه المملكة . أسألك العون على هذا يارب . »

وحيث ثبت بالتجربة أنه لا يتفق مع سلامة هذه المملكة ولا مع مصلحتها أن يحكمها أمير مناصر للبابا ، أو ملك أو ملكة متزوجة من أحد أشياع البابا ، فإن اللوردات والآباء الروحيين والنواب المذكورين يرجون فوق ذلك أن يسن تشريع يقضى بأن كل شخص أو أشخاص يذعنون أو سيدعنون للبابا أو الكنيسة في رومه ، أو تكون أو ستكون لهم علاقة بهما ، أو سيدعنون بالمذهب البابوي ، أو يتزوجون من نصيرات البابا والمشايخات له ، يجب استبعادهم وجرماتهم إلى الأبد من وراثته أو إمتلاك أو التمتع بتاج وحكومه هذه المملكة (٢٥) .

أن هذا الإعلان التاريخي عبر من النتائج الجهورية لما أتمته إنجلترا البروتستانتية « الثورة الجليلا » : وهي الاعتراف الصريح بالسيادة التشريعية للبرلمان ، التي طالما نازع فيها أربنة متوكل من آل ستيوارث ، وحماية المواطن

ضد السلطة التمسقية للحكومة ، واستبعاد الكاثوليك من تولى عرش إنجلترا أو المشاركة فيه . وبلى هذه النتائج في الأهمية ، هو ادماج سلطة الحكومة في الارستقراطية مالكة الأرض ، لأن الثورة بدأها كبار النبلاء ، وسار بها إلى غايتها صغار الملاك الممثلون في مجلس العموم . وواقع الأمر أن الملكية « المطلقة » المتمسكة « بحق الملك الإلهي » تحولت إلى أو ليباركية اقليمية أو ذات علاقه بالملكية الخاصة الأرض . وهي أوليباركية تميزت بالاعتدال والجد والبراعة في إدارة دفة الحكم ، متماونة مع ملوك الصناعات والتجارة والمال ، كما أهملت بصفه عامه أمر الحرفيين والفلاحين . إن الطبقات المتوسطة العليا أفادت من الثورة بصورة فعليه . واستردت مدن إنجلترا حريتها ، لتحكمها أوليباركيات التجار المستغلين . أن تجار لندن الذين أحجموا من قبل عن مساعدة جيمس ، أقرضوا وليم مائتي ألف جنيه فيما بين وصوله إلى العاصمة ، وتسلمه اعتمادات البرلمان لأول مرة (٢٦) . إن هذا القرض عزز اتفاقيه غير مسطورة : فالتجار يتركون لملاك الأرض حكم إنجلترا ، على أن توجه الارستقراطية الحاكمه سياسه البلاد الخارجيه نحو المصالح التجارية ، وتحرر التجار أكثر فأكثر من النظم الرسميه .

ونعم عناصر مخزيه غير كريمه كانت في « الثورة الجليله (٢٧) » . فما يبدو أنه مدعاة الأسف أن تضطر إنجلترا إلى استدعاء جيش من هولنده ليصلح من أخطاء الإنجليز أنفسهم ، وأن تساعد الإبنه على خلع أبيها عن عرشه ، وأن ينحاز قائد جيشه إلى الغزاة ، وأن تشارك الكنيسه الوطنيه في الإطاحه بملك سبق لهذه الكنيسه أن بررت وقدست سلطته الإلهيه المطلقه في وجه أي ثورة أو أي عصيان . كما كان مدعاة الأسف أن يكون تثبيت سياده البرلمان على حساب مناهضه حريه العبادة . ولكن السيئات التي افترفها هؤلاء الرجال والنساء طويت في الأحداث مع رفاتهم ، أما حسناتهم التي أدوها فقد بقيت بسلامهم وآتت أكلها . أنهم حتى في إقامة الأوليباركيه وضعوا أسس ديمقراطيه كان لا بد أن تنشأ مع توسيع القاعده الانتخابيه .

وجعلوا من دار الرجل الانجليزي قلعته ، آمننا نسيبنا من « عجرفة الحكم » و « أخطاء الظلم » وأسهموا إلى حد ما في هذا التوفيق الذي يدعو إلى الإعجاب بين النظام والحرية ، وهذا هو قوام الحكومة الانجليزية اليوم . إنهم فعلوا هذا كله دون اراقة قطرة من الدم ، اللهم إلا ما نزل من أنف الملك المنزعج للمهوك الآخرق الذي تخلى عنه الجميع في ساعة العسرة .

٣ — انجلترا تحت حكم ولیم الثالث ١٦٨٩ — ١٧٠٢

عين الملك لمجلسه الخاص : داني رئيسا ، وهاليفاكس حاملا للأختام الملكية ، وإرل شروزبرى وإرل نوتنجهام وزيرين ، وإرل بورتلاند رئيسا للخاصة الملكية ، وجلبرت بيرت أسقف سالسبوري .

وكان أبرز هذه الشخصيات وأكثرها نفوذاً هو جورج سافيل مركز هاليفاكس . ولما كان ابن أخى لورد سترافورد الذى أعدهم البرلمان الطويل من قبل ، فإنه — أى هاليفاكس — كان قد فقد جزءاً كبيراً من ممتلكاته في الثورة الكبرى ، ولكنه كان قد أتقن ما يكفيه لعيش رغيد في فرنسا أيام حكم كرومول . وهناك عثر على « مقالات » مونتاني ، وأصبح فيلسوفاً . وإذا كان المركز قد ارتقى فيما بعد من السياسة إلى فن الحكم ، فما ذاك إلا لأن الفرق بين السياسة وفن الحكم هو الفلسفة أى القدرة على رؤية اللحظة العابرة والجزء الصغير في ضوء الزمن الخالد ، والكل الذى يضم كل الأجزاء ، ولم يكن هاليفاكس ليرضى قط بأن يكون كله رجل أعمال وكتب يقول : « إن حكومة العالم (يعني حكم الشعوب) عمل عظيم ، ولكنه شاق خشن جداً كذلك ، إذا قورن بركة للمعرفة التأملية (١٢٨) » . فقد كان على السياسة في بعض الأحيان أن تتعامل مع الجماهير وهو ما أزعج هاليفاكس . إن في الجمع من الناس قساوة مثراكمة ، على الرغم من أنه ليس بينهم فرد واحد بالذات ردىء الطبع إن الغنمة الغاضبة في حشد .

١٣ — قصة الحضارة

من الناس من ألعن وأسوأ الضوضاء في العالم » (٢٩) . لقد عاش من قبل في ظل « الارهاب البابوي » حين كانت الجماهير تقذف الرعب في المحاكم . ومنذ رأى كثيراً من المذاهب الدينية المولعة بكسب الأنصار ، طرح معظم اللاهوت ، إلى حسد أنه ، كما يقول بيرنت « تحول إلى ملحد جرىء ثابت العزم ، على الرغم من أنه كان غالباً ما يحتاج إلى بأنه ليس كذلك ، وأنه قال أنه يعتقد أنه ليس في العالم رجل ملحد . واعترف بأنه لم يستغ كل ما فرضه رجال الدين على العالم . وكان مسيحياً ، امتثالاً ، وآمن قدر طاقته » (٣٠)

وعندما عاد إلى إنجلترا استرد ممتلكاته ، وبلغ من الثراء حداً استطاع معه أن يكون أميناً . وخدم شارل الثاني حتى علم بأمر « معاهدة دوفر » المريبة . ودافع عن حق جيمس في عرش إنجلترا ، ولسكن طارض في إلغاء « قانون الاختبار » ، وتطلع إلى حكم بروتستانتى بعد فترة حكم كاثوليكي قصيرة . وحقق آماله حين لعب دوراً قيادياً في انتقال الحكم بطريقة سلمية من جيمس الثانى إلى وليام الثالث . والتزم هاليفا كس بما يعتقد هو أنه حق ، وما كان لينحاز إلى أى حزب . وكتب في « أفكار وتأملات » : « ان الجهول يقود معظم الناس إلى الانضمام إلى حزب ما ، والحجل يحول بينهم وبين الخروج منه » (٣١) . ولما هوجم بسبب خروجه على اتجاهات الحزب ، دافع عن نفسه في كتيب مشهور « شخصية الحول القلب »

إن اللفظة البريئة (قلب حول) لا تعنى أكثر من أنه إذا كانت مجموعة من الرجال في قارب . ومال به قسم منهم إلى جانب ، فلا بد أن يميل الباقون بنفس القدر إلى الجانب الآخر ، ويحدث أن يكون هناك رأى ثالث لأولئك الذين يرون أنه يكفى أن يكون القارب مستويا أو متمعدلاً (٣٢) .

وكان في بعض الأحيان عديم الضمير ، فصيحاً دائماً ، ذكياً بشكل خطير ولما اجتاحت صائدوا المناصب الذين ادعوا مساعدة الثورة ، بلاط وليام الثالث ناصبوه العداء لأنه قال : « إن الأوز أنقذ رومه ، ولكنى لا أذكر أن

هذه الأوزات هيئت في مناصب القناصل « (٣٣) (١) »

ولابد أن هاليفنا كس ابتسم ساخراً عندما حول « المؤتمر » نفسه إلى برلمان ، ثم عمد إلى ما حسبه أول ما تحتاج إليه الحكومة — ألا هو قسم جديد للولاء والطاعة لوليم الثالث ، لا بوصفه رئيساً للدولة لحسب ، بل للكنيسة الرسمية كذلك . أنها لإحدى مهازل التاريخ للضحكة ، إن الكنيسة الأنجليكانية وهي التي ظلت لمدة قرن من الزمان تضطهد الكلفنيين (البرسبتريناز ، والبيوريتانز وغيرهم من مخالفينا) تقبل الآن رئيساً لها كلفنيا هولنديا .

إن أربمائة من رجال الدين الأنجليكانيين للتمسكين بنظرية « حقوق الملوك الإلهية » ومن ثم ينازعون حق وليم في الحكم ، رفضوا أن يؤدوا القسم الجديد . وعزل هؤلاء الرافضون « من وظائفهم الكنسية ، وشكلوا شعبة أخرى من المنشقين أو المخالفين . أما الذين أقسوا اليمين فإن كثيراً منهم فعلوا ما فعلوا مع « تحفظ عقلي » (٣٥) ربما أضحك الجزويت الباقين في المنحلترا . ويرى بيرت « أن مراوغة الكثيرين ومواربتهم في موضوع يمثل هذه القدسية أسهم إسهاماً غير قليل في تدعيم الاتحاد الآخذ في التفاقم (٣٦) » وصنع الأنجليكانيون من ذوى المشارب والأمزجة المختلفة ؛ حين ألغى وليم — إذعاناً للشعور السائد بشكل طاغ في اسكتلندة — ألغى هناك النظام الأسقفى الذى كان آل ستيوارت قد أقاموه قسراً . وحزن كثير من الأنجليكانيين حين ألغوا وليم بجنح إلى التسامح الدينى .

إن وليم الذى نشأ في أحضان الكلفنية الجبرية المؤمنة بالقضاء والقدر لم يطق تعاطفاً مع وجهة النظر الأنجليكانية التى تقضى بإقصاء البرسبتريناز عن الوظائف العامة أو مقاعد البرلمان . أنه شجع بالفعل التسامح في المقاطعات

(١) ان قأناة الأوز المقدس المنزهج في السكايتول أبطت الحامية الرومانية لاصد بخارة ليلية قام بها السكت في ٢٩٠ ق م (٣٤)

للتحدة ، ولم يكن يسمح بأى تمييز ديني فى صداقاته . إن الكلفنية الجبرية كانت قد أصبحت بالنسبة لوليم ثقة فى النفس وكأنها عامل من عوامل القدر . وفى ظل هذه الثقة ينظر ، دون ما تعصب ، إلى الانشقاق الدينى على أنه فى حد ذاته أداة من أدوات تلك « القوة الخفية » أكثر منها شخصية التى مماها تارة « الحظ » وتارة « العناية الإلهية » وأخرى « الله » (٣٧) . ورأى فى الخلافات الدينية فى إنجلترا قوة تمزق الأمة اربا إذا لم يجد التناغم والمحبة من مثل هذه القوة .

وكانت خطوة بارعة من جانب المجلس المخصوص (أو مجلس الملك) أن يعهد بتقديم « قانون التسامح » الذى أعده ، إلى البرلمان ، إلى نوتنجهام الذى عرف بأنه ابن غيور بار للكنيسة الأنجليكانية . وأبطل دفاع نوتنجهام عن هذا القانون أمام البرلمان حجة المعارضين للمتشددين وجردهم من سلاحهم وهكذا أقر المجلسان أول انجازات العهد الجديد دون معارضة تذكر (٢٤ مايو ١٦٨٩) . وممخ هذا القانون بحرية العبادة العلنية لكل الفرق التى سلمت بمبدأ التثليث وبأن الكتاب المقدس نزل به الوحي ، والتى نبذت صراحة تحول خبز القربان والخمر إلى جسد المسيح ودمه ، وسيادة البابا الدينية . وممخ لأنصار تجديد العهد بتأجيله إلى سن البلوغ . وعقضى « قانون تثبيت التسامح » الذى صدر فى ١٦٩٦ ممخ للكويكركز باستبدال وعد قاطع بالقسم سالف الذكر . واستثنى التوحيديون والكاثوليك من التسامح . وقام وليم ومجلسه فى مشروع « قانون التسامح الشامل » الذى قدم فى أواخر ١٦٨٩ ، بمحاولة للتسامح بدخول كل طوائف المنشقين إلى الكنيسة الأنجليكانية ، ولكن لم تتم الموافقة على هذه الخطوة . وظل المنشقون محرومين من الجامعات ومن مقاعد البرلمان ومن الوظائف العامة إلا إذا تلقوا الأسرار المقدسة وفقاً للطقوس الأنجليكانية ، ووجد فى ١٦٩٧ العمل بقانون يقضى بعقوبة السجن على من يهاجم أية نظرية مسيحية أساسية . ولم يصدر بعد ذلك أى تشريع بالتوسع فى الحرية الدينية فى إنجلترا حتى ١٧٧٨

وعلى الرغم من ذلك كان التسامح هنا أكبر منه في أية دولة أوربية أخرى بعد ١٦٨٥ ، باستثناء للمقاطعات المتحدة . والواقع أن التسامح اتسعت دائرته في إنجلترا بازدياد قوة إنجلترا إلى الحد الذي تحررت معه من مخاوفها من أن تغزوها أية دولة كاثوليكية أو تعمل على تخريبها في الداخل .

إن الكاثوليك أنفسهم نعموا في عهد وليم بأمن متزايد . وأوضح للملك أنه ليس في مقدوره أن يحتفظ بالأحلاف مع الدول الكاثوليكية إذا هو صب العذاب والظلم على رؤوس الكاثوليك في إنجلترا (٣٨) . وظل القساوسة الكاثوليك لعشر سنوات يقيمون القداس في دور خاصة . وما كان أحد ليتحرش بهم لو تستروا في شيء من الحزم والحكمة ، أمام الجمهور . وفي أخريات عهد وليم (١٦٩٩) ، حين كان للمحافظين (أنصار السلطة الملكية المطلقة) وللمتشددين ، الغلبة في البرلمان ، شددت القوانين ضد الكاثوليك ، فتعرض لعقوبة السجن مدى الحياة أى كاهن يبدان بإقامة القداس أو أداء أية مهمة كهنوتية أخرى إلا في دار أحد السفراء . وتنفيذا للقانون كانت ثمة مكافأة قدرها مائة جنيه لمن يدبر الإدانة . ونص القانون على نفس العقوبة لأي كاثوليكي يقوم بالتعليم العام للصغار . وما كان يجوز للوالدين أن يرسلوا أولادهم إلى الخارج لتلقى العلم وفق للمذهب الكاثوليكي . وما كان يجوز لأي فرد أن يشتري أو يرث أرضا إلا بعد أداء القسم على أن الملك رئيس الكنيسة ، وعلى أنه لا يؤمن بتحول الخبز والخمر إلى جسد المسيح ودمه . وصودر من أجل الحكومة ارث أي فرد امتنع عن أداء القسم (٣٩) . وفي ١٦٨٩ عفا وليم عن تيتس أونس وأجرى عليه معاشا .

وجلب الكاثوليك في أيرلنده على أنفسهم اضطهادا مجددا بتنظيمهم ثورة تهدف إلى إعادة جيمس الثاني إلى العرش . ذلك أن ريتشارد تاليوت جمع جيشا قوامه ٣٦ ألف رجل ودعا جيمس للقدوم من فرنسا ليتولى قيادته . وكان لويس الرابع عشر قد أسكن الملك المخلع أحد قصوره في سان جرمان ، وخصص له ستائة ألف فرنك سنويا ، وجهاز له الآن أسطولا

و إلى ميناء برست ، وودعه بكلمات مشهورة : « أن أحسن ما أرجوه لك ألا يرى الواحد منا الآخر ثانية أبدا » (٤٠) . وفي ١٢ مارس ١٦٨٩ ألقى جيمس مراسيه في أيرلنده مع ألف ومائتي رجل ، ورافقه تالбот إلى دبلن ، حيث دعا برلمانا أيرلنديا ، وأعلن حرية العبادة لكل الرعايا المخلصين . واجتمع البرلمان في ٧ مايو وألقى « قانون التسوية » الذي صدر في ١٦٥٢ ، وأمر بإعادة الأراضي التي انتزعت من أصحابها منذ ١٦٤١ إلى ملاكها السابقين . وأرسل وليم قائده الهيجونوتي شومبرج إلى أيرلنده على رأس عشرة آلاف جندي . ورد لويس الرابع عشر على ذلك بإرسال سبعة آلاف من الفرنسيين المحنكين لمساعدة جيمس . وعبر وليم بنفسه إلى أيرلنده في يونيو ١٦٩٠ . فلما ألتقى الجمعان في معركة بوين (أول يولييه) فر جيمس من الميدان مذعورا ، ولو أنه اشتهر بالبسالة يوما ، حين رأى قواته تنهزم . وسرطان ماعاد أدراجه إلى سان جرمان .

وربما ابتهج وليم بعقد الصلح وإقرار السلام مع الأيرلنديين على أساس الوضع الراهن . ولكن الرعاه والقوات البروتستانتية الذين كانوا تحت أمرته ، طالبوا بالقضاء التام على العناصر الثورية ، وبالإستيلاء على المزيد من أراضي أيرلنده . وعاد وليم إلى إنجلترا تاركا جيشه تحت قيادة جودرت دي جنكل ، إرل أتلون آنذاك ، وكان شومبرج قد قضى محبه في انتصاره في بوين . وأوصى الملك جنكل بإصدار عفو عام دون قيد أو شرط ، وإطلاق حرية العبادة ، وبالإعفاء من أداء القسم بعدم الاعتراف بسيادة البابا ، وباسترداد الثوار لضياعهم شريطة أن يضموا السلاح (٤١) . وعلى أساس هذه الشروط ضمن جنكل استسلام جولواي وليمرك وبمقتضى معاهدة ليمرك (١٣ أكتوبر ١٦٩١) وافق الثوار الأيرلنديون على التسوية التي عرضها وليم . وفي مارس ١٦٩٢ صدر بيان ملكي يعلن انتهاء الحرب مع أيرلنده .

واستنكر البروتستانت في أيرلنده هذه المعاهدة على أنها استسلام

ذليل بابويين ، ولجأوا إلى البرلمان الانجليزي . ووضع هذا البرلمان على الفور (٢٢ أكتوبر ١٦٩١) قانونا يحرم من عضوية برلمان أيرلنده ، كل من يمتنع عن أداء يمين السيادة وإعلان رفضه لفكرة تحول الخبز والحر إلى جسد المسيح ودمه . ورفض البرلمان الأيرلندي الجديد ، وكان بروتستانتيا تماما ، الاعتراف بمعاهدة ليمرك . وعلى حين كان وليم منهمكا في تكتيل أوروبا ضد لويس الرابع عشر ، سن برلمان دبلن سلسلة جديدة من قوانين العقوبات ضد الكاثوليك في أيرلنده ، تنقض صراحة الصلح الذي وقعه وليم وماري من قبل ، ونصت هذه القوانين على عدم شرعية للمدارس والكليات الكاثوليكية ، وعلى أن القساوسة الكاثوليك معرضون للترحيل خارج البلاد ، وعلى أنه ليس للكاثوليك أن يحمل سلاحا ، أو يمتلك حصانا يزيد قيمته على خمسة جنيهات ، وعلى مصادرة أملاك أية وريثة بروتستانتية تزوج من كاثوليكى (٤٢) . واستمرت مصادرة أراضي أيرلنده حتى « لم يعد هناك في الواقع أرض تصادر » (٤٣) . وكاد يكون من المستحيل أن يسكسب كاثوليكى أيرلندى قضية في محكمة أيرلندية ، وقل أن صدرت عقوبة على من يقترف جريمة ضد الكاثوليك . واستكمالا لخراب أيرلنده قضت قوانين برلمان إنجلترا قضاء تاما على صناعة الصوف التي كانت قد نمت إلى حد منافسة صناعة الصوف في إنجلترا ذاتها ، حيث حظرت هذه القوانين تصدير الصوف من أيرلنده إلى أى بلد آخر سوى إنجلترا ، وخنقت حتى هذه التجارة نفسها بما وضع من تعريفات جمركية معوقة عمدا (١٦٩٦) . ومن ثم انتشر الفقر والتسول والمجاعة والتمرد على القانون في الجزيرة ، خارج نطاق « البسال » الانجليزي (قسم في شرق أيرلنده حول مدينة دبلن) . وفي الستين عاما التي أعقبت الثورة الجلميلة هاجر من أيرلنده نصف الكاثوليك الذين كان عددهم يقرب من المليون في ١٦٨٨ ، أى أن أزكى الدماء وأطيب العناصر نُزحت إلى البلاد الأجنبية .

وازدهرت آنذاك كل الطبقات الاقتصادية في إنجلترا فيما عدا طبقة

الكادحين (البروليتاريا) وطبقة الفلاحين . وعانى عمال النسيج من المنافسة الأجنبية ومن الاختراع . وفي ١٧١٠ أضرب عمال الجوارب بسبب ادخال أنوال الجوارب واستخدام الغلمان لتشغيلها لقاء أجور منخفضة (٤٤) على أن الانتاج القومى كان آخذاً في الارتفاع . ويمكن أن نحكم على هذا الارتفاع من زيادة متوسط إيرادات الحكومة من ٥٠٠ ألف جنيه في القرن السادس عشر إلى سبعة ملايين ونصف للمليون من الجنيهات في القرن السابع عشر (٤٥) . وقد ترجع الزيادة إلى حد ما إلى التضخم ، ولكنها نتجت أساساً من التوسع في الصناعة وفي التجارة الخارجية .

ومع هذا لم يسكن الدخل كافياً ، لأن ولیم كان يجند الجيوش لمحاربة لويس الرابع عشر ، فارتفعت الضرائب إلى حد لم يسبق له مثيل ، بل اشتدت الحاجة إلى مزيد من المال . وفي يناير ١٦٦٣ أحدث شارل مونتاجو — إرل هاليفاكس الأول — بوصفه وزير الخزانة تغييراً أساسياً في مالية الحكومة ، باقتناع البرلمان بطرح قرض عام قدره ٩٠٠ ألف جنيه ، ووعدت الحكومة بدفع ٧ ٪ فائدة سنوية عنه . وفي أخريات ١٦٦٣ ، حين زادت النفقات عن الإيرادات ، اتفق جماعة من أصحاب المصارف على اقراض الحكومة مبلغ مليون ومائتى ألف جنيه بفائدة قدرها ٨ ٪ . تحصل من رسم اضافى على السفن . وكانت فكرة القروض المتحدة (الجماعية) هذه ، قد اقترحتها ولیم باترسون قبل ذلك بثلاثة أعوام . وجاء الآن مونتاجو فعززها من الناحية الرسمية . وأقر البرلمان هذه الخطة . واتباعا للسوابق التى جرى عليها العمل فى جنوة والبندقية وهولنده ، عمد المقرضون إلى تنظيم أنفسهم فيما يسمى « محافظو وشركة بنك انجلترا » الذى صدرت براءة تأسيسه فى ٢٧ يولييه ١٦٩٤ . واقترضوا هم النقود من مصادر مختلفة بسعر ٤ ٪ . واقترضوها للحكومة بسعر ٨ ٪ ، وجنوا أرباحاً اضافية عن طريق القيام بكل الأعمال المصرفية . وهكذا نشأ بنك انجلترا ، وقدم للحكومة قروضا أخرى . وفى ١٦٩٦ حصل من البرلمان على حق احتكار مثل هذه القروض .

وبعد تقلبات كثيرة مر بها هذا البنك ، أصبح العامل الرئيسى فى استقرار الحكومة الانجليزىة المشهور منذ اعتلاء وليم ومارى عرش انجلترا حتى يومنا هذا . ومنذ ١٦٩٤ أصدر البنك أوراقا نقدية تضمنها الودائع ، قابلة للدفع بالذهب ، عند الطلب . وتداولها المتعاملون على أنها مال قانونى ، فحكّات أول عملة ورقية حقيقية غير زائفة فى انجلترا (٤٦) . (٥)

واشتهر عهد مونتاجو فى وزارة الخزانة بعمل ممتاز آخر ، هو اصلاح العملة المعدنية . ذلك أن العملة الجيدة التى سكّت فى عهد شارل الثانى وجيمس الثانى اختزنت أو صهرت أو صدرت . أما العملة للشوّه أو التالفه منذ أيام اليزابث وجيمس الأول ، فقد طرحت للتداول والاستعمال ، وفقدت فى القوة الشرائية جزءا لا يستهان به من قيمتها الاسمية . ودعا مونتاجو أصحابه جون لوك واسحق نيوتن وجون سومرز ليعدوا لانجلترا عملة أكثر استقرارا فصمموا قطع نقد جديدة ذات حافه مسننه تتحدى التشويه . واشتردوا العملة القديمة وسحبوها من التداول بقيمتها الاسمية ، وتحملت الحكومة الخسارة الناجمة عن ذلك . وصار لانجلترا نقد ثابت صحيح ، كان مثار تحسد أوروبا ، ومثالا تحتذيه . وفى ١٦٨٩ فتحت بورصة الأوراق المالية فى لندن ، وبدأت فترة مضاربة مالية ، سرطان ما أنتجت « شركة البحر الجنوبي » (١٧١٠) وانفجار « فقاعتها » (١٧٢٠) . وفى ١٦٨٨ أقام إدوارد لويدي فى أحد مقاهى لندن شركة للتأمين تعرف الآن بكل بساطة تبعت على الفخر باسم « لويديز » وفى ١٦٩٣ أصدر آدم وند هاللى أول نشرة وفيالته مبروفه . وأكدت هذه التطورات المالية ووسعت دور المصالح القائمة على المال فى شئون إنجلترا ، وحددت بداية الأهمية المتزايدة

(*) صدرت أول عملة ورقية مبروفة فى القرن السابع الميلادى فى الصين على عهد أسرة تانج . ورأى ماركو پولو مثل هذه العملة فى الصين ١٢٧٥ . وحاول بيت ادخال أسلوبي التناهل هذا الى ايطاليا . واستخدمت السويد أوراق العملة فى ١٦٥٦ ومستعمرة ماساشوسيت ١٦٩٠ .

لرأسماليين - الذين يعدون برأس المال والذين يديرونه - في بريطانيا .
وفوق الاقتصاد الآخذ في التوسع احتدمت المعركة السياسية حول
التزاع على السلطة بين المحافظين (التوري) مالكي الأرض وبين الأحرار
(الهويج) جامعي الثروات ، وبين الإنجليز والاسكتلنديين ، وصحب هذا
مؤامرات لقتل ولیم ، ومشروعات لاعادة جيمس إلى العرش . ولم يكن
ولیم مهتما بالشئون الداخلية في إنجلترا ، انه غزاها أساساً ، ليجمع بينها
وبين هولنده (موطنه الأصلي) ودول أخرى ، لتقف جميعاً في وجه لويس
الرابع عشر ، أو كما قال هاليفاكس من قبل : « أنه استولى على إنجلترا وهو
في الطريق إلى فرنسا (٤٨) » ولما اكتشف الإنجليز أن هذا هو شغله الشاغل
أوالشعور المستولى عليه فقد كل شعبيته ولم يعد ملكاً محبوباً . وقد يقسو
دون مبالاة ، كما حدث حين أمر باستئصال عشيرة مكندوالد في جلنكو
لتأخرهما في إعلان ولائهما له (١٦٩٢) ، وكان « صموتا فظاً غليظاً في
المعاشرة » لأنه كان يتكلم الانجليزية بصعوبة . ولم يمن كثيراً بالسيدات .
وكان سلوكه على المائدة يدعو إلى الاشتزاز ، حتى أطلق عليه سيدات
المجتمع في لندن « الدب الهولندي الوضع » (٤٩) ، وأحاط نفسه بحراس
ورفاق هولنديين ، ولم يخف رأيه في تفوق الهولنديين تفوقاً عظيماً على
الإنجليز في المقدرة الاقتصادية والتفكير السياسي والأخلاق وعلم أن
كثيراً من النبلاء يفاوضون جيمس الثاني سرا . ووجد الفساد يستشري
حواله إلى درجة تلوثه هو نفسه ، وانجر في شراء أصوات أعضاء البرلمان .
وكان الخير كل الخير فيما يمكن عمله لكبح جماح فرنسا الهائجة المتحفزة .
وحيث ترك ولیم الشئون الداخلية لوزرائه ، فقد بدأ عهد الوزراء
الأقوياء (١٦٩٥) و « الوزارات » المتضامنة في المسؤولية والعمل ، والتي
يسيطر عليها رجل واحد ، هو في العادة وزير الخزانة . وفي ١٦٩٧ جاء
أعداؤه المحافظون (التوري) أثر انقلاب إنتخابي ، ومن ثم حدوا من
سلطانه ونازعوه سياسته الخارجية ، إلى حد أنه فكر في الاعتزال

(١٦٩٩) . ولكنه حين رقد رقدته الأخيرة (٨ مارس ١٧٠٢) وقد أنهلك الرب والسل جسمه ، كان يمكن أن يتميز عن هزأته في الداخل حين يدرك كل الإدراك أنه هياً لا إنجلترا مشاركة أكيدة في « الحلف الأعظم » (١٧٠١) الذي استطاع بعد اثني عشر عاماً من الصراع ، أن يخضع ويذل الملك البوربون العظيم ، وينقذ استقلال أوروبا البروتستانتية ، ويطلق يد إنجلترا في بسط نفوذها على العالم .

٤ — إنجلترا في عهد الملكة آن : ١٧٠٢ - ١٧١٤

بعد وفاة الملكة ماري ١٦٩٥ أصبحت أختها آن وريثة العرش . ومنذ نشأت آن وسط الخطر والشغب ، أصبحت بنتا مخلوعة القواعد ، قوية الخلق ، بسيطة التفكير ، قوية الشعور ، تلتصم المراء والساوى والجراة في صداقة خاصة متواضعة مع رفيقة صباها ساره جننجر الضاحكة الوفية الشكاكة الوائقة من نفسها المقعمة بالحياة والنشاط . وفي ١٦٧٨ تزوجت سارة التي كانت تكبر آن بخمس سنين من جسون تشرشل ، وفي ١٦٨٣ تزوجت آن من الأمير جورج الدنمركي . وحالف التوفيق الزوجيتين كليتهما . ولكنهما لم تمسا العلاقة الوثيقة بين المرأتين . وتخلت آن عن كل الشكليات والرمميات ، فاطلقت مازحه على سارة (التي كانت آنذاك وصيفة مخدعها) « مسز فريمان » وأصرت على ألا تناديها سارة « بالأميرة » بل « مسز مورلي » ولما تحلى الزوجان عن الملك جيمس وانحازا إلى وليم ، كأن أمام آن أن تختار بين أمرين أحلاهما مر : بين الوالد والزوج ، ولكن حبها لزوجها ولصديقتها أوجب عليها السفر إلى نوتنجهام (٢٨ نوفمبر ١٦٨٨) . وفي ١٩ ديسمبر عادة هي وسارة إلى لندن وإلى ملك أجنبي غريب عنهما .

لم تأخذ آن قط نفسها بحب وليم ، ولقد ما أحست بالامتهان والأذى والالم ، حين منح أحد أصدقائه ضيعة أبيها التي كان لها نصيب فيها . وكانت في ١٦٩١ تتطلع إلى عودة أبيها إلى عرشه . واشتبه وليم ، بحق ، في أن

تشرشل (إرل مالبرو آنذاك) وزوجته سارة تمهيكان له الدسائس مع الملك الخلع . وأمرت الملكة ماري أختها آن بطرد سارة من بطانتها ، ولكن الأميرة رفضت . وفي صباح اليوم التالي (يناير ١٦٩٢) عزل مالبرو من مناصبه الرسمية ، وأبعد هو وسارة عن الحاشية ، وبدلاً من أن تفترق الأميرة عن صديقتها ، تحدث الملك والملكة (وليم وماري) وغادرت قصر هويتول لتعيش مع سارة في « سيون هاوس » . وفي ٤ مايو أودع مالبرو سجن لندن . وكثيراً ما كانت سارة تزوره هناك . وعرضت أن تنهى صداقتها للأميرة آن لتهدي من غضب الملكة . ولهذا كتبت آن لسارة تقول :

« في آخر مرة كان هنا وورستر ، أبلغته أنك عرضت على عدة مرات أن تبتعدى عني ٠٠٠ . وإنى لا توصل إليك ، من أجل يسوع المسيح ، ألا تعودى إلى مثل هذا الحديث ثانية . وإنى لأؤكد لك أنك ان أقدمت على مثل هذه الجفوة القاسية ، فإنى لن أنعم بلحظة من الهدوء والراحة بعد ذلك . فإن فعلت دون موافقتي ، (ولو قدر لي أن أوافق لما كانى أن أرى وجه الله قط) فلسوف أعزل الحياة ، ولا أرى العالم بعد ذلك ، وأعيش حيث ينسأنى البشر جميعاً (٥٠) » .

ولما لم يقم أى دليل حاسم على اشتراك مالبرو في أية مؤامرة لاعادة جيمس إلى العرش ، ولما كان وليم في مسيس الحاجة إلى قادة مهرة . فإنه أخلى سبيله وأعادته إلى سابق مكانته ونفوذه .

ولما أصبحت آن ملكة ، وكانت آنذاك في سن الثامنة والثلاثين ، بدل وغير إثارها الخلق السكرىم والأمانة والإخلاص والعزلة ، من طبيعة البلاط الانجليزى ، فلم يجد المولعون بالقصف والصخب والهمو والفجور إليه منفذاً . وآووا ساخطين ناقلين إلى المقاهى واللواخير . وحل رجل الأخلاق أديسون محل روشستر المستهتر الخليع . وكتب ستيل « البطل المسيحى » . وكان لتجنب الملكة آن التردد على المسرح ولنفوج حياتها ، بعض الأثر في تحسين أسلوب المسرح الانجليزى . وعبرت الملكة عن ورعها

وتقواها بأن حولت إلى فقراء رجال الدين في الكنيسة الرممية نصيب العرش في « بشائر الفخار » والعشور الكنسية (١٧٠٤) ، ولا تزال الحكومة البريطانية تدفع « منحة الملكة آن » هذه . وأنجبت الملكة أطفالا في كل عام بانتظام تقريبا ، ولكنهم ماتوا في سن الطفولة عدا واحدا . ولم يبق على قيد الحياة بعدها منهم أحد . ولقد ما أظلمت حياتها ونحطمت قلبها لكثرة ما شيعت من جنازات .

ولو كان في مقدور الملكة الآن أن تحدد هي السياسة للقومية لعقدت الصلح مع فرنسا ، واعترفت بما طالب به أخوها من أبيها المتوفى ، أن يترجع على العرش تحت اسم جيمس الثالث . ولكن وليم الثالث بإرادته القوية كان قد أدخل إنجلترا في « الحلف الأعظم » كما أن الرجل الذي غلبت آراؤه ومقدورته على كل ما عداها ، والذي كانت قد رفعتة فور اعتلائها العرش من إرل إلى دوق مالبرو ، نقول أن هذا الرجل أغراها بأن تشق في حكمها لمدة أكثر من عشر سنوات بحرب دامية باهظة التكاليف . وكانت لا تزال واقعة تحت تأثير صديقتها . وهي آنذاك دوقه والمشرقة على ملابس الملكة ، وعلى أموالها الخاصة . وكانت سارة تتقاضى ٥١٠٠ جنيه سنويا . واستغلت تأثيرها الذي كاد يكون مغناطيسيا على الملكة ، في زيادة ثراء زوجها ، فمين مالبرو قائدا عاما للقوات البرية . كما عين بناء على اقتراحه (صديقه سدي جودولفين وزيراً للخزانة لأنه كان أمينا بشكل شاذ ، كما كان قديرا في الشؤون المالية كما كان يمكن الاعتماد عليه في تحويل الأموال فورا إلى قادة الجيش الذين كان جنودهم يبدون من الشجاعة بقدر ما يقبضون من نقود . وقد يشوقنا أن نسجل أن جودولفين مات فقيراً ، بعد أن قضى نصف صره يضطلع بشؤون الخزانة ، وذهبت دوقه مالبرو العنيدة إلى أنه « خير من عاش من الرجال » (٥١) ومهما يكن من أمر فإنه قضى وقت فراغه في صراع الديكة وصباق الخيل والميسر ، وهي رذائل معتدلة تعتبر مقاربه لفنضيلة . أن تجرد آن من الذكاء والفضيلة مخرج لوزرائها بالاستحواذ على قدر

كبير من السلطة وحقوق المبادرة التي كان البرلمان قد تركها للتاج ، ومن ثم نشبت المعارك السياسية (فيما عدا فترة حكم جورج الثالث) بين البرلمان والوزراء ، لا بين البرلمان والملك . وفي ١٧٠٤ دخل الوزارة شخصيات جديدة : روبرت هارلي وزير الدولة ، وهنري سانت جون وزير للحرب . ومس كلا الرجلين تاريخ الأدب مساهمات : فان هارلي كان يستخدم ديفو وسوينف ، كما كان سانت - بوصفه فيسكونت بولنجهبروك فيما بعد - ذا تأثير على بوب وفولتير ، كما أنه هو نفسه مؤلف أبحاث كانت يوما مشهورة . « أبحاث في دراسة التاريخ » و « فكرة عن ملك محب لوطنه . وكان كلا الوزيرين يد من الشراب ، ولكن هذا لم يسكن ميزة في انهما في ذاك الزمان . وكلاهما تولى منصبه بعون من مالبرو ، ولكنهما اقلبا ضده بتهمة اطالة أمد حرب الوراثة الأسبانية دون مبرر يدعو إلى ذلك .

ولد سانت جون (١٦٧٨) في عهد شارل الثاني ، وتوفي (١٧٥١) في أول سني « دائرة المعارف » ، ومن هنا مثل تمثيلا دقيقا عبور أوروبا من عودة الملكية إلى عصر الاستنارة في فرنسا ، وتلقى أيام صباه تعليما دينيا كثيرا ، وأهدر قدرا كبيرا منه أيام كان رجلا . وأنه ليروي لنا : « كنت أرغم حين كنت صبيا على قراءة تعليقات دكتور مانتون الذي كان يفخر بأنه ألقى ١١٩ عظة عن المزمور رقم ١١٩ (٥٢) » وفي ايتون وأكسفورد سعى جون وأحرز قصب السبق في الذكاء والتسكاهل الخالي من الهموم ، والانغماس في المذات والادمان على الشراب في لباقة . وكان يفاخر بأنه يتناول أكبر قدر من الخمر دون أن يشعل . وبأنه يخادن بهيظ الماهرات نفقة في المملكة (٥٣) . وفي لحظة أراد أن يسكن في بها بواحدة تزوج من وريثة ثرية . ولكنها سرعان ما هجرته لخياته ولكنه استمر ينعم بضياعها ، مع بعض فترات انقطاع يسيرة . ووجد في ١٧٠١ أن الانتخاب للبرلمان لا يكلف كثيرا ، نسبيا . وهناك حظى في مجالس العموم بنفوذ عظيم نتيجة لوسامته وسرعة بديهته وبيانه المتدفق . ودخل الوزارة ولما تجاوز

السادسة والعشرين من العمر .

وكان أبرز إنجازات هذه الوزارة هو توحيد برلمان إنجلترا واسكتلندة، فإن البلدين على الرغم من خضوعها للملك واحد، كان لهما برلمان منفصلان . واقتصاديات متعارضة ومذاهب دينية متنافرة ، وشنت كل منهما الحرب على . الأخرى ، زد على ذلك أن التمريفة الجركية التي أملاها الحق والحسد بين البلدين عوقت تجارتها . وفي ١٦ يناير ١٧٠٧ وافق البرلمان الاسكتلندي ، وفي ٦ مارس صدقت الملكة ، على بنود « الاتحاد » التي بمقتضاها أصبحت المملكةتان — على حين احتفظت كل منهما بمذهبها الديني المستقل — « المملكة المتحدة » لبريطانيا العظمى ، ولها برلمان بريطاني واحد ، مع حرية مطلقة في الاتجار . على أن يختار ١٦ نبيلًا اسكتلنديًا لمجلس اللوردات، وينتخب ٤٥ عضوًا في اسكتلندة لمجلس العموم ، وينضم صليب سان جورج وصليب سانت أندرو في علم جديد واحد . « اتحاد جاك » ولم يرحب أهالي اسكتلندة بالاندماج، ولمدة نصف قرن من الزمان تفاقمت العداوات القديمة . ولكن ما جاءت ١٧٥٠ حتى اعترف الجميع بأن الاتحاد كان خيرًا وبركة . وتخلصت اسكتلندة من نفقات مزدوجة ، وانطلقت طاقاتها الفكرية لتبدع في النصف الثاني من القرن الثامن عشر باكرة نتاج مشرق من الأدب والفلسفة .

وعزل هارلي وسادت جون عن الوزارة أثر فوز الأحرار (الهويج) في أكتوبر ١٧٠٧ ، ولكن استمر تأثير نفوذ هارلي على الملكة عن طريق ابنة عمه « مسز أبيجيل ماشام » وكانت دوقة مالبرو قدمت هذه السيدة إلى الملكة آن من قبل . تخفف هدوؤها ولين عريكتها ورقة مزاجها عن الملكة التي أرهقت مسئولياتها الجديدة أعصابها كما أزعجت نظرات سارة وصوتها العنيف . ورحبت سارة لبعض الوقت بتحررها من مداومتها على البقاء في البلاط ، ولكنها سرعان ما فزعت حين اكتشفت تضاؤل نفوذها لدى الملكة : وكادت آن تكون بالطبيعة « محافظة — توري » تقيّة محبة للسلام ، على حين كانت سارة « متحررة — هويج » ضعيفة الإيمان ،

تسخر صراحة من حقوق الملوك الالهية على أنها تدجيل على الشعب وخداع له . وكـم ألحت على الملكة في تأييد مشيئة مالبرو في شن الحرب على فرنسا حتى يتم القضاء عليها . وكشفت آن عن شيء جديد من قوة العقل والتفكير بعد أن تقلص ظل سارة . وعندما ثارت نائرة ساره عليها بشكل وقع طردتها من الحاشية (١٧١٠) ، وصرحت الملكة آنذاك بأنها تحررت من أسر طال أمده .

وفي نفس السنة ما د فوز « المحافظين » في الانتخابات ، هارلى وبولنجبروك إلى الحكم ، وحل هارلى محل جودولفين في وزارة الخزانة ، وتولى بولنجبروك وزارة الحربية ، وأصبح جوناثان سوينف كاتب السكراسات والنشرات ، البالغ الأثر ، لهما . وعين هارلى إرل أكسفور (١٧١١) وحظى سات جون بلقب فيكونت بولنجبروك (١٧١٢) . وابتهجت مومسات لندن حين سمعن بنبا ترقية بولنجبروك ، قائلات : « أنه يحصل على ثمانية آلاف جنيه في العام ، وكلها لنا » (*) . وقدمت الأغلبية « المحافظة » إلى المجلسين (١٧١١) مشروعا ينص على أنه يشترط لترشيح للبرلمان امتلاك أرض ذات دخل سنوى لا يقل عن ٣٠٠ جنيه لممثل المدن ، وستائة جنيه لمندوب الريف (٥٤) . لقد بلغت الارستقراطية مالكة الأرض ذروتها آنذاك في إنجلترا .

واعتمدت الوزارة الجديدة — على حين رفض مالبرو — انتهاء الحرب بعقد صلح منفرد مع فرنسا . وفي ١٧١١ قدم هارلى إلى مجلس العموم اتهاما بالاختلاس ضد مالبرو . فتذرعوا بأن الدوق كان يجمع ثروة خلسة طائلة بوصفه القائد العام للقوات البريطانية ، وعن طريق مهام أخرى يتولاها ، وأنه بالإضافة إلى رواتبه السنوية التي تصل إلى نحو ٦٠ ألف جنيه . كان يقبض ستة آلاف جنيه سنويا من سيرسولومون مدينا متعهد توريد

(*) من رسالة مؤرخة : ٢ أبريل ١٧٦٩ ، للافاتير ، وهو لي النائب كلودج .

الخبز للجيش . وأنه اقتطع لنفسه خاصة ٢١ ٪ من اللباغ التي كان يتسلمها من الحكومات الأجنبية لدفع رواتب القوات الأجنبية التي كانت تحت امرته . ولم توق عمارة قصر بلنهم الضخم لأحد إلا لعين مهندسه . وكان مالبرو يشيد هذا القصر في وودستوك قرب أكسفورد . وكانت الملكة قد أمرت أن تتولى الحكومة الاتفاق على بنائه . وشرعوا في البناء ١٧٠٥ ، ولم يتم في ١٧١١ إلا نصفه الذي تكلف ١٣٤ ألف جنيه بالفعل (٥٥) ، وكان انتمائه يستلزم مبلغ ٣٠٠ ألف جنيه دفعت الحكومة أربعة أخماسه (٥٦) .

ودفع مالبرو بأن المبلغ المقتطع (٢ ١ ٪) كان مسموحا به بحسب العادة والعرف للقائد للصرف منه — دون تسجيل علني في الحسابات — على الخدمات السرية وأعمال التجسس التي أتت بأحسن النتائج . وأبرز ترخيصا موقعا من الملكة تجيز له الاقتطاع ، كما أكد الحلفاء الأجانب أنهم أيضا فوضوه في الاقتطاع ، وزاد ناخب هانوفر على ذلك أن هذا المال استخدم بحكمة « وأدى إلى كسب معارك كثيرة (٥٧) » أما عن المنحة التي كان مالبرو يتقاضاها من مدينتها فإن دفاعه كان غير مقنع . وأدانه المجلس بأغلبية ٢٧٦ صوتا ضد ١٧٥ . وعزلته الملكة من جميع مناصبه (٣١ ديسمبر ١٧١١) ، فغادر إنجلترا إلى المنفى الذي اختاره لنفسه بنفسه ، وعاش في هولنده أو ألمانيا حتى نهاية العهد . وعين الوزراء جيمس بنلر دوق أورمند الثاني ليتولى قيادة الجيوش البريطانية ، وفوضوه في اقتطاع نفس النسبة من عقود توريد الخبز ومن الأموال الأجنبية ، وهو ما أدانوا به مالبرو (٥٨) . ولكن الشعب البريطاني تقبل سقوط مالبرو على أنه خطوة على طريق السلام ،

وتعبر النزاع من جديد بين حزبي المحافظين والأحرار حول موضوع الورثة الأسبانية . ذلك أنه في ١٧٠١ حين مات آخر من بقي على قيد الحياة

١٤ - قصة الحضارة

من أولاد الملكة آن ، أقر البرلمان - رغبة منه في احباط عودة أسرة ستيوارت إلى الملك مرة ثانية ، قانونا للتسوية ينتقل عرش إنجلترا بمقتضاه في حالة عدم وجود عقب لوليم الثالث والأميرة آن - إلى الأميرة صوفيا وورثتها من صلبها ، وهم بروتستانت . وكانت صوفيا ، زوجة ناخب هانوفر ، بروتستانتية يقينا ، يجري في عروقها بعض الدم الملكي البريطاني لأنها من حفيدات جيمس الأول . وكانت آن قد قبلت هذا التدبير ضمنا للحفاظ على إنجلترا بروتستانتية . ولكن الآن وقد آذنت شمس حياتها بغميب فإن عطشها على أخيها المحروم من حقه في العرش ، نما واشتد ، ولم تدع مجالا للشك في أنها لا بد أن تساند مطالبة جيمس الثالث بالعرش إذا هو ارتضى نبذ السكتلكة . وأعرب الأحرار « عن تأييدهم التام لوراثة آل هانوفر للعرش ، على حين مال المحافظون إلى وجهة نظر الملكة . وفاوض بولنجبروك جيمس ، ولكن الأمير أوى التخلي عن عقيدته الكاثوليكية . على أن بولنجبروك اقضى لم تكن الديانات في نظره إلا أثوابا متباينة تسكو الموت جللا وشرفا . حاول بكل الوسائل إلغاء « قانون التسوية » وابقاء وراثة العرش لجيمس ، وعاب على هارلى تباطؤه الشديد في هذه المسألة ، وبناء على اقتراح منه عزلت الملكة آن هارلى وهي كارهة . وبدا لمدة يومين اثنين أن بولنجبروك سيد الموقف .

ولكن في ٢٩ يوليه انتاب الملكة مرض خطير نتيجة تأثرها وحزنها الشديد للخلافات بين وزرائها . وهنا تسلم البروتستانت في إنجلترا لمقارمة أية عودة للملكية آل ستيوارت ، ونبذ المجلس المخصوص سياسة بولنجبروك ، وأقنع الملكة المترددة بتعيين دوق شروزبرى وزيرا للخزانة ورئيسا للحكومة . وفي أول أغسطس ١٧١٤ فارقت آن الحياة . وكانت صوفيا قد قضت حبسها قبل ذلك بشهرين ، ولكن « قانون التسوية » مازال قائما . وأرسل المجلس إلى ابن صوفيا ، ناخب هانوفر ، يبلغه أنه أصبح الآن جورج الأول ملك إنجلترا

أن سنى حكم ولیم ومارى وآن (١٦٨٩ - ١٧١٤) كانت سنين حيوية بارزة فى تاريخ انجلترا . وعلى الرغم من الإنحلال الخلقى والفساد السياسى والنزاع الداخلى ، شهدت هذه السنوات انقلابا أسريا (تغييرا جذريا فى الأسرة المالكة) ، وإقرار البروتستانتية نهائيا فى انجلترا ، وانتقال سلطة الحكم من الملك إلى البرلمان بشكل لارجعة فية . كما شهدت نشوء الوزراء الأقوياء ، وهذا بدوره أدى إلى الانتقاص من سلطان الملك . وشهدت لآخر مرة فى ١٧٠٧ اعتراض الملك على تشريع البرلمان ، وخطت خطوة أوسع فى اقرار التسامح الدينى وحرية الصحافة . ووجدت بطريقة سلمية بين انجلترا واسكتلنده ، فى دولة أقوى ، هى بريطانيا . وأحبطت محاولة أقوى ملوك العصر الحديث ليجعل من فرنسا الدكتاتور الأمر الناهى فى أوربا ، وبدلا من ذلك جعلت انجلترا سيدة البحار ، ووسعت ممتلكات انجلترا فى أمريكا ، مما كان له نتائج تاريخية بعيدة المدى وشهدت هذه السنوات أيضا انتصارات العلم والفلسفة فى انجلترا فى « مبادئ اسحق بيوتن » ، وفى كتاب لوك « بحث فى التفاهم الإنسانى » . أما سنى حكم آن الودبعة ، وهو حكم قصير لم يتجاوز اثنى عشر عاما ، فقد كان عهد انبثاق فى الأدب — ديفو ، أديسون ، ستيل ، والفترة الأولى من حياة الاسكندر بوب — لم يكن له نظير فى أى مكان فى العالم فى ذاك العصر .

الفصل الحادى عشر

من دريدن إلى سوبفت ١٦٦٠ — ١٧١٤

١ — صحافة حرة

ترى ماذا حدا برجل فرنسى أن يكتب فى ١٧١٢ بزت د انجلترا
فرنسا فى الانتاج الأدبى كما وكيفا وأن مركز الحياة العقلية والفكرية ..
انتقل أكثر فأكثر إلى الشمال حتى قام الإنجليز حوالى عام ١٧٠٠
« بأكبر دور خلاق (١) » إن رجلا انجليزيا نعم بمآثر فرنسا يرد التحية
فيقول : إن جزءا من هذا الحافز جاء عن طريق آداب السلوك والعادات التى
جلبها شارل الثانى والمهاجرون العائدون ، وأن جزءا آخر تبسع من ديكارت
وباسكال وكورنيل وراسين وموليير وبوالو ومدموازيل دى سكوودرى
ومدام دى لافاييت ، ومن الفرنسيين المقيمين فى انجلترا مثل سانت أفرموند
وجرامونت . وأما لئى التأثير الفرنسى فى الملهيات الشهوانية الجنسية
وللأسيات البطولية التى ظهرت على المسرح فى عودة الملكية ، وفى الانتقال
من غزارة النثر فى عهد اليزابث وتلافيف فترات ملتون إلى النثر المذهب
المسقول المنطقى الذى دبجه دريدن وهو يكتب المقدسات وإلى الشعر
الذى نظمته بوب : ومضى الآن قرن من الزمان (١٦٧٠ — ١٧٧٠) كان
الأدب الإنجليزى فيه نثرا ، حتى ولو كان موزونا مقفى ، ولكنه نثرا نفما
واضحا يمتازا من الطراز الأول .

ومهما يكن من أمر فإن الأثر الفرنسى كان مجرد استحضات ، ولكن
جذور المسألة كانت فى وسع انجلترا نفسها : فى عودة الملكية المقرونة
بالبهجة والفرح والتحرر ، وفى التوسع الاستعمارى ، وفى إزاء الفكر بفضل

التجارة ، وفي الانتصارات البحرية على الهولنديين ، وفي قهرها (١٧١٣)
ففرنسا التي كانت قد انتصرت على أسبانيا . ومن ثم انفتح الطريق إلى
الامبراطورية شمالا ، وكما أجرى لويس الرابع عشر الرواتب على المؤلفين
بوصفها رضيخة أو رشوة تمنح الأنصار ، فإن الحكومة الإنجليزية ، بطريقة
شبيهة بهذه ، كافأت الشعراء أو النائرين المحبين لوطنهم أو المعاهدين
للحكومة — دريدن كوتجريف ، جاي ، بربر ، أديسون ، سويفت —
بالرواتب تخصصا لهم ، ويتناول الطعام على موائد الارستقراطية ، وبمحبة
على المبيعات من المطبوعات ، أو بالوظائف ذوات الدخل الكبير والجهد
اليسير في الإدارة ، من ذلك أن أحدم صار وزيرا ، ونظر فولتير في شيء
من الحسد إلى هذه الوظائف السياسية (٢) . ورعى شارل الثاني العلم والجمال
لا الأدب والفن . ولم يسكث ولیم الثالث والمملكة آن بالأدب . ولكن
وزراءهم — حين وجدوا أن الكتاب نافعون في عصر الصحافة والنشر
والمقاهي والدعاية — أعقدوا المال على الأقلام التي يسكن أن تخدم التاج أو
الحزب أو الحرب . وأصبح الكتاب سياسيين ثائوين ، وبعضهم مثل بربر
Prior ، صار من رجال السلك الدبلوماسي ، وبعضهم مثل سويفت وأديسون
يرع في التعمين في الوظائف وفي المحسوبة وفي التدخل في شئون السلطة . وأهدى
المؤلفون أعمالهم إلى اللوردات وسيدات المجتمع ، تقديرا كريما لما ينتظر أن
يحفظوا به من خيرات وفضل وعطف ووصال ، في عبارات اهداء ملؤها
المديح والاطراء والتحيات والتمنيات ، مما جعل هؤلاء السيدات وأولئك
اللوردات أممي من أبولو أو فينوس في جمال الجسم والقوام ، ومن شكسبير
وسافو في كمال العقل والذهن .

وساعدت الحرية الذهب على اطلاق العنان لغيضان المداد وجريان القلم .
وكانت قصيدة ملتون « أروبا جيتيكا » قد اخفقت في القضاء على « قانون
الرقابة » ، الذي تمسكت به الرقابة في الصحافة في عهد ملوك أسرتي التيودور
جوستيوارت ، واستمر القانون نافذ المفعول في عهد كرومول غير المستقر ،

وبعده في عودة الملكية لآل ستيوارت ، ولكن حين بدأت حكومة جيمس الثاني في إزطاج الأمة ، شرع عدد أكبر فأكبر من كتاب الكراسات والنشرات يتحدون القانون ويدخلون السرور على قلوب الشعب . وعندما اعتلى وليم الثالث العرش ، كان هو وأنصاره « الأحرار » مدينين بأكبر الفضل للصحافة إلى حد أنهم عارضوا تجديد قانون الرقابة ، فانتهى العمل به ١٦٩٤ ، ولم يجدد ، وتدعت حرية الصحافة تلقائياً . وربما ظل الوزراء الملكيون يمتثلون للكتاب بسبب هجماتهم العنيفة للمتطرفين على الحكومة وظل « قانون التجديف » (١٦٩٧) يفرض عقوبات صارمة على التشكك في أساسيات الدين للسبحي ، ولكن انجلترا نعت منذ ذلك الوقت فصاعدا بحرية الأدب التي أسهمت ، على الرغم من سوء استخدامها غالباً ، إسهاماً كبيراً في نمو الفكر الانجليزي .

وتضاعف عدد الدوريات ، وانتظم صدور الصحف الأسبوعية منذ ١٦٢٢ ، وعطلها كرومول جيماً ماعدا اثنتين ، ورخص شارل الثاني في صدور ثلاث منها تحت إشراف رسمي ، أصبحت واحدة منها هي « أكسفورد » وفيها بعد لندن جازيت « الناطقة باسم الحكومة » وكانت تصدر نصف شهرية أو نصف أسبوعية منذ ١٦٦٥ . وفور إلغاء قانون الرقابة صدرت عدة صحف أسبوعية . وفي ١٦٩٥ أسس المحافظون أول جريدة يومية انجليزية « ساعي البريد Post Boy » والتي لم تصدر إلا أربعة أيام فقط ، حيث ماكسها « الأحرار » في الحال بصحيفة « البريد الطائر Flying Post » . وأخيراً في ١٧٠٢ أصبحت The English Gournant هي الصحيفة اليومية المنتظمة في انجلترا — فرخ صغير من الورق مطبوع على وجه واحد فقط ، تقص الأبناء ولا تدون آراء ، ومن هذه الهبات المتقطعة نشأت عمالقة الإعلان التي تراها اليوم بين أيدينا .

وأنى ديفو مستوى جديد في صحيفه « ريفيو » (١٧٠٤ - ١٧١٣) وكانت أسبوعية تقدم التعليقات كما تقدم الأبناء . وهي التي بدأت القصة

المسلسلة وتبعه سنيل في « ناتلر » (١٧٠٩ - ١٧١١). وسماه هو وأديسون بهذا التطور إلى ذروته التاريخية في « سبكتاتور » (١٧١١ - ١٧١٢) وروع حكومة المحافظين التوزيع الإجمالي وتأثير الصحف اليومية والأسبوعية والشهرية ، فقرضت عليها ضريبة ثمينة تتراوح بين نصف بنس وبنس واحد. بها جمل البقاء مستحيلا بالنسبة لمعظم الدوريات . وكانت « سبكتاتور » إحدى الدوريات التي احتجبت . وقال سويفت لبطلته وصديقتها ستللا : « لقد دمروا شارع Grub بأمره »^(٣) (الشارع الذي يقطنه محررو الصحف) . وأصدر بولنجبروك في ١٧١٠ « اجزاء من Examiner » الأسبوعية ليدافع فيها عن سياسة وزارة المحافظين . ووجد في جوناثان سويفت رجلا واسع الاطلاع لاذع القدح والطمع ، متوقد الذكاء . لقد وقع المال على أداة جديدة ، وطنى سلطان الصحافة الدورية شيئا فشيئا على تأثير المنابر في تشكيل الرأي العام ، وإعدادة للأهداف الخاصة ، ودخلت التاريخ قوة جديدة تنزع عن الناس الصبغة الدينية وتنزع بهم إلى التعلق بالأدور الديويوية .

١١ - المسرحية في فترة عودة الملكية

فيما بين عامي ١٦٦٠ و ١٧٠٠ كان ثمة أداة أخرى شكت أو شوهت أو عبرت مجرد تعبير عن روح لندن المجردة من الحيوية والنشاط . وحيث استطاب شارل الثاني المسرحية الباريسية فإنه أجاز فتح مسرحين : الأول للملك وجماعته في « دروري لين » والثاني لدوق يورك وجماعته في « لنكولن ان فيلدز » وفي ١٧٠٥ افتتح مسرح الملكية في هايماركت ، ولكنها نادراً ما شهدت التمثيل فيه . وفي أيام شارل الثاني كان مسرحان اثنان يفيان بالحاجة عادة . وظل البيوريتانيون يقاطعون المسرحية ، أما الجمهور بصفه عامه على أيه حال ، فلم يكن يرخص له بدخول المسارح بين ١٦٦٠ و ١٧٠٠^(٤) ولم يقصد إليها في معظم الأحوال إلا كل عربييد ماجن من رجال الحاشية ، وحنالة الطبقة الأرستقراطية والمتصلين بها ، والأثرياء المتعطلين الذين

يقضون أوقاتهم فى المسارح والنوادر وسباق الخيل وغيرها . يقول :
دكتور جونسون الوقور : « أن المحامى الوقور ليحط من قدره ويمتنع
كرامته ، وأن المحامى الناشئ ليسىء إلى سمعته ، إذا غشى بيوت الاباحية
للنحلة هذه (٥) » وشكل النساء قسما صغيراً من النظارة على أمن إذا ذهبن
إلى المسرح كن يخفين شخصياتهن وراء الأقنعة (٦) . وكانت العروض تبدأ
فى الساعة الثالثة بعد الظهر ، حتى إذا تحسنت الإضاءة فى الشوارع (حوالى
١٦٩٠) أجلت إلى السادسة . وكان أجر الدخول أربعة شلنات للمعصورات
وللعقائد الخلفية شلنين ونصف وللشرفات شلناً واحداً . وكانت أجهزة التآخير
المسرحى وتغيير المناظر أكثر إتقاناً بكثير مما كانت عليه فى أيام اليزابيث .
ولو أن حجرة نوم واحدة وملحقاتها ربما كانت تسفى لمعظم ملهيات عصر
عودة الملكية ، وحلت الممثلات محل الغلمان فى تأدية أدوار النساء ، وكن
كذلك عشيقات ، من ذلك أن مرجريت هيوز التى مثلت ديدمونا لأول مرة
ظهرت فيها امرأة على المسرح الانجليزى (٨ ديسمبر ١٦٦٠) كانت عشيقة
الأمير روبرت (٧) . وفى عرض مسرحية دريدن « الحب الاستبدادى »
تعلق قلب شارل الثانى لأول مرة بخليفته نل جوين التى كانت تمثل دور
فاليريا (٨) . إن طبيعة جمهور المشاهدين ، ورد الفعل ضد البيوريتانية ،
وأخلاق البلاط ، وذكريات روايات عصرى اليزابيث وجيمس الأول (وبخاصة
روايات بن جونسون) وأحياء هذه الروايات واستعادة تلك الذكريات من
جديد ، وتأثير المسرح الفرنسى والملسكيين المهاجرين ، كانت كلها عوامل
تجمعت لتشكيل المسرحية أيام عودة الملكية .

وكان الإسم اللاحق فى « مسرحية النساء » فى عودة الملكية هو دريدن
لتركه مؤقتاً ، لتتحدث عن مسرحية توماس أوتواى ، الحافظ على فينيسيا ،
التي عمرت بعد كل روايات دريدن وظلت تمثل حتى ١٩٠٤ . إنها قصة حب
مطعمه بمؤامرة أصدقاء كوت دى أوزونا لقلب سناتو فينيسيا فى ١٦١٦ .
ويرجع مصادفته من نجاح فى البداية من ناحيه ، إلى الصورة الماخرة التي

رسمتها لإرل شافقتسبرى الأول (عدو شارل الثانى وصديق لوك) فى شخصيه أنطونيو الذى يجب أن تضربه عشيقته البغى ، ومن ناحية أخرى إلى التشابه بين هذه المؤامرة وبين المؤامرة البابويه «الحديثه» ومن ناحية ثالثه إلى «نمىل توماس بترتون ومسز اليزابيث بارى ، ولكن الروايه تقف اليوم على قدميها إن مناظرها الهزليه سخيفه مؤذيه ، خاتمتها تنشر الموت فى إجماع أقرب شبهها بالمسرحيه الموسيقيه (الأوبرا) ، ولكن حبكه الروايه متقنه دقيقه ، وشخصوها مصورة تصويراً مميّزاً ، والحركة مسرحيه إلى أبعد حد ، والشعر المرسل فيها ينافس مثيله فى المسرحيه فى عصر اليزابيث ، باستثناء مارلو وشكسبير . ووقع أوتواى فى غرام مسز بارى ، ولكنها آثرت عليه معاترة إرل روشستير ، وبعد كتابه عدة مسرحيات أخرى ناجحه أخرج الشاعر سلسله من الرايات لم يكتب لها النجاح ، وانحدر إلى مهاوى الفقر والعوز وفى روايه أنه مات جوعاً (٩) .

إن ذكرى المسرحيه فى فترة عوده الملكيه حيه من أجل ملهياتها . فإن ما كان فى هذه الملهيات من مرح وسخرية ، ومحاورات داعرة ، ومغامرات فى الخدع ، بالإضافة إلى قيمتها فى أنها مرآة تعكس حياة طبقه واحده فى جيل واحد . كل أولئك أكسبها شعبيه جزئيه ، إن لم تكن مختهده لا تكاد تستحقها . فإن مجالها ضيق إذا قيست بملهيات عصر اليزابيث أو مولير ، وأنها لا تصور الحياة بل تصف عادات المتعطلين المتسكعين فى المدن والحاشيه الخليعه المهتمكه ، وتتهجاهل الريف إلا إذا أخذوه هدفاً للاستهزاء والسخرية ، أو « سيديريا » ينفى إليها الأزواج زوجاتهم للتطفلات . إن بعض للمسرحيين الإنجليز شاهدوا مولير يعمل أو «نمىل رواياته ، واستعار بعضهم شخصوه أو حيكات مسرحياته ، ولكن أحدا منهم لم يبلغ نزعتة فى مناقشه الأفكار الاساسيه ، فالفكرة الاساسيه الوحيدة فى هذه الملهيات هى أن الذى هو الهدف الرئيسى لأعظم عمل بطولى فى الحياة . وكان المثل الأعلى للرجل فيها هو ما وصفه دريدن فى « المنجم الهزاة » على أنه « سيد ماجد ، رجل ثرى

طامل ينشئ النوادي وللقاهى وللسارح والمواخير ، يرتدى أفخر الثياب ، يأكل ويشرب ويفسق ويعاشر البنايا إلى أقصى حد ممكن . وفى رواية شاركوا « خداع العاشقين » جاء على لسان أحد الشخصيات ، وكانما يقول سيد مذهب لآخر : « إني أحب جوادا جميلا ولكنى أتركه لرجل آخر ليتولى العناية بأمره ، وإني كذلك بالمثل أحب سيدة جميلة » (١٠) وهذه لا معنى أنه لا يشتهى زوجة جاره ولا يمد عينيه إليها ، بل أنه يريد أن يستمتع بكل مفاتها وأطايها ، على حين ترك زوجها أن يعنى شئونها وينفق عليها . وفى رواية كونجريف « طريق الحياة الدنيا » يقول ميرابل للمعشوق موضع الإعجاب لزوجته صديقه « يجب أن تشمرى بالاشتزاز والتفوق والكرامية لزوجك مما يجعلك تستمتعين بحبيبك أو عشيقك (١١) » . ويندر أن ترى الحب فى هذه الروايات يرتفع فوق الشهوة الجسدية التى تلتهم بين جوانح الطرفين ، يريدان إطفاءها . وإنا لننلف عند قراءتها أن تقع العين على ظل لمعانى النبل والشرف ، ولكننا لا نرى فيها إلا أخلاقيات للمواخير وبيوت اللطافة .

إن وليم وتشلى هو الذى استهل هذا التقليد . وكان أبوه ملكيا من أسرة عريقة تملك ضيعة كبيرة ، وأرسل ولده إلى فرنسا لتلقى العلم ، عندما تولى البيوربتانيون مقاليد الحكم فى إنجلترا ، إصرارا منه على ألا ينشأ الولد بيوربتانيا . ولم يعتنق وليم قط هذا المذهب ، ولكن الأسرة صمقت حين أصبح كاثوليكيا . وسرطان ماعاد إلى البروتستانتية لدى عودته إلى إنجلترا ، وهناك درس فى أكسفورد وتركها دون الحصول على درجة جامعية . وإنصرف إلى كتابة الروايات . وجمع ثروة من رواية « حب فى الغابة » (١٦٧١) التى أهداها إلى ليدى كاسلين . واستقبله فى البلاط الملك الودود اللطيف الذى لم يشك ولم يتذسر حين وجد آن وتشلى وتشرشل كليهما ، يشاركانه غرام عشيقته كاسلين (١٢) .

واشترك وليم فى الحرب الهولندية ١٦٧٢ ، ببسالة متوقعة من سيد .

بماجد ، وعاد إلى إنجلترا ولم يمسسه سوء ، وأحرز نجاحاً آخر في « الزوجة الريفية » (١٦٧٢) . ودعى النظارة في المقدمة - إذا لم تعجبهم الرواية - إلى دخول غرفة ملابس الميثلين في ختامها ، وهناك :
« فلنأنا عن طيب خاطر ... نتغلى لكم يا شعراءنا ، عن العذارى ، لا بل عن عشيقاتنا كذلك » .

وخلاصة الموضوع أن مستر بنشوياف اصطحب زوجته معه لقضاء الصيف في لندن ، وأحسكم حراسها إلى حد أنها أوقعت في شرك المغشاة تحت سممه وبصره ، ذلك أن من بدعى مستر هورنر - العائد من فرنسا لتوه ، والمتلف على الوصول إلى الزوجات دون عائق - أذاع بين الناس أنه خصي ، ومن هنا يستنتج بنشوياف أنه لا حرج في أن يفتح بيته لمثل هذا العنين العاجز ، ولكنه سرعان ما يكتشف أن زوجته تكتب رسالة غرامية إلى هذا الزير المتودد إليها الذي أدمى العنة ، فيرغمها على كتابة رسالة أخرى تسكيل له فيها أقذع السباب والشتائم ، وما أن أدار الزوج ظهره حتى أسرعته هي فوضعت رسالتها الغرامية الأولى مكان الرسالة الثانية التي تم عن الغضب والاستياء . وسلم الزوج المزهو المفاخر بالسيطرة على الموقف الرسالة الأصلية إلى هورنر . وبعد فترة اتجه ظن الزوج إلى أن هورنر أقدر مما تردده عنه الشائعات ، ففكر في أن يشغله ، ووافق على أن يأخذ إليه أخته أليشيا . وتفنكر الزوجة حتى تبدو وكأنها أليشيا ، ويحملها زوجها إلى عشيقها . ونختم الرواية « برقصة الديوث » ، وهوورنر هو المنتصر في النهاية ، ثم تلقى إحدى الممثلات شعراً توجه فيه اللوم والتعريض إلى الرجال الحاضرين ، لأنهم لا يتحلون بقدر كاف من الرجولة . « وقد يظل الناس على اعتقادهم بأنكم يمثلون قوة ورجولة ، ولكننا نحن النساء لا سبيل إلى خداعنا » .

واقبس وتشرلي كثيراً من « الزوجة الريفية » من رواية مولير « مدرسة الأزواج ومدرسة الزوجات » وفي روايته التالية « التاجر

«الشريف» حول وتشترى شخصية «ألس» في رواية مولير «مبغض البشر» إلى شخصية كابتن مانلى الذى لم تتعد فكرته عن التعامل الشريف، مجرد تناول كل الناس والأشياء بلغة بذينة مقذعة . والغريب للدهش فى الأمر أن سكان لندن ، بل حتى سكان بعض الضواحي ، أحبوا وصف الحياة على أنها سعى متصل وراء شهوة الجسد ، يلطف منه بعض التجديف فى الحديث . وفى إحدى المكتبات فى «تنبريدج ولز» جمع وتشترى إحدى السيدات تسأل عن كتابه المنشور حديثاً «التاجر الشريف» فغمرته نشوة الفرح ، ولم تسكن هذه إلا كوفتس دور جيداً ، الأرملة الثرية ، فطلب يدها وتزوجها . ووجد أنها كانت تضعه تحت مراقبة أشد وأكثر مباشرة مما كان يفعل بنشوييف ، ولكنها ماتت فجأة فظن أن أموالها لا بد أن تؤول الآن إليه ، ولكن القضايا القانونية التى تشابكت فيها التركة حالت دون ذلك ، فلم يستفد منها شيئاً . وعجز عن تسديد الديون التى كان قد اقترضها ثقة منه بأملولة التركة إليه ، فأرسل إلى السجن حيث قضى سبع سنين وهنت فيها عزيمته وذبل نشاطه ، حتى جاء جيمس الثانى ، وسدد — قبل إرتداد وتشترى إلى الكاثوليكية ثانية أو بعده — ديونه وأجرى عليه راتباً . وبلغ وتشترى أرذل العمر فى شقاء ومعاناة . وظل مع عجزه يلاحق النساء ، ويسكتب نظاماً ، حاول صديقه الشاب بوب أن يحوله إلى شمر . وفى سن الخامسة والسبعين تزوج الفاجر العجوز امرأة شابة ، ولم يعمر بعد الزواج إلا عشرة أيام ، ووافته المنية فى أول يناير ١٧١٦

وكان سيرجون طاهر وألطف من كتب عن الزنى والزناة . وكان «جون بول» (الرجل الإنگليزى النموذجى) يتجسد فيه تماماً ، فهو خشن مرح طلق المحيا ، يحب طعام الإنجليترا وشرايها ، ولو أن جده لوالده هو جليليس فإن برو ، وهو فلنسى من مدينة غنت قدم إلى بريطانيا فى عهد جيمس الأول . وكان جون يبشر بحسن المستقبل إلى حد أنه أرسل إلى باريس فى سن التاسعة عشرة ليدرس الفن . فلما عاد فى الحادية والعشرين التحق

بالجيش ، وقبض عليه في كاليه بتهمة أنه جاسوس بريطاني ، وقضى مدة في الباستيل ، وهناك كتب المسودة الأولى « للزوجة المغيظة » حتى إذا ماخرج من السجن عكف على كتابة الروايات . وفي سنة أساييع - كما يروى لنا هو - فكر وقصور ، ثم كتب ومثل رواية « النكسة » (١٦٩٦) ، بما فيها من هجاء مرع للمثأنفقن فى لندن ، مثل لورد فون بجنجتون وملاك الأرض فى الرىف مثل سىرتنبلى كلزى ، ومس هويدن الشوانية . وكان سىرتنبلى يضمها تحت الرقابة والحراسة منذ بلغت الحلم ، وفرح وابتجج لبراءتها وطهرها . « يا للبنى المسكينة : إنها ستفزع وتزعج فى ليلة عرسها ، لأنها ، والحق أقول ، لا تميز الرجل من المرأة إلا بلحيته وبطلونه الفصير » (١١) . ولكن مس هويدن تصف نفسها على نحو آخر : « من حسن حظى ، هناك عريس قادم ، وإلا تزوجت الخباز ، سأفعل ذلك . فما من أحد يستطيع أن يقرع الباب ، ولكن حاليا يجب على أن أختبئ » ، وهنا يمكن الكتابة السلوقية الصغيرة تحوم حول البيت طوال اليوم ، إنها تستطيع ذلك . وعندما يأتى توم فاشون ليطلب يدها ، ويمهله أبوها أسبوعا ، تحتج الفتاة وتقول « أسبوع : ولماذا ؟ إنى أكون عند ذاك امرأة عجوزاً » (١٥) :

ونجحت مسرحية « النكسة » نجاحا كبيرا إلى حد أن فابرو تعجل إكمال « الزوجة المغيظة » (١٦٩٧) وكانت هذه من أنجح أعمال ذاك العصر . وظل دافيد جارك طيلة نصف القرن التالى يتحف لندن ويمتها بتمثيله المشتهر لشخصية سيرجون بروت ، وهى أعظم شخصية مشهورة مذكورة بين كل شخصوس المسرحيات فى فترة عودة الملكية . وسيرجون هذا وسيم هزلى ساخر يمثل المظاهر الأقرب شها بالخنزير فى ملك الأرض الاكليز - يقرب الحجر ، ويتباهى ، ويهدد ويتوعد ، ويستأسد ، ويطن ويفسكو من « عصر الاتحاد العمين هذا » . ويفتح المسرحية برأيه فى الزواج حيث يقول :

«أى لحم متخضم هو الحب ، إذا كان متبللاً بالزواج ، إن عامين قضيتهما متزوجاً قد أفسداً على حوامى الخمس . فكل شيء أراه ، وكل شيء أسمع ، وكل شيء أحس به ، وكل شيء أشمه ، وكل شيء أتذوقه ، أظن أن فيه زوجة . فاضجر ولد بمؤدبه ، ولا بنت ولا رجل بعمل الكفارة ، ولا عذراء عجوز بطهرها وعفتها ، قدر ضجري بزواحي وسألمي الماه .

ومذ عرفت زوجته آراه ، فانها تفكر فى ترويضه بأن تجعل منه ديوثاً . ليدى بروت : إنه أساء معاملتى أبلغ أساءة مؤخرات حتى كاد يستقر عزمى على أن ألعب دور الزوجة بكل ما فى الكلمة من معنى ، وأجعل منه ديوثاً وأخوته . . .

يلندا : ولكنك تعلمين أنه ينبغي علينا أن نقابل الإساءة بالإحسان . ليدى بروت : ربما كان هذا خطأ فى الترجمة (١٦) .

وهنا تأتى جارتها ليدى فانسيل التى تميل إلى ما تميل إليه ليدى بروت ، وتناقش شكوكها وخاوفها مع وصيفتها الفرنسية التى تحبب بالفرنسية ، وهى هنا مترجمة :

ليدى ف : سمعتى يا آنسة : سمعتى : الوصيفة : سيدتى ، إذا فقد المرء سمعته يوماً ، فلن تعود بعد ذلك ترجمه .

ليدى ف : تبالك يا آنسة ، تبالك ، أن السمعة جوهره . الوصيفة : وقيمتها غالية جداً يا سيدتى . ليدى ف : لماذا إذن ، يقينا أنك لن تضحى بشرفك من أجل متعتك ؟ الوصيفة : إنى فيلسوفة .

ليدى ف : انه لا يتفق مع الشرف (لقاء الماشقين) . الوصيفة : ولكنه للثمة . . .

ليدى ف : ولكن إذا كان العقل يصلح من شأن الطبيعة .

الوصيفة : عندئذ يكون العقل وقحا ، لأن الطبيعة أخته الكبرى . .

ليدى ف : إذن أنت تؤثرين طبيعتك على عقلك ؟

الوصيفة : نعم ، بكل تأكيد .

ليدى ف : ولماذا ؟

الوصيفة : لأن طبيعتي تغمرني بالبهجة والسرور ، أما عقلى فيورثنى

الجنون (١٧) .

وربما كانت هذه الراوية هى التى أثارت غضب جرمى كولير إلى حد أنه فى العام الذى تلا ظهورها ، نشر هجومًا عنيفًا على المسرحية فى فترة عودة الملكية ، وعلى فابرو بصفة خاصة . وكان كولير كاهنًا أنجليكانيًا على درجة من العلم ، ومن الشجاعة والتشدد فى عقيدته . وحيث كان قد أقسم يمين الولاء لجيمس الثانى ١٦٨٥ ، فإنه أبى أن يقسم يمين الولاء لوليام ومارى ١٦٨٩ . وامتنكر « الثورة الجليلة » ، حتى إلى حد التحريض على المهرد والمصيان . وقبض عليه ، ووجد أصدقاؤه مشقة كبيرة فى اقناعه بأن يسعوا لإطلاق سراحه بكفالتهم . ومنح الففران المطلق لرجلين كانا على وشك أن يشنقا بتهمة التآمر على ما اعتبر كولير أنها حكومة اغتصبت الحكم . فأنكر أسقفه عليه تصرفه وأدانه النائب العام ، ولكنه رفض المثول أمام أية محكمة . وعاش طريد العدالة محروما من الكنيسة حتى وافته للنيه . ولكن الحكومة قدرت نزاهته ، ولم تلاحقه بعد ذلك . وعبر ولیم الثالث عن تقديره الكبير للمصنفة التاريخية التى قام بها كولير .

وكان الكتاب الذى نشره كولير يحمل عنوان « لمحة قصيرة عن الانحلال والدنس فى المسرح الإنجليزى » . وكان يحوى ، كما حوت معظم الكتب ، هراء كثيرا . واستنكروا الراعى الغاضب فى المسرحية الاجازية أخطاء كثيرة قد تبدو لنا الآن تافهة ، أو أنها ليست أخطاء اطلاقا ، واعترض على أية اشارة غير كريمة لرجاء الدين ، ونشر فى سخط شديد ، مظلة العصمة

من الخطأ فوق زعماء الوثنية والكهنة الكاثوليك والقساوسة للنشقين .
أدان كثيرا من كتاب المسرح ، من أشبيلس إلى شكسبير إلى
كونجريف ودريدن ، حتى يشعر كل المتهمين ببراءتهم لمجرد حشرهم في زمرة
هؤلاء العظماء . ولكن كولير أضعف قضيته في مجادلته في أن للمسرح العام
يجب ألا يتناول الجريمة أو الانحلال الخلقى مطلقا . ولكنه وجه بعض
ضربات ناجحة لأن الأهداف البراقة واجهته في كل مكان . فبنى على كثير
من كتاب المسرح في فترة عودة الملكية ما أبدوا من إعجاب بالأسفاف
في الزنى والفسق ، وأثر ذلك على جمهور للشاهدين . وظل الكتاب حديث
لندن طيلة عام كامل . ودافع الروائيون عن أنفسهم بأساليب متنوعة ، وتحول
فانبرو عن المسرحية إلى هندسة العمارة ، وانهمك لأكثر من عشر سنوات
في بناء قصر بلنهم ، ثم شاد قصر هوارد على طراز عمارة بللاديو الروماني
الجميل (١٧١٤) . واعترف دريدن بخطاياه ، وأظهر ندمه على ما فعل
وأنسكز كونجريف جريمته ، ولكنه أصلح من فنه .

وبلغ وليم كونجريف بمسرحية عصر عودة الملكية ذروتها ونهايتها
معا . ولد بالقرب من ليدز في ١٦٧٠ ، في أسرة كانت عراقتها موضع فخره
 واعتزازه وسط كل ما أحرز من فوز ونجاح . وكان والده قائد حامبة
 انجليزية في أيرلنده ، ولذلك درس وليم في مدرسة كاسكني ، وجاس على
 نفس المقعد الذي جلس عليه جوناثان سويفت ، ثم في ترنتي كوليج في دبلن .
 ثم في مدل تمبل في لندن . وسرى في دمه جرثومة الطموح الأدبي من بيئة
 كان فيها الأذواق أنفسهم يؤلفون الكتب . وفي أول سنة كان يدرس فيها
 القانون كتب « المستغنية » (١٦٩٢) التي امتدحها ادموند جروس
 « لمرحها ودمايتها الخفيفة » ولأنها أقدم قصة طويلة (عن العادات وآداب
 السلوك ؟) في الإنجليزية (١٨) ، ولكن صمويل جونسون قال عنها «
 خير لي أن أمتدحها من أن أقرأها » (١٩) ، وحظى كونجريف بالشهرة من

قفزة بجلهاته الأولى لا الأعزب المجوز « ١٦٩٣ ، التي أقسم دريدن - وهو عميد الأدب المعترف به في إنجلترا في هاتيك الأيام - بأنه لم يرق قط خيرا منها ، باكورة للعمل في مجال الرواية . ومذ كان كونجريف غير واثق من أن الرجل للمجاد ينبغي أن يكتب للمسرح ، فإنه اعتذر بأنه إنما كتبها « لمجرد القسلبية في فترة إبلال بطيء من علة أملت به » ، ومن هنا قال كولير « ليس لي أن أقسأ ما ذا كانت علته ، ولكن لا بد أنها كانت خطيرة جدا ، وأسوأ من العلاج (٢٠) » . أما هاليفا كس فإنه اتفق في الرأي مع دريدن ، حتى أنه عين كونجريف بمنصبين يدران عليه دخلا كافيا يستطيع بفضلها أن يحتفظ بمكانته ، سيدا كريما ، وأن يعمل في عالم المسرح .

ولم تلق روايته الثانية « التاجر الخادع » (١٦٩٤) ترحيبا كبيرا ، ولكن اطراء دريدن ، الذي وضع كونجريف مع سكسبير في مرتبة سواء ، شد من أزر المؤلف الناشئ ، وفي ١٦٩٥ ، في سن الخامسة والعشرين ، عاد إلى خشبة المسرح برواية « الحب للحب » التي فاق نجاحها كل ما عرف من نجاح . ولكن كولير شجب الرواية وانهمها بأنها تؤيد الفسق والفجور وتشجعهما ، وبلغ رد كونجريف عليه من التفاهة حسدا انقطع معه عن المسرح طيلة ثلاثة أعوام . وعندما عاد إليه برواية « طريق الدنيا » (١٧٠٠) كان قد أقاد من النقد القاسي ، وأوضح أن الموهبة لا تعتمد على قلب الوصايا العشر رأسا على عقب . وكان في هذه الرواية التي قال عنها سوينبرن المغالى أنها « التحفة التي لا نظير لها والتي لا تدانيها رواية أخرى في روائع الملهاة الإنجليزية (٢١) » ، نقول كان فيها بعض أخطاء المسرحية في عصر عودة الملكية ، ولكن ليس فيها شيء من رذائلها . وقد ترهقنا عند قراءتها بظرفها المازح الساخر ، وتدكرنا بالتلاعب السخيف بالألفاظ في أعمال سكسبير الأولى ، ولكن إذا مثلت (ونطق بها بترتوتن ومسر بريسيجر دل كما حدث في أول عرض لها) ، فلربما كانت أمتعنا بما فيها من حيوية وتألق

١٥ - قصة الحضارة

يقول وتوود « أعرف سيده نحب الكلام بلا إنقطاع ، ولا تترك أنراً حسناً (٢٢) » وحبكة الرواية بالغة التعقيد ، وقد تنذر من طول الوقت للطلوب لنهم شجارات ومشروطات الشخصيات التافهة الطائفة ، وحل المقدمة لا يعمدو أن يكون سخفاً لاحده . ولكن في الرواية بمض تهذيب في اللغة وفي الدعابة ، وتفكير لطيف (ولو أنه غير حقيق أبداً) ، مما يمكن أن يدخل السرور على الذهن غير المتمجّل ، وليس فيها سخيرية لازمة ، كما هو الحال في مسرحيات فابرو ، بل فيها تهكم مهذب رقيق ؛ تسرب من قصر فرساي إلى قصر هويتبول وإلى البلاط في فترة عودة الملكية . وفي الرواية خلق الشخصيات الروائية وتصوير لخصائصها . فالبلبل ، ميرابل شخص غير جذاب ، ولكنه نابض بالحياة ، صياد للتركات والثروات . وجدير بالذكر أنه يسمى للزواج من ميللامات ، بدلا من إغرائها . ولكن لهما نومة تساوي اثني عشر زائيا ، وهي أجل ما أبدع كونيغريف ، ماجنة عابثة تريد ألف عاشق ، وتود الهيام بها لمدي الحياة ، من أجل مفاتن أو جمال لن يدوم إلا لسنوات عشر ، وترفض الزواج ولكن بشروط :

ميللامات : ... لاشك يا ميرابل آتي سأبقي في القسراش في الصباح كيفما أشاء .

ميرابل : هل من شروط أخرى تفرضينها ؟

ميللامات : نوافه : - أكون حرة في تناول طعامي متى أشاء ، وأتناوله وحدي في حجرة ملاسي ، إذا كنت متعكرة المزاج ، دون إبداء الأسباب . وألا يقتحم علي أحد خلوتي . وأن أجلس « امبراطورة » وحدي إلى مائدة الشاي التي لا يجوز لك أن تفكر في الاقتراب منها قبل أن تستأذني أولا وأخيراً حينما كنت ينبغي عليك أن تطرق الباب قبل الدخول . تلك هي شروطي ، حتى إذا استطعت أن احتملك لمدة أطول ، فقد أفضاه هيكاً فشيئاً حتى أصبح زوجة .

ميرابل : ألسنت حراً أن أعرض شروطي ؟

ميللامات : هات أقصى ما عندك ...

ميرابل : أشرت عليك أن تستمرى نجمين وجهك وتعجبين به طالما أنجبتته أنا أو أعجبت به ، حتى إذا ألقته أنا ، فلا تحاولي قط تشكيكه من جديد .. اشترط ثانيا ، أنك إذا حملت .

ميللامات : آه : لا تذكري شيئا من هذا .

ميرابل : وهذا هو المفروض ، وليبارك الله في محاولتنا

ميللامات : هذه محاولة كريهة قبيحة :

ميرابل : إنى أعترض وأمنك من إرتداء الملابس المحبوة التي تهدد جسمك لتحتفظي بقوامك حتى لاتشوهي ولدي ويخرج وكأن رأسه قمع سكر (٢٣) ..

وهكذا ، وتلك سفسطة سارة ، وهجاء معقول ، يمر بخفة وسرعة ، في أمان ، على مظاهر الحياة .

وضرب كونيغريف نفسه مثلا لمظاهر كثيرة ، مؤثرا التركيب على المادة ، والتنوع على الوحدة . ولم يتزوج قط ، ولكنّه اختلف إلى سلسة من العشيقات ، ولم نسمع عن ذرية أشقته أو أسعدته . وكان رفيقا لطيفا في المقاهي والنوادي . وكانت أكرم العائلات تستقبله ببالغ الترحيب . وكان أ كولا ، وكان يدهن قدميه ويعالجهما بانتظام من داء النقرس . وعندما زاره فولتير ١٧٢٦ استنكر كونيغريف إطراء الشاعر الفرنسي لرواياته ، وأبدى عدم اكتراثه لها ، على أنها توافقه لاتستحق الذكر ، وطلب إلى فولتير أن يمتدحه مجرد رجل مهذب . عندئذ أجاب فولتير (طبقا لروايته) « لو كان الأمر كذلك ، وأنت مجرد رجل مهذب ، لما جئت لأراك (٢٤) » .

وفي ١٧٢٨ ، في رحلة للاستشفاء بالمياه المعدنية في باث ، انقلبت عربة كونيغريف ، وظل يعاني من بعض إصابات باطنية حتى وافته المنيّة في ١٩ يناير ١٧٢٩ . ودفن في كنيسة وستمنستر . وفي وصيته ترك مائتي جنيه لمز بريسجيردل التي كانت تقاسي الفقر في شيخوختها ، أما معظم الضيعة ،

أى نحو عشرة آلاف جنيه ، فقد أوصى به لدوقة مالبرو الثانية البالغة الثراء ، ومضيفته الأثيرة لديه ، فحاولت اللال إلى عقد من اللالى . وكانت تضع على الدوام ، فى المكان الذى اعتاد الشاعر أن يجلس فيه إلى مائدتها ، تمثالا من العاج والشمع تدهن قدميه وتعالجهما بانتظام من النقرس (٢٥) .

وقبل موت كونجرف بزمن طويل ، كان المسرح الإنجليزى قد شرع يظهر نفسه ، حيث أمر وليم الثالث مدير للملاهى والمسارح أن يمارس بشكل أشد صرامة ، سلطته فى رقابة الروايات أو منع عرضها . وعززت موجة من الاستياء فى الرأى العام هذه الرقابة . وجرم قانون أصدرته الملكة آن إرتداء السيدات للأفئعة فى المسرح ، وقاطعت النساء اللاتى حرمن هذا التستر ، الروايات المجردة من الاحتشام والوقار على وجه اليقين (٢٦) . واتفق سويغت مع الأساقفة على أن مسرح لندن وصمة فى جبين المخلق الإنجليزى . وعرض ستيل روايته « العشاق الشاعرون بالاثم » (١٧٢٢) على أنها مسرحية أخلاقية . ونافس أديسون وقار للأساءة الفرنسية وجلاها فى مسرحيته « كاتو » (١٧١٣) . وثمة علامة أقدم من هذا ، على التغيير الذى حدث فى المسرح ، ظهرت فى أسلوب رد دريدن على كولير ، حيث أحس دريدن أن السكاهن طالبا ما حمل على كتاب للمسرح دون وجه حق ، وأنه « فى كثير من المواضع .. فسر كلامى بأنها تهديف وفجور ، وهى بريئة من هذا كله » ، ولكنه أضاف :

لن أتحدث كثيرا عن مستر كولير لأنه اتهمنى فى أشياء كثيرة ، وله فى هذا كل الحق . واعترفت بذنبى فى كل الأفسكار والتعبيرات التى أوردتها والتى يمكن أن توصم بحق بالفحش أو الدنس أو بحفاة الأخلاق السكريمة ، ولا بد من سحبها . فإذا كان يناصبنى العدا ، فقد كتب له الانتصار على . أما إذا كان صديقا ، حيث أتى لم أهيب له فرصة خاصة لىكون غير ذلك ، (لم أسىء إليه إساءة شخصية) ، فإنه سيسر بأنى ندمت (٢٧) .

٣- جون دريدن ١٦٣١ - ١٧٠٠

كان أبوه من صغار ملاك الأرض ، يمتلك ضيعة متواضعة في نورثمبتون نشير وأرسل إلى مدرسة وستمنستر التي علمه فيها ، هو ورفيق دراسته جون لوك ، الأستاذ الضليع ريتشارد بزى Buzby كثيرا من اللاتينية والنظام والانضباط . وهناك حصل على منحة دراسية مكنته من الذهاب إلى ترنتي كوليدج في كبريدج . وفي العام الذي حصل فيه على الدرجة الجامعية مات أبوه (١٦٥٤) وورث جون ، بصفته أكبر الأبناء البالغ عددهم أربعة عشر ، الضيعة التي كانت تدرستين جنيا في العام . وانتقل إلى لندن وحاول عن طريق الشعر أن يضيف شيئا إلى دخله ، احتيالا على العيش . وفي ١٦٥٩ نشر « مقطوعات شعرية بطولية » تخليدا لذكر كرومول — وهو شعر تافه غير ذي قيمة بشكل ملحوظ من شاعر في التاسعة والعشرين من عمره . وألحق أن دريدن نضج في بطاء ، وكأنه رجل يتخلى في جهد جيده مائة عقبة ليرقى مدارج الثراء في نجاح . وبعد ذلك بعام واحد هلك الشاعر لعمدة الملكية في قصيدته « عودة النجم » التي قارن فيها نجمة شارل الثاني بنجمة بيت لحم ، وما كاد أحد يتجزأ على اتهام دريدن بالتقارب ، لأن كل الشعراء تقريبا — عدا ملتون — ولواظهورهم إلى البيوريتانية وولوها شطر الملكية مع تغيير بارع لأساليبهم .

ولكن دريدن كان أشد اهتماما بالمسرح منه بمجرد نظم الشعر ، حيث ألقى الكتاب المسرحيون على حين حالف البؤس والشقاء الشعراء الجدد . إن دريدن لم يكن به ميل إلى المسرحية ، ولكنه كان يتطلع إلى الحصول على لقمة العيش بانتظام . وحاول كتابة الملهاء فأخرج « زير النساء الطائش » (١٦٦٣) التي وصفها بييز بأنها « أحقر شيء رأيته في حياتي تقريبا » (٢٨) . وفي أول ديسمبر ١٦٦٣ تزوج دريدن من ليدى اليزابث هوارد ابنة إرل بيركشير ، وأقيم أبت الإعتاق دهشا من سيدة ذات مكانة وثراء تزوج من

هنا ، ولكنها كانت في سن الخامسة والعشرين ، وفي خطر من فوات الأوان ، كما كان أخوها سير روبرت هوارد للتلطف على التأليف والكتابة ، قد ضمن تماون دريدن معه في رواية « الملكة الهندية » التي أخرجها ١٦٦٤ ، في مشاهد بالغة البذخ ، مع نجاح عظيم .

وحددت هذه المسرحية « للأساة » طورا في تاريخ الأدب ، حيث نُحلت عن الشعر للرسائل الذي كان سائدا في عصر اليزايت ، واستخدمت للقاطع للقفزة ذات البيتين الذين يتكون كل منهما من خمس تغاميل ، أسلوبا منتظما لها . وكان لورد أوريري قد تأثر بجلالة واتساق القافية في للأساة ، وأدخل هذا الأسلوب في رواياته . وعاد دريدن إلى الشعر للرسائل بعد ١٦٧٥ ، معترفا بأن القافية تفضي إلى تمويق سيل الكلام والتفكير . ولو أنه لقي عناء أكثر في نظم الشعر لأصبح شاعرا أعظم مما كان .

وواصل نجاحه التعاوني بعمل مستقل ، وهو « الامبراطور الهندي » (١٦٦٥) ، وكان موثروما بطل الراوية . وما كاد يجد لمسرحيته مكانا على المسرح الانجليزي حتى دام الطاعون لندن فأغلقت المسارح أبوابها لمدة عام . ولما زال كابوس الطاعون والحريق احتفل دريدن بخروج إنجلترا من هذه المحنة الثلاثة — الطاعون والحريق ثم الحرب — بقميدة « سنة المجائب » (١٦٦٦) وهي مكونة من ٣٠٤ مقاطع رباعية الأبيات ، تأرجح بين الوصف الرائع (المقاطع ٢١٢ — ٢٨٢) والتفاهة الصبيانية (مثل للقطع ٢٩) ولما فتحت المسارح أبوابها من جديد في ١٦٦٦ عجل دريدن بالعودة إلى المسرحية . ولم ينتج حتى ١٦٨١ غير الروايات . وتميل مأسياته إلى أن تكون كلاما منهقا رنانا طنانا ، ولكنها بدت لأعين معاصريه أممي منزلة من مأسيات شكسبير (٢٩) — ولما انضم دريدن إلى دافنات في إعادة صياغة « العاصفة » كانت النتيجة باحجام المهترئين فيها أذال صياغة الجديدة تطوى على تحسين كبير للأصل . وربما اتفقت معهم « شركة الملكية » في هذا الرأي لأنها كلفت دريدن بتزويدها بثلاث روايات في السنة مقابل

حصّة في الأرباح التي بلغت ٣٥٠ جنبها في العام . أما ملهيات دريدن ، على الرغم من أنها داعرة فاحشة مثل غيرها ، فإنها لاقت نجاحا أقل من نجاح مأسياته السبع والعشرين ، لأنه في هذه الأخيرة استطاع أن يثبتهام الرأي العام في الدنيا الجديدة والمهجين البدائيين المدهشين فيها ، وهكذا يقول المنصور في « فتح غرناطة » .

« أنا حر طليق مثلما خلقت الطبيعة الإنسان لأول مرة ، قبل أن يظهر قانون الاسترقاق الحقير ، حين هام النبلاء المتوحشون على وجوههم في الغابات » .

وربما كان نجاح هذه الرواية بالإضافة إلى ما تضمنته رواية « سنة المعجائب » من مديح منمق لشارل الثاني ، هو الذي كسب لدريدن منصبه مؤرخ الملك ، بشارع التاج (١٦٧٠) . وبلغ دخله السنوي آنذاك ألف جنيه في المتوسط .

وفي طاعة القسم الثاني من « فتح غرناطة » زعم دريدن تفوق مسرحية فترة عودة الملكية على المسرحية في عصر اليزابيث . وذهب منافسوه ، على حين قدروا له هذه التحية والجمالة ، إلى القول بأن في هذا اطراء مغاليا لمسرحياته . ولم يشارك المفكرون في المدينة جمهور المسرح إعجابه وتذوقه للغة الطنانة الرنانة المرفقة في مأسيات دريدن ، وأصدر دوق بكنجهام بالاشتراك مع آخرين في ١٦٧١ هجاء مرحا تحت عنوان التجربة « سخر كثيرا من المستحيلات والمحاقات واللغة الطنانة للنمقة في المأسيات المعاصرة ، وبخاصة ما كتبها دريدن . وأحسن الشاعر بأنها لطمه له ، ولكنه كظم غيظه لمدة عشرة أعوام . وبعدها شهر بالدوق بكنجهام أيما تشهير في شخصية « زمرى » في أقوى أبيات رواية « أبسالوم وأختيفل » .

وفي الوقت نفسه عملت دراسته لشكسبير على تحسين فنه . وفي أروع مأسياته (كله من أجل الحب) (١٦٧٨) تحول من راسين والقافية إلى

عكس سير والشعر للرسول . وأفرغ كل جهده وبراعته في أن يبارى ما كان منه في عصر اليزابث ، بصنعة طامة ، وعرض في ثوب جديد قصة أنطونيوكايوبترة التي فقدت الدنيا من أجل قصة غرام قصيرة . ولو أن الرواية القديمة لم توجد لحظيت رواية دريدن ببناء وإعجاب أكبر ، ففي مواضع كثيرة منها ترتفع من الكلام الشديد البساطة إلى الشعور النبيل المكثوم ، كما يتمثل في قدوم أو كشافيا إلى أنطونيوكايوبترة أو غسطنج (٢٠) . ورواية دريدن محكمة في ايجاز ، بقصد مراعاة الوحدات ، ولكنه بتضييق الحدث في أزمة واحدة في مكان واحد ثلاثة أيام ، اختزل الفكرة الرئيسية البطولية إلى قصة غرام ، وضيق الشهد الكبير الذي رأى في « أنطونيوكايوبترة » (لشكبير) أن هذه القصة الغرامية ليست إلا جزءا من الأحداث التي هزت عالم البحر المتوسط وشكلته .

وأكثر الجوانب امتطاء وتشويقا اليوم في مسرحيات دريدن هي المقدمات التي قدمها بها مطبوعة ، والأبحاث التي شرح فيها وجهات نظره في الفن المسرحي . وكان كورنى قد ضرب له المثل ، ولكن دريدن جعل منه مجالاً لثرائع . وإنما إذ نمر مرور الكرام بهذه الأبحاث الموجزة وهذه الحوادث القوية ، لنلمح أن عصر الخلق والابداع في الأدب الإنجليزى كان يعبر إلى عصر النقد الذي قد يبلغ ذروته في بوب . ولكن اجلالاً لتفكير دريدن وعقليته يزداد إذ نراه يسير في رشاقة ورفق غور أسلوب المسرحية ومعالجة تفاصيلها ، وفن الشعر ، ويقارن في مقدرة فائقة على التمييز والمقارنة ، بين المسرحين الفرنسى والإنجليزى . وانك ترى في هذه المقالات والبحوث أن الالتواء المثير في النثر في عصر اليزابث ، والجمل الطنانة المتراكمة عند ملتون ، كل أولئك يفسح الطريق لأسلوب أبسط وأسلس وأكثر تنظيماً ومنهجية ، أسلوب خلا من التراكيب ، اللاتينية ، وزاده صقلا التعرف على الأدب الفرنسى ، لم يجمار الإنافة الفرنسية كل المجازاة قط ، ولكنه أخرج إلى القرن الثامن عشر — قرن النثر — نماذج

من كلام يتميز بالصفاء والروعة والسلاسة وسحر البيان ، وعدم التكاف والقوة . وهنا اتخذت المقالة الإنجليزية شكلها ، وبدأ العصر الكلاسيكي (النموذجي الممتاز) للأدب الإنجليزي .

ولكن إذا كانت مقالات دريدن تبدو الآن أعلى مكانة من الروايات التي كانت سبباً في كتابة المقالات ، فإنه في الهجاء ساد عصره وأرهبه . وربما وقع حادث أطلق لسانه اللاذع ، ذلك أنه في ١٦٧٩ وزع جون شفيلد إرل ملجريف نشرة مخطوطة بعنوان « مقال في الهجاء » لا تحمل اسم كاتبها ، هاجمت إرل روشستر ، ودوقة بورتسموث (لويدي كيروال) ، بلاط شارل الثاني بصفه عامه . واتجه الظن خطأ إلى أن كاتب المقال هو دريدن الذي كان آنذاك يحصل على معظم دخله من الملك . وفي ليلة ١٨ ديسمبر في « زقاق روز — كوفنت جاردن » هجم على دريدن نفر من السوقة وأوسموه ضرباً بالهراوات ، والمفروض أن روشستر استأجرهم لهذا الغرض ، ولو أن هذا لم يثبت على سبيل اليقين . وكان دريدن رجلاً ودوداً كريماً مستعداً لم يد المعونة وكيل المديح . ولكن نجاحه وغروره وافراطه في التحدث عن نفسه وتوكيداته الخلافية ، كل أولئك جلب عليه عداوات كثيرة . واحتمل دريدن لبعض الوقت حملاتهم عليه ، دون رد عانى منه ، بل أن « كين زقاق روز » لم يلق استجابة سريعة من قلمه . ولكنه في ١٦٨١ جمع عديداً من أعدائه في رجل واحد وسلبهم بالسنة حداد ، في ألدع هجاء عرف في اللغة الإنجليزية .

وتلك هي السنة التي حاول فيها شافستري أن يقوم بثورة ليخلف ابن شارل الثاني غير الشرعي أباه على العرش . وعندما ظهر القسم الأول من قصيدة « أبسالوم وأخيتوفل » كان شافستري على وشك أن يقدم للمحاكمة بتهمة الخيانة العظمى . وأحماز هجاء دريدن إلى جانب الملك ، وربما كان بإيعاز منه (٣١) . وهزأ الشاعر من شافستري في شخص أخيتوفل الذي يحرض

أبها لوم (وهو دوق مونموث) على الثورة ضد أبيه داود (شارل الثاني) .
ولما كان داود وشارل كلاهما قد أحبا عددا من النساء ، فإن القصيدة تبدأ
ببحث في قيمة تعدد الزوجات :

« في عهد التقي والورع ، قبل ظهور الكهنة وأساليهم ، وقبل أن
يصموا تعدد الزوجات بأنه خطيئة ، وحين تكثر الإنسان بتعدد زوجاته
وقبل أن يقتصر الواحد على واحدة بكل بغيض . وحين استعشت الطبيعة
— ولم يمنع أى قانون — على معاشرة الخليلات والزوجات دون تمييز ،
وحين عاش ملك بنى اسرائيل ، برضا السماء ، على الزوجات والاماء من مختلف
الأنحاء ، في قوة وحيوية ، ونشر صورة خالقه على أوسع نطاق نطاق على
الأرض ، بأسره » .

ويتهيج دوا د بجمال ابنه أبها لوم . وكان مونموث ، حتى قيام الثورة ،
قوة عين أبيه الملك السعيد (شارل الثاني) ، أما بنو اسرائيل فهم الإنجليز
(في القصيدة) :

جنس عنيد متقلب متذمر ، أرهق النعمة الإلهية إلى آخر مداها ،
شمع الله المدلل الذي انغمس في الم لذات والشهوات ، والذي لم يستطع أن
يحكمه ملك أو يرضيه إله (٣٢) .

وأستروفيل هو رئيس شياطين الخيالة ، وتتحقق لندن لغورها
أنه شاف تسبرى :

وكان على رأس هؤلاء جميعا اختيوفيل الكاذب ، وهو اسم ملعون كريب
على مر العصور ، أهل لكل التدابير الخفية والمشورات الملتوية ، ذكي
جريء مضطرب الحواس ، قلق ، لا يثبت على مبدأ ولا يستقر في مكان ،
غير راض إذا تملك وتسلط ، ضائق صدره إذا تجرد من سلطانه ، يحمل
بين جنبهيه نفسه محبومة مضطربة انهكت وأبليت جسم القزم وهي تشق طريقها
ضائق بها جسده الهزيل . قائد جسور لا خطر الأعمال أنياسة ، يطرِب للأخطار

حين ترتفع الأمواج . أنه يلتبس الأعاصير والأوابح ، لأنه لا يجب الهدوء .
بدنى سفيلته من الرمال بغطنته وذكائه . يقينا أن ذوى المواهب العظيمة
قريبون من الجنون ولا يفصله عنهم إلا حواجز رفيقة . وإلا ، لماذا —
وهو ذو الثراء المريض والمناصب الرفيعة — يرضن على شيخوخته بما تحتاج
من راحة ودعة ؟ لا يقيم على ود ولا يخلص فى صداقة ، عند حقوقه
فى عدائه وبغضه ، مصمم على أن يدمر الدولة أو يحكمها هو (٢٣) .

ثم يحى دور الاتقام من دوق بكنجهام و « التجربة » :
ويقف على رأس هؤلاء (المصاء الثأرين) زمرى ، وهو رجل متعدد
الجواب ، حتى إنك لا تحسبه واحدا ، بل صورة مصغرة لكل بنى البشر ،
جامد الرأى ، يحافى العيوب دائما . كان يندفع فى كل أعماله ، ولكنه
لا يثبت على حال . وخلال فر منير واحد ، كان السكيسيانى والمازف ، ورجل
الدولة والمهرج . ثم ينصرف بكلمته إلى النساء والتصوير ، والشعر والشراب ،
فضلا عن عشرة آلاف نزوة تموت فى المهد . . وكان تبديد المال فنا خاصا
برع فيه . أغدق على كل الناس إلا من يستحقون المكافأة ، أفقره الحق
المهرجون الذين اكتشفهم بعد فوات الأوان . وحظى هو بالمرح ،
وحصلوا هم على ماله وضيعته (٢٤) .

ولم تر انجلترا قط من قبل مثل هذا الهجاء اللاذع الذى لا يرحم ،
الذى يركز كل التشويه والتجريح فى سطر واحد ، ويترك جثة ممزقة مهشمة
فوق كل صفحة . وبيعت القصيدة بالملئات خارج نفس الحركة التى كان
يحكم فيها شافقسبرى ، مخاطرأ بحياته . وقضت الحركة بيراته فصك أشياءه .
الأحرار (الهويج) « ميدالية » تمجيداله ، وانبرى عدد من الشعراء
والكتاب ينزعمهم توماس شادويل لإصدار ردود ظافرة على الرجل الذى
أيقنوا أنه باع عقله ، ولسانه السليط وبيانه السكاوى إلى الملك . وطاود
دريدن الكرة بهجاء آخر ، « لليدالية » (مارس ١٦٨٢) سلق فيه شادويل ،
بسغة خاصة ، فى قصيدة « ما كفلكنو » (أكتوبر) . وهنا كان الام

والقدح أسكى وأمر ، فأنحط أحيانا إلى شتائم لفظية صريحة ، لم تتميز ، مثل الهجاء السابق ، بمقاطع فاصلة تنشر السم في دقة دون اسراف أو اسفاف ، إنما لا نستطيع اليوم هذا اللون من « الذبح » الأدبي ولم نعد نتذوقه إلا قليلا ، وأنا لترتاب بعد قرون من الجدل والمناقشة ، في أن هناك بعض الصديق في كل عاطفة أو هوى ، وأن في كل خصم أو عدو شيئا محببا . وما السياسة حتى في أيامنا هذه إلا حرب بوسائل أخرى ، أكثر بكثير مما كانت حين كان عرش أسرة ستيوارت يترفع على حافة الثورة ، وكان الظهور إلى جانب الفريق الخاسر المهزوم قد يعنى الموت المحقق . وعلى أية حال ، فإن دريدن بذل كل الهمة ، بما أكسبه امتنان الملك ودوق يورك ، ولم ينازعه أحد آنذاك التربع على عرش مملكة الشعر . وكانوا يحجزون له — إذا قصد إلى « حانة ول will » مقعدا إلى جانب المدفأة في الشتاء ، وفي الشرفة صيفا ، وهناك رأى بيبز وسمع « أحاديث طريقه ذكية (٣٥) » وصورة سير والتر سكوت ، في خيال مبدع ، وهو يدخل إلى هذه الحانة ، « رجل عجوز بدين قليلا ، ذو شعر أشيب ، يرتدى حلة سوداء بالغة الأناقة ، محمكة الأطراف وكأنها قفاز ، تشرق في وجهه أرق ابتسامه رأيتها في حياتي (٣٦) » وكان الانحناء تحية لشاعر التاج والاستماع إلى رأيه في آخر مأساة أخرجها راسين ... يعتبر ميزة ، كما كانت القبضة من علبة سمعوطه شرفا كفيلا بأن يريك المتحمس الناشئ . وكان كل العطف بعينه بالنسبة لأصدقائه ، ولكن ما كان أسرع في كيل السباب لمنافسيه وخصومه (٣٧) (وما كان لأحد أن يبهز في أطراء شعره . إن تعلقه للملك وليدى كاسلين ولسكل أولئك الذين يجزلون له الطعام مقابل الإهداء إليهم ، جاوز الحد المألوف من الاستسلام الدليل في مهنته في عصره (٣٨) . ومع ذلك فإن كونجريف بادلته التشجيع بمثله حين وصفه بأنه « بالغ الإنسانية والرجمة ، مستعد أن يغتفر الإساءة ، أهل للتراضى بإخلاص مع من أساء إليه (٣٩) » .

والآن ، وقد آذن جسمه بالضعف والانحلال ، يد الشاعر يفكر في الدين بشكل أكثر انعطافاً وميلاً ، مما كان عليه في سني القوة والفتوة والزهو والغرور . لقد اندفعت مسرحياته وقصائده هجائه اندفاعاً طارئاً بين هذا وذاك من مختلف المذاهب الدينية ، أما الآن ، وقد ربط الشاعر مصيره بالمحافظين (للملكيين — التوري) ، فإنه تحول إلى الكنيسة الأنجليكانية بوصفها ركيزة للاستقرار في إنجلترا ، مستنكراً عدوان العقل للمتغرس على هذا الحرم للقدس ، ألا وهو الإيمان والعقيدة . وفي نوفمبر ١٦٨٢ أدهش أصدقاءه الديويين بنشره قصيدة « الدين والدنيا » دافعا عن الكنيسة الرسمية . وبداله أن الكتاب للقدس للنزل ، بل وكنيسة معصومة من الخطأ تفسره وتسكله ، دعامتان لاغنى عنهما للمجتمع ولسلامة العقل . وكان على علم بالخلافات وبالجدل بين الربوبين ، وكان رده عليهم أن شكوكهم إنما تعكس صغور النظام الاجتماعي للمعقد الذي لا يمكن أن يدعمه إلا قانون أخلاق تفرقه عقيدة دينية .

لأنه لا قيمة ولا فائدة في تعلم النقاط الغامضة ، أما السلام العام فهو كل ما يهم العالم .

وتلك حجة كان يمكن أن تخدم قضية الكنيسة الكاثوليكية أيضاً ، وتابعها دريدن إلى غايتها بتحويله إلى الكاثوليكية ١٦٨٦ . ولسنا ندرى إذا كان لاعتلاء ملك كاثوليكي العرش في السنة السابقة ، ولتلطف الشاعر على الاستمرار في الحصول على رواتبه — نقول لسنا ندرى إذا كان لهذا الأمر أو ذلك دخل في هذا التحول (٤٠) . على أن دريدن على أية حال ، صب كل فنه — الشعري ليشرح وجهة النظر الكاثوليكية في قصيدة « الأيلة واللمرة » The Blind and The Panther (١٦٦٧) وفيها (أيلة ناصعة البياض ، تدافع عن المذهب الكاثوليكي ، ضد نمرة « هي أجمل النوع المرقط » التي تمثل المذهب الأنجليكاني . وكانت صورة حيوانين من ذوات الأربع يناقشان موضوع الوجود الحقيقي في قربان المقدس مدعاة للسخرية (٤٢) والتسخيف .

سرطان ما أنارهما ماثيو بربر Prior ولورد هاليفاكس في محاكمة تهكية تحت عنوان « الآية والحرمة تنقل إلى قصة فأرة القرية وفأرة للدينه » (١٦٨٧). وفي ١٦٨٨ فرجيمس الثاقى إلى فرنسا . ووجد دريدنى أنه يعيش من جديد فى ظل ملك بروتستانتى ، فلم يذهب إليه ، وكان أولاده الثلاثة يعملون فى روما تحت إمرة البابا . كما أن الردة إلى مذهب آخر أمر غير مقبول ، فاحتمل فى شجاعة وجلد فقدانه لمنصب شاعر التاج ولراتبه ولوظيفته « مؤرخ للكل » ، على أن التاريخ ، زاد من أحزانه ، لأنه أضفى كل هذه للناسب والشرف على شادويل الذى توجه دريدنى ملكا على الهراء ، وصورة نموذجاً للغباء . وعاد فى شيخوخته يكسب بقلبه قوت يومه . فكتب مزيدا من الروايات ، وترجم غثارات من تيوكرىس وهوارس وأوفيد وبرسيوس ، وأخرج الأبيات فى شعر بطولى فى أداء غير محكم ، ولكنه سلس ، ونقل بأوزانه الشعرية الخاصة بعض أساطير هوميروس وأوفيد وبوكاشيو ، وتشوسر . وفى ١٦٩٧ وهو فى السابعة والستين نظم قصيدته للشهيرة «وليمة الاسكندر Alexanders Feast ، التى حظيت بأعظم الثناء والإطراء . ووافته للنية فى أول مايو ١٧٠٠ ، وشهدت جنازته اضطرابا شديدا ، وتنازعت الشيع للتنافسة جنازه ، وأخيرا وورى التراب إلى جانب تشوسر فى كنيسة وستمنستر .

ومن الصعب أن تحب هذا الشاعر ، فكل الظواهر تقول بأنه كان انتهازيا نفيعا متقلبا ، امتدح كرومول فى فترة الحماية ، وكال للديع اهارل الثانى وخيلاته ، وأثنى على البروتستانتية فى عهد ملك بروتستانتى ، وأطرى الكاثوليكية فى ظل ملك كاثولىكى ، وألمس موارد كسب للمال بكل الطرق ، وجلب على نفسه عداوة كثير من الناس ، مما لابد منه أن يكون نمة شىء يكرهه الناس فيه . وجارى كل منافسيه فى إباحية رواياته وتحررها من كل القيود ، وفى تورعه فى شعره . وبلغت قوته فى الهجاء مبهما يستدر العطف على ضحاياه ، مثل العطف على الشهداء وهم يحترقون على الخازوق . ولكن

لا جدال في أنه كان أعظم الشعراء الانجليز في جيله . وكتب معظم شعره في المناسبات ، وقلما حفظ الزمن شعرا نظم للمناسبات . ولكن هجاءه لا يزال حيا ، لأن أحدا غيره لم يستطع أن يأتي بمثل هذا الهجاء الذي صور الشخصيات في ازدياد قارص وسخرية لاذعة . وطور المقطع الشعري البطولي ذا البيتين إلى درجة من الإيجاز المحكم واللونة ، سيطرت على الشعر الانجليزي طيلة قرن من الزمان . وكان أثره على النثر أقوى ، حيث نقاء من التراكيب للزجاجة والمصطلحات الغريبة ، وضبطه على درجة ممتازة من الصفاء والسهولة . وكان معاصروه على حق حين كانوا يرهبونه أكثر مما يحبونه . ولكنهم أدركوا أن له الحق كل الحق ، بفضل قوة إرادته وبراعته في فنه في صناعة الأدب والكتابة ، وملكاً على عرش القوافي ، فكان بن جونسون الروائي . ودكتور صمويل جونسون الكاتب ، في وقت معاً ، في عصره .

٤ — في ثبوت واحد

والآن نجمع في قائمة غير نابضة بالحياة بعض الشخصيات الأصغر شأناً الذين أمدوا هذه الفترة بالحياة وبالأدب ، ولكننا لن نستطيع أن نمسك معهم طويلاً لنقتبع مجرى حياتهم .

وأعظم قصيدة في الجانب الوثني من فترة عودة الملكية كانت ملحمة بيوريتانية ، ولكن أشهرها هي ملحمة هجاء ساخر ضد البيوريتانية : « هو دبراس » (١٦٦٣ — ١٦٧٨) . ذلك أن الشاب الفاجر ، صمويل بتلر ، قضى عدة سنوات مضنية في خدمة سير صمويل لوك ، وهو مشيخي (برسبتيريان) متحمس غيور ، ضابط برتبة زعيم في جيش كرومول ، كان مقره في « كوبل هو » ، وهي قلعة بيوريتانية للسياسة والعبادة . وعندما عادت الملكية ثار بتلر لنفسه بنشر هجاء مرع ، يصور فيه كيف أن سير هو دبراس الفارس المغوار يقود سيده صاحب الأرض « رالفو » إلى حرب

صليبية ضد الخطيئة والإثم . وتستطيع أن تحكم منذ بداية القصيدة عليها .
 « حين اشتدت ثورة الغضب والحقدين الناس لأول مرة وتشاجروا لأنهم
 لم يدركوا السبب ، وحين أشعلت الكلمات النابية والأحقاد والمخاوف نار
 الحرب بين الجماعات وجعلتهم يقتتلون كالجائنين أو المخمورين ، من أجل
 « السيدة : الديانة » وكأنا يقتتلون من أجل عاهرة فاجرة ... وحين أعلن
 نافخ البوق الإنجيلي يحيط به الرعاع ذوو الأذان الطويلة ، النفير من أجل
 الحرب ، ودقت طبول المنبر والسكنيسة بمجامع الأيدي بدلا من المعصى .
 عندئذ فادر السيد الفارس مسكنه وامتطى صهوة جواده مزعما الركب ...
 وكان كثيرون من الناس يرون ، أنه كما اشتكى مونتاني من أن قطته حسبته ،
 وهو يداعبها ، حمار آ ، فلا بد أن القطه تحسب هو دبراس حمار أو أكثر من
 حمار ، وإنما لنسلم بأنه على الرغم مما أوتى من ذكاء شديد ، فإنه ينجل من
 استخدامه ، وكأنا يكره أن يستنفذه ويبلية ، ولذلك لم يظهره أو لم يلبسه
 إلا في أيام العطلة أو ما يشابهها ، كما يرتدى الناس أحسن ملابسهم ... وكان
 من اللأثم ، من أجل عقيدته ، أن يوفق بين علمه وذكائه ، وكان مذهبه
 مشيخيا صادقا متشددا ، لأنه كان من بين العصبة العنيدة من القديسين
 الضالين الذين يقر الناس جميعا بأنهم المناضلون الصادقون عن الكنيسة المجاهدة
 الذين يبنون عقيدتهم على الرمح والمدفع ، ويحسمون كل الخلافات عذمية
 لا تخطئ المرعى ، ويثبتون صحة نظريتهم بالضربات والمسمكات . الرسولية ..
 فرقة تتمثل أعظم تقوالم في كراهياتهم الحقاء الضالة ، الشاذة فرقة نحصر
 على الخطأ في يوم العطلة أكثر من حرص سائر الناس على الصواب ، بجمعة
 على الخطايا التي فطرت عليها ، تلعن أولئك الذين لا يفسكرون فيها (٤٣) .

وهكذا مما آلم البيوريتانيين أيما إيلام وسر الملك كل السرور . ومنح
 شارل المؤلف جائزة قدرها ثلثمائة جنيه . وامتدح كل المسكين القصيدة
 فيما عدا يبز الذي لم يستطع « أن يتبين موضع العبقرية فيها » ، على الرغم
 من أنها تعتبر الآن من أحدث طراز من الهزل والسخرية (٤٤) ، وبادر بملر

إلى الاستزادة من الكتابة (١٦٦٤ — ١٦٧٨) ، ولكن لم يعد في جمبته سهام ، ولم تسعف القوافى . وحل النزاع بين البروتستانت والكاثوليك محل النزاع بين الملكيين والبيوريتانيين . ونسى القوم بئلا ، وقضى نحبهم مغمورا معدما (١٦٨٠) . وبعد أربعين عاما أقيمت له لوحة تذكارية في كنيسة وستمنستر ، تحمل هذه العبارة « طلب الخبز ففتح حبرا (٤٠) » .

وخير من هذا الشعر الهزلى المعتل الوزن الذى بتصيد القوافى ، ثر كلارندون الغضم في كتابه « تاريخ الثورة » الذى ظهر في ١٧٠٢ على — الرغم من أنه كتب في ١٦٤٦ — ١٦٧٤ — وشهد الناس في عهد الملكة آن مقدار العناية التى بذلت في تأليف هذه المجلدات الثمانية ، وروعة أسلوبها ، وكيف كان تصوير الشخصيات أخذا ، وكيف كانت روح قاضى القضاة الذى ضرب قديما ، طالية . وبالمثل لعب جلبرت بيرت دورا ليس بهزيل في كتابه « تاريخ زمانه » الذى لم ينشر ، بأمر منه ، إلا بعد وفاته ١٧٢٤ . أما كتابه « تاريخ إصلاح كنيسة إنجلترا » (١٦٧٩ ، ١٦٨١ ، ١٧١٥) فكان عملا أضخم ، وكان ثمرة بحث طويل ، وظهر في وقت كانت فيه إنجلترا البروتستانتية تخشى إحياء الكاثوليكية . وقدم له مجلسا البرلمان كلاهما الشكر عليه . ووجد فيه الأعداء والمحررون ألفا من الأخطاء . ولكنه لا يزال يحظى بمن يشايحه وينتصر له ، وفي بعض الأحيان يكون موضع ذم وطعن . ولكنه يظل أعظم مرجع في موضوعه ، وحاول بيرت أن يوسع دائرة التسامح الدينى ، فكسب عداة السوق .

وسعى ثلاثة رجال آخرين إلى تكبير الحاضر بأن يضيفوا إليه صورة من الماضى . وطاف توماس فولر Fuller بأرجاء الأرض الحبيبة متنقلا من بلد إلى بلد ، حيث جمع كتابه « تاريخ مشاهير الرجال في إنجلترا » (١٦٦٢) ، وأحيا أبطاله الأموات بما روى عنهم من فضلكات وحكايات ودطية وذكاء ، وبما كتب على شواهد قبورهم . وقص أثنونى وود تاريخ أ كسفورد ، وجمع ثبنا حوى سير حياة خريجيها ، ولؤلؤات القيمة ١٦ — قصة الحضارة

التي اقتبس منها كثير من المؤلفين خلاصة . وجمع جون أوبري شذرات ممتعة عن نحو ٤٢٦ من مشاهير الإنجليز ، على أمل أن ينسق هذه المادة المجموعة في تاريخ كامل ، ولكن الخول والمنية حالتا دون طبع « سير الحياة » قبل ١٨١٣ (٤٦) . وقد شجعتنا ذخائره على اللضي في طريقنا . وهناك السكرلونييل (الزعيم) جون هشتشون ، وهو بيوريتاني أيد إعدام شارل الأول ، وزج به شارل الثاني في السجن ، وما أن أخلى سبيله حتى عاجلته المنية ، وخلدت أرملته لوسي ذكراه في كتاب « حياة كولونييل هتشونسون » وهو كتاب لطيف رفع من مكانة صاحب السيرة . ولكن لوسي كان يعييبها الوقفات الطويلة فسكات عباراتها أحيانا تعتمد إلى صحيفة كاملة أما جون آريوتنوت ، الطبيب البار ، والصدیق المخلص لسويقت وبوب والمسكة آن ولستيرين غيرهم ، فإنه انضم إلى حملة المحافظين لوقف الحرب مع فرنسا ، بأن أصدر في ١٧١٢ سلسلة من النشرات يهجو فيها الأحرار ، ويصف شخصية خيالية هي « جون بول » الذي أصبح منذ ذاك الوقت رمزا على التملقا . ويقول جون آريوتنوت عن جون بول :

« أنه شخص أمين شريف صريح في التعامل مع الناس ، سريع الغضب ، جرى ، متقلب المزاج . . . إذا تعلقته ولاطفته كان سلس القياد ، إن مزاج جون يعتمد كثيرا على الهواء ، فيرق مزاجه أو يتسكدر تبعا لحالة الجو . وكان جون ذكيا . يدرك مهمته تمام الإدراك ، ولكن ليس على قيد الحياة إنسان أشد منه إهمالا في إمعان النظر في حساباته ، ولا أكثر انخداعا بشركائه أو غلمانه أو خدمه . ذلك لأنه رقيق سرح ، مولع بالخمر والامو والتسلية . والحق أنه لا يوجد إنسان أشد عناية ببيته ولا أكثر سخاء في الاتهاق من جون (٤٧) » .

وماذا عسى أن يقول سيروليم تمبل إذا وجد أنه اختزل في فقرة من فصل بلغ الذروة بسكرتيه ؟ ربما قال — إذا سمحت له آدابه الرفيعة — إن للورخين أهملوه لأنه لم يحتمفظ بأمرأتين تطمعان في الزواج ، حتى قضت

إحداهما نحبها ، وأنهسكت الأخرى ، أو لأنه لم يبع قلبه لوزراء المحافظين استياء من الأحرار ، أو لأنه لم يغمس هذا القلم في ذم البشر ، ولكن خدم وطنه في هدوء بدبلوماسية ناجحة ، وفي عصر ساد فيه الفساد والفجور ، ضرب لآنجلترا مثلاً صادقاً غير مصطنع لحياة أسرية تزيّن الحشمة والوقار . وظل لمدة سبع سنين يتودد إلى دوروتى أوزبورن التى أصبحت رسائلها الرقيقة إليه قطعاً من الأدب الانجليزى (٤٨) وارتضته زوجاً لها رغم معارضة أسرتهما . وتزوجها بعد أن شره الجدرى جمالها . ودخل تمبل معتزك الحياة السياسية ، ولكنه آثر الأعمال التى نأت به عن حمى لندن ، وتجنب « العبودية المضنية التى تثير البغض والحسد ، والتى تحصى فيها الحركات والسكنات ، والتى يطلعون عليها من قبيل السخرية والاستهزاء ، السلطة والنفوذ » (٤٩) . وكان من أوائل من حذروا من أطماع لويس الرابع عشر التوسعية ، وكان المخطط الرئيسى للحلف الثلاثى الذى وقف فى طريق الملك الفرنسى ١٦٦٨ . وعرضت عليه الوزارة فى ١٦٧٤ و ١٦٧٧ ولكنه آثر منصبه الدبلوماسى فى لاهاي . وأدت مفاوضاته للتوسومة بالحصافة والنظر الثاقب إلى زواج ماري ابنة جيمس الثانى من ولیم الثالث الذى أصبح ملكاً فيما بعد . وهو الزواج الذى مهد الطريق « للثورة الجليلة » . وفى ١٦٨١ اعتزل السياسة وانصرف إلى الدراسة والتأليف فى « موربارك » ، ضيعته فى « سرى » وحسبه سويقت جامداً متحفظاً ، ولكن زوجة سير ولیم وأخته ، كلتيهما ، أحبته إلى حد العبادة ، على أنه ملك الرحمة والسكرياسة والالطف . وأهم أبحاثه « المعرفة قديمها وحديثها » (١٦٩٠) ، الذى رفع فيه من ذكر الأقدمين وانتقص من قدر العلم الحديث والفلسفة الحديثة ، فى شخص نيوتن وهوين وسبينوزا وليبنز ولوك . وقصيد بنتلى لسكرات خطأ جسيماً . فأوى سير ولیم إلى حديقته ، وتسلّى بايقور ، ولسوف يلتقى به ثانية .

٥ - إيفلين ويينز

اتفق جون إيفلين مع تيمبل في « أنه إذا دخلت الأحزاب في الدولة وتممقت جذورها فيها ، فن الحق عندئذ أن يتدخل أفاضل الرجال في المعشون العامة (٥٠) » ولما بدأت الحرب الأهلية رأى أنه قد آن الأوان لارحيل . وغادر إنجلترا في يولية ١٦٤١ . ولكن وخز الضمير أعاده إليها في أكتوبر ، وانضم إلى جيش الملك في برنتفورد ليشترك في الانسحاب في نفس الوقت الذي وصل فيه . وبعد شهر من الخدمة في الجيش آوى إلى ضيعة أبويه في ووتون في سرى . وفي ١١ نوفمبر ١٦٤٣ عبر البحر ثانية إلى القارة . وطاف على مهل بأرجاء فرنسا وإيطاليا وسويسرا وهولنده ، ثم قفل راجعا إلى فرنسا . وفي باريس تزوج من فتاة إنجليزية . وتنقل لبعض الوقت بين فرنسا وإنجلترا ، حتى وضعت الحرب الأهلية أوزارها ، حيث عاد إلى الوطن (٦ فبراير ١٦٥٢ . ورشا حكومة كرومول لتتركه وشأنه . وتبادل الرسائل مع شارل الثاني في منفاه ، وفي ١٦٥٩ بذل جهدا جبارا لتمجيد بعودة الملكية . وبعد ارتقاء شارل الثاني عرش إنجلترا أصبح إيفلين شخصية مرموقة في البلاط ، ولو أنه دمه بالانحلال والفساد ، وشغل بعض المناصب الحكومية الصغيرة ، ولكنه في معظم الأحوال أثر أن يفرس الأشجار ويؤلف ثلاثين كتابا في بيته الريفي . ودون كل شيء من لو كريس إلى سبتاي زيفي . وعجز كتابه « البخرة » عن تنقية هواء لندن ، ولكن في كتابه « أشجار الغابات » دأ دعوة حارة إلى إعادة تدجير إنجلترا ، وحث الحكومة على فرس الأشجار في مختلف أنحاء لندن ، التي أتمد أشجارها اليوم من أعظم مفاخرها ومباهجها . أما كتابه « حياة مسز جودولفين » ، فهو مثل أعلى في فضائل النساء وسط عريضة عودة الملكية وصخبها .

ومن ١٦٤١ إلى ٣ فبراير ١٧٠٦ ، قبل وفاته بأربعة وعشرين يوما ، دون إيفلين في مذكراته كل مارأى وسمع في إنجلترا أو في القارة . وبوصفه

رجلا من ذوي المسكنة لم يكن في مقدوره أن يسجل من الخطايا أو الآراء الشخصية جداً ، مثل تلك التي تغربنا بقراءة « مذكرات » بيبرز المسهبة ، ولكن وصفه لمدن أوروبا ساعداً كثيراً على اكتناء ماهية العصر . ففي مذكرات ايفلين صفحات رائعة عن « ممر صمبلون (٥١) » ، وكان في بعض الأحيان يقصص عن مكنون صدره في قطع تفيض بالحب والحنان والرفقة ، مثلما كتب عن وفاة ابنه وهو في سن الخامسة . ولم تنشر مذكرات ايفلين إلا في ١٨١٨ .

إن إشارات ايفلين إلى بيبرز في مذكراته أدت إلى فحص المجلدات الستة المكتوبة بطريقة الاختزال ، والتي كان بيبرز قد أوصى بها لكتلية مجدلن في كبردج . وحلت رموز المذكرات التي بلغ عدد صفحاتها ٣٠١٢ بعد ثلاث سنوات من جهد شاق ، ونشرت في ١٨٢٥ ، بعد اختصارها وتنقيتها . وهي الآن ولو أنها لم تستكمل ، تملأ أربعة مجلدات ضخمة . على أنها جعلت من بيبرز شخصية من أكبر الشخصيات المعروفة في التاريخ بالصراحة وعدم الصفة . أما من حيث الصراحة ، فن الواضح أنه قصد أن تنشر المذكرات إذا قدر لها أن تنشر — بعد وفاته ، لا قبلها — ولهذا حوت تفاصيل كان ينبغي كتمانها في حياته ، ولا يزال بعضها « غير قابل للنشر » . أما عدم صحتها ، فيرجع إلى أنها تتناول حقبة تقل عن عشر سنوات (١ يناير ١٦٦٠ — ٣١ مايو ١٦٦٩) من حياة بيبرز ، ولم تورد سرداً وافياً لعمله في أركان حرب القوات البحرية الانجليزية ، حيث تدرج في أعمال ازدادت أهمية من ١٦٦٠ إلى ١٦٨٩ ، وبعد وفاته بزمان طويل تذكره وكرموه على أنه رجل إدارة قدير نشيط مجد .

وكان أبوه خياطاً (تروزيا) في لندن ، وكان ابناً صغيراً لأحد الملاك اتجه إلى العمل والتجارة لأن الابن الأكبر ورث الضيعة طبقاً للقانون . ودخل صمويل كبردج على منحة ، وحصل على درجتى الايسانس والاستاذية ، ولم تسجل له أية عقوبة . إلا تأييد على « لأنه شوهد يوماً يحتمى الحمر

بشكل مخز ، ، وسرة أخرى لأنه كتب قصة « الحب خداع » التي أعدها فيما بعد . وفي سن الثانية والعشرين (١٦٥٥) تزوج من إليزابيث ساف ميشيل ابنة أحد الهيجونوت . وفي ١٦٥٨ أجريت له عملية « الحصة في السكلى » ، ونجحت العملية وظل يحتفل بذكرى نجاحها سنويا بعد ذلك ، تعبيراً عن الحمد والشكر ، كما يظهر من السنوات المسجلة في مذكراته .

وكانت هناك صلة قرابة بعيدة تربطه بسيرادوارد مونتاجو ، فميين بيبز سكرتير آل هـ ، (١٦٦٠) ورافقه صمويل في الأسطول الذي قاده لإحضار شارل الثاني من المنفى . وقبل أن ينصرم هذا العام عين بيبز كاتباً للعمليات في إدارة البحرية . فشارك على دراسة الشؤون البحرية بالقدر الذي سمح له به مطارده للنساء . ومذ كان رؤساؤه منسكبين أيضاً على هذه الرياضة القديمة ، فإنه سرعان ما أصبح أكثر دراية بتفاصيل البحرية من أميرى البحر كليهما (مونتاجو ودوق يورك) ، إلى حد أنهما اعتمدا على معلوماته . وفي أثناء الحرب مع هولنده (١٦٦٥ — ١٦٦٧) نجح نجاحا مشهودا في تأمين الأسطول ، وعند تفشى الطاعون لزم عمله في الوقت الذي فر فيه معظم موظفي الحكومة . وفي ١٦٦٨ حين حمل البرلمان على إدارة الأسطول ، وكل إلى بيبز أمر الدفاع عنها ، وبفضل خطابه الذي استمر ثلاث ساعات في مجلس العموم برئت إدارة الأسطول تبرئة لاستحقاقها . وبعد ذلك كتب بيبز لدوق يورك ثلاث مذكرات عرض فيها وجوه النقص والخلل في هيئة البحرية ، وقد لعبت هذه المذكرات الثلاث دورا في إصلاح الأسطول . وبذل بيبز جهدا جبارا ، وكان يصحو من نومه عادة في الرابعة صباحا (٥٢) . ولما وجد أنه كان يستعين على راتبه الذي يبلغ ٣٥٠ جنيه في العام ، بالهدايا والعمولات والمنح التي يمكن أن يسمي بعضها رشوة ، ولما كتب في هاتيك الأيام اللطيفة تعتبر زيادات إضافية مشروعة . وكان رئيسه لورد مونتاجو نفسه قد أوضح له « أنه ليس مرتب أية وظيفة هو الذي يجعلها غنيا ، ولكن فرصة الحصول على

الأموال وهو يشغلها (٥٣) .

وكل ما ارتسكب يبين من أخطاء مدون بصراحة خالصة تامة نسبيا .
وليس واضحاً أمام أعيننا السبب الذى من أجله احتفظ بها بمثل هذه الأمانة .
إنه أخفها فى حذر وعناية طوال حياته ، ودونها بطريقة الاحتزال الخاصة
به ، مستخدماً ٣١٤ حرفاً مختلفاً ، ولم يضع ترتيباً خاصاً لنشرها بعد وفاته .
وواضح أنه وجد لذة ومتعة فاستعرض أنشطته اليومية والاضطرابات فى
أعضاء جسمه وشجاراته الزوجية ، ومغازلاته وعبه ، وعلاقاته النسائية
الشائنة . إنه — إذا أطاق قراءة هذا السجل — بينه وبين نفسه — لابد أن يشعر
بما يشعر به نحن من رضا خفى إذا نظرنا لأنفسنا فى المرآة . وهو يروى
لنا كيف أنه جعل زوجته تحلق له شعره « فوجدت فى رأسى وجسى .
نحو عشرين قلة » وهذا فى اعتقاده ، أكثر مما وجدت فى هذه السنوات
العشرين (٥٤) . وتعلم أن يحب زوجته ، ولكن بعد مشاجرات كثيرة ،
تميز فى بعضها غيظاً ، وكثيراً ، على حد قوله ، ما أساء معاملتها ، وفى إحدى
المرات « جذبها من أنفها (٥٥) » . وفى مرة أخرى « لطمتها على عينها
اليسرى لطمة جعلت البائسة المسكينة تصرخ من شدة الألم ، ولكنها
اهتاجت وحاولت أن تمضى وتخدشني بأظافرها ، ولكنى تظاهرت بالهجل
مما فعلت حتى أمسكت هى عن العويل (٥٦) » ووضع على عيناها ضادة ،
وانصرف للقاء إحدى خليلاته . وعاد إلى البيت لتناول العشاء ، ثم فادته ،
حيث لقي « زوجة باجول ، فصحبته إلى إحدى حانات الجمعة ، وهناك
لاذمتها كثيراً ، ثم افترقت عنها إلى امرأة أخرى حاولت أن أطاقها وأقبلها ،
ولكنها لم ترغب فى شئ من هذا ، مما ضايقتنى كثيراً » .

وقد يبعث على العجب والدهشة أن يكون للرجل مثل هذه الطاقة
الحوية . فاستبدل الشيقه كل بضعة شهر ، وطارد النساء حتى صددته
عنهن بالدبابيس (٥٧) . واعترف بأنه « وقع فى أسرار الجمال إلى حد غريب (٥٨) » .
وقال « كنت اهتم فى كنيسة وستفستر إلى هطة ، وقضيت الوقت (معافى)

الله) محمداً النظر في مسز بتلر (٥٩) « وكان يتطلع في شغف خاص ولطف جارف مما يكاد يكون خيانة عظمى - إلى ليدى كاسلين (عشيقه للملك) ، ومذ وقع نظره عليها في قصر هويتبول « استغرق في النظر إليها (٦٠) » . ولكنه قنع بشبابها المرصوفة في صف واحد ، وفي هذا يقول « وكان من الخبير أن أتطلع إلى هذه الثياب (٦١) » ، فلما « عدت إلى البيت وتناولت المشاء وآويت إلى الفراش ، تخيلت أنني أفاضل مسزستيوارت (ليدى كاسلين وأعبت معها . في نشوة غامرة من السرور (٦٢) » . ولكن نفسه لم تهف إلى فائنات البلاط فحسب . فقدمرت بياحه يوماً مسزديانا ، إحدى جاراته ، فجذبها « إلى البيت وصعدت بها الطابق الأعلى ، وبقيت ألهو وأعبت معها فترة طويلة (٦٣) » . وأخذ مسز لين إلى لامبت (أحد أقسام لندن) « وبعد أن سئمت رفقتها « صممت » على ألا أعود لمثل هذا ماحييت (٦٤) » وضبطته زوجته ذات مرة يعانق فتاة ، فهددت بالانفصال عنه ، فهدأ من روعها بالوعود والأيمان . وإنطلق إلى آخر عشيقاته . ذلك أنه أغوى وصيفة زوجته - ديبورا ويلت - وكان يحب أن تمشط ديبورا له شعره ، ولكن زوجته انقضت عليه أثناء مغامرته مع ديبورا . فعاد يقسم ويمد يتعهد من جديد ، وطردت الوصيفة ، وأخذ يبرز يتردد عليها وكان زيارتها جزء من عمله اليومي .

وظلت رغبته الجنسية على حدتها حتى حين ضعف بصره . إن عادة القراءة والكتابة في ضوء الشمع بدأت تضعف بصره في ١٦٦٤ . ولكن في سنوات العسرة التي تلت ذلك ، بذل في العمل جهداً شاقاً بمنفعة خاصة ، على الرغم من تفاقم علته . وفي ٣١ مايو دون آخر ما سجل في مذكراته :

« وهكذا ينتهى ما أشك في قدرتي على قدرتي على المضى فيه إطلافاً بنور عيني ، ألا وهو تدوين مذكراتي . ومها تكن النتيجة فليس لي ألا أن أتجلد وأحتمل . ومن ثم اعتزمت أن يدونه من حولي بطريقتهم في الكتابة العادية ، ولذلك ينبغي أن أقنع بالألا يسجل إلا ما هو صالح لأن يعرفوه

ويعرفه العالم أجمع . وإذا كان هناك شيء . وهو ليس بالكثير ، بعد أن
ولت كل خلياتي مع ديبورا ، وقعدت في ضعف بصري عن الاستمتاع بأية
ملذات أو مسرات . فلا بد أن أحاول أن احتفظ في كتابي بهامس ، أضيف
فيه ، هنا وهناك ، بعض الملاحظات بخط يدي ، بطريقة الاختزال . وهكذا
أروض نفسي على هذه الطريقة التي لا تقل مرارة عن أن أراني محمولا إلى
القبر الذي يتولى الله العلي العظيم إعدادي له ، ولكل المتاعب والمشاق التي
لا بد أن تفتاني عندما أفقد نور عيني . صمويل بييز .»

وتبقى له من عمره بعد ذلك أربعة وثلاثون عاما . وظل يتمهد في عناية
بالغة ما بقي له من نور عينيه ، ولم يعم بصره تماما قط ومنحه الدوق والمملك
أجازة طويلة انقطع فيها عن العمل ، عاد بعدها إليه . وفي ١٦٧٣ عين
سكرتيرا لإمارة البحر ، وفي نفس الوقت تحولت زوجته إلى الكاثوليكية .
ولما وقعت مؤامرة البابا على انجلترا اعتقل بييز وأودع سجن لندن
(٢٢ مايو ١٦٧٩) للاشتباه في أن له ضلعا في مقتل جودفري . ثم دحض
الإنهام وأخل سبيله بعد تسعة أشهر قضاها بين جدران المعتقل . وبقي
بميذا عن الوظيفة حتى ١٦٨٤ ، حيث أعيد سكرتيرا لإمارة البحر كما كان ،
واستأنف العمل على إصلاح البحرية . ولما أصبح رئيسه (دوق يورك)
ملكاً على انجلترا - جيمس الثاني - كان بييز في واقع الأمر على رأس إدارة
القوات البحرية ، ولكن عندما هرب الملك جيمس إلى فرنسا ، أعيد بييز
إلى السجن ثم أفرج عنه وطاش أعوامه الأربعة عشر الأخيرة من عمره ،
متقاعدا عن العمل وكان له « مرشد البحرية المجوز » . ووافته للنية في ٢٦
مايو ١٧٠٣ ، وقد بلغ السبعين ، مكللا بالاجلال والاحترام ، مطهرا من
الذنوب والآثام .

وكم كان في هذا الرجل من خلال عموده . لقد عرفنا حبه للموسيقى ،
كما أنه تابع الحركة العلمية ، وكان ضليعا في الفيزياء . وأصبح عضوا في « الجمعية
الملكية » وانتخب رئيسا لها في ١٦٨٤ وكان منزهوا برجلته ، وكان يقبل

الرشوة ، وضرب خادمه حتى جرح ذراعه (٦٥) وقسا في معاملته لزوجته ، وكان قاسقا بكل ما في هذه الكلمة من معنى ، ولكن كم كان له في الملوك والأدواق من أسوة أخزى . وأقبح في مجال الدطارة والفجور ، ومن منا يمكن أن يتمتع بسمعة طيبة لا تشوبها شائبة إذا ترك مثل هذه المذكرات الآمينة ؟ .

٦ — دانيال ديفو : ١٦٥٩ - ١٧٣١

هناك امرأة أفلتت من يد يبرز ، تستحق منا هنا المحنأة احترام في شيء من الحذر ، بوصفها « أم القصة الطويلة » في فترة عودة للملكية ، وأول امرأة انجليزية تعيش على قلبها . إن افرابن Aphra Behn جديرة بالذكر من عدة نواح : ولدت في إنجلترا ، وترعرعت في أمريكا الجنوبية . وطادت إلى إنجلترا في سن الثامنة عشرة (١٦٥٨) ، وتزوجت تاجرا لندنيا من أصل هولندي . وتركت انطبعا قويا في نفس شارل لهائها وذكاها . وأوفدت في مهمة مرية إلى الأراضي الوطيفة ، فقامت بها خير قيام ، واسكنها تلقت أجرا زهيدا إلى حد أنها انصرفت إلى الكتابة ، وسيلة لكسب العيش . وكتبت مسرحيات هزلية فاجرة لاقت نجاحا ملحوظا . وفي ١٦٧٨ نشرت « أورو نوكو » وهي قصة « رقيق ملكي » زنجي ، وحبيبته امواندا . وكانت مزيجا أصيلا من الواقعية والرومانسية أو الخيال . وكان الطريق ممهدا أمام قصة روبنسن كروزو ، وللقصة الرومانسية .

كذلك عاش ديفو على قلبه . وكان من أكثر الأقلام تعددا للجواب والبراعات : وكان أبوه جيمس ديفو قصابا في لندن ، شديد التمسك بمذهب البرسبيتريان . وكان من المتوقع أن يكون دانيال واعظا ، ولكنه آثر الزواج والعمل والسياسة . وأنجب سبعة أطفال ، وأصبح تاجر جوارب بالجملة . والتحق بحيش دوق مونموت في الثورة (١٦٨٥) ، ثم انضم إلى جيش وليم في الإطاحة بعرش جيمس الثاني وفي ١٦٩٢ أفلس وبلغت ديوانه

١٧ ألفاً من الجنهات ، ثم دفع لدائنيه استحقاقهم كاملة تقريباً فيما بعده وفيما هو يكسب ويخسر . أصدر كتيبات في طائفة من اللوضومات زاخرة بكنز مدهش من الأفكار الأصيلة . ففي مؤلفه « بحث في المشروعات » عرض مقترحات عملية متقدمة كثيراً عن زمانه ، في المصارف ، والتأمين ، والطرق ، ومستشفيات الأمراض العقلية ، والسكيات الحربية ، والتعليم العالي للبنات . وانتقل إلى Tilbary حيث أصبح سكرتيراً لمصنع للقرميد ثم مديراً ، وفي النهاية مالكا له . ولما قدموه إلى وليم الثالث عينه في وظيفة حكومية صغيرة ، وأيد سياسة الملك تأييداً كبيراً إلى حد أنهاهه بأنه هولندي أكثر منه إنجليزي ، فدافع عنه نفسه في قصيدة رائعة ، عنوانها « الإنجليزي الصميم الأصيل » (١٧٠١) ذكر فيها الإنجليز بأن الأمة كلها مختلطة الدماء والأعراق ، ولما كان هو نفسه من المنشقين فإنه في ١٧٠٢ نشر كراسة غفلا من اسم المؤلف ، تحت عنوان « أقصر طريق مع المنشقين » استبق فيها أسلوب سوينت في التسفيه والتسخيف عن طريق اللبالة ، وهاجم فيها اضطهاد الإنجليكانيين للمنشقين ، باستحسانه اعدام كل منشق يقوم بالوعظ ، وطرده المنشقين الذين يستمعون إليه من المجلترة . وقبض عليه في فبراير ١٧٠٣ ، وحكم عليه بالعرامة والسجن وعذب في للشهر . وأفرج عنه في نوفمبر ، ولكن في نفس الوقت كان مصنع القرميد قد تخرب وتوقف العمل فيه .

وكان الرجل الذي ساعد في الإفراج عنه هو الوزير روبرت هارلى الذي تحقق من مقدرة ديفو الصحفية ، ومن الواضح أنه عقد معه اتفاقاً لاستغلال قلمه ، ومن ثم إتحق ديفو بخدمة الحكومة طيلة بقية حكم الملكة آن . وبدأ فور إطلاق سراحه في إصدار صحيفة ذات أربع صفحات ثلاث مرات في الأسبوع . اسمها « ريفيو » التي ظلت تظهر حتى ١٧١٣ ، وكان معظمها بقلم ديفو .

وفي عام ١٧٠٤ / ١٧٠٥ طاف ديفو بأرجاء المجلترة على ظهر جواده ،

يدهو المستر هارلى فى الانتخابات . وفى تلك الأثناء جمع مادة كتابه « جولة فى انجلترا وويلز » . وفى ١٧٠٦ — ١٧٠٧ عمل لحساب هارلى وجودولفين جاسوسا فى اسكتلنده ، وحظيت كراساتة القوية بكثير من القراء كما جلبت إليه الكثير من الأعداء . واعتقل ثانية فى ١٧١٣ وفى ١٧١٥ ، ومرة أخرى أطلق سراحه بناء على وعد بتسخير قلمه فى خدمة الحكومة .

وكان له قدرة على ابتكار كثير من الموضوعات الأدبية . وفى ١٧١٥ نشر بعض مقتطفات يفترض أن كاتبها من السكويكرز . وفى نفس السنة نشر « حروب شارل الثانى عشر » كما يرويها « استكلندى فى خدمة السويد » . وأصدر فى ١٧١٧ رسائل يظن أن كاتبها تركى ، يندد بالتمصب للسيحى . وأهمهم فى تحرير مجلة اسمها بحق الضباب « Mist » ، بتوقيع مراسلين وهميين . وقلما وقع ديفو كتاباته باسمه . وإلى جانب هذه البراعة فى تمثيل شخصيات مختلفة ، جمع ديفو سعة الاطلاع فى الجغرافيا ، وبخاصة جغرافية افريقية والأمريكيتين . وظاهر أنه افتنن بكتاب وايم دامبيير « رحلة جديدة حول العالم » (١٦٩٧) ، وفى إحدى رحلات دامبيير ألفت سفينته للسماة « الثغور الخمسة » مراسيها فى جزر جوفان فرنانديز على بعد نحو أربعمائة ميل إلى الغرب من شيلى . وكان أحد البحارة الاسكتلنديين يدهو اسكندر سلكيرك قد تشاجر مع القبطان ، فطالب إليه أن يتركه فى إحدى الجزر الثلاث ، على أن يزوده ببعض الحاجيات الضرورية . وبقي البحار هناك وحيدا لمدة أربعة أعوام ، حيث أعيد إلى انجلترا ، وهناك قص قصته على ريتشارد ستيل الذى كتبها فى عدد « الرجل الإنجليزى The Englishman » الصادر فى ٣ ديسمبر ١٧١٣ ، كما رواها كذلك لديفو ، وزعم أنه أعطاه بيانا مكتوبا عن مغامرته فى الغربية والوحدة (٦٦) . وحول ديفو هذه الخلاصة إلى قطعة من الأدب . وفى ١٧١٩ نشر أشهر قصة فى القصص الإنجليزى .

وألهمت « حياة روبنسن كروزو ومغامراته العجيبة للدهشة » خيال
 انجلترا . وظهرت منها أربع طبعات في أربع شهور . وهنا كان مفهوم جديد
 للمغامرة والصراع - لاصراع الإنسان ضد الإنسان ، ولا صراع الإنسان
 للتحضر ضد الإنسان للتوحش . بل كفاح الإنسان ضد الطبيعة ، صراع
 رجل وحيد ، يتمسكه خوف حقيقى ، لا يجد أى عون أو مساعدة ، حتى
 جاء « التابع المخلص الأمين » ، وبني حياة من اللواد الطام فى الطبيعة . وتلك
 كانت تاريخ حضارة رجل واحد فى مجلد واحد . واعتبرها كثير من القراء
 تاريخاً ، حيث لم تروقط فى الأدب من قبل قصة جمعت بين مثل هذه الأشياء
 التى تحتل الصدق والكذب فى مثل هذه التفاصيل التى أخذ بعضها بخناق بعض
 بشكل طارش . إن تمرس ديفو فى المدايح الأدبى رفعه من الصحافة إلى الفن .
 وعاش ديفو فى شىء من بحبوحة العيش فى لندن ، ولكنه لم يتخل عن
 إنتاجه الذى لا يبارى . فبما ظل يصدر الكراسات ، أخرج كتباً فى الحجم
 الطبيعى ، تضم قصص صغيرة . فنشر فى ١٧٢٠ « تأملات جادة فى حياة
 روبنسن كروزو ومغامراته المدهشة » ، « حياة ومغامرات مسز دنكان
 كامبل » (وهى ساهرة مشمودة صماء بكاء) . وبعد ذلك بشهر واحد
 « مذاكرات فارس » « وبن تروقاتو » وقد حسبه بت الأكبر تاريخاً وبعد شهر
 آخر أخرج « حياة القبطان المهور سنجلتون ومغامراته وقرصناته » وهو
 كتاب حوى توقعات مدهشة عن كشف فإفريقية . وفى ١٧٢٢ أصدر « هزاه
 وشقاء مول فلاندرز » و « صحيفة عام الطاعون » ، و « تاريخاً كولونيل
 جاك » ، و « الغزل الدينى » ، و « التاريخ الزيه لبيتر الكسوفتش » قيصر
 المسكوف الحالى — وهذه هى المرة الثانية التى يستبق فيها فولتير فى
 كتابه سير الحياة . وقصد بهذه المجلدات الضخمة أن توفر سبل العيش
 لأسرته ، ولسكنها بفضل قوة خيال الكاتب وأسلوبه القياض ، أصبحت
 أدبا . وفى « مول فلاندرز » اندس ديفو إلى عقل بنى وقلبها ، حتى أنضت
 إليه يقصتها بشكل يتضح معه صراحتها وإخلاصها ويدهو إلى تصديقها

بولو ظاهرياً ، حتى تركها في النهاية راضيه « آمنه مطمئنه في خير طافية » وهي في السبعين (٦٧) . أما « صحيفه عام الطاعون » فكانت مدحه بأدق الوقائع والحقائق والاحصاءات ، حتى اعتبرها المؤرخون تاريخاً .

أما عام ١٧٢٤ فلا يشير دهشة كبيرة : ذلك أن ديفو نشر إحدى أمهات قصصه « السيدة السعيدة الحظ » للمعروفة باسم « روكسانا » وهي المجلد الأول من مجلدين يتناولان جولته في ربوع جزيرة بريطانيا العظمى ، و « حياة جون شبرد » وهو يوم بأنه مخطوطة سلمها شبرد إلى صديق له قبل إعدامه . وكانت هذه إحدى السير القصيرة المديدة التي كتبها ديفو عن حياة المجرمين ، ومهدت إحدى سير الحياة واسمها « وغد للمرتفعات » (١٧٢٤) الطريق لكتاب سكوت « روب روى » كما مهدت سيرة أخرى ، هي « حياة جوانان ويلد » الطريق أمام فيلدينج . والحق أن أي موضوع شعبي أسال قلم ديفو ، وأفاض عليه الجنيهات من خزائن ناشري كتبه ، من ذلك « التاريخ السياسي للشيطان » (١٧٢٦) ، و « خفايا السحر » (١٧٢٠) ، و « السكشاف عن أسرار الدنيا الخفية » ، أو تاريخ حقيقة الأشباح (١٧٢٧) . أضف إلى هذا كله قصيدة في اثني عشر جزءاً « العدل الإلهي » يدافع فيها عن الحقوق الطبيعية لكل إنسان في الحياة وفي الحرية وفي التماس السعادة . ووسط هبوط ديفو كثيراً إلى مستوى ذوق الشعب وأخيلته ، ترى أنه أسهم اسهاماً مخلصاً في أفسكار جادة : مثل « التاجر الإنجليزي السكامل » (١٧٢٥ — ١٧٢٧) ، و « خطة التجارة الإنجليزية » (١٧٢٨) ، والكتاب الذي لم ينته منه « الرجل الإنجليزي السكامل » ، فإنه في هذه الكتب جميعها قدم معلومات مفيدة ونصائح عملية ، لم تتلادم في كل الأحوال مع أخلاقيات الانجيل .

وقد لانحيد أخلاقيات ديفو أو سلوكه الأدبي ، ولسكننا نملك الإعجاب بمشاربته وجدده ، وربما لم يشهد التاريخ قط منذ انجباب رمسيس الثاني ١٥٠ ولداً مثل وفرة ديفو في الانتاج . والشئ الوحيد الذي يكاد لا يصدق

فد يفوق هو أنه الذى كتب كل ما كتب ، لأننا كذلك يتولانا المعجب كل المعجب من ناحية عقل ديفو الذى سخرت فيه قوة الخيال وقوه الذاكرة لهذا العمل الشاق أو الجهد الجيد ، والذى أخرج هذه الأشياء الوهمية للقبولة شكلا إلى أبعد حد فى الأدب . وأنا لنعترف بمبقرية وشجاعة رجل استطاع مع ضخامة العمل والمجته فى انجازه ، أن يحتفظ بهذا المستوى الرفيع فى المادة والأسلوب . فى المائتين والعشرة مجلدات التى أخرجها (إذا صدقنا ما قيل) لا يسكاد للرد يقع على صحيفة واحدة ملة باهتة ، وإذا اتفق أن كان ديفو أحيانا بليدا غيبيا فإنه كان يفعل ذلك عن عمد ليضيف إلى حكمائته شيئا من احتمال الصدق والكذب . ولم يبرزه أحد فى بساطة السرد ووضوحه ، وفى كونه طبيعيا بعيدا عن التكليف إلى حد الاقناع . وهنا كانت عجلمته ضربا من ضروب الحفظ السعيد له ، حيث لم يسكن لديه فسحة من الوقت للتنميق والتخريف . وأرغمه تدريبه الصحفى ونزعة الصحفية على الإيجاز والوضوح . وكان أكبر صحفى فى زمانه بكل معنى الكلمة ، ولو أن هذا الوصف ينطبق على ستيل وأديسون وسويقت . فإن صحيفته « ريفيو » مهدت الأرض التى أبتت فيها صحيفة « سبكتاتور » بدورامنتقة بشكل أفضل . والحق أن هذا شرف أى شرف ، ولسكن أضيف إليه الشهرة العالمية الباقية على مر الدهور لفصة روبنسن كروزو ، وأثرها على قصص المزامرات ، حتى على قصة تختلف اتجاهاتها كل الاختلاف مثل « رحلات جاليفر » . وإذا استثنينا مؤلف ذلك الإتهام الذكى لبنى الإنسان (سوبقت فى رحلات جاليفر) ، فإن ديفو كان أعظم عبقرية فى رجال الأدب الانجليزى فى عصر زخر بهم .

٧ - ستيل وأديسون

يحدد رينشارد ستيل أكثر من أى إنسان غيره بداية عصر الانتقال فى الأدب ، من عودة لللكية إلى حكم الملكة آن . واتصف فى شبابه

بكل صفات العريضة والمصخب والفجور التي سادت فترة عودة للسلوكية .
ولقد في دبلن ، وكان أبوه موثقا طاما (كاتب عدل) ، وتعلم في مدرسة
تفارتو هاوس وأكسفورد . وكان حساسا سريع الاحتياج كريما ، وبدلا
من الحصول على درجته الجامعية انضم إلى جيش الحكومة في أيرلنده ،
وكان يسف في شرب الخمر اسفا ، ويبارز حتى يقارب أن يصرع خصمه .
وأكسبته التجربة رصانة طابرة ، فبدأ يحمل على المبارزة ، وكتب مقالا
عن « البطل للمسيحي » (١٧٠١) جادل في امكان أن يكون المرء سيذا
ماجدا مهذا « جنتمان » مع بقائه مسيحيا . ووصف الفساد الذي
ساد العصر ، وعاد بذاكرة قرائه إلى الكتاب للقدس بوصفه منبع الإيمان
الصديق والخلق القويم ، وناشد الرجال أن يحترموا جمال النساء وعفتن .

وكان في التاسعة والعشرين ، حين وجد أنه حتى الطبقة الوسطى التي
ينتمي إليها ، تتبرم به على أنه واعظ مل ، فعقد العزم على النهوض برسائلته
عن طريق الروايات ، وامتدح تنديد جرمي كوايير بالخلاعة والفحش في
المسرح ، فابرى في سلسلة من الملميات يدافع عن الفضيحة بشأن حملات صادقة
على الأوغاد . ولكن هذا الإنتاج لم يبق نجاحا . فخلق أن المسرحيات حوت
مشاهد حية ودلت على ذكاء وموهبة ، ولكن جمهور النظارة أشكسكوا
في حل عقدة الرواية أو في نتيجتها ، وطالبوا بالأمم والتسلية على حساب
الوصايا العشر مهما كان الثمن غالبا ، على حين أن القنديين المصنفاء الذين
قد يتعاطفون مع مشاعره ، فلما كانوا يظهرون في المسرح . كيف الوصول
إلى هؤلاء الناس ؟

وقرر ستيل أن يجرب وسيلة يواجههم بها في المقاهي . وفي ١٢ أبريل
١٧٠٩ أخذ ورقة من صحيفة ديفو « ريفيو » وأصدر العدد الأول من
صحيفة تصدر ثلاث مرات في الأسبوع ، أطلق عليها « The Tatler »
وحررها وكتب معظم مادتها تحت اسم مستعار « ايزاك بيكرستاف » .
ووجهها إلى المقاهي ، حيث أعلن : —

« كل ضروب البسالة والسكرياسة ، وللسرات والقسامية ، تلتقون بها في « مقهى هوايت للسكاكاو » والشعر في « مقهى ول Will » والعلم والمعرفة تحت عنوان « جريشيان » . والأنباء الخارجية والداخلية من « مقهى سان جيمس » . أما سائر الموضوعات التي ساقدها فن عندى أنا .

وكان مشروعا بارعا ، أثار اهتمام رواد للمقاهى ، واستقى الأنباء والموضوعات من مناقشاتهم هناك ، وأتاح لريتشارد ستيل أن يعبر عن آرائه دون مقاطعة أو نزاع ، وفي العدد ٢٥ الصادر بتاريخ ٧ يونيه ١٧٠٩ ذكر أنه تلقى رسالة من « سيده شابة .. ترى فيها سوء حظ .. حبيبها الذى أصيب مؤخرا بحرج أفناء المبارزة » واستطرد ستيل ليمين سخف عادة تحتم أن يدعو الشخص الذى أودى الشخص المسمى ليضيف ضغنا إلى ابالة أو القتل إلى الإساءة ، فماذا تعنى . المبارزة أو التحدى إلا هذا !!

سيدي ، أن سلوكك الشاذ فى الليلة الماضية ، وتطاو لك على فى جرأة وحرية طابت لهما نفسك ، كل هذا يدفعنى إلى أن أوجه إليك هذا الإنذار ، لأنك مغرور أحمق غير مهذب .. سألتقى بك فى هايدبارك فى ظرف ساعة ، حاملا مسدسا ، وحاول أن تصوبه إلى رأسى ، حتى ألقنك درسا فى آداب السلوك » .

وهنا كان صوت الطبقة الوسطى يسخر من الأرستقراطية . والحق أن الطبقة الوسطى أساسا هى التى زحمت المقاهى .

وفى مقالات أخرى سخر ستيل من بذخ الأرستقراطية ولغوها ومظاهرها الكاذبة وزينتها وزخارفها وملابسها ، وتوسل إلى النساء أن يرتدين الثياب البسيطة ، ويمتنعن عن الحلى والمجوهرات . فإن عقد الاؤلؤ فوق الصدر لا يضيف شيئا إلى الصدر العاجى الجليل الذى يحمله (٦٨) . « إن رفته مع النساء كانت تقبارى مع ولعه بالخر . وألح على القول بأنهن بحق يتمتعن بالذكاء وسلامة البنية . ولسكنه إمتدح الكثير من تواضعن وطهرهن - وتلك صفات لم تعترف بها ملهاة فترة عودة الملكية . وقال عن ١٧ - قصة الحضارة

إحدى النسوة « إن حبك لها يعني أنك تنسم بالتحرر في تعليمك »
واعتبرنا كرى « أن هذه العبارة ربما كانت أرق نحية قدمت لامرأة (٦١) » .
ووصف ستيل ، في إحساس عميق ، مباحج الحياة الأسرية ، والوقع الجميل
لأقدام الأطفال ، وإقرار الزوج بفضل زوجته المسنة وعرفانه لجميلها :

« إنها في كل يوم تدخل على قلبي سرورا أكثر بكثير مما عرفت فيها
أيام كنت أستمتع بجمالها وأنا في نضارة الشباب ، إن كل لحظة في حياتها
تقدم لي أمثلة جديدة على تجاوزها مع ميولى ورغباني ، وحسن تدبيرها
بالنسبة لمواردى في أوقات اليسر والعسر . إن وجهها أجمل بكثير مما رأيته
لأول مرة . وليس ثمة ذبول في تقاطيعه إلا إستطعت أن ألحظه منذ اللحظة
التي حدث فيها نتيجة إهتمام شديد قلق بمصالحى ربما يعود على بالخير . . إن
حب الزوجه أسمى بكثير من ذلك الهوى التافه الذى يسمونه عادة بهذا
الاسم (الحب) ، بقدر هبوط مستوى ضحكات المهرجين العاليه الماحجه
عن مستوى المرح الهادى » الرشيق عند الأماجد المهذبين (٧٠) » .

وكان ستيل قد تزوج مرتين عندما كتب هذا ، وإن رسائله إلى زوجته
لم تكن نماذج للاخلاص والحب ، ولو أنها سرعان ما تشتمل على اعتذارات
عن عدم الحضور لتناول الطعام فى البيت . إنه أخفق فى أن يكون الرجل
البرجوازى الفاضل الذى كان فى نظره نموذجا للحياة ، فإنه سكر كثيرا
وأنفق كثيرا وإستدان كثيرا ، وإجتاز الشوارع الجانبية ليتحاشى لقاء
أصدقائه الذين أقرضوه المال . وإختفى عن الأنظار تملصا من دائئيه ومراوغة
لهم ، ولكن فى نهاية الأمر أودع السجن بسبب الدين ، وقارن قارئو
صحيفته « Tailor » بين عظاته وتصرفاته . وأصدر جون دنيس نقدا لاذعا
لآراء ستيل ، وتناقص عدد المشتركين فى الصحيفة واحتجبت عن الظهور
فى ٢ يناير ١٧١١ ، ولسكنها تحتفظ بمكاتها فى تاريخ الأدب الإنجليزى ،
لان بين جنباتها بدأت الأخلاقية الجديدة تعبر عن نفسها ، وبدأت القصة

« القصيرة تأخذ شكلها الحديث ، كما طور أديسون المقالة الحديثه ، حيث بلغ بها حدا الاتقان والكمال في صيغته « سبكتانور » .

وولد أديسون وسقيل كلاهما في ١٦٧٢ ، وكانا صديقين منذ كانا يدرسان معا في مدرسه تشارترهاوس . وكان والدجوزيف أديسون قسيسا أنجليكانيا ، أشرب ابنه من التقوى والورع ما قاوم به كل مساوىء ومفاسد خترة عودة الملكية . وكسبت له براعته في اللاتينية منحه دراسيه . وفي سن الثانية والعشرين أعجب إرل هاليغا كس بمواهبه ، إلى حد أنه أقنع رئيس كليه ماجدلن بتحويل الشاب من سلك النكهنة إلى خدمة الحكومة . وقال هاليغا كس « يقولون عني أنني عدو لكنيسة ، ولكنى لن أعود للإساءة إليها قط ، بعد أن أحتفظ بمستر أديسون بميدا عنها (٧١) » ولما كانت المقدرة في اللاتينية غير مقرونة بمعرفة اللغة الفرنسية ، وكانت الحاجة إلى معرفة اللغة الفرنسية أساسية عند الدبلوماسيين فإن هاليغا كس خصص لأديسون ثلثمائة جنيه سنويا لينفق منها أثناء إقامته في القارة . ولمدة عامين تجول أديسون على مهل في أرجاء فرنسا وإيطاليا وسويسرا .

وبينا هو في جنيف إرتقت الملكة آن عرش إنجلترا فأبعد أصدقاءه عن مناصبهم ، وانقطع عنه راتبه . ولما لم يبق له إلا دخله الضئيل ، فإنه اشتغل معلما ومرشدا خاصا لسائح إنجليزي شاب ، وطاف معه بأنحاء سويسرا وألمانيا والمقاطعات المتحدة . ولما انتهت هذه المهمة عاد إلى لندن ١٧٠٣ ، وعاش لبعض الوقت في فقريسته التعفف وحسن المظهر . ولكنه كان « مغناطيسا » يجذب الثراء والحظ السعيد . ذلك أنه عندما انتصر دوق مالبورو في معركة بلنهييم في ١٣ أغسطس ١٧٠٤ فتش جودولفين وزير الخزانة عن شخص يخلد ذكر هذا النصر شعرا . وأوصى هاليغا كس بأديسون للقيام بهذا العمل ، واستجاب الشاب الموهوب بقصيدة ربانة « الحملة » ونشرت في نفس اليوم الذي دخل فيه مالبورو العاصمة دخول المنتصر الظافر ، وساعد نجاح القصيدة على أن توطن إنجلترا نفسها على

مواصلة القتال . إن جورج وشنجن آثر الشعر المخلق طاليا الذي كتبه أديسون على سائر القصائد . وإليك أبياتا مشهورة منها :

« يا ربة القريض ، أى شعر ترين أن أنشده القوات التى أشتملت فى نفوسها بيران الغضب ، للتراسة فى ميدان المعركة إلى أنى ليخيل إلى أنى أسمع دقات الطبول الصاخبة وصيحات النصر وأتات الموتى يختلط بعضها ببعض وطلقات للدافع للربعة تشق أجواز الفضاء ، وصيحات الحرب تدوى مثل الرعد . وهنا أثبت مالبورو العظيم بروحه العالية أنه راسخ كالطود ، لا يهتز لالتحامات الجيوش للهاجة ، وفى غمرة الضجة والفرع والياس ، يشهد كل مناظر الحرب الروعة ، ويشرف على ساحة الموت ثابت الجنان ، يفكر فى هدوء . ويرسل للددف الوقت للناسب لفرق المتخاذلة ، وينفخ فى الحارين للتردد من روجه فيدفعهم إلى الالتحام مع العدو ، ويحمدهد المعركة المتأرجحة أين تشتد وتهدم . كما لو أن ملكا من السماء ، بأمر من عند الله زلزل أرض الأعداء بريح طافية (كما حدث مؤخرا لبريطانيا الواهنة) . وفى هدوء ورصانة يسوق مالبورو العاصفة العاتية ، يعطيه نفسا بتنفيذ أمر الله سبحانه وتعالى ، فيمتلئ صهوة جواده وسط الرياح الهوجاء ويقود العاصفة ويوجهها كيف يشاء . »

وحقق البيت الأخير والتشبيه الملائكى لأديسون العودة سالما إلى وظيفة حكومية تدر عليه راتبا ، بقى فيها طيلة السنوات العشر التالية . وفى ١٧٠٥ عين عضوا فى لجنة الاستئناف ، خلفا لجون لوك . وفى ١٧٠٦ وكيلا لوزارة . وفى ١٧٠٧ ألحق ببعثة هاليفاكس إلى هانوفر ، التى هيأت لأسرة هانوفر السبيل لارتقاء عرش إنجلترا . وفى ١٧٠٨ اتخذ مقعده فى البرلمان ، وبفضل خدماته الجليلة احتفظ به حتى المات . وفى ١٧٠٩ أصبح السكرتير الأول لنائب الملكة فى أيرلنده . وفى ١٧١١ أُرِى إلى حد استطاع معه أن يشتري ضيعة فى رجبى بعشرة آلاف جنيه .

إن أديسون فى أيام الرخاء لم ينس ستيل . فأنبه على أخطائه ولسكنه

حياله منصباً حكومياً، وأقرضه مبالغ كبيرة من المال، وطالبه مرة واحدة أن يسدد لها (٧٢). وعندما صدرت صحيفة «The Tatler» غفلاً من الاسم، لاحظ إشارة إلى فرجيل كان قد ملح بها إلى ستيل، وفي «إيزاك بيكرستاف» عرف ثانية صديقه المتعرف المفلس وسرطان ما اشترك في الصحيفة. وفي ١٧١٠ سقطت حكومة الأحرار، وفقد ستيل وظيفته الحكومية، وفقد أديسون كل مناصبه باستثناء عضوية لجنة الاستئناف. واحتفلت صحيفة تاتلر بهذا العام بالاحتجاج عن الظهور. وشارك أديسون وستيل الواحد منهما الآخر آلامه وآماله، وفي أول مارس ١٧١١ أخرجاً أول عدد من أشهر الدوريات في تاريخ الأدب الإنجليزي.

وظهرت صحيفة «سبكتاتور» يومية - ماعداً يوم الأحد، في فرخ مطوى ذي أربع أو ست صفحات. وبدلاً من تحديد المقالات من مراكز مختلفة. ابتدع المحرر الجهور الاسم نادياً وهماً يمثل أعضاؤه قطاعات مختلفة من دنيا الانجليز: سير روجردي كوفرلى سيد من الريف، سير أندرو فريبورت يمثل طبقة التجار، ويتحدث الكاتبين سنترى باسم الجيش، أما ول هنيكوم فهو الرجل المعصرى المتألق، أما المحامى فى دار العدل فيمثل العلم والمعرفة، ويجمع مستر «سبكتاتور» نفسه بين وجهات نظرم فى إطار من المرح اللطيف والكياسة والذكاء، مما نفذت معه الصحيفة إلى بيوت الانجليز وقلوبهم جميعاً. وفى العدد الأول وصف مستر سبكتاتور نفسه، حتى جعل النوادى والمقاهى تحاول الكشف عن شخصيته بالحدس والتخمين:

«قضيت سنواتى الأخيرة فى هذه المدينة حيث يرافى الناس كثيرافى معظم الأماكن العامة، ولو أن عدد الصفوة المختارة من الأصدقاء الذين يعرفوننى لا يجاوز الستة، وسأحدث عنهم فى العدد القادم بشكل أدق. ولا يسكان يوجد مسكان يأوى إليه الناس بصفة عامة إلا وظهرت فيه، فإني أنا يرونى أدس أننى فى حلقة من رجال السياسة فى «مقهى ول».

مصنفيا بأ كبر إهتمام إلى ما يدور في هذه الاجتماعات الدورية . وأحيانا
أدخن غليونى ، وعلى حين يبدو أنى غير منمعت لشيء إلا ساعى البريد ،
فإنى أسترق السمع إلى النقاش الذى يدور على كل مائدة فى الغرفة . وفى
أمسيات الأحد أقصد إلى مقهى سان جيمس ، وانضم أحيانا إلى جماعة
السياسيين الصغيرة فى الحجرة الداخلية ، بوصنى رجلا يذهب إلى هناك
ليسمع ويستفيد . ووجبهى كذلك معروف تمام المعرفة فى « جريفان »
وفى مقهى « شجرة السكاكو » وفى مسارح « درورى لين » و « هاى
ماركت » على حد سواء . وكانوا يحسبوننى تاجرا فى « البورصة » طيلة
هذه السنوات العشر أو أكثر . وأحيانا حسبوا أنى يهودى من جماعة
السامسة الذين لا يوثق بهم فى « جوناتان » وجملة المقول إنى لأرى حشدا
من الناس إلا حشرت نفس فى زسرتهم ، ولو أنى لأأنس بننت شفة إلا فى
النادى الخاص بى .

وهكذا أعيش فى هذه الدنيا متفرجا ، لا واحدا من الجنس البشرى ،
وبهذه الطريقة جعلت من نفسى رجلا دولة وسياسة يطيل التأمل والتفكير ،
وجنديا وتاجرا ، وصانعا ماهرا ، دون أن أمارس العمل فى أى قطاع من
قطاعات الحياة . كما أنى على دراية تامة بشئون الزواج والآبوة ، وأستطيع
تبين وجوه الخطأ فى الإقتصاد وفى الأعمال وفى الانحراف ، أفضل بكثير
ممن يتولون هذه الأمور بأنفسهم ، لأن المتفرجين يكتشفون أخطاء
يمكن ألا تقع عليها أعين المشتركين فى اللعبة . إنى لم أناصر قط حزبا
فى اندفاع أو عنف . وإنى طافد العزم على أن أقف موقف الحياد الدقيق
بين الأحرار والمحافظين ، إلا إذا اضطرت إلى إعلان الإنحياز إلى أى من
الفريقين بسبب تصرفات غير ودية من الفريق الآخر . وصفوة القول إنى
كنت طوال حياتى « متفرجا » وتلك هى الشخصية التى أقصد ألا أحيده
عنها فى هذه الصحيفة .

ويتقدم للمشروع ، جمعت « سيكتاتور » بين الموضوعات الاجتماعية

ودراسات العادات والسلوك والأخلاق والنقد الأدبي واستعراض أحوال المسرح . وكتب أديسون سلسلة من المقالات عن ملتون أدش بها انجلقوا حين سما بقصيدة « الفردوس المفقود » فوق مرتبة « الياذة » هو ميروس ، « وائياذة » فرجيل . وتجنبت للنساقشات الخوض في السياسة التي تثير العداوات والتقلبات ، ولكن ألحت — واشترك في هذا أديسوق عن طيب خاطر — على دعوه ستيل إلى الإصلاح الاجتماعي . وظهر من جديد شيء من الروح البيوريتانية هذبة المحنة ، كرد فعل للنسكة التي اجتاحت فقرة عودة الملكية ، ولكنها لم تعد الآن انهماكا لاهوتيا كشييا مغزوا في التخويف من الشيطان ومن الخطيئة المهلكة ، بل دعوة إلى الاعتدال والاحتشام موسومة بالتفاؤل مغلفة بالدهاء والظرف . وعلى هذا النسق بدأ عدد ١٠ نوفمبر :

« إنه لما بيعت على الرضا والارتياح أن أرى المدينة العظيمة تلح يوما بعد يوم على طلب ضحيقتي هذه . وتستقبل مقالاتي الصباحية في جدية واهتمام مناسبين . ويقول الناشر أن ثلاثة آلاف نسخة منها توزع يوميا بالفعل . فإذا حسبت أن النسخة الواحدة يتداولها عشرون قارئاً ، وهو تقدير متواضع ، لأحصيت من المریدين ستين ألفاً في لندن ووستمنستر ، أمل أن يلحظوا الفرق بينهم وبين القطيع الطائش من أخوانهم الجبهة الغافلين ، ومذ حظيت بمثل هذا العدد الكبير من القراء فإني لن أدخر وسعاً في أن يكون ما أزدوم به من علم ومعرفة مقبولاً ، ومن تسلية نافعا مفيداً . ولهذا أحاول أن أحيي الأخلاق بالدعاية وألطف الدعاية بالفضيلة ، لعل قرأني يشقون إذا أمكن ، عن هذا السبيل أو ذاك ، طريقهم إلى التأمل فيما يجري حولهم كل يوم ، وغبه متى في ألا يكون حظهم من الفضيلة قليلا عابرا ، أو مجرد ومضات متقطعة من التفكير ، صبح عزمي على أن أنعش ذاكرتهم وعقولهم بين الحين والحين ، حتى أخرجهم من ظلمات اليأس والرهبة والحماقة التي تردي فيها هذا العصر . فإن العقل الذي يخلد إلى الدعة والراحة ولو يوما

وإحداً ، يشب على الحماقات والسخافات التي لا يمكن اقتلاعها إلا بالمداومة على تثقيفه تثقيفاً جاداً مثابراً . ولقد قالوا عن سقراط أنه أنزل الفلسفة من السماء لتسكن بين الناس على الأرض ، وكم تهفو نفسى أن يقال عنى أنى أقيمت بالفلسفة من الخناىء والمسكنبات والمدارس والجامعات ، لتستقر فى النوادى والجمعيات ، وعلى موائد الشاى ، وفى المقاهى .

من أجل ذلك أوصى ، بالنسبة لتأملاتى هذه ، وبصفة خاصة ، الأسرار التي ترى النظام والدقة فى حياتها ، أن تخصص فى كل صباح ساعة محددة لتناول الشاى والخبز والزبد ، وأنصحها جدياً ، وتغيرها هى ، أن تثابر على نراء هذه الصحيفة ، وتعتبرها جزءاً من تجهيزات الشاى .

وانجهت صحيفة « سبكتاتور » إلى النساء والرجال سواء بسواء ، فعرضت أن تعالج موضوع الحب والجنس ، وتصور « الحب الزائف أقيع وأشد قتاما من . . . الخيانة فى الصداقة أو النذالة والخسة فى التجارة وسائر الأعمال (٧٣) . وكتب أديسون يقول : « سيكون من أعظم مفاخر هذه المهمة التي أنهى بها أن تهى هذه الصحيفة بعض الموضوعات التي يخوض فيها بعض السيدات العاقلات المفكرات على موائد الشاى (٧٤) » . وشجعت الرسائل وطبعت ، وكتب ستيل نفسه سلسلة من الرسائل التي تشكو الحرمان من الحب والأحباب ، كان بعضها موجهاً إلى خليلاته ، وبعضها دمجهم المحررون فى أسلوب حديث جداً . وجمعت الصحيفة بين الدين والحب . وزودت باللاهوت المعتدل جيلاً بدأ يتسائل عن أثر تخلخل إيمان الطبقات العليا على الأخلاق . وأهابت بالعلم أن يتابع طريقه ، ويدع السكينية وحدها حارساً حكماً على الأخلاق ، فإن حقوق الوجدان ومتطلبات النظام تدل على إدراك الفرد وعقله ، فهو دوماً فى دور المراهقة . وخير للأخلاق وللسعادة الإنسان تقبل العقيدة القديمة فى خشوع ، وحضور صلواتها وخدماتها والالتزام بمطلاتها ، والمساعدة على خلق الجو المناسب ليوم العبادة الهادئة فى كل أبرشية .

« إنى لأجد السرور كل السرور فى يوم الأحد فى الريف ، وكم أتمنى لو أن تقديس اليوم السابع والتعطيل فيه كان مجرد نظام إنسانى ، إذن لأصبح أفضل وسيلة فكر فيها الإنسان لتهديب الجنس البشرى وصقله وتمدينه . ومن المؤكد أن أهل الريف سيخطون سريعا إلى نوع من المتوحشين والمتبررين إذا لم يعودوا دوما إلى زمن محدود تجتمع فيه القرية كلها بوجوه باسمة فى أبهى حلة ليتدارس أهلها فيما بينهم مختلف الموضوعات ، وليوضح لهم ما ينبغى عليهم أدائه من واجبات ، وليجتمعوا معا لعبادة الله » الكائن الأسمى . »

إن يوم الأحد يزيل صدا الأسبوع كله ، لا لأنه يحى الأفكار الدينية فى العقول . بل لأنه يجمع بين الرجال والنساء . والكل يبدو فى أحسن صورة (٧٥) . »

أما الأدب الذى كان مطية الأباكية والخلاعة طوال الأربعين عاما الماضية ، فقد انحاز الآن إلى جانب الأخلاق والإيمان . وأسهمت صحيفة سيكتاتور فى انقلاب السلوك والأسلوب الذى استبق فى عهد الملكية آن ، بقرن من الزمان ، روح أواسط العصر الفسكورى ، التى قضت بالآلا يحترم إلا من هم حقا جديرون بالإحترام ، وغيرت مفهوم الانجليز عن السيد الماجد « جنتلمان » من الرجل ذى اللقب الذى يحسن مغازلة النساء ، إلى المواطن المذهب الكريم النشأة . وفى « سيكتاتور » وجدت فضائل الطبقة الوسطى من يدافع عنها دفاعا مهذبا مصقولا . وكان التعقل وحسن التدبير وعدم التبذير أجدى على المجتمع وأتمن لديه من أناقة الثياب وسرعة الخطاير وكان التجار سفراء الحضارة إلى الشعوب المختلفة . وكانت عائدات التجارة والصناعة عصب الحياة للدولة .

وأحرزت صحيفة سيكتاتور نجاحا ومنزلة رفيعة ليس لهما مثيل فى الصحافة الانجليزية . وكان توزيعها ضئيلا ، لا يكاد يجاوز أربعة آلاف ، ولكن تأثيرها كان عظيما إلى حد بعيد . وكان يباع من مجموعاتها المجلدة

نحو تسعة آلاف نسخة سنويا (٧٦)، وكأنما أدركت انجلترا فعلا أنها لون من الأدب . ولكن بمرور الزمن بليت جدتها وخبا يريقها ، وبدأت شخصيات « النادى » تكرر نفسها ، وفقرت حيوية الكتاب المنهوكين ونشاطهم ، وأصبحت عظاتهم تبث السأم فى نفوس القراء . وهبط توزيع الصحيفة ، وزادت المعروقات على الإيرادات نتيجة ضريبة التبعة التى فرضت ١٧١٢ . وفى ١٦ ديسمبر ١٧١٢ احتجبت الصحيفة عن الظهور . وواصل ستيل الكفاح فى صحيفة « جارديان » . وأحيا أديسون صحيفة سبكتاتور ١٧١٤ . ولم يطل عمر الصحيفتين كليهما ، لأن أديسون كان قد أصبح آنذاك كاتباً مسرحياً ناجحاً ، وأعيدت إليه وظائفه ورواتبه الحكومية . وفى ١٤ أبريل ١٧١٣ أخرج مسرح « درورى لين » مسرحية « كاتو » لأديسون كتب لها صديقه بوب مقدمة زاخرة بالحكم والأفكار التى عرفت عنه ، مثقلة بالوطنية النائرة للتفائلة مما ، وأخذ ستيل على طاقه أن يحشد لمشاهدة للمسرحية كل « الأحرار » الفيورين المتحمسين ، فلم يوفق فى ذلك كل التوفيق ، ولكن « المحافظين » انضموا إلى الأحرار فى استحسان وقعة « كاتو » الأخيرة دفعا عن « الحرية الرومانية » (٤٦ ق. م.) وتبارسته صحيفة المحافظين « اجزامر » مع صحيفة ستيل « جارديان » فى نشوة الاتهام والاستحسان . واستمر العرض لمدة شهر كامل مع تزايد عدد المترددين على المسرح لمشاهدتها ، حتى قال بوب « لم يكن كاتو محل إعجاب ودهشة رومه فى زمانه قدوما هو موضع إعجاب ودهشة بريطانيا فى أيامنا هذه (٧٧) . واعتبرت كاتو فى القارة أجمل مسرحية « تراجيدية » فى اللغة الانجليزية . وأعجب فولتير بالتزامها بالوحدات ، وعجب كيف أن انجلترا تطبق صبرا على شكسبير بعد مشاهدة رواية أديسون (٧٨) . وهزأ النقاد اليوم بها على أنها خطابة ناعمة مضجرة . ولكن أحد القراء وجد أن انتباهه مهدود حتى النهاية بفضل الحبكة المسكة البناء وقصة الحب المدججة بشكل بارع فى الصراع الأكبر .

وازدادت الآن شعبية أديسون إلى حد قال معه سويفت « أعتقد أنه لو فكر في أن يختار للجلوس على العرش لكان من العسير أن يأبى عليه أحد هذه الرغبة (٧٩) ». ولكن أديسون الذي كان دوماً نموذجاً للاعتدال ، قنع بتعيينه وزيراً في الحكومة ، لثئون أيرلنده آنذاك ، ثم كبير مفوضي التجارة . وكان شخصية محبوبة جداً في النوادي ، لأن إدمانه على الشراب منعه من أن يكون « الرجل الشاذ البشع غاية البشاعة والشذوذ الذي لا يحبه الناس أبداً » . ورغبة منه في ترويج مجده وعظمته ، تزوج (١٧١٦) من كونيصة ، ولم يكن سعيداً في حياته مع السيدة المتجرفة في « هولندهاوس » في لندن . وفي ١٧١٧ عين ثانية وزيراً ، ولكن مقدرته كانت محل نزاع وشك . وسرطان ما استقال بمماش قدره ١٥٠٠ جنيه في العام . وعلى الرغم من تجلده وأدبه الجلم انزلت في عراك مع أصدقائه - ومنهم ستيل وهوب - الذي هجم بأنه متزمت اعتاد « أن يلعن الناس بالاطراء الباهت الحقير ، فهو : مثل كانوا يقدم لسناتو الهزيل القوانين ، ثم يتخذ مقعده لينمت إلى ما يكال له مد مديح (٨٠) .

وكانت خاتمة حياة ستيل أقل عظمة وجلالا من أديسون . أنه انتخب للبرلمان في ١٧١٣ ، ولكن الغالبية التي تلتقى إلى حزب المحافظين أخرجته بتهمة أن لغته محرصة مثيرة للفتنة . وفاز حزب الأحرار في السنة التالية ، فخطى ستيل بعدة مناصب إدارية تدر عليه مالا ، وتماذلت لفترة من الزمن موارده مع نفقاته ، ولكن ديونه طفت ، وطارده دائنوه ، وأوى إلى ضيعة زوجته في ويلز ، وهناك وافته المنية في أول سبتمبر ١٧٢٩ ، بعد شريكه بعشر سنين . أنهما معا : ستيل بأصائله وحيويته ونشاطه ، وأديسون بذوقه الفنى المصقول ارتقيا بالقصة القصيرة والمقال إلى آفاق جديدة من الجودة والانتقان ، وأسهما في ابتعاث الأخلاق من جديد في ذلك العصر ، وحددا طابع الأدب الانجليزي وشكله لمدة قرن من الزمان باستثناء المبقرية البالغة القوة والنف في هذا العصر .

جوناثان سويفت : ١٦٦٧ — ١٧٤٥

كان سويفت يكبر متيلاً وأديسون بخمس سنين . ولكنه صر بمسأ
أحدهما ست عشرة سنة ، وبعد الآخر ستا وعشرين . وكان بمثابة شحمة
متأججة سرت من قرن إلى قرن ، من دريدن إلى بوب . ولم يستطيع قط
أن يغتفر مولده في دبلن الذي كان طائفاً مثيراً للغضب في إنجلترا . وم كان
قاسياً عليه أن يقضى أبوه نجبه قبل ولادته ، وكان الوالد قهرمان قصر
الملك في دبلن . وعهد بالطفل إلى مرضعة حملته منها إلى إنجلترا ، ولم تعد به
إلى أمه إلا عندما بلغ الثالثة من العمر ، وربما ولدت هذه اللعاسرات
والخاطر في نفس الصبي شيئاً من قلق اليتيم . ولا بد أن هذا الشعور ازداد
عمقا في نفسه ، بانتقاله إلى عم له . سرعان ما تخلص منه ، وهو في السادسة
بالحاقه بمدرسة داخلية في كاسكني . وفي سن الخامسة عشرة التحق بترقي
كولدج في دبلن ، حيث ظل بها سبع سنين . وشق طريقه في السكينة بصعوبة
لأنه كان مهملاً في اللاهوت بصفة خاصة . وكثيراً ما قصر وعوقب ، وذاق صرامة
الفقر والحرمان عندما تعثر حظمه الذي تولى الاتفاق عليه ، وأصيب
بانهيار عصبي (١٦٨٨) . وعند موت صم ١٦٨٩ ، وفي ضربة ثورة أيرلنده
لنصرة جيمس الثاني ، هرب جوناثان إلى إنجلترا ، وإلى أمه التي كانت
تعيش في ليستر على عشرين جنيتها في العام . وعلى الرغم من طول الفراق
بينهما ، انسجما معا إلى حد معقول ، وتعلم كيف يحبها ، وزارها من حين
إلى حين ، حتى وفاتها (١٧١٠) .

وفي أواخر عام ١٦٨٩ وجد سويفت عملاً براتب قدره عشرون جنيتها في
العام مع الإقامة والطعام ، سكرتيراً لسيده ولیم تمبل في موربارك . وكان تمبل
حينذاك في أوج عظمته ، صديقا ومستشارا للملوك . ويجدر بنا ألا نقسو
في لومه لاختفاؤه في التعرف على العبقرية في الشاب ذي الاثنين والعشرين
ربيعاً الذي جاءه ببعض اللاتينية واليونانية ، وبعض اللهجة الأيرلندية مع
جهل ما كر باستخدام الشوكة والملعقة وعلاقة الواحدة منهما بالأخرى

على المائدة (٨١) وكان سوفيت يجلس مع كبار العاملين في خدمه نمبل ، إلى مائدة سيدم (٨٢) ، الذى لحظ دوما الفرق بينه وبينهم . ولكن نمبل كان فأرسل سوفيت ١٦٩٢ إلى أكسفورد ليحصل على درجة الأستاذية . وأوصى به عطوفا ، ولیم الثالث خيرا ، ولكن دون جدوى .

وفى نفس الوقت كان سوفيت يكتب مقطوعات شعرية من ذات البيتین . عرض بعضها على دريدن الذى قال له « ياسوفيت ، يابن العم ، إنك لن تكون شاعرا أبدا » — وهى نبؤة كانت دقتها تجل عن إحراك الشاب وتقديره . وفى ١٦٩٤ ترك سوفيت خدمة نمبل ، مع توصية منة . فعاد إلى إيرلنده ، ورسم قسيسا أنجليكانيا (١٦٦٥) وعين فى وظيفة كنسية صغيرة صغيرة ذات راتب فى كلروت بالقرب من بلفاست . وهناك وقع فى غرام جين دارنج التى سماها « فاريا » ، وعرض عليها الزواج ، ولكنها أمهاته حتى تتحسن صحتها ويزداد دخله . ولما لم يطق صبرا على هذه العزلة القاتلة فى أبرشية ريفية ، هرب من كلروت ١٦٦٩ وعاد أدراجه إلى نمبل وظل فى خدمته حتى مات هذا الأخير .

وكان سوفيت فى عامه الأول فى موربارك ، قد التقى بأسترجونسون . التى قدر لها أن تصبح « Stella » . وتناثرت بعض الشائعات بأنها نتاج شيء من طيش سيروليم نمبل ، الذى كان نادرا . والأرجح أنها ابنة تاجر من لندن . التحقت أرملته بخدمة ليدى نمبل . وعندما رآها سوفيت لأول مرة كانت فى سن الثامنة ، تبعث على السرور والابتهاج مثل حائر البنات فى هذه السن ، ولكنها كانت أصغر من أن تثير فيه لواعج الغرام والهيام . أما الآن وهى فى الخامسة عشرة ، فقد اكتشف سوفيت ، معلمها الذى ناهز التاسعة والعشرين ، أن مغازنها تثير للشاعر البدائية لدى السكان المحروم ، لها عينان سوداوتان براقتان ، وشعر أسحم ، وصدر منتفخ ، « رشيقه رشاقة غير معهودة فى البشر . فى كل حركة وفى كل كلمة وفى

كل عمل « (هكذا وصفا سويفت فيما بعد) ، « ركب كل تقاطيع وجهها في أحسن صورة (٨٣) » فكيف لاتفتن هلاز هذه محلها أيبلاذ (*) .

وعندما توفي تمبل ١٦٩٩ ترك لأستر ألف جنيه واسويفت مثلها . وبعد آمال خائبة في الالتحاق بوظائف الحكومة ، قبل سويفت الدعوة ليكون قسيسا وسكرتيرا لدى أرل بركلى الذى كان قد عين لفوره قاضى القضاة فى أيرلنده . وحمل سكرتيرا للرحلة إلى دبلن ، ولكنه هناك فصل عن عمله . فطلب أن يعين رئيسا لكتبة « درف » وهو منصب كان على وشك أن يشغره . ولكن السكرتير الجديد ، لقاء رشوة قدرها ألف جنيه ، خص بالوظيفة مرشحا آخر . واتهم سويفت إرل بيركلى والسكرتير كليهما ، وجها لوجه ، بأنهما « وغدان حقيران » . فعملا على تهدئته بتعيينه قسيسا فى « لاراكور » ، وهى قرية على بعد نحو عشرين ميلا من دبلن ، لايزيد شغرها على خمسة عشر شخصا . والآن فى ١٧٠٠ بلغ دخل سويفت ٢٣٠ جنيها ، وهو دخل حسبه جين وارنج كافيا لإتمام الزواج . ومهما يكن من أمر ، فقد مضت أربع سنوات على مغابته لها فى أمر الزواج ، وفى نفس الوقت كان قد وفقت عينه على أستر . فكتب إلى جين يقول أنها إذا تزودت بتسقط من التعليم يؤهلها لتكون شريكة صالحة لحياته ، وتمد بأن ترضى عن كل ما يحب ويكره ، وتخفف من متاعبه ودراسته ، فإنه يتزوجها دون نظر إلى وسامتها وجمالها أو إلى دخلها (٨٤) .

ومذ كان سويفت وحيدا فى لاراكور ، فإنه كثيرا ما تردد على دبلن . وهناك فى ١٧٠١ حصل على درجة الدكتوراه فى اللاهوت ، وبعد ذلك فى نفس العام « دعا أستر جونسون وصديقتها مسز روبرت دنجل ليهضرا ويقيا معه فى لاراكور ، فقدمتا واتخذتا مسكنا بالقرب منه . وفى أثناء تغيبه فى انجلترا شغلتا مسكنه الذى كان قد استأجره فى دبلن وكانت أستر

(*) فيلسوف ولاهوتى فرنسى القرن الحدى عشر ، تزوج تلميذته وشيعته هلاز .

(ستيللا) تتوقع منه أن يتزوجها ، ولكنه تركها تنتظر طيلة خمسة عشر عاما ، واحتملت هي هذا الموقف الذي وضعها فيه على مضض ، واتابها الاضطراب والكتابة . ولكن قوة شخصيته وحدة تفكيره ، أخذتا جذوتها وكأنا وقعت تحت تأثير تنويمه المغناطيس حتى النهاية .

وتألفت حدة ذهنه بشكل مباغت حين نشر في ١٠٧٤ في مجلد واحد « معركة الكتب » و « حكاية حوض الاستحمام » . والأول اسهام موجز لا يستحق الذكر في الجدل حول للزايا النسبية للأدب قديمة وحديثة . أما الثاني فهو عرض هام لفلسفة سوينف الدينية أو غير الدينية . وقال سوينف عندما أجاد قراءه كتابه هذا في أخريات أيامه : « يا إلهي : أية عبقرية أملت على هذا الكتاب ؟ » (٨٥) . وأحبه كثيرا إلى حد أنه في الطبقات التالية أنحفه بخمسين صحيفة أخرى من الهراء ، على شكل مقدمات واعتذارات . وكان يفاخر ويزهو بأن الكتاب ينم عن أصالة بالغة . ومع أن الكنيسة كانت منذ أمد بعيد قد أكدت أن المسيحية هي « رداء المسيح السليم الذي لاشية فيه » ولكن الإصلاح البروتستانتي مزقه أربا كان أحدا - خصوصا كارليل في Sartor Resortus - لم يطمع في القوة التي لم يسبق لها مثيل التي رديها سوينف كل الفلسفات والديانات إلى مجرد أردية تستخدم لستر جهلنا المرتجف أو اخفاء رغباتنا الجامحة للفضوحة :

« هل الإنسان نفسه إلارداء بالغ الصغر أو على الأصح مجموعة كاملة من اللابس بكل زخارفها وزركشتها ؟ . أليست الديانة عبادة ، والأمانة حذاء بلى بالوحل ، وحب الذات معطفا ضيقا ضيق الضيق ، والغرور قيصا ، أليس الضمير إلا سروالا (بنطلونا) يستر الخلاعة والقذارة ، ولكن من السهل نزعه لخدمه الخلاعة والقذارة كليهما ؟ فإذا وضعت بعض قطع القراء الرخيص أو الثمين في موقع معين من الرداء فإننا بذلك نصنع قاضيا وحكما . ومن ثم فإن وضع بعض الشاش والأطلس الأسود بعضهما إلى بعض يشكل مناسبا يصنع لنا أسقفا » (٨٦) .

وجرت استعارة الرداء هنا بدقة ورقة . أن بيتر (الكاثوليكية) ، ومارتن (اللوثرية والأنجليكانية) وباك (الكلفنية) تسلموا ، ثلاثتهم ، من أبيهم وهو يحضر ، ثلاثة أردية جديدة متماثلة (كتباً مقدسة) إلى جانب وصية توجهم كيف يلبسونها ، وتحرم عليهم إبدالها ، أو إضافة خيط واحد إليها أو انتقاص خيط واحد منها ووقع الأبناء الثلاثة في غرام سيدات ثلاث : «دوقة للمال» . أى الثراء ، و «آنسة الألقاب الفخمة» أى الطمع ، «وكونتيسة الكبرياء» أى الغرور . ولكن الأخوة الثلاثة ، رغبة منهم في إرضاء هؤلاء السيدات ، يعمدون إلى إحداث بعض التغيير في أرديتهم الموروثة . ولما بدا لهم أن التغييرات تتعارض مع وصية أبيهم ، أعادوا تفسير الوصية بتأويلات صادرة عن علماء ومثقفين . أما بيتر فقد أراد أن يضيف حواشي وأهداباً من الفضة (البذخ الباهوى) . وسرطان ما اتضح للعلماء الثقة أن لفظة «الهدب أو الحاشية» فى الوصية تعنى عصا الكنيسة الطويلة . وهكذا اختار بيتر الحواشى الفضية ، ولكنه حرم على نفسه عصا الكنيسة الطويلة «السحر» . وفرح البروتستانت (المحتجون) حين وجدوا أقصى الهجاء والنقد يوجه إلى بيتر : إلى شرائه قارة كبيرة (للمطهر) مكان تطهر فيه نفوس الأبرار بعد الموت بعذاب محدود الأجل) ثم يبعه (أى المطهر) فى أجزاء متفاوتة (مكوك الغفران) للزرة بعد الأخرى ، وإلى علاجات الناجحة الحالية من الآلام طادة (الكفارات) للديدان (أى وخزات الضمير) — وعلى سبيل المثال : «الامتناع عن أكل شئ» بعد العشاء لمدة ثلاث ليال . «وأن يخرج على الإطلاق ربحاً من الجانبين دون سبب واضح» (٨٧) ، وكذلك وجه النقد إلى بيتر لا ابتداع «وظيفة الهمس» (أى الاعتراف) «لتخفيف وراحة المعصايين بوسواس المرض أو الذين أرهقهم المنص» و «وظيفة التأمين» (أى مزبد من الغفران) ، «الخلل البالى المشهور» (الكاثوليكي) ويعنى به «الماء المقدس» ، على أنه وقاية من الضعف والانحلال . وحيث تزود بيتر بهذه الوسائل والحيل الحكيمة فإنه ينصب نفسه ممثلاً لله رب . ويصف

فوق رأسه ثلاث قبعات ذات تاج عال . ويمسك في يده بمصا يختال بها ،
 وإذا رغب الناس في مصافحته ، قدم لهم « كأن كلب مدرب تدريبا جيدا »
 قدمه (٨٨) . ويدعو بيتر إخوته إلى الغذاء ، ولا يقدم لهم غير الخبز ،
 ويؤكد لهم أنه ليس خبزا بل لحما ، ويدحض اعتراضاتهم ويقول « لا قناعكما
 بأنسكا لستما إلا شخصين أحقين جاهلين عنيدين أحمين حقا » ، إن
 استخدم إلا حجة واحدة : والله إنه لحم ضأن طيب طبيعي مثل أى لحم
 ضأن في « ليدنهول ماركت » ، صب الله عليكم اللعنة الأبدية إذا
 صدقتما غير ما أقول (٨٩) . ويثور الأخوان ، ويستخرجان « نسخا
 حقيقية » من الوصية (ترجمة الكتاب المقدس باللغة الوطنية) ، ويشجبان
 بيتر على أنه دجال محتال . وبناء على هذا طرد بيتر أخويه من داره ، ولم
 يستظلا بسقفه منذ ذلك اليوم إلى يومنا هذا (٩٠) . وسرعان ما دب النزاع
 بعد ذلك بين الأخوة : إلى أى حد يبنذون أو يغيرون من أثوابهم الموروثة .
 ويعتزم مارتن ، بعد ثورة غضبه الأولى ، أن يلتزم جادة الاعتدال .
 ويتذكر أن بيتر أخوه . أما بيتر ، فإنه على أية حال يمزق ثوبه أربا (شيع
 كلثونية) . ويصاب بمسات من الجنون والغيرة . ويستطرد سويفت أيعرف
 عمليات الريح (ويقصد بها الوحي والالهام) عند العولسيين - نسبة إلى
 عولس إله الرياح « ويعنى بهم » الوعاظ الكلفنيين . ويسخر كثيرا -
 سخرية لا يجوز نقلها هنا - من ألفاظهم الأنغية الحادة ومن نظرياتهم في
 القضاء والقدر ، وتقديسهم الأسمى للنصوص المقدسة (٩١) .
 وإلى هنا ، لم يعصب مذهب الكاتب - المذهب الأنجليكاني إلا اليسير
 من الجراح . ولكن سويفت يسترسل في القصة ، ويغير الأثواب إلى رياح ،
 ومن الواضح أنه ينتمى إلى أن كل الديانات والفلسفات - لا لاهوتيات
 الملشقين فحسب - ليست إلا أضاليل وأوهاما كاذبة سريعة الزوال .
 « إذا استعرضنا الانجازات العظيمة التي تمت في العالم . . . مثل تكوين
 الامبراطوريات الجديدة عن طريق الغزو والفتح ، وابتداع وعر مذاهب
 ١٨ - قصة الحضارة

جديدة في الفلسفة ، واستنباط أديان جديدة ونشرها ، فلسوف نجد أن الذين قاموا بهذا كله ، ليسوا إلا أشخاصا هيأت لهم عقولهم الطبيعية أن يقوموا بانقلابات كبيرة ، بفضل غذائهم وتعليمهم ، ومزاج معين سائد ، بالإضافة إلى تأثير خاص للهواء والمناخ .. لأن عقل الإنسان المستقر في محله ، لا بد أن ترهقه وتغمره أبحر ورياح صاعدة من القوى والوظائف الجسدية الدنيا لتسقي المخترعات وتجعلها مثمرة (٩٢) .

ويسترسل سويفت في تفصيل فسيولوجي لا يمكن ذكره ، لما بداله أنه مثال رائع لافرازات داخلية تولد أفكاراً قويه ، من ذلك « المشروع الكبير » لهنري الرابع : ذلك أن ملك فرنسا لم يوح إليه بشن الحرب ضد آل هابسبرج ويستحثه عليها ألا تفكيره في الإستحواذ في طريقه على امرأة (هي شارلوت مونورنس) التي حرك جهالها في الملك عصارات مختلفة « صعدت إلى مخه (٩٣) » وهذا هو بالمثل ما حدث بسكبار الفلاسفة الذين حكم عليهم معاصروهم بحق بأنهم « فقدوا عقولهم » :

« ومن هذا الطراز كان أبيقور ، ديوجين ، ، أبولونيوس ، لوكريشس ، ياراسلسوس ، ديسكارت ، وغيرهم ، ممن لو كانوا على قيد الحياة الآن ، .. لتعرضوا في هذا العصر المتميز بالفهم ، لخطر واضح ، خطر فصد الدم ، والسيوط ، والأغلال ، والحجرات المظلمة والقتل (في السجون) أما الآن فقد يسرنى أن أعرف كيف أنه من الميسور أن نعلم لهذه التصورات والأفكار ، .. دون إشارة إلى الأبحر التي تتصاعد من القوى والوظائف الجسدية الدنيا ، حيث تلقى ظلالاً معتمه على المخ ، فتقطر أو تتساقط متاهيم لم تضع لها لغتنا الضيقه بعد أسماء غير الجنون أو الخبل (٩٤) .

ولمثل « هذا الخلل أو التحول في المخ بفعل الأبحر المتصاعدة والقوى والوظائف الجسدية الدنيا » يمزو سويفت كل الانقلابات أو الثورات التي حدثت في الإمبراطورية والفلسفه والدين (٩٥) ويخلص إلى أن كل مذاهب الفكر عبارة عن رياح من الألفاظ ، وأن الرجل العاقل لا ينبغي له أن ينفذ

إلى الحقيقة الباطنة للأشياء ، بل يقنع نفسه بالسطح أى بظواهر الأشياء ،
هو بناء على هذا يستخدم أحد التشبيهات اللطيفة التى ينحطف إليها دائماً :
« رأيت فى الأسبوع الماضى امرأة سلخ جلدها ، ولن تصدق أنت بسهولة
إلى أى حد تغير شكلها إلى أسوأ مما كانت (٩٦) » .

إن هذا الكتاب الصغير الخزى الذى وقع فى ١٣٠ صحيفة ، جعل من
سويغت فى الحال « سيد الهجاء » — أو كما سماه فولتير : رابليه آخر فى
صورة متقنة . إن القصص الرمزى أو المجازات إنستت إتساقاً حرفياً مع
معتقداته الأنجليكاني التقليدى . ولكن كثيراً من القراء أحسوا بأن
الكاتب متشكك ، إن لم يكن ملحدآ . أما رئيس الأساقفة شارب فإنه
أبلغ الملكة آن أن سويغت لم يفضل الكافر بشيء كثير (٩٧) . وكان من
رأى دوقه مالبورو الصديقة الحميمة للملكة ، أن سويغت :

« حول ، منذ زمن طويل ، كل الديانة إلى « قصة حوض الاستحمام »
على أنها وابعها دطابة . ولكنه كان قد إستاء من أن « الأحرار » لم يكافئوه
بالترقية فى الكنيسة على ما أظهر من غيرة شديدة على الدين بهزله الدنس ،
ولذلك سخر الحاداه ومزاحه ومرحه فى خدمة أعدائهم (٩٨) » .

كذلك نعمته ستيل بأنه كافر ، ووصفه نوتنجهام فى مجلس العموم بأنه
عالم لاهوتى « من المسير أن يشك فى أنه مسيحى (٩٩) » . وكان سويغت قد
قرأ هوبز ، وهى تجربة ليس من اليسير نسيانها . ذلك أن هوبز كان قد بدأ
بالخوف ، وانتقل إلى المذهب للادى ، وانتهى بأن يكون « محافظاً » يناصر
الكنيسة الرسمية .

وكان لرجال الدين قليل من العزاء فى أن سويغت أخرج مؤلفاً فى
الفلسفة :

« إن مختلف الآراء الفلسفية انتشرت فى أنحاء العالم ، وكأنها أمراض
طاعون أصابت العقل » كما نشر صندوق بندوقا (*) الأوبئة التى تعيب
(*) Pandora — فى الأساطير اليونانية — أول امرأة فالية مملكة أرسلها الإله =

الجسم ، مع طارق واحد ، هو أن الطاهون لم يترك شيئاً من الأمل في القاع إن الحقيقة خافية على الناس ، قدر خفاء منابع النيل ، ولا يمكن وجودها إلا في « بوتويا » (المدينة للثالية) (١٠٠) .

ومن الجائز أن سويغت ، لأنه أحس بأن الحقيقة لم تقصد للبشر ، ببد في إصرار شديد كل الفرق الدينية التي ادعت أن مذهبها « هو للذهب الصحيح » . وازدري الرجال الذين زعموا — مثل بايان وبعض الكويكرز — أنهم رأوا الله أو كلوه . وانتهى ، مع هوبز ، إلى أنه ضرب من الاتجار الاجتماعي أن تترك لسكل إنسان الحرية في أن يصنع عقيدته أو مذهبه بنفسه ، حيث لن تكون نتيجة ذلك إلا عاصفة هوجاء من السخافات يصبح معها « بيارستانا » أو مستشفى الأمراض العقلية . ومن ثم طارض سويغت حرية الفكر ، على أساس أن « جمهور البشر مؤهل لطيران قدر ما هو مؤهل للتفكير » (١٠١) . واستنكر التسامح الديني ، وظل لآخر حياته يؤيد « قانون الاختبار » الذي قضى بإقصاء غير أتباع الكنيسة الرسمية عن كل الوظائف السياسية والعسكرية (١٠٢) . واتفق مع الحكم الكاثوليك واللوثرين على أنه يجب أن يكون الأمة عقيدة دينية واحدة . وحيث أنه ولد في إنجلترا ، ومذهبها الرسمي هو الأنجليكاني ، فإنه رأى أن الاتفاق العام الكامل على اعتناق هذا المذهب أمر لا غنى له عنه لعملية تمدين الإنجليز ونشر سويغت في ١٧٠٨ بعض القطع : « أحاسيس رجل يتبع كنيسة إنجلترا » ، « والدليل على أن إلغاء المسيحية في إنجلترا قد يستتبع بعض المتاعب والمشاكل وللزيجات » وكان آنذاك في طريقه من الأحرار إلى المحافظين .

وكان أول ارتباط سياسي له — بعد ترك نجل — مع الأحرار ، حيث

== زبوس ، عقاباً للبعير على مرقعة بروميثيوس للنار . أعطاها زبوس سندوقاً منهته فاطلقت منه إلى الدنيا كل الملل والأمراض التي تصيب الجسم ، (وهي رواية حديثة أطلقت منه كل فهم الحياة فتبددت وضاعت هباء منثوراً ، ولم يبق إلا مجرد الأمل .

بذاته أنهم حزب أكثر تقدمية ، ومن الأرجح أن يجذبا عملا لرجل أكبر عقلا وأقل ثراء . وفي ١٧٠١ نشر كتيباً يناصر فيه حزب الأحرار وكله أمل في الظفر بشيء . ورحب هاليفاكس وسندرلند وغيرهما من زعماء الأحرار ، بانضمامه إلى حزبهم ، ووعدوه خيراً إذا تولوا الحكم . ولكنهم لم ينجزوا ما وعدوا ، ويحتمل أنهم خشوا من أن سويقت رجل لايسهل قيادته ، وأن قلته سلاح ذو حدين ، وفي رحلة موسعة من إيرلنده إلى لندن في ١٧٠٥ كسب سويقت صداقة كونجريف وأديسون وستيل . وأهداه أديسون نسخة من « رحلات إلى إيطاليا » وكتب في عبارة الاهداء « إلى جوناثان سويقت ، أحسن رفيق وخير صديق ، أعظم عبقرية في زمانه يقدم خادمه الدليل ، المؤلف ، هذا الكتاب (١٠٢) » ، ولكن هذه الصداقة ، مثل صداقة جوناثان مع ستيل وبوب ، لم تدم ، وأنت عليها نيران سويقت المتقدمة أو ثورته للتصاعدة .

وفي زيارة أخرى لمدينة لندن ، تسلى سويقت بتدمير منجم دمي . ذلك أن جون بارتريدج ، الاسكافي ، أخرج كل عام تقويماً زاخراً بالنبوءات للمؤسسة على حركات النجوم . وفي ١٧٠٨ نشر سويقت تحت اسم مستعار « ايزاك بيكرستاف » تقويماً منافساً . وكان من بين تنبوءات ايزاك ، أنه في الساعة الحاية عشرة من مساء يوم ٢٩ مارس سيقضى بارتريدج نجه . وفي ٣٠ مارس نشر بيكرستاف في نشوة الانتصار رسالة أعلن فيها أن بارتريدج مات في ظرف بضع ساعات من الموعد المحدد في النبوءة ، وذكر في تفصيل مقنع ترتيبات الجنائز . وأكد بارتريدج لمدينة لندن بأسرها أنه لا يزال حياً يرزق . ولكن ايزاك رد بأن هذا محض افتراء . وأدرك طرفاء للمدينة المحددة . ورفع مكتب التسجيلات اسم بارتريدج من سجلاته أما ستيل فإنه اختار ايزاك بيكرستاف اسماً لمحرر وهمي في صحيفة « قاتل » عند افتتاحها في السنة التالية .

وفي ١٧١٠ طار سويقت لارا كور مرة أخرى ، موفداً عن الإساقفة

الآيرلنديين ليطلب إلى الملكة آن أن تمديد معونتها إلى رجال الدين الأنجليكان في أيرلنده : ورفض جودلفين وسومرز ، وهما عضوان من حزب الأحرار في مجلس الملكة ، للموافقة على هذا إلا إذا وافق رجال الدين هؤلاء ، على التخفيف من حدة « قانون الاختبار » والارضاء من قبضته . وعارض سويغت بشدة التخفيف المطلوب . واكتشف الأحرار أنه كان « محاظا » بالنسبة للعقيدة الدينية . واعترف سويغت عمليا بأنه « محاظ » بالنسبة للسياسة أيضا ، حين كتب : « انى كنت أمقت دوما هذا النهج السياسى . . ألا وهو وضع مصالح ذوى المال فى مواجهة مصالح مالكى الأرض (١٠٤) » . ولجأ الى زعيمى المحافظين ، هارلى وبولنجبروك واتى ترحيبا حارا ، وأصبح بين عشية وضحاها « محاظا » راسخا ، وعين محررا لصحيفة المحافظين « إجزامز » . وأبرز أسلوبه بوضوح عندما وصف نائب حاكم أيرلنده — وهو من حزب الأحرار ، وكان أديسون صديق سويغت ، سكرتيراله :

« ان توماس إرل وارتون . . . بحكم دستور غريب ، قضى بضعة أعوام من سنى اليأس التى تقدم بها عمره ، دون آثار بارزة للشيوخوخة فى جسمه أو فى عقله . وعلى الرغم من مقارفته المستمرة لسكل الموبقات التى تمتص الجسم والعقل كليهما . . فإنه يذهب دوما إلى الصلاة . ويتحدث حديث الفسق والفجور والتجديف على باب الكنيسة ، فهو مشيخى فى السياسة ملحد فى العقيدة . ولكنه يؤثر الآن أن يفجر مع البابوية (١٠٥) »

وسر الوزراء « المحافظون بهذا الهجاء اللاذع الذى يشبه القتل ، فعهدوا إلى سويغت بكتابة فذلركة « سلوك الحلفاء » (نوفمبر ١٧١١) ، كجزء من حملتهم لاسقاط مالبورو وانهاى حرب الوراثة الأسبانية ، واحتج سويغت بأن الضرائب الاسقنناية التى فرضت لتمويل الحروب الطويلة ضد لويس الرابع عشر يمكن خفضها بقصر اسهام انجلترا فى الحروب على البحر ، وأوضح بأجلى بيان هكوى مالكى الأرض من أن عبء نفقات الحرب

وقع على عاتقهم أكثر مما على طاق للتجار وأصحاب المصانع الذين كانوا يستفيدون من الحرب . أما بالنسبة لدوق مالبورو فقد قلّ سويفت « هل كان من حسن الرأي شن الحرب ، أو لم يكن ؟ » . واضح أن الدافع إلى الحرب ، هو الرفع من شأن أسيرة بعينها ، وبعبارة موجزة أنها حرب لحساب القائد ووزارة الأحرار ، وليست حربا لحساب الملك والشعب (١٠٦) وقدّر الكاتب رواتب مالبورو وتعويضاته بنحو ٢٠ ألف جنيه « وهذا الرقم دقيق (١٠٧) » . وبعد شهر واحد سقط مالبورو وصورت الدوقة زوجته الجريئة الصريحة وهي الوحيدة في إنجلترا التي كان لسانها حادا لا ذعا ، مثل لسان سويفت — صورت في مذكراتها المسألة من وجهة نظر الأحرار ، فقالت :

« أن السيدين المحترمين مستر سويفت ومستر برور أمرتا فخرنا فسيهما ببيع ٠٠٠ وكلاهما من اللوهويين القادرين ، وهما مستعدان لتسخير كل مالديهما لخدمة أية قرية مخزية طالما كانت المكافأة مجزية . لأن كليهما لا يبالي بحمرة الخجل ولا بالسقوط أو الانزلاق من أجل مصلحة سادتهم الجدد (١٠٨) »

وكافأ المحافظون تابيعهما الجديدين . فعينوا ماتيو برور في منصب دبلوماسي في فرنسا حيث أبلى بلاء حسنا . ولم يحصل سويفت على أي منصب ولكنه كان صديقا حميما وثيق الصلة بوزراء المحافظين ، فاستطاع بذلك أن يحصل لكثير من أصدقائه على وظائف تدر مالا وفيرا ولا تقتضى عملا كثيرا . وكان مثال الكرم والعطف على من لم يعارضوه أو يهاجموه . وزعم فيما بعد أنه أهدى لخسين شخصا أكثر خسين مرة مما أهداه إليه سير ولیم نبل (١٠٩) . واقنع بولنجبروك بمساعدة الشاعر جاي Gay وألح على وجوب استمرار الوزارة في دفع الراتب الذي كان الأحرار يدفعونه لسكونجريف . ولما طلب بوب جمع بعض التبرعات لمعاونته على ترجمة هوميروس ، أمر سويفت كل أصدقائه وكل طلاب الوظائف بالتبرع ،

وأقسم « أن المؤلف لن يشرع في الطبع قبل أن يجمع له ألف جنيه (١١٠) » وغطت شخصيته على مكانة أديسون في الأندية ، وكان في كل ليلة تقريبا يتناول العشاء مع العظما . ولم يكن يطيق من أحدم أية ممة من ممت التعالى عليه . وكتب يوما إلى ستيللا « إننى مزهو متكبر إلى حد أنى أجعل اللوردات يأتون إلى ٠٠٠ كان مفروضا أن أتناول العشاء فى قصر أشبيرنهام ، ولكن هذه السيدة المنحطة القذرة لم تعرج علينا لنصحبها فى عربتها ، ولكنها أرسلت فى طلبنا خصب ، ولذلك أرسلت إليها اعتذارا (١١١) » .

وفى السنوات الثلاث (١٧١٠ - ١٧١٣) فى إنجلترا كتب سوينف الرسائل العجيبة التى نشرت فيما بين ١٧٦٦ - ١٧٦٨ تحت عنوان « يوميات إلى ستيللا » . إنه كان فى حاجة إلى صديقة حميمة إلى جانبه فى العشاء لدى الأدواق والدوقات ، وفى انتصاراته السياسية . أضاف إلى ذلك أنه أحب للمرأة الصابرة ، التى ناهزت الثلاثين آنذاك ، ولكنها ظلت تنتظره حتى يحزم أمره . ولا بد أنه أغرم بها ، لأنه كتب لها أحيانا مرتين فى اليوم الواحد ، وأظهر اهتمامه وتعلقه بكل ما يعنىها ، اللهم إلا الزواج . وما كان ينبغى لنا أن نتوقع من مثل هذا الرجل للتبذير للتفطرس ، هذا اللزاح الرقيق ، وهذه الألقاب والكنيات الغربية ، والنكات والتوريات ، والحديث المصبيانى ، مما حبه سوينف فى رسائله التى لم يتوقع نشرها . أنها وسائل زاخرة بالملاطفة والتدليل ، ولكنها خلو من أى عرض أو اقتراح ، اللهم إلا إذا كانت ستيللا قد قرأت وعدا بالزواج فى رسالته للورخة ٢٣ مايو ١٧١١ : « لن أطيل الحديث ، ولكنى أتوسل إليك أن تهدفى حتى يقضى الله أمرا كان مفعولا ، وأن تنق بأن سعادتك هى غاية ما أمتبو وأسمى إليه فى كل ما أحمل (١١٢) » ومع ذلك فإنه فى هذه الرسالة يطلق عليها « الطفلة للزعجة ، الساذجة الفتاة للغناج ، البنى ، للمرأة القذرة ، السكبة المحبوبة » ، وغير ذلك من ألقاب التدليل والملاطفة . واما للنفس روح الرجل

حين يقول لها :

« كنت هذا المساء مع الوزير في مكتبه . وحلت بينه وبين العفو عن رجل اتهم باغتصاب امرأة . وكان الوزير راغبا في انقاذه ، على أساس فكرة قديمة تقول بأن المرأة لا يمكن أن تغتصب . ولكنني أبلغت الوزير أنه لا يمكن العفو عن الرجل إلا بناء على تقرير مناسب من القاضي . هذا بالإضافة إلى أنه عازف كان حاث ، ومن ثم فهو وغد ، ويستحق الشنق لتصرفات أخرى . ومن ثم لا بد أن يموت شنقا . ماذا ؟ إنى لا بد أن أدافع عن شرف الجنس اللطيف ، حقا أن الرجل قد ضاعها مائة مرة من قبل ، ولكن ماذا يعني في هذا ؟ . هل يجب أن تغتصب المرأة لأنها بنى (١١٣) ؟ » .

وقد تعيننا هـلل سويقت الجسيمة على فهم السر في رداة طبعه وسرعة غضبه ، أنه منذ ١٦٩٤ ، وهو في السابعة والعشرين من العمر ، بدأ يعاني من دوار في الأذن الداخلية ومن حين لآخر ، وبشكل لا يمكن التنبؤ به ، أصابته نوبات من الدوار وتشويش الذهن والصمم . ونصح طبيب مشهور هو دكتور رادكليف بأن يوضع سائل مركب داخل كيس في لمة (الشعر الذي يجاور شحمة الأذن) سويقت ، واشتدت به العلة على مر السنين ، وكان من الجائز أن تسبب له الجنون . ويحتمل أنه في ١٧١٧ قال للشاعر ادوار بنج ، مشيراً إلى شجرة ذابلة « إنى سأموت مثل هذه الشجرة سأموت في القمة (١١٤) . » وكان هذا وحده كافياً ليتشكك في قيمة الحياة ، وليرتاب قطعاً في وجه الحكمة في الزواج . ومن الجائز أنه كان حزيناً ، ولكننا لا نستطيع الجزم بهذا . واعتاد على كثرة للشئ اتقاء لـهزال جسمه ، فشئ مرة من فارنام إلى لندن : ٣٨ ميلا .

وزاد من شدة مرضه حدة حواسه مؤلمة ، وهى عادة تلازم حدة الذهن وفرط القاء . وكان بشكل خاص شديد الحساسية للروائح في شوارع المدن وفي الناس . فاستطاع أن ينبىء ، بمجرد الشم ، من صحة من يقابل من

الرجال والنساء ، وخلص من هذا إلى أن الجنس البشرى أصابه النقي (١١٥) .
ولذلك كان مفهوم المرأة الجديرة بالحب والإعجاب عنده ينحصر إلى حد ما في :

« أنها لا يخرج من جسمها النقي هبات كريهة الرائحة تنير الاشتزاز ،
لا من خلف ولا من قدام ، ولا من فوق ، ولا من تحت ، ولا يتصبب منها
العرق البغيض (١١٦) » .

أنه يصف « غادة جميلة في طريقها إلى القراش » ، ونفس المرأة
حين تفريق .

« إن من يرى كورينا في الصباح بتقياً ، ومن يشم رائحتها يصاب بالتسمم » .

إن مفهومه عن المرأة الشابة الجميلة مرتبط بحاسة الشم :

« إن أعز رفيقاتها لم يرينها يوماً تجلس القرفصاء لتتبول ، ولك أن تعلم
بأن هذه المخلوقة الملائكية لم تحس يوماً بضرورات الطبيعة ، فإذا مشت
في شوارع المدينة في الصيف لم يلوث ابطاها ثوبها . وفي حلبة الرقص في
القرية أيام القيظ لن يستطيع أنف أن يشم رائحة أصابع قدميها (١١٧) » .

وكان سويغت نفسه نظيفاً إلى حد التزمّت . ومع ذلك فإن كتابات
هذا السكاهن الأنجليكاني تعد من أغش ما كتب في الأدب الانجليزي .
أن تبرمه بالحياة جعله يقذف بأخطائه في وجه زمانه . ولم يبذل أي جهد
في إرضاء الناس ، ولكنه بذل كل الجهد في أن يسيطر ويتحكم ، لأن
السيطرة خففت من شعوره الخفي بعدم الثقة في نفسه . وقال أنه يكره
(أو يرهب) كل من لا يستطيع أن يأمره (١١٨) ، على أن هذا لم يصدق
على حبه هارلي . وكان غضوباً عند الشدة ، متغطرساً فظاً وقت الرخاء
والنجاح . وأحب السلطة أكثر مما أحب المال . وعندما أرسل إليه هارلي
بخمسين جنيهًا أجرًا لمقالاته ، رد الحوالة وطالب بالاعتذار ، وكان له
ما أراد ، فسكتب إلى ستيللا « لقد استرضيت مستر هارلي ثانية (١١٩) » .
وكان يكره الرمميات ويحتقر النفاق . وبداله أن الدنيا تميل إلى قهره ،

وقابل هو المدام بمثله صراحة وكتب إلى الشاعر بوب :

« إن غاية ما أصبو إليه في كل أعمالي أن أزعج العالم وأضايقه ، لأن أسليه ، فإذا استطعت أن أحقق هذا الغرض دون أن ألحق الأذى بشخصي أو بثروتي ، لكنت أعظم كاتب لا بكل ولا يمل رأيته أنت في حياتك .. إذا فكرت في الدنيا فأرجوك أن تجلدها بالسوط بناء على طلي . لقد كنت أبدا أكره الأمم والوظائف والمجتمعات . وكان كل حبي للأفراد ، إنني أكره طائفة رجال القانون ، ولكنني أحب مستشاراً بعينه أو قاضياً بعينه ، وهكذا الحال مع الأطباء . (ولن أتحدث عن صناعتي) ، والجنود ، والانجليز والاسكتلنديين والفرنسيين ، وغيرهم ، ولكنني أساساً أكره وأمقت هذا الحيوان الذي يسمى إنساناً ، ولو أنني من كل قلبي أحب جون ويتر وتوماس وهكذا (١٢٠) . »

عند هذا الحد يبدو أن سويغت أقل الرجال جدارة بالحب ، ولو أن امرأتين أحبته إلى أن فارقتا الحياة . وأقام في هذه السنوات في لندن قريبا من أرملة غنية تدعى فانو مرأي ، وكان لها ابنتان وابنتان ، فإذا لم تتيسر له الدعوة إلى موائد العشاء ، كان يتناول العشاء مع « آل فان » . ووقعت الابنة الكبرى « هستر » في حبه وكانت آنذاك في الرابعة والعشرين (١٧١١) ، وهو في الثالثة والأربعين ، وأفصح له عن حبها . فحاول أن يصرف النظر عن هذا باعتباره مرحاً أو مزاحاً طائراً ، وأوضح لها أنه قد كبرت سنه بحيث لم يمدي يصلح لها . فأجابت ، يحدوها كل الأمل ، بأنها تعلمت منه في كتبه أن تحب عظماء الرجال قرأت (مونتاني في المرحاض) ، فلماذا لا تحب رجلاً عظيماً إذا وجدت ما تلا أمامها ؟ فرق قلبه ولا تفتاته بعض الشيء فنظم قصيدة من أجل عينيها فقط « كادينوس وفايسا » قصيدة تجمع بين المرح واللأساة . وكان « فايسا » اسمه هو عندها أما « كادينوس » فكان تصحيحاً للفظ « ديكائوس » أي الكاهن الكبير .

ذلك أنه في أبريل ١٧١٣ عينته للملكة كارهة رئيساً لكاتدرائية سان باتريك في دبلن . وسافر إلى هناك في يومية ليتسلم العمل ، ورأى ستيللا وكتب إلى فانيسا بأنه كاد يموت كتابة وكنداً وإستياءاً (١٢١) وفي أكتوبر ١٧١٣ عاد إلى لندن وشارك في كارثة حزب المحافظين المفاجئة ١٧١٤ . ومنذ فقد السلطان السيامي بعودة الأحرار الذين كان قدها بهم ، إلى الحكم في ظل الملك جورج الأول ، فإنه قفل راجعاً إلى أيرلنده الكريمة ، وإلى كاتدرائيته . ولم يكن محبوباً في دبلن لأن الأحرار الذين تولوا الآن الحكم كرهوه لثقله الساخر العنيف وخطبه اللاذعة ، كما كرهه المنشقون لإصراره على استبعادهم من الوظائف العامة . وانطلقت من الناس أصوات الاستهجان والإزدراء به في الشوارع ، ورجوه بقاذورات البالوعات (١٢٢) ووصف أحد رجال الدين الأنجليسكاين منظر ردائه في قصيدة ثبتها بالمسامير على باب الكاتدرائية :

« يستقبل هذا المعبود اليوم رئيساً ذامذاهب وشهرة غير عادية استخدمها جميعاً في الصلاة وفي الدنس ، خدمة للرب والشیطان كليهما ... وهو مكان حصل عليه بالدهاء والتصيد وبوسائل أخرى من أعجب الوسائل . وربما أصبح يروى من أسقفنا ، لو أنه آمن بالله (١٢٣) » :

وصمد سويفت للمحنة في شجاعة واستمر يناصر المحافظين ، وعرض أن يشارك هارلي سجنه في برج لندن . وقام بواجباته الدينية ، وألقى المواعظ بانتظام . ومنح الأسرار للقدسة ، وعاش عيشة بسيطة ، وتصدق بثلاث دخله . وفي أيام الأحد فتح أبواب مسكنه للقاصدين ، وجاءت ستيللا لخدمة الضيوف ، وسرعان ما خفت كراهية الناس له ، وبدأوا يقبلون عليه . وفي ١٧٢٤ نشر تحت اسم مستعار « م . ب . درايبية » ست رسائل يندد فيها بمحاولة وليم وود جمع أرباح طائلة من إمداد أيرلنده بمعلقة نحاسية . واستنكر الأيرلنديون هذه المحاولة . وعندما اكتشفوا أن درايبية لم يكن إلا سويفت ، كاد الكاهن المكتئب أن يصبح شعبياً محبوباً تماماً .

وربما استطاع سويغت أن يحظى بلحظات من السعادة لو أنه كان في مقدوره أن يحتفظ بالبحر الأيرلندي بين السيدتين اللتين أحبتاه . ولكن في ١٧١٤ ماتت مسز فانهو مرأى ، وانتقلت ابنها فانيسا إلى أيرلنده لتستغل بعض الممتلكات التي تركها لها والدها في سلبردج ، على بعد أحد عشر ميلا إلى الغرب من العاصمة . ولتكون بالقرب من رئيس الكاندرائية ، استأجرت مسكنا في زقاق تيرنستيل في دبلن ، على مسافة قصيرة من مسكن ستيللا ، وكتبت إلى سويغت ترجوه أن يزورها ، وإلا ماتت كدأ . ولم يستطع أن يقاوم توسلاتها ، وفيما بين ١٧١٤ — ١٧٢٣ تردد عليها خفية مرارا وتكراراً . ولما خفت زيارته لها أصبحت رسائلها إليه أشد حرارة وإلتهايا . وقالت له في إحداها أنها ولدت بهذه « العواطف الجارفة » التي تنتهى كلها إلى شيء واحد : هو حى لك الذى لا يمكن وصفه أو التعبير عنه . وأبلغته أنه قد يكون من العبث أن يحاول تحويل حبا إلى حب الله ، « فلو أنى غيرة متحمسة فستظل أنت المعبود الذى يجب أن أعبد » (١٢٤) .

وربما فسكر سويغت فى الزواح للخروج من هذا المأزق الذى تورط فيه بين المرأتين اللتين أحبتاه ، وربما طالبت ستيللا ، وهى تعلم أن لها منافسة ، بالزواج على أنه عدالة مطلقة وأبلغ دليل على ذلك أنه تزوجها فعلا فى ١٧١٦ (١٢٥) ووضح أنه طلب إليها كتمان أمر زواجه . واستمرت تقيم بعيدا عنه . ويحتمل أنه لم يباشرها قط . واستأنف سويغت زيارته لفانيسا ، لا تمازلا ، ولا وحشاً بهيميا ، بل المفهوم أن قلبه لم يطاوعه على أن يتركها يائسة بلا أمل ، أو أنه خشى أن تقدم على الإبتعاز . وأكدت رسائله لفانيسا أنه أحبها وقدرها فوق كل شيء ، وأنه سيكون لها هذا الحب والتقدير حتى آخر لحظة من حياته . وسارت الأمور على هذا المنوال حتى ١٧٢٣ ، حين كتبت فانيسا إلى ستيللا تسألها فى صراحة تامة عن العلاقة بينها وبين رئيس الكاندرائية . فأخذت ستيللا الخطاب إلى سويغت الذى ركب لفوره

إلى فانيسا ورمى بالخطاب على مائدتها . وروعا بنظراته الغاضبة . وتركها إلى غير رجعة دون أن ينبس ببنت شفة .

وعندما أفاقت فانيسا من غشيتها، تحققت آخر الأمر من أنه كان يخذلها . واجتمعت خيبة الرجا عندها إلى نزعه جامع في إفناء ما بقي لها من أسباب الصحة والحياة ، وقضت نحبها في بحر شهرين من هذا اللقاء الأخير (٢ يونيه ١٧٢٣) وهي في الرابعة والثلاثين . وثارت لنفسها في وصيتها . فألفت وثيقة قديمه كانت قد جعلت فيها سويغت وريثا لها ، ثم أوصت بكل متاعها لروبرت مارشال والفيلسوف جورج بيركلي ، وأمرت أن ينشرا دون تعليق رسائل سويغت إليها ، وقصيدة « كادينوس وفانيسا » . وهرب سويغت في « رحلة إلى الجنوب » في أيرلنده ، ولم يظهر في الكاتدرائية إلا بعد مضي أربعة شهور على وفاة فانيسا .

وعند عودته إنصرف إلى كتابه أشهر وأقصى وجاء وجهه إلى الجنس البشري . وكتب إلى شارلي فورد أنه مشغول بوضع كتاب « يزق العالم ويهزه هزاعنيفا بشكل عجيب » (١٢٦) . وانتهى سويغت منه بعد سنة ، وحمل المخطوط بنفسه إلى لندن ، ورتب أمر نشره تحت اسم مستعار ، ورضى بمائتي جنيه ثمنا له ، ثم قصد إلى دار الشاعر بوب في توبكنهام ليستمتع بالعاصفة المرتقبه . وهكذا استقبلت إنجلترا في أكتوبر ١٧٢٦ « رحلات إلى عدة شعوب بعيدة في العالم » بقلم لمويل جليفر . وكان أول رد فعل عام هو الابتهاج بالواقعية المفصلة في سرد الأحداث . وإعتره كثير من القراء تاريخيا ، ولو أن أسقما أيرلنديا (كما يقول سويغت) ذهب إلى أنه مملوء بأشياء بعيدة الاحتمال : أما معظم القراء فإنهم لم يذهبوا إلى أبعد من الرحلات إلى أرض الأقزام Lilliput وأرض الممالقة Brobdingnag ، وهذا سرد جميل يوضح بطريقة مفيدة النسبية في الحكم على الأشياء أو التمييز بينها ، ولم يزد طول الأقزام عن ست بوصات ، ولذلك نفخوا في جليفر روحا متزايدة من التسامى . وكان الذي يميز بين الأحزاب السياسية لديهم هو

الكموب العالية أو المنخفضة لأحذيتهم . أما الفرق الدينية فهي فريق الذين يؤمنون بكسر البيضة من طرفها الكبير ، وفريق الذين يؤمنون بكسر البيضة من طرفها الصغير . وكان طول العالقة ستين قدما ، وقد هياؤا جليليفر مشهدا آخر جديدا من مشاهد البشرية . وحسبه ملكهم حشرة ، واعتبر أوروبا بيتا للنمل . ومن وصف جليليفر لأساليب الحياة ، خاص للملك إلى أن « كل مواطنكم أخصب جنس من الحشرات الطفيلية الصغيرة البغيضة التي تركتها الطبيعة تزحف على سطح الأرض (١٢٧) » . وكانت صدور غادات العالقة ، وهي صدور ضخمة ، تنفر جليليفر (ويشير الكاتب هنا إلى النسبية في الجمال) .

وتضعف القصة في رحلة جليليفر الثالثة . إنه يشد بالسلاسل والأغلال في دلو إلى « لابوتا » وهي جزيرة ساجحة في الهواء . يقطنها ويحكمها رجال العلم وللقفون والمخترعون والأساتذة والفلاسفة ، فان التفاصيل التي جاءت في أماكن أخرى لتزود القصة باحتمالات كثيرة ، كانت هنا (في للرحلة الثالثة) سخيفة بعض الشيء ، من ذلك أكياس الهواء للصغيرة التي يسدها الخدم آذان وأفواه المنسكركين العميق التفسكير ليفيقوا من شرود الدهن الخطير أثناء تأملاتهم . وأكاديمية لاجادو ، بمخترعاتها وقراراتها الوهمية ، ليست إلا نقدا هزليا لقصة يسكون « قارة الأطلنطس الجديدة » ، وللجمعية للمسكية في لندن . ولم يكن سوفيت يثق في جدوى إصلاح الدول أو حكمها بواسطة رجال العلم ، وكان يسخر من نظرياتهم . وفنائها السريع لها . وتنبا بسقوط كوزمولوجيا نيوتن (آرائه في الكون) « إن الأنظمة الجديدة في الطبيعة ليست إلا أزياء أو أنماط جديدة قد تختلف من عصر إلى عصر ، وحتى هؤلاء الذين يدعون أنهم يوضحونها على أسس رياضية (تعريضا بكتاب للبادي الرياضية ١٩٨٧) لن يكتب لهم النجاح إلا لفترة قصيرة من الزمن (١٢٨) » .

ثم ينتقل جليليفر إلى أرض « اللجناجيين Luggnaggians » الذين

لا يمكن أن يكون على أكابر مجرميهم بالموت بل بالخلود .

« فإذا بلغ هؤلاء المجرمون سن الثمانين وهى السن للمعتبرة نهاية الحياة فى بلدهم ، لا تكون فيهم كل الحماقات والسقام والعلل التى فى سائر المسنين فحسب ، بل أكثر منها بكثير ، مما نشأ من توقعاتهم الرهيبة بأنهم ان يموتوا قط ، ولم يكونوا عنيدين شكسين طامعين فيما فى أيدي غيرهم ، مكتئبين حابسين ثرثارين فحسب ، بل كانوا كذلك غير أهل لاصداقة ، لا يستجيبون لأية عاطفة أو حب طبيعى ، لم يهبط قط عن حضرتهم . وكان الحسد والرغبات العاجزة هى الشعور السائد بينهم ٠٠٠ وإذا رأوا جنازة ولولوا وتذسروا من أن الآخرين ذاهبون إلى دار الراحة التى لا ياءلونها هم أنفسهم فى الوصول إليها ... أبدأ وكان هذا أفزع منظر مخز عمت للشهوات رأيت فى حياتى . وكانت النساء أشد ازعاجا من الرجال ... ومن هذا الذى سمعت ورأيت ، خفت كثيرا شهوتى الحادة فى البقاء على قيد الحياة (١٢١) » .

وفى القسم الرابع نبذ سويغت الهزل والمزاح إلى شجب قوى ساخر للانسانية . فان أرض « الهويمن » يحكمها جياذ نظيفة وسيمة بهيجة ، تنطق بالحكمة وتنحلى بكل مظاهر المدنية ، على حين أن الخدم الحقراء فيها ، وهم « الياهو المتوحشون » ، هم رجال أفذار كريهو الرائحة ، جشعون مخمورون ، غير متعقلين مشوهون . ومن بين هؤلاء المنحالمين المنحططين (هكذا كتب سويغت فى أيام جورج الأول) :

« كان هناك رجل حاكم من « الياهو » (ملك) ، أبشع شكلا وأكثر نزوعا إلى الشر والأذى من الآخرين ٠٠٠ وكان لهذا الزعيم عادة شخص مثله محسوب عليه أثير لديه ، عمله الوحيد هو أن يلبق قدمى سيده ٠٠٠ ويأتى بفناء الياهو إلى حظيرته ، ومن أجل هذا كان يكافأ من حين إلى حين بقطعة من لحم الخمار (علامة على النبالة ؟) ٠٠٠ وكان يبتى عادة فى عمله هذا ، حتى يمكن العثور على من هو أسوأ منه (١٣٠) » .

وبالمقارنة ، فان « الهويمين » ، لأنهم متعلقون ، كانوا سفهاء فضلاء ، ولذلك لم يكونوا في حاجة إلى أطباء أو محامين أو رجال دين أو قواد جيوش ، وصعدت تلك الجياد المهذبة « الماحنة » ببيان جليلفر من الحروب في أوروبا . كما ذهلت أكثر فأكثر لسماعها بالخلافات التي أدت إلى الحروب — « هل يكون الجسد خبزاً أو يكون الخبز جسداً في القربان المقدس ، وهل يكون عصير ثمار معينة دماً أم نبيذاً (١٣١) » ، وكانوا يقطعون جليلفر حين يفاخر بالمدد الكبير عن البشر الذي يمكن نسفه بالآلات العجيبة التي اخترعها قومه .

وعندما يعود جليلفر أدراجه إلى أوروبا ، نراه لا يسكاد يضيق برائحة الشوارع والناس الذين يبدو في نظره الآن أنهم من « الياهو » .

« استقبلتني زوجتي وأسرتني بكثير من الدهشة لأنهم كانوا قد قدروا بماتي . ولكن ينبئني على أن أعترف بصراحة أن منظرهم ملأني بالبغضاء والاستياء والازدراء . . . وما أن دخلت البيت حتى احتضنتني زوجتي بين ذراعيها وقبلتني ، من أجل ذلك رحت في اغماء لما يقرب من ساعة ، لولا أنني معتاد على لمس هذا الحيوان البغيض (الإنسان) لأعوام طويلة . وطيلة السنة الأولى لم أكن أطيق وجود زوجتي وأطفالي معي ، حيث كانت رائحتهم لا تحتمل . . . وأول مال أنفقته كان في شراء جوادين صغيرين احتفظت بهما في أسطبل مناسب . وكان السائس أعز ما عندي بعدهما ، لأن الرائحة التي تنبعث منه في الاسطبل كانت ترد إلى روحي (١٣٢) » .

وفاق نجاح « جليلفر » كل توقعات المؤلف وأحلامه وربما خفف من بغضه للجنس البشري بسبب حاسة الشم . واستمتع القراء باللغة الإنجليزية الواضحة في غير أطناب ، وبالتفاصيل المريضة ، وبالفحش المرح . وتنبأ آربوثنوت للكتاب « رواجاً عظيماً مثل كتاب جون بايان — يقصد كتاب « تقدم الحبيج » . ولا ريب أن سويغت يدين ببعض الفصل لهذا الكتاب ، وبفضل أكبر لكتاب « روبنسن كروزو » ، وربما يشي من ١٩ - قصة الحضارة

الفضل لكتاب سيرانودى برجرارك « التاريخ الهزلى لدوله امبراطورية القمر » . أما الشيء الجديد حقا فهو « الكلبية » أو السخرية الرهيبة فى الأجزاء المتأخرة من الكتاب . وحتى هذه وجدت من يعجب بها ، فأن «وقه مالبورو ، وقد بلغت آنذاك أرذل العمر ، غفرت لسويفت هجماتة على زوجها ، إلى جانب حملاته على الجنس البشرى بأسرة . وصرحت بأن سويفت أتى « بأدق وصف يمكن أن يكتب للملوك والوزراء والأساقفة والمهاكم . وروى جلى أنها « فى نشوة ظامرة من الابتهاج بالكتاب ، ولا يمكن أن تحمل بشيء آخر » (١٣٣) .

وتكدر انتصار سويفت بنشر قصيدة كادينوس وفانيسا ، فان منفذى وصية هستر فانهو صراى أذعنوا لأمرها بنشرها ، ولم يطلبوا من الكاتب ترخيصاً بذلك ، وظهرت فى طبعات مستقلة فى لندن ودبلن وادبره ، وكانت ضربة قاسية للزوجة ستيللا لأنها رأت أن عبارات الحب والهيام التى كانت قد وجهت يوماً إليها ، تكررت لفانيسا ، ولم يمض كبير زمن على اقتضاح هذا الأمر حتى مرضت ، وقصد سويفت إلى ايرلنده لميادتها والتخفيف عنها ، وتحسنت صحتها ، وطاده هو إلى انجلترا (١٧٢٧) ، وصرطان ما ترامت إليه الأبناء بأنها محتضر ، فأرسل تعليقات عاجله إلى مساعديه فى الكاتدرائية بأن ستيللا يجب ألا تلفظ أنفاسها الأخيرة فى مقر رئاسة الكاتدرائية (١٣٤) ، وعاد ادراجيه إلى دبلن ، ومرة أخرى أبلت ستيللا بعض الشيء ، ولكنها فارقت الحياة فى ٢٨ يناير ١٧٢٨ ، وهى فى السابعة بعد الأربعين ، وانهارت قوى سويفت ، واشتد عليه المرض فلم يستطع تشييع الجنازة .

وبمدها أقام فى دبلن « مثل فأر مسموم فى جحر (١٣٥) » (كما كتب إلى بولنجبروك) . وكان يقوم بأعمال البر والصدقات ، وأجرى راتيا على ممر دنجل ، ومد يد الموق إلى ريتشارد شريدان فى محنة شبابه ، وكان فى ظاهره رجلاً قاسياً ، ولكنه تأثر تأثراً بالنا لفقر الشعب الايرلندى ، وصنع لكثرة عدد للتسولين من الأطفال فى شوارع دبلن ، وفى ١٧٢٩

أصدر أشد مقالاته التهمكية الساخرة ضراوة ولطفاً تحت عنوان « اقتراح متواضع لمنع أطفال الفقراء من أن يكونوا عالة على آبائهم وعلى البلد » :

« لقد تأكد لدى كل التأكد ٠٠٠٠ أن الطفل الصغير الصحيح الجسم الذى بلغ من العمر سنة ، يصلح لأن يكون طعاماً شهياً مغذياً صحياً ، إلى أبعد حد ، مطهواً بالغلى البطيء أو مشوياً أو محمصاً أو مسلوقاً ، كما يصلح بالمثل لأن يكون « مفروماً محمراً ، أو يخنة كثيرة التوابل . ومن ثم فاني بكل تواضع ، أعرض على الرأى العام ، أنه من بين المائة والعشرين ألف طفل للوجودين الآن ، يمكن الاحتفاظ بعشرين ألفاً فقط لقرابتهم وتنشئتهم ، على أن يكون ربعهم من الذكور ، أما المائة ألف طفل الباقون فيمكن عرضهم للبيع إلى ذوى الكفاية والثراء فى طول المملكة وعرضها ، مع نصيحتى دوماً إلى الأمهات بالإكثار من ارضاعهم فى الشهر الأخير ، حتى تمتلئ أجسامهم ويكونوا مماثلاً زدان بهم للواحد الفخمة ، إن الطفل الواحد يمكن أن يكون طعام يقدم للأصدقاء ، أما إذا كانت الأميرة تتناول غذاءها وحدها فإن الربع الأماهى أو الخلفى من الذبيحة يكون طبقاً كافياً ، وإذا تبل ببعض الفلفل أو للملح لكان طيب للذواق ٠٠٠ »

أما الذين هم أكثر تدبيراً واقتصاداً فيمكنهم أن يسلخوا الجثة ، ويحالجوا جلدها بطريقة خاصة ليصنعوا منه قفازات لطيفة للسيدات ، وأحذية صيفية للرجال الأيقين ٠٠٠٠

إن بعض الذين جزعوا لهذه الظاهرة اهتموا اهتماماً كبيراً بهذا العدد الضخم من السنين أو للرضى أو للقمدين وللشوهين ، ورضبوا إلى أن أعمال التفكير فى الوسائل التى يمكن أن تتخذ لتخليص الأمة من هذا العبء الثقيل المحزن ، ولكنى لا أتألم كثيراً لهذه المسألة لأن المعروف جيداً أنهم يموتون وتبلى أجسامهم فى كل يوم من البرد والجوع والقذارة والموام ، بالسرعة للتوقمة بداهة . .

وأظن أن مزايى الاقتراح الذى عرضته واضحة متعددة ٠٠٠

وأولى للزاياء ، أن هذا يخلصنا إلى حد كبير من عدد البابويين (اليسوعيين) الذين يجتاحوننا كل عام ، لأنهم للربون الأساسيون للأمم ، قدر مام ألد أعدائنا وأخطرهم ٠٠٠ وثالثها أنه من حيث أن تربية مائة ألف طفل من سن الثانية فما فوق ، لا يمكن أن يتكاف الواحد أقل من عشر شلنات في العام ، فهذا الاقتراح سيتوفر الأمة خمسون ألف جنيه سنوياً ، هذا بالإضافة إلى فائدة اللون الجديد من الطعام الذي يقدم إلى موائد ذوي الثراء والوجاهة ٠٠٠٠ الذين يتعلمون باللذوق الرفيع » ٠٠

إن نتاج يراع سويفت ، ذلك النتاج الغريب ، والثائر أحياناً ، وبخاصة بعد وفاة ستيللا ، يوحى بأنه قد أصابه مس من الجنون ، « إن شخصاً من ذوي المسكاة في إيرلنده (كان يسره أن ينحني كثيراً ليدقق النظر في عتلى) اعتاد أن يقول له أن عتلى مثل روح مسحورة ، قد يؤذى ويسىء إذا لم أشغله بشئ » (١٣٦) .

وتساءل أحد الأصدقاء : إن مبغض البشرية الكئيب هذا ، والذي تركته الأخطاء الصارخة في بيت من زجاج ، بينما هو يسلق البشرية بألسنة حداد من الهجاء ، ألا يغنى فساد الناس ومساوئهم جسدك ويستنزف روحك ؟ « « إن غضبه على العالم كان امتداداً لغضبه على نفسه ، فقد أدرك أنه على الرغم من عبقريته ، معتل الجسم مريض النفس ، ولم يكن يغتفر للحياة حرمانه من الصحة والأعضاء السليمة وهدوء البال ، والتقدم الذي يتناسب مع قوة عقله .

وكان آخر مظهر لقسوة الحياة على سويفت ، هو اختلال قواه العقلية يوماً بعد يوم . وازدادت بخله وجشعه ، حتى وسط أصدقائه وقيامه بأعمال البر . فكان يضمن بالطعام على ضيوفه ، وبالنبيلد على أصدقائه (١٣٧) . وازدادت نوبات الدوار عنده سوءاً ، فما كان يدري في أية لحظة منحوسة ينتابه هذا الدوار ليجمعه يترجح ويتلوى من الألم في هيكله أو في الشارع .

وكان قد رفض أن يضع النظارات على عينيه فضعف بصره وترك القراءة . ومات بعض أصدقائه ، ونأى بعضهم بنفسه عنه ، اجتناباً لحسنة طبعه واكتسابه ، وكتب إلى بولنجبروك : « كثيراً ما فكرت في الموت ، ولكنه الآن لا يغيب عن ذهني أبداً (١٢٩) » وبدأ يتلهف عليه . واحتفل بيوم ميلاده يوم حداد وحزن . وقال « ليس هناك رجل عاقل يرغب في استعادة شبابه (١٤٠) » . وفي أعوامه الأخيرة كان يودع زأريه دوماً بقوله « سمعتم مساء ، أرجو ألا أراكم ثانية (١٤١) » .

وظهرت أعراض الجنون التام عليه في ١٧٣٨ . وفي ١٧٤١ عين بعض الأوصياء ليتولوا شؤونه ، ويراقبوه حتى لا يلحق بنفسه أى أذى في نوبة من نوبات العنف والجنون التي تصيبه . وفي ١٧٤٢ عانى ألماً شديداً من التهاب في عينه اليسرى التي تورمت حتى صارت في حجم البيضة . وأحاط به خمسة من الأتباع ليحولوا يده وبين قف عينه يده . وقضى عاماً لا ينطق ببنت شفة . وأذنت محنته بالإنهاء في ١٩ أكتوبر ١٧٤٥ ، وقد بلغ الثامنة بعد السبعين . وأوصى بكل ثروته البالغة اثني عشر ألف جنيه لبناء مستشفى للأمراض العقلية . وورى القراب في كاتدرائيته ، ونقش على ضريحه عبارة اختارها بنفسه :

« حيث لا يعود السخط المرير يمزق قلبي » .